

الدكتور مؤيد كلاله

مسيرة الطالب  
في الحضارات القديمة

تقديم: الدكتور الزمخشري





رَيْع الدَّار  
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

دمشق أونوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ - برقياً طلاسدار



هاتف : ٦٦١٨٩٦١-٦٦١٨٠١٣ تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ تلکس : ٤١٢٠٥٠

مكتبة المهتدين الإسلامية



مسيرة الطالب  
في المحاضرات القديمة

<http://www.al-maktabeh.com>





جميع الحقوق محفوظة لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٥

مكتبة المفتدين الإسلامية

الدكتور مؤيد كلاله

# مسيرة الطالب في الحضارات القديمة

تقديم: الدكتور أحمد الزمخشري

---

مسيرة الطب في الحضارات القديمة / جوزيف كلاس؛ تقديم شاكر مصطفى. — دمشق: دار  
طلاس، ١٩٩٥. — ٣٧٢ ص؛ ٢٤ سم.

١- ٦١٠ ر. ك ل ا م ٢- العنوان ٣- كلاس  
مكتبة الأسد

---

رقم الإيداع ١٩٩٥/٨/١٢٣٨ رقم الإصدار ٦٧٦

---

رقم: ٢٥٧٦٨  
تاريخ: ١٩٩٥/٦/١١

---

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

---

لہجہٴ دلی

۱۲۱

انجیۃ فرید

حبّاً و فناءً و عزّاً



## بقلم الدكتور شاكر مصطفى

أخي الحبيب الدكتور جوزيف كلاس يأبى عليه نبلة إلا أن يسبق قلبي قلمه ، ولو بكلمة . مع أنه لا ناقة لي ولا جمل في المعرفة الطبية . وهو بحر من بحارها ، مثقل بالأشعة والآفاق . ويأبى إلي هذا إلا أن أرافقه في رحلة لا ، ي إلى بلد تعزف الجن في قممه ، ولا إلى فردوس أرضي تطوف فيه الحور وبحار النور والديجور . ولكنها رحلة تخترق تاريخ الإنسانية كله ، منذ وقف الإنسان على قدميه إلى أن تنور العصر الحديث . لقد كنت أزعم له أنني متعب . والرحلة طويلة شاقة . ومدى ما أعلم من أمرها لا يجاوز الألف باء ولعله دون الألف باء . ولكني ، بدافع من الفضول كثير ، قبلت . لا لأن الموضوع شيق فحسب . ولكن لأن صاحبه جعله بثقافته الواسعة أكثر إثارة وألواناً . ومن ذا الذي يدعى لمرافقته في مثل هذه الرحلة عبر التاريخ الإنساني جميعاً ويتردد ؟ .

والإنسان هو النواس الفيزيولوجي — الحيوي العجيب ، ينوس دوماً بين قطبي الصحة والمرض . تزدهيه الصحة فهو جبار الموج ومارد الصخر والعاصفة . ويخترقه جرثوم لا يرى إلا من خلال المجهر الإلكتروني فإذا هو أنين وذبول ، وشلو مشلوح كعصف مأكول . وتاريخ الإنسان يمكن من زاوية من الروايات أن يتلخص في كلمتين فهو تاريخ الصراع بين الصحة والمرض . أليس لهذا كان السؤال الدائم بين اثنين يلتقيان : كيف الصحة ، أيش لونك ؟ .

ونحن نكتب في العادة التاريخ المشرق للأصحاء . أما تاريخ المرضى . أما بقية الوجوه الذابلة الصفراء . والألم يفتت الصدر أيا من منتهاه ؟ والسل ينخر الرئة كالمصفاة . والحصاة

الممزقة للمرارة . والحمى النافضة كذيل الأرقم . والتورم يختطف الصبر والعمر : أما هذا كله وأمثاله فتجاوزه . نلقي عليه الأستار . كأننا نريد الهرب منه بعدم ذكره . وهو وراءنا . كالظل الأسود يخطفنا عند كل منعطف ، ويوقعنا في كل آن . ولات حين مناص . والصحة معادلات في الجسد متكافئة . إنها توازنات دقيقة الأحكام في الكائن الحي متى اختلت ووقع الأثم فهات أن ترجع . لا ترجع إلا بسلطان . وبدواء وحماية ومراقبة وصبر يضح منه الصبر ....

وأخي الدكتور اختار لحسن الحظ الكتابة في تاريخ المرض . ولكن من وجهة النظر السلبية . من جانب دفعه والنجاة منه . اختار أن يتحدث عن تاريخ الطب ، أي عن كيفية رفض الإنسان للمرض ، عن هربه منه ، عن قصة الخلاص من الآلام التي رافقت الإنسان منذ درج . وله في دفعها شؤون وشجون ووسائل تملأ عشرات المجلدات . والحديث في الأمرين : المرض والطب واحد . ولكنه أشبه بأن يقول المتفائل إن هذه الكأس ملأى إلى نصفها ، في حين يقول المتشائم إنها فارغة إلى النصف . ولقد اختار أخي الدكتور جانب التفاؤل ، جانب الإيمان بأن الإنسان رغم تخطاته عشرات ألوف السنين في الماضي ، فإنه لا بد منتصر ذات يوم بعقله وعلمه وقدراته التي منحها له الله .

وتنظر أنى شئت من صفحات هذا الكتاب فإذا الصراع مع المرض هو هم الإنسان . يحتال عليه بألف حيلة ووسيلة . فمن الرقى والتعاويد والدعاء إلى ترضي الأرواح بالأضاحي والدماء إلى المداواة الحديثة بالحبوب والإبر والأشعة مشوار طويل قطعهه الإنسانية وما تزال تخبط في تبهه ! وإنما لتخبط أحياناً كثيرة خبط عشواء . وما أكثر ما يكون الطبيب فيها كحاطب ليل . مغامر في مجاهل معقدة ، خفية الرأس والذنب . يتحسس فيها طريقه كالعميان باللمس والوهم .

ودفع المرض غريزة في الكائن الحي . إنها نفسها غريزة حب البقاء ، ولو سماها بعضهم غريزة الشفاء . وليس من شك في أن هذه المهنة كانت ، بعد مهنة جمع الطعام ، أقدم المهن وأكثرها مجازفة وقلة جدوى . فقد سطا عليها الكهنة والسحرة فهي غارقة في الطقوس العبثية إلى الأذقان . ولقد تلمس جدواها بالسحت والتجربة ، وتتبعوها خطوة خطوة ودواءً زائفاً بعد دواء . ومن خلال الأرواح الشريرة وطقوس السحر والانغماس في الوحل والماء الحار وإحراق الجلود بالحديد المحمي وتصديق المجربين وإن كذبوا وتقبل أيدي

• تقديم

الكهان — الأطباء . واحتمال مضض الجروح والكسور العتية وأكل العشب أنواعاً وأشواكاً وطعماً مريراً وسماً أحياناً كثيرة . والإدّهان بالمرهم والزيت .... من خلال كل ذلك حاول البشر أن يهتدي إلى طريق صحيح يدل عليه من بعده ! .... أفجع المآسي المرضية قاساها الإنسان في حياته البدائية الأولى التي امتدت وامتدت طويلاً عشرات بل مئات ألوف السنين . كان قد عرف بوضوح أعداءه من الأنياب والأظافر الحيوانية وصارعها وصرعها . أما المرض فكان العدو الخفي . يحار من أين يأتيه . هذه القوة غير المرئية التي ترميه أرضاً وقد تميته كانت رهيبته ولغزه المحير ...

ألست معي في أنها لا تزال كذلك ؟ .

وخلال هذا الدهر الأطول الذي تجره الإنسانية وراءها عرف الإنسان أخيراً أن المرض كالصحة كلاهما عارضان متناويان في حياة هذا الجسم الإنساني الذي استعرناه مؤقتاً من التراب لنقضي به السنوات التي كتبت لنا على هذه الأرض . وكانت مهنة الطب هي جوابنا على المرض !

ومن الغريب أن الإنسان جرب في هذه المهنة كل شيء . استخدم الحيوان والنبات والتراب فيها وكوى نفسه بالنار . ولكن سر المرض لم ينكشف له ، ووصل الأمر حتى لدى البدائيين إلى ثقب الجماجم لمعرفة مكامن الأوجاع . فبقاياها ما تزال حتى اليوم تحتفظ بثقوبها دليلاً ، لا على البراعة في الطب ولكن على حيرة كهان الطب الأول في قوى الأمراض ، وما يمكن أن يفعلوا للخلاص منها . وبخاصة في ليالي الكهوف المظلمة حين تشب النار — إن شئت — لترقص في أبعاد الكهف عشرات الأشباح والصور في حين يتلبس الكهنة الأطباء أو السحرة جلود الحيوانات ورؤوسها المرعبة لتقديم الأضاحي ! .. فيما يعلو الأنين وتضج الأوجاع . ولقد نجلس اليوم إلى التلفاز ونضحك (أو على الأقل نستطرف) وقفة « الشامان » ، الطبيب الساحر ، وتنكره بالجلود والقرون والأدّهان ، ورقصه الموزون حول البدائي المريض . وتهليل رجال القبيلة للطقوس الدينية التي يقوم بها ، وللأرواح التي يخاطبها ، وللدماء التي يتتضع . أو للغيوبة التي يصير إليها . فهل يخطر في بالنا أن هذا الشامان هو جد الطبيب والجراح والكحال والأساة من مختلف الاختصاصات الذين ندين لهم اليوم — كأجدادنا البدائيين — بالاحترام ؟ ونزدحم في عياداتهم طلباً للدواء والشفاء ؟ ونلبي أوامرهم كأنها أوامر قدسية ؟



ولعلي أستطيع أن أقول — ولو أغضب هذا القول بعض الأطباء — إن الطب ما يزال يحبو ويجرب رغم كل ما قدم وتقدم . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . إن الإنسان ، في مجال الطب ، ما يزال عند أبواب الهيكل ، والمعبد واسع جداً ، وقدس الأقداس بعيد بعيد . وسيظل هذا الإنسان طويلاً يجرب ثم يجرب ليكتشف أسرار هذه التوازنات الحيوية — الفيزيولوجية ، التي تختلف في الوقت نفسه من شخص إلى آخر . والتي تقيمه صحيحاً على ساقيه وتجعل للماء في فمه طعم الماء الزلال !

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزلالاً !

وأوغل إن شئت من هذا الكتاب حيث شئت ، فإنك واقع منه على طرائف ندر أن جمعت في تاريخ التطبيب والشفاء . هل قلت طرائف ؟ أستغفر القارئ الكريم ، بل هي قصة محاولتنا المجهولة أو المنسية نحن بني البشر للوصول إلى الصحة الدائمة . كل الأمم ، أشدها بدائية أو أكثرها تقدماً أسهمت في هذا التراث الطبي للإنسان . وأخذ بعضها عن بعض . لعل ولعل ...

تقرأ تاريخ الفراعنة مع الطب فتجد عجباً يثير الدهشة . دع عنك أسرار التحنيط والمومياء التي ما تزال تحتفظ بعد ثلاثة وأربعة وخمسة آلاف سنة بجلودها وهياكلها العظمية ، مما يجعلها شهادة عالمية لعلم الطب المصري القديم . وتذكر أن محاولات التخلص من المرض قد رفعها الفراعنة إلى مرتبة الآلهة . أحوتب باني الهرم هو إله الشفاء . كانوا باسمه يعالجون المرضى . البردية التي كتبها صارت إنجيل كل طبيب في وادي النيل . أما سجلات الكهنة للمرضى فكانت « الكتاب المقدس » . أليست تنسب إلى إله الحكمة تحوت ؟ والوصفة الطبية التي يناولها الطبيب الفرعوني إلى مريضه تحمل شعار التضرع إلى الإله حورس برسم عينه في الوصفة فما تزال هي نفسها إلى اليوم . وهناك ( إيزيس ) إلهة الطب ، و( سحت ) إلهة الجراحة ، و( نيت ) إلهة التناسل تستنزل بركاتها عند كل نازلة . ولا تسلم عن البرديات الطبية أقدم وثائق في الطب عرفها التاريخ وفيها أول كتب الجراحة ، وأول المخطوطات التي تصف الأدوية والأمراض أو عضه الأفعى أو حمى النفاس ، أو علاج الأسنان أو المداواة بالكوي أو طب العيون . أو تلك التي تصف العقاقير وتحضيرها . أو تتحدث عن التشريح وأدواته . وعن التخدير أو الختان . أو تبين لكل مختص طرق العمل في طبه واختصاصه ووسائله . حتى الطب الشرعي كانت له بردياته . فهل ترك الأول للآخر

تقديم •

شيئاً؟ بدأوا رؤوس كل المواضيع وتركوا لمن بعدهم أن يضع عليها وحولها التحليل والتعليل وألوان الدواء، حسب العصور .

وتقرأ إن شئت تاريخ الصين مع الطب لتجد نهجاً آخر في دفع الأوجاع، وتفادي الأمراض . الأباطرة هناك هم في عرف الصينيين، المؤسسون الكبار لعلم الطب . الإمبراطور « شن — تونغ » ( من القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ) هو المؤسس الأول وإليه يعزى « كتاب الحشائش العظيم » « بنت ساو » . والإمبراطور « هوانغ — تي » هو واضع كتاب « هوانغ — ذي — تي جينغ » أي كتاب القانون في الطب . وذلك في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد . وهو أقدم كتاب صيني يشرح وظائف الأعضاء وأسباب اضطرابها ويُشخص الأمراض . ويشرح وحدة الضدين ( ين ) و ( تانغ ) الموجب والسالب . وتوازنها في الجسم . وقبل الميلاد بحوالي خمسمائة سنة ظهرت المعالجة بوخز الإبر وظهر كتاب فيها . وتوالت الكتب بعده حول حمى الملاريا، وحميات الغذاء . وحول الجراحة وضرابات القلب وأمراض النساء . وفي أواسط القرن الثامن عشر صدرت في الصين أول موسوعة طبية في أربعين مجلداً جمعت كل منجزات الطب الصيني . وقبلها بمائة سنة صدر أول وأكبر كتاب في العالم حول الأعشاب باسم منهاج الأعشاب الطبية . مامن أمة انتفعت واستثمرت الأرض حتى في الطعام العادي كأهل الصين !

وقد يشوقك أن تعلم أن أول دستور للأدوية إنما وضعه السومريون في العراق قبل أكثر من أربعة آلاف سنة . طبيب سومري وضع حوالي ٢٠٠٠ سنة ق . م . أول كتاب موجز في الطب عرفه الإنسان ، لم يذكر فيه أي شيطان ، أو روح ، أو تعويذة سحر . لم يذكر إلا الأدوية من الآس والحنثيت والزعر والصفصاف والشوح والتين والنخيل ... وقد عرف السومريون المنومات . وكان لديهم أكثر من ٢٥٠ نباتاً طبيّاً استخدموها لمعالجة التشنجات والسعال والربو القصبي كما استعملوا نبات البلادونا ( السيدة الحسنة ) والكافور والقمب الهندي . كتبوها في ألواحهم الطينية لمعالجة الأرق والروماتيزم . وعرفوا تركيب المراهم وتحضير المقطرات والشراب وكانت معالجة الأمراض تتم لديهم من قبل شخصين أولهما هو الكاشف « أسيوا » . والثاني هو المعالج « الآسي » . ولعل هذه الكلمة أساس الكلمة العربية : الآسي .

وتتابع قصة الطب في الكتاب لتجد الإنسان فيه أشبه بهرقل أمام أفعوانه ذي

الرؤوس السبعة كلما قطع منه رأساً نبتت له في مكانها سبعة رؤوس . ويتوالى عليك الغريب من صور التخمين والظنون لدى الأمم في أسباب المرض، كما يتوالى عليك الأغرب من الطرق والوسائل في أساليب المعالجة، والأطرف من احتكار مهنة التطبيب بين الكهنة والسحرة والجراحين بل التجارين أيضاً !

في الهند حين اكتشف البريطاني «جون مارشال»، مدينة موهنجودارو سنة ١٩٢٤ ولعلها أقدم مدن الأرض (٤ آلاف سنة ق. م)، وجدوا أن الهنود على جانب متقدم من معرفة الطب والعقار. يعرفون خصائص الأريطة العضلية، والصفائر العصبية، والأنسجة الشحمية، والجهاز اللمفاوي، والأوعية الدموية، والأغشية المفصليّة، ووظائف العصارات المعدية في الهضم من كيموس وتيموس وتحول الكيلوس إلى دم، وأن نطفة الأب تحوي كل الكائن العضوي. على أن كتاب أثارفايدا (المعرفة السحرية) الذي جُمع حوالي ٢٠٠٠ سنة ق. م. يكشف مدى ربط الطب لدى الهنود بالآلهة والتعاويذ وتهذبة الشياطين ويضروب العرافة والسحر أيضاً. هذا بجانب الأعشاب الطبية التي كانت لديهم تزيد على ألف نوع وبجانب معرفتهم بالمناعة. وسوسروتارأس أطباء الهند القدامى وصف قبل ٥٠٠ سنة ق. م. عدداً من العمليات الجراحية في العين والمثانة والعملية القيصرية ووصف ١١٢٠ مرضاً منها الملاريا والسكري والجذري والطاعون. وكتاب سوسروتا عرفه العرب وترجموه. وقد أورد ابن أبي أصيبعة أسماء عدد من أطباء الهند وروى قصة طريفة عن ابن بهله الهندي.

وليست صورة الطب البابلي أقل إثارة. فقد ورثت بابل طب سومر في سلسلة موصولة. الطب في بابل سرّ ديني. الطبيب هو الكاهن. وكان للنجوم في اعتقادهم أثرها في الأمراض والشفاء. ونقش حمورابي يعبر عن تقدم في الطب، وتنظيم لمهنته من خلال الأجور. ومسؤولية الطبيب إن أخطأ تصل حتى قطع اليد. ولم تكن الرقي والتعاويذ غائبة، ولكن العقار كان خليطاً عجيباً، وقد يحوي لحم الثعابين، ونشارة الخشب، والنبذ، والزيت، ومسحوق العظام، والطعام الفاسد، والأقذار، وروث الحيوان! ذلك أنهم بذلك يكرهون «الشيطان» على الخروج من الجسم! أما مصدر الطب والمرض فهو الإله «ايا» والطبيب «الآسو»، رمز عمله عصا معوجة تلتف عليها حيتان فالحية رمز الحياة تجدد جلدها كل سنة. ولا نزال نستخدم هذا الرمز إلى اليوم. والنصوص الطبية التي وجدت على

• تقديم

الألواح هي أشبه بالقوانين والمواد القانونية تبدأ بكلمة: «إذا كان» إذا كان كذا، فالمصاب يشفى وإذا كان كذا، فالمرضى ميت وإذا كانت إليته باردة فهو كذا وإذا طرف بعينه سيعيش مع الألم... وقد عالج البابليون السعال وأمراض الأذن، والعيون، وعرفوا عدوى الجذام، ونقل الحشرات للمرض والتشريح. وكانت أدويتهم تؤخذ من النبات، والحيوان والمعادن، وبعض المركبات والخلائط الأخرى. وابتكروا كثيراً من أدوات الجراحة. وكانوا أحياناً يعرضون المريض في ساحة البلد حتى إذا كان لدى بعض المارة شيء يقوله عن مرضه ذكره.

وجاء الآشوريون فوثروا هذا التراث الطبي كله وزادوا عليه. وقد كشفت مكتبة نينوى عن ٣٠ ألف لوح من الفخار، منها ٨٠٠ خاصة بالطب. مفهومة. وعلى كل لوح ذكر موضوعه. صنفها فيما يظهر آشور بانيبال أواخر القرن السابع قبل الميلاد. أما الفرس فكانت طهارة الجسد لديهم تعدل طهارة الروح على أن دراسة الطب كانت حكراً على الأغنياء، ويعتقدون أن ثم ٩٩٩٩ مرضاً خلقها الشيطان لبؤس البشر وينبغي أن تعالج بالسكر والرقى خاصة. أما كلمة العقار Drug وقد أخذت عن الفارسية فمعناها الشيطان! وكانت لديهم مع ذلك معرفة بتحضير واستخدام العقاقير والأعشاب الطبية، وكانوا يقرنون للمصريين والإغريق بالتقدم في الطب ويستقدمون الأطباء من البلدين للوكلهم. وقد أنشأوا مدرسة جند يسابور للأطباء الإغريق المطرودين. وترجموا عنهم. وفي العربية مئات المصطلحات الطبية المأخوذة عن الفارسية.

فإذا وصلنا إلى الطب الإغريقي، وصلنا إلى نقلة نوعية هامة سبقت الميلاد بحوالي ثمانية إلى عشرة قرون. واستمرت ما بين أثينة إلى الإسكندرية حتى ما بعد الميلاد بقرون. وعلى الرغم من أن الإغريق يعزون الطب إلى «اسكولابوس» ابن الإله «أبولو»، حسب الأساطير، وقد صنعوا له مئات التماثيل تقريباً وتملقاً ويده عصا معوجة تلتف عليها حية «رمز الحياة». ورمز الحكمة أيضاً، وجعلوا له أسرة منها البنات والبنون، يقوم كل منهم بدوره الطبي، ونصبوا له المعابد في بلاد اليونان بوصفها معابد للشفاء، وتقديم الأضاحي، إلا أنهم لم يميلوا التفكير في العقار والدواء. وقبل أن يظهر فيهم «أبقراط» أبو الطب، كانت الحضارات الأخرى، وكان الفلاسفة والفنانون الإغريق يسهمون في تكوين المعارف الطبية الإغريقية القائمة على العقل والمنطق. كما كانت نظرية العناصر الأربعة المكونة للحياة سائدة

مع أمبيدو كليس الذي ألقى نفسه من فوهة بركان اتنا إثباتاً لذلك بعد أن نظم قصيدة تقول: كل شيء عائد إلى أصله.

أجسادنا إلى التراب      ودماؤنا إلى الماء  
وحرارتنا إلى النار      وأنفاسنا إلى الهواء

كما أتى أبو الطب اليوناني الحقيقي «ألقميون»، الذي كشف العصب البصري، وشرّح الحيوانات وقرر أن الدماغ، عضو التفكير. وأخيراً أتى «أبقراط» الذي فعل ما فعله «سقراط» في الفلسفة، إذ أنزل الطب من السماء إلى الأرض. تنقل أولاً بين مدن البلقان. ثم سكن سورية وأقام في حمص ثم في دمشق. وكان له بستان في غوطتها عند النرب.. وكان يعتمد في طبه على تنظيم الغذاء والرياضة البدنية. وهو أول مؤسس لمدرسة طبية نظامية. ويداوي كل عليل بدواء أرضه. وله كتب كثيرة بعضها منحول عليه وله محاضرات وتقارير وبحوث وملاحظات سريرية منها ١٢ سجلاً سريراً. وصف فيها حالات الخناق ومرض الصرع والزهرى وأمراض القلب. وكان يُعنى أشد العناية بمرضاه، وقرر رفض دعوة من ملك الفرس مفضلاً تطبيق قومه. وركز على ضرورة تحلي الأطباء بالأخلاق، ووضع قسماً ما يزال إلى اليوم قسم الأطباء. وفي كتاب الفهرست لابن النديم جملة صالحة من كتبه تدل على مكانته كطبيب سبق زمانه بكثير. لأنه أسس الطب على العقل والمنطق، وأرسى قواعد التشخيص السريري، وأوجد «البيمارستان»، وقرر وجود الوراثة المرضية، وأعطى الطب مثله الأخلاقية العليا.

وصورة الطب الروماني تكاد تكون نسخة عن الطب الإغريقي. لقد سيطر الرومان سياسياً على الإغريق، منذ القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن هؤلاء سيطروا عليهم ثقافياً. وحين أعيت أمراض المعدة الإمبراطور الروماني، «ماركوس أوريليوس»، لم يجد إلا أن يستدعي الطبيب «جالينوس» من أثينة. وكان أشهر أطباء زمانه. طاف سواحل الشام والإسكندرية وقبرص قبل أن يستقر في روما لدى الإمبراطور، وعلى الرغم من أخطائه في التشخيصات الطبية، ومن وجود الكثير من الخرافة في كتبه، فإن دقة ملاحظته، وحسن فهمه، والتأني في دراسته، جعلته ذا منهج شبه علمي ونظر نافذ ذكي. وقد كشف وظيفة الكلى في التبول، وبحث في الحبال الصوتية. لكن الطب لدى عامة الرومان كان في حالة محزنة، وكانوا يعتمدون في شفاء الأمراض على الآلهة. وقد انتشر الطاعون مرات عديدة

## • تقديم

فيهم. كما فتكت الملاريا بأهل روما مرات بسبب انتشار المستنقعات حولها. وكان الأطباء من الحلاقين، والحذائين، والنجارين والسحرة. وقد ذهب الطاعون في القرن الثاني بين سنتي ١٨٣ — ١٦٤ ق.م. بعُشر الحاميات العسكرية والسكان. كانت البثور السوداء تظهر على الجسم مع سعال مبحوح ونفس نتن، وكان عدد الموتي اليومي يزيد على ألفين في روما وحدها. وتحسن الحال بعد أن فتح في عهد «فسباسيان» مدارس للطب بإشراف الدولة. وتقدمت الجراحة بسبب الحروب، وصدرت لدى الرومان أواسط القرن الأول للميلاد، دائرة معارف تحوي شيئاً كثيراً عن الطب استمد معظمه من الأطباء اليونان الذين هاجروا بكثرة إلى روما.

على أن الطب الروماني انتكس بخاصة بعد انهيار الإمبراطورية. وبعد أطباء العصر اليوناني الهلينستي الأوائل، أمثال ديسقوريدس، وجالينوس، وإيرانوستين لم يظهر من يفوقهم أو يوازهم وكانت جهود الحضارة الهلينيستية في الإسكندرية، أضعف من أن تنتشر بشكل واسع. وجاءت الكنيسة بشعار أن المرض عقوبة إلهية، ولعنة من السماء، وأنه ناجم عن دخول الشيطان في الجسم، فيجب إخراجه بأي وسيلة. ولم تعددت الوسائل. فالجانين يعذبون. والجرحى تقطع أعضاؤهم وذوو الأوجاع تكشف رؤوسهم عن عظامها. وسيطر الرهبان والأديرة على المداواة وبيع العقار. وكانت المداواة الدينية تجارة رابحة، وحرمت الجراحة الباطنية... إلى أن ظهرت بوادر التنوير في الغرب بتأسيس معهد «ساليرنو» في إيطاليا بعيداً عن الكنيسة. ووضع قانون لأخلاق المهنة.

ولكن ذلك كان شعبة في الظلام، لأن الناس في سبيل الخلاص من المرض، وبخاصة أيام الوباء الأعظم (أواسط القرن ١٤)، وصلوا إلى دفعه بالرقص الجنوني، وبضرب أجسادهم بالسياط حتى تسيل الدماء لعل الشيطان يخرج من الجسد. ومع ذلك فقد ذهب الطاعون بنصف سكان أوربة. وكانوا يعلمون بوجود طب متقدم ناجح في البلاد العربية الإسلامية، ولكنهم يهربونها رهبتهم للشيطان أو أكثر. وقد ذكر الشاعر «تشوسر»، أسماء ستة من أطباء العرب: (الرازي، ابن سينا، الدمشقي، ابن رشد، وسيرابيون، وعلي بن العباس)، بوصفهم أطباء عالميين.

ثم نمت مدرسة «ساليرنو» وتفرعت. وظهر مثلها في «مونييليه» وغيرها رغم غارات البرابرة المدمرة لكل تقدم.

مقابل هذه الصورة المظلمة للعصور الوسطى الأوربية تقوم صورة الطب العربي المشرقة. والكتاب يعرض لها لا بالتحيز والتزمت، ولكن بالتحليل. فانهيار أوربة أمام البرابرة أخرج العلم إلى دائرة النسيان، وإلى الأديرة. وساد القول: إن الحياة لا تحتاج إلى العلماء، فالله يتكفل بكل شيء.

في المشرق فقط بقيت لغتان حيّتان هما الإغريقية للمناطق التي كانت بيزنطية. والسريانية للشام والعراق. وانحصر العلم في ثلوث من: الإسكندرية، أنطاكية، أثينة، (بالإضافة إلى اللاتينية لغة الحكام السابقين). وكان نشاط العلماء يمتد في ما بين الإسكندرية، والجزيرة، وجنديسابور بما في ذلك حران. ولكنه نشاط يتابع أعمال الإغريق.

وجاء الفتح العربي وفي هذه المنطقة رصيد حلي من العلم مالبث العرب أن اندفعوا يترجمونه منذ العهد الأموي. واستمروا يتوسعون في الترجمة عنه ثم عن التراث الهندي حتى أواخر العصر العباسي الأول. ساعدهم على ذلك سهولة النقل بين اللغتين السريانية والعربية وهما لغتان أختان. وعرفت حركة الترجمة أوجها بين القرنين الثاني والثالث للهجرة. وشجع الخلفاء الترجمة من الرشد إلى المأمون، ونشأت سلالات طبية معروفة حول البلاط العباسي. وصار الطب يدرس حتى في المساجد والمكتبات ومجالس المناظرة. وكان للسريان ما يزيد على خمسين مدرسة في الرها وقنسرين وحران ونصيبين. ووجدت في بغداد المكتبة الأم (دار الحكمة)، وتدفق الطلاب على بغداد بعد أن عُرِف سر الورق وانتشر.

وحين جاء القرن الرابع الهجري، كانت الحضارة العربية قد بلغت الأوج. وظهر فيها الرازي والكندي والفارابي ثم ابن سينا. بمعنى أن العلم العربي كان قد اكتملت أركانه. وقد نظمت مهنة الطب وكتبت الكتب في الأمراض والأدوية واشترك في ذلك عناصر الدولة كافة من مسيحيين ويهود مع المسلمين. وفيما كانت مكتبة باريس لا تحوي سوى كتاب طبي واحد مربوط بالسلاسل هو الحاوي في الطب للرازي، كانت مكتبات العرب تضم عشرات الألوف. عرف الرازي طب الأمم الأخرى وأضاف إليها ملاحظاته وفرق بين الجدري والحصبة. ثم كشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى. وكتب ابن سينا «القانون في الطب»، فظل إنجيل الأطباء لأكثر من ٨٠٠ سنة. وتسربت علوم الطب العربي والجراحة تدريجياً إلى أوربة ومعاهدها عن طريق طليطلة الأندلس، وساليرنو، ومونبلييه وغيرها. ثم جاءت الكشوف الجغرافية بثرواتها لتعطي الأرجحية للأمم الأوربية.

## • تقديم

هل انتهت القصة؟ إن جانبها الأعظم هو ما سوف يأتي في العصر الحديث وإن لم يعرض له الكتاب . القفزة الهائلة كانت في المنهج العلمي ... ولكن لذلك قصة أخرى !  
وأخيراً لا بد لي قبل أن أنسحب من أن أسجل لصاحب الكتاب أمرين :

**الأول :** أنه مزج تاريخ الطب بتاريخ الحضارة . ومهد للعملية الطبية عند كل أمة بضربات سريعة من الخطوط أوجز فيها تطورها الحضاري . ما كان يريد إنقال الكتاب ولا التوسع الثرثار فيه . ولكنه كان يريد أن يضع تاريخ الطب ضمن المنجزات الإنسانية الأخرى الموازية . كان يريد أن يقول إنها جزء من وعي الأمة ، أي أمة ، لمكانها من الحياة والمعرفة والابتكار والتاريخ . ليست هذه الأسطر الحضارية فضولاً — ولو حسنها بعض القراء كذلك — ولو أن المؤلف نسيتها ، وكان بالإمكان أن يغفلها بسهولة ولن يأخذ عليه ذلك أحد ، لبدأ تاريخ الطب مبتوراً من جذوره . كأنما نبتت زهرة في صحراء ! مع أنه أحد جانبي الحياة الإنسانية .

**الثاني :** أنه حاول الاستيفاء . حاول ملاحقة كل طب عرفه البشر بكل مكان ، وكل دواء . رحلته الطويلة لم تكن مع المرض فحسب ولكنها كانت أيضاً مع كبار أطباء الدنيا من الشامان إلى آخر طبيب تخرج أمس . ثم إنها ليست رحلة مع هذه الأسماء اللاتينية المعقدة التي نعرفها اليوم للأدوية والعقار ، ولكنها رحلة مع التعاويذ والشياطين والسحر ومع المر والمسك والزنجبيل وجوز الطيب والفلفل والتوت وزهر النيلوفر والزعفران والسماق والكافور والبلسم والبابونج وكل ما أنبتت الأرض . كأننا معه في قافلة من قوافل القرون الوسطى يسبقها البهار والقرفة والقرنفل وحب الهال ، قبل الوصول !

حين تنهي الكتاب ، احسب يا قارئ العزيز أن ربيعاً من السعادة قد يبرعم في أعماقك ، لأنك تعيش أواخر القرن العشرين بعد أن اجتمع لخدمتك تراث الإنسانية الطبي كله . ومن ذا الآن يطبق عذابات المرض في القرون الأولى ، وانتظار خروج الشياطين بالرق أو الأعشاب . أم لعلك تشتهي أن تعيش بعد ألفي سنة أخرى لترى ما يكون عليه تاريخ الطب والمرض ؟

دمشق — نيسان سنة ١٩٩٥

شاكر مصطفى





## مقدمة

ليست غاية هذا الكتاب أن يكون كتاباً مدرسياً في تاريخ الطب . ذلك لأن في المكتبات العربية، والمكتبات الأجنبية، مؤلفات كثيرة هامة وقيّمة، تبحث في هذا الموضوع، بعض هذه المؤلفات يبحث كاتبوها في طب حقب من التاريخ معينة، وبعضها الآخر يبحث كاتبوها في طب ثقافات وبلدان مختلفة . وهذه الأبحاث قد نجدها مجتمعة في سفر واحد، أو نجدها متفرقة ومبعثرة هنا وهناك، في بطون كتب تُعنى بتاريخ العلوم عامة .

وإذا كان لي من كلمة أستهل بها هذا الكتاب، فإنني أقول للقارئ العزيز، إن هذا الكتاب هو ثمرة قراءات غزيرة، بدأتها منذ ما يربو على ربع قرن من الزمن، بدأتها كدارس للطب، وممارس له، وهاوٍ لتاريخه، تسلبه مهنته معظم أوقاته . ثم منذ سنوات عدة، عقدت العزم على أن أصنف من حصيلة تلك القراءات، وفي سفر واحد، أبحاثاً في طب كل من الثقافات القديمة، وفي نشأة ونمو كل واحدة من هذه الثقافات .

ولئنني لن أعرض لتاريخ الطب في الأزمنة الحديثة، ولقفزاته الهائلة، التي بدأت في أوربة مع عصر النهضة (حوالي القرن الخامس عشر)، بعد أن أبعدت عنه الفلسفة اللاهوتية المتزمتة وبدأ عهد حرية الفكر، فكان عصر علم حقيقي، لن أعرض لهذا التاريخ، لأن له قصصاً مثيرة أخرى .

وهنا أقول : إن تاريخ الطب عامة، وتاريخ الطب في الحضارات القديمة خاصة، هو بحد ذاته تاريخ ممتع، بل إنه تاريخ فائن وآسر، تنقلنا قصصه، وتعود بنا أخباره، إلى آلاف من السنين الغابرة، بل تعود بنا إلى أبعد من ذلك بكثير، كي تحكي لنا كيف بدأت معرفة الإنسان الطبية تتكون، وكيف أن

الإنسان الأول بدأ، في نضاله اليومي من أجل البقاء، يدرك شيئاً فشيئاً أسرار الطبيعة، ويمارس بعض قوانينها.

لقد استطاع العلماء، بفضل تحرياتهم الآثارية، أن يحققوا أروع اكتشافات في تاريخ تطور الإنسان، منذ أن وجد على هذه الأرض، إذ استظهرت معاول المنقبين، من الركام والتراب والطين، المراحل الصعبة التي اجتازها الإنسان للانتقال من عهود الفطرة والبدائية، إلى عهود الحضارة والمدنية. وإن ما سيجده القارئ من مادة مثيرة وممتعة، لدى تتبعه لمسيرة الطب في الحضارات القديمة، إنما هي ثمرة تلك التحريات.

لقد نشأت وازدهرت في كثير من بلدان الشرق حضارات ومدنيات. ولم تكن تلك الحضارات بمعزل عن بعضها، بل اتصلت وتفاعلت، فأخذت وأعطت. ويُجمع العلماء الباحثون على أن أولى الحضارات البشرية وأهمها، ظهرت، أول ما ظهرت، في وادي الرافدين، وفي وادي النيل. نشأت مستقلة في كل من البلدين، في الألف الخامس قبل الميلاد، وتطورت خلال الألف الرابع قبل الميلاد، وأصبحت مناراً لما حولها من البلدان. وعن هاتين الحضارتين، أخذ الغرب مقومات حضارته.

وما يجدر بنا ذكره أن الطب، وهو أحد العناصر الهامة لتلك الحضارات، كان وليد بيئته الفكرية، ملازماً لها، ينبثق منها، يُغنيها وتغنيه، فهو وإياها في تفاعل مستمر، لذلك فإن تاريخه هو تاريخ ثقافة أيضاً، يتطور معها على مر العصور.

كما يجدر بنا أن نذكر أن مراكز الفكر والثقافة في الحضارات القديمة، انتقلت مع الحروب والفتوحات، من بلد إلى بلد، وأنها في تحركها لم تهيمن اجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً فحسب، بل حملت معها العلوم والفنون والفلسفات، ومختلف المبادئ الإنسانية. ولقد أحرزت الحضارات القديمة، بنتيجة تلك التحركات، تقدماً سريعاً، وخلقت هنا وهناك، مناخاً فكرياً ملائماً، نما الطب فيه، وترعرع، وكان في نموه مثلاً يُحتذى.

ولقد حدثت نهضة الطب الكبرى في اليونان القديمة، حين كان الطب

يرتكز بشكل أساسي على تعاليم أبوقراط واتباعه، وتم ذلك، على وجه التقريب، في الحقبة الممتدة من تاريخ ميلاد أبوقراط (٤٦٠ ق.م)، إلى زمن انهيار الإمبراطورية اليونانية، وسيطرة الرومان لقرون، استمرت حتى ظهور المسيحية. في هذه الحقبة من الزمن، انتقل مركز الفكر الطبي من أثينة إلى الاسكندرية، ثم إلى روما. ولم تكن نظريات الطب آنذاك، ولا تطبيقاتها، وقفاً على تلك المدن وحدها، بل امتد تأثيرها، وانتشرت ثقافتها انتشاراً واسعاً في ربوع ما عرف من العالم القديم، وخاصة على امتداد شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

ومع انهيار روما، أتت القرون الوسطى العشر، قرون الظلام، التي كانت ترتكز على حكم الإقطاع من جهة، وعلى سيطرة الكنيسة من جهة أخرى. وكانت الكنيسة تحتفظ في أديرتها بمعارف العصور القديمة، وتحتكر العلم والتعليم معاً. ولم يكن رهبانها قادرين على أن يفعلوا في مجال الطب إلا القليل، ذلك لأن عصرهم كان عصر فلسفة لاهوتية متزمتة، ترتبط بالعقيدة الدينية وتفسيرها، ولأنهم كانوا يسعون إلى تطبيق تلك الفلسفة على العقل والعلم، مما شكل عائقاً كبيراً أمام تقدم المعرفة الطبية.

وفي مطلع القرن السابع للميلاد، ظهر الإسلام، وانتشرت تعاليمه، وتوالت فتوحاته، واتسعت آفاقها، حتى بلغت اسبانيا والمغرب. ولعب العلماء العرب والمسلمون آنذاك، دوراً مبدعاً في إحياء الحركة العلمية في أوربة. وكان للطب في ذلك الدور، النصيب الأكبر. ولسوف نلقي الضوء على الطب العربي في تلك الحقبة، ونأتي على ذكر أولئك الأطباء العلماء، من عرب ومسلمين، الذين عرفهم الغرب في ذلك الزمان، فذكرهم الشاعر الإنكليزي جيوغرافي تشوسر (١٣٤٠ — ١٤٠٠م)، في قصيدته الشهيرة، التي نشرها في كتابه: «أقاصيص كنتريري»؛ لقد كانوا هم، وعلماء عرب آخرون، الرواد، الذين تلقفوا علم الإغريق، فترجموه، وفسروه، ونقدوه، وأغنوه بنتاج فكرهم النير، ثم حملوه إلى الغرب هدية ثمينة، أضاءت عالمه الذي كان يعيش في الظلام.

لقد أتيح لكتابي هذا، أن يقرأ نصوصه، صديقي، العالم والمفكر العربي الكبير الدكتور شاكر مصطفى، أثناء إقامة له قصيرة في دمشق. قرأ النصوص

على الرغم من الأعباء الكثيرة الملقاة على كاهله ، والملازمة له في ليله ونهاره ؛ وهنا أبادر إلى القول بأن مصدر أعبائه الأول هو إدمانه على طلب المعرفة ، منذ أن قرأ ، أول ما قرأ . والطريق إلى المعرفة ، طويلة ، وشاقة ، ولكنه سار فيها ، ودأب في ملاحظتها ، فاخترق حججها ، وأصبح على مر الأيام ، عالماً بها ، وعلماً في ميدانها . وهو أبدأ ، على رغبة في الاستزادة منها ، لا يعوقه في ذلك كلل ، ولا يمنعه عنها وهن أو ملل . قرأ الكتاب ، وأظن أن شيئاً ما فيه شدّه إليه ، فتابع القراءة ، وهاهو هنا يخط بقلمه ، رأيته فيه ، في تقديم رائع يوجز بعض ما جاء في تلك النصوص ، بأسلوبه الأدبي الشيق والممتع ؛ فله أحمل في القلب ودأ كفاء وده ، وعرفاناً كفاء كرمه وعنائه ، وإعجاباً كفاء عطائه ، الذي أغنى به الحركة الثقافية في بلده ، كما في وطنه العربي الكبير .

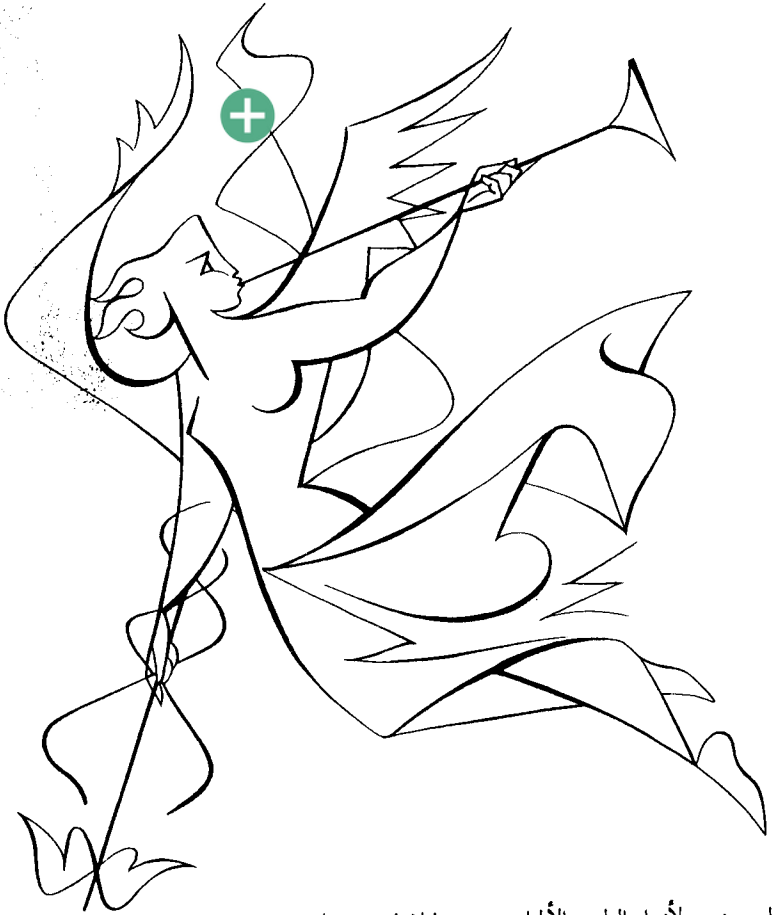
أما أبحاث الكتاب ، فلسوف تتبع منهجاً زمنياً محدداً ، نبدأ فيه ببحث : طب عصور ما قبل التاريخ ، ثم نتقل إلى طب كل من الحضارات القديمة ، حضارات : سومر ، فبابل ، فآشور ، فمصر ، فالهند ، ففارس ، فالصين ، فالإغريق ، فالرومان ، يلي ذلك بحث في « الطب العربي » ، وما تميز به من سمات ، من خلال : دراستنا للطب الأوربي في القرون الوسطى ، ومن خلال دراستنا لدور العرب المبدع في إحياء الحركة العلمية في أوربة ، في تلك القرون ، وأخيراً من خلال بحثنا في : تاريخ النباتات الطبية وأساطيرها ، وفي علم النبات العربي وعلمائه .

وفي الختام ، أود أن أعرب عن أمني في أن يلقي كتابي هذا مكانه في مكتبتنا العربية ، وأن يجد الباحثون والمثقفون ، والأطباء ، وطلاب الطب ، وطلاب العلوم عامة ، أن يجدوا في قراءته ، المتعة والفائدة .  
والله من وراء القصد

دمشق — حزيران سنة ١٩٩٥

د . جوزيف كلاس

## الفصل الأول



الرسم: رمز لأخبار الطب والأطباء، صممه فنان فرنسي معاصر.

## قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

- غريزة الشفاء .
- الحيوان الصانع للآلة .
- الترنة ، أو عملية ثقب الجماجم .
- الطبيب الساحر في حضارة الكهوف .
- الشامان أو الطبيب الساحر .
- بعض المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ .

# قصة إطبّ في عصور ما قبل التاريخ

## غريزة الشفاء

منذ أن وجد الإنسان على كوكب الأرض ، أخذ يكافح من أجل بقائه ، ويسعى للبرء من دائه ، والتخلص من آلامه . وكان سعيه هذا بدافع من غريزة أساسية عنده ، سماها العلماء « غريزة الشفاء » ، ولقد لازمت هذه الغريزة الإنسان منذ أن خلق .

## قصة معالجة الإنسان لذاته

يقول العالم جوزيف جارلند ، في كتابه « قصة الطب » ، إن معالجة الإنسان لذاته ، وممارسته لتلك المعالجة ، بدأت منذ أن حاول أرقاء دم جراحه بلعابه ، ومنذ أن داوى لدغة الأفعى بالطين .

ويقول العالم جورج سارتون ، في كتابه « تاريخ العلم » ، إن تلك المعالجة بدأت منذ أن ثبتَّ الإنسان كسر عظمه بجبائر صنعها من أغصان الشجر ، أو من بعض أجزاء الهياكل العظمية المتوفرة من حوله ، ومنذ أن خفّت المرأة إلى مساعدة أختها المرأة أثناء الولادة .

## أقدم المهن وأقدم من التاريخ

هكذا بدأ اهتمام الإنسان بمعالجة المرض والتغلب عليه . وعمل الإنسان هذا ، هو بلا ريب من أقدم المهن التي عرفتها البشرية . وإنه لمن العسير أن يحدد لهذه المهنة تاريخ ، لأنها وجدت مع وجود الإنسان ، فهي أقدم من التاريخ .

## تكوّن المعرفة الطبية

وما لا ريب فيه أن إنسان ما قبل التاريخ ، اكتسب بالملاحظة والتأمل ، خبرة عملية بطرق العلاج المفيدة ، ودراية بخصائص النباتات والأعشاب الطبية ، وبفضائل المياه العادية



والمياه المعدنية . وإن هذه الخبرة نمت شيئاً فشيئاً ، ويوماً بعد يوم مما أسهم في تكوين المعرفة الطبية ، تلك المعرفة التي توارثتها الأجيال المتعاقبة ، وأغنتها بملاحظات وتجاربها الخاصة بها .

### استخدام الأعشاب الطبية

ولئن لم يكن في استطاعة الإنسان البدائي ، أن يدرك أسرار الطبيعة ، أو يصوغ شيئاً من قوانينها ، إلا أنه كان في نضاله اليومي من أجل البقاء ، يمارس بعض تلك القوانين . فلقد كان في مقدوره أن يصوب سهامه نحو هدفه دون أن يخطئ ، وكان في مقدوره أن يميز بين النبات السام والنبات الصالح كطعام . وكان قادراً على استخدام الأعشاب استخداماً جيداً في معالجة أمراضه .

### النساء أول من امتنن الطب

وأغلب الظن أن النساء كن أول من امتنن حرفة الطب ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال ، ولا لأنهن جعلن من فن التوليد أقدم المهن جميعاً ، بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، مما أتاح لهن معرفة بالنبات أوسع ، ومكنهن من التقدم على الرجال في ممارسة الطب . والواقع أن المرأة ، منذ أقدم العصور ، كانت هي التي تباشر في معالجة المرضى ، ولم يكن المريض ليلجأ إلى طبيب يداويه ، أو إلى ساحر أو عرّاف يشفيه ، إلا إذا أخفقت المرأة في أداء هذه المهمة .

### القوى الغريبة والأرواح الشريرة

وإنه لما يثير الدهشة ، ويبحث على الإعجاب أيضاً ، هو أن نعلم أن الكثير من الأمراض كانت تعالج من قبل هؤلاء البدائيين . ولقد خيل لهؤلاء البدائيين السذج ، أن المرض إن هو إلا نتيجة لحلول قوى غريبة ، وأرواح شريرة في جسد المريض ، أو لنقمة الآلهة عليه . لذلك اعتقدوا بجدوى ترديد عبارات السحر ، للشفاء من المرض ، وبفائدة التمايم للوقاية منه . وهذا التصور ، لا يختلف في جوهره عن النظرية الطبية السائدة في عصرنا الحاضر ، من أن المرض إنما ينجم عن دخول الجراثيم أو الحُمات الراشحة (الفيروسات) ، إلى داخل بدن الإنسان ، ونحن نعلم اليوم ، أن بعض المجتمعات المعاصرة ، تعزل الإصابة بداء الصرع ، بحلول روح شريرة في بدن المصاب ، كما نعلم أن بعض المعتقدات الدينية المعاصرة ، تتبع طرائق معينة في سبيل إخراج هذه الروح الشريرة من جسد العليل . كما أننا نعلم أيضاً أن الكثرة الغالبة من الناس ، ترى في الدعاء معيناً على الشفاء ، إلى جانب استعمالها لأقراص الدواء .

## المعالجة بالإيحاء بأساليب مسرحية

ولقد كان البدائيون يركزون في معالجتهم للمرض، على المبدأ ذاته، الذي يعتمد عليه الطب الحديث في معالجة بعض الأمراض، ألا وهو مبدأ «العلاج بقوة الإيحاء»؛ إلا أن أفاعيل البدائيين كانت أقرب إلى الأساليب المسرحية، إذ كانوا يحاولون طرد الروح الشريرة، بتخويفها بما كانوا يلبسونه من أقنعة مفرقة، وبما كانوا يغطون أجسادهم به من جلود الحيوانات المخيفة، وبصياحهم، وهذيانهم، وتصفيقهم، وبالخشخشة بالصفائح، وبمحاولة امتصاص الشيطان من بدن العليل بواسطة أنبوبة مجوفة.

## استعملوا الأعشاب والمخدرات ... وعالجوا بعض الجراحات

ولكنهم إلى جانب ذلك، كانوا يستعملون الأعشاب الطبية، وكانوا يلجؤون إلى صنوف من المخدرات المنومة، لتخفيف الألم، وتحمل الجراحات. فسم الكورار، الذي كانوا يضعونه على رؤوس السهام، ونباتات القنب الهندي والأفيون المخدرة، عرفوها واستخدموها؛ كما عالجوا طائفة من الجراحات، فكانت الكسور تجبر بمهارة، والجروح تضمد وتلف، والخراجات تعالج بتجفيفها، بعد استخراج الدم والصدید منها، بواسطة مدى صنعوها من حجر الصوان المرهف، أو من الحجر الزجاجي البركاني، الأسود، أو بواسطة أسنان السمك.

## مارسوا التريئة

ولقد مارس البدائيون «التريئة»؛ أي ثقب الجماجم، بمهارة فائقة، منذ عصر الهنود الحمر في البيرو، إلى عهد سكان ميلانيزيا، في أوقيانوسيا؛ وكان الميلانيزيون ينجحون، في مداخلاتهم، في أكثر الحالات، بينما كانت الجراحة نفسها في مستشفى أوتيل ديو في باريس عام ١٧٨٦ تنتهي بالموت في كل الحالات.

قد نبسم اليوم لجهل البدائيين، بينما نستسلم، راضين، للأساليب الطبية الحديثة الكثيرة والباهظة التكاليف في أيامنا. يقول الدكتور «أولفر وندل هولز»، بعد حياة طويلة قضاه في معالجة المرضى: «لن يتردد الناس في أداء أي شيء، في سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة؛ فقد رضوا أن يغرقوا في الماء نصف غرق، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق؛ ورضوا أن يدفنوا في الأرض إلى أذقانهم وأن يوصموا بالحدید الحمى مثل عبيد قانس؛ ورضوا أن يُقَصَّبوا بالمدى كأنهم سمك القُد، وأن تثقب لحومهم بالإبر، وأن تشعل المشاعل على

جلودهم؛ ورضوا أن يجرعوا كل صنوف المقززات؛ كأنما سلق الجسم وإحراقه ميزة ثمينة، وكأنما «الفقاقيق» نعمة، ودود العلق ضرب من الترف». .

### غريزة الشفاء عند الحيوان

هذه قصة غريزة الشفاء في عالم الإنسان. وأما في عالم الحيوان فإننا نلاحظ أن «غريزة الشفاء» تكاد تكون أكثر نمواً مما هي عليه عند الإنسان. فبعض أنواع الطيور، كطائر البوم مثلاً، تسعى إلى التخلص من الحشرات، التي تغزو ريشها، بإثارة الغبار من حولها والتعرض لها وكأنها تستحم بها. وكذلك تعتمد بعض الحيوانات إلى التمرغ بالتراب أو بالطين أو الغطس في مياه الأنهر أو البحيرات لتتخلص من الحشرات التي تغزو جلدها وأشعارها، والتي لم تستطع دفعها بأطرافها. كما أن الحيوان المصاب بجراح، يعالج جراحه بأن يلعقها بلسانه ويبللها بلعابه، الذي يتصف بخواص قاتلة للجراثيم.

### اكتشاف خواص المياه المعدنية

وكذلك نرى أن بعض هذه المخلوقات، التي تعاني من العوز، تهاجر وتقطع المسافات الشاسعة، باحثة عن بحيرة مالحة المياه، أو نبات يحتوي على العناصر التي هي بحاجة إليها. ولقد اكتشف الإنسان الخواص العلاجية لنباتات المياه المعدنية، بعد أن لاحظ ارتباط الحيوانات لها، بدافع من غريزتها، للاستحمام في مياهها، والاستفادة من خواصها الشافية لبعض الأمراض.

### غرائز أقوى مما عرفه الطب

وتبدو هذه الغرائز في بعض الأحيان، أقوى مما تذكره كتب الطب؛ فالخراف التي يخلو غذاؤها من مادة الكلس، نجدها ترعى أول ما ترعى، بشكل هندسي بالغ الدقة، عشب مريعات الأرض التي دُرّ فيها عنصر الكالسيوم، ثم تتحول فيما بعد إلى عشب المراعي الأخرى الخالية من هذا العنصر لتهدئ من جوعها.

وفي أحد المراعي، في جنوب إفريقيا، لوحظ أن أبقار قطع من قطعانها، كانت تموت بسبب جائحة لم يعرف سرها، بينما بقيت أبقار قطع آخر على قيد الحياة. ولقد تبين بعد البحث أن أبقار هذا القطيع الثاني كانت تقعات من لحاء وورق شجرة دُوق في جذعها مسمار من النحاس واحد، في حين بقيت بعض أبقار القطيع الأول تعاني من أعراض المرض بسبب افتقارها للمقادير الضئيلة من عنصر النحاس.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

### غرائز حقيقية

مثل هذه الغرائز ، التي بها تجد المخلوقات منابع شفافها ، هي غرائز حقيقية ، شأنها في ذلك شأن الغرائز التي تعلم المخلوقات كافة ، من حيوان وطيور وحشرات ، كيف تحتفر أجحارها ، وكيف تبني وكناتها ، وكيف تجد غذاءها ، وكيف تميز بين ما هو نافع منه ، وما هو ضار . إن غريزة الشفاء هذه ، غير المعقدة والناعبة من حدس طبيعي ، إن هي إلا جزء مما ورثه الإنسان عن أسلافه ، من الحيوانات .

### الحيوان الصانع للآلة

إذا أخذنا بنظريات العلم المعاصر ، على سرعة تغيرها ، وجدنا أن الكائن الحي ، الذي أصبح ، بعد أن تعلم الكلام ، إنساناً ، كان أحد الأنواع القادرة على الملازمة مع البيئة . ويقول العلماء أنه في المراحل التي تتوسط العصور الجليدية الأربعة ، أي في سنة ٣٧٥٠٠٠ — ١٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ، استكشف هذا المخلوق العجيب النار ، وطور فن نحت الصخر ، والعظم ، ليصنع أسلحة وآلات . ولقد وُجدت بقايا كثيرة ترجع إلى هذا الإنسان السابق للتاريخ .

### جمجمة عمرها مليون سنة

ففي عام ١٩٢٩ اكتشف شاب صيني ، عالم بالحفريات الحيوانية ، وهو « و . س . بي » في كهف عند « تشوكوتين » ، ويبعد عن بينينغ نحو سبعة وثلاثين ميلاً ، كشف عن جمجمة ، قال عنها علماء خبراء مثل : « ج . إليوث سميث » والأب « بروي » إنها جمجمة بشرية ؛ ووُجدت آثار نار قرب هذه الجمجمة ، كما وُجدت أحجار استُخدمت آلات بغير شك ؛ أجمع الرأي على أنها ترجع إلى عصر البليستوسين الأول ، وهو عصر تاريخه مليون سنة خلت . هذه الجمجمة ، التي وجدت قرب بينينغ ، هي بإجماع آراء العلماء ، أقدم ما نعرف من البقايا البشرية ؛ وهذه الآلات التي وجدت معها ، هي أقدم المصنوعات في التاريخ .

### ذكاء القردة والشامبزي

ومن هنا ، يبرز أبسط تعريف للإنسان ، ألا وهو تعريف العالم بنيامين فرانكلن

القاتل ، بأن الإنسان « حيوان صانع للآلة » أو « صانع للأداة » . واليوم قد لا يجد الإنسان المثقف ، والعالم ، في هذا التعريف أي إطراء ، وهو القادر على استخلاص الطاقة من عنصر الذرة .

### مهارات الأصابع أقوى عناصر تفوق الإنسان

إلا أننا إذا أمعنا النظر في هذا التعريف وجدنا أن حقيقته الأساسية جلية وواضحة ، ففصائل القردة والشامبنزي ، وهي أقرب المخلوقات إلى الإنسان ، تتمتع بدرجة من الذكاء لا مجال لنكرانها ، ولكنها في الوقت ذاته ، غير قادرة على صنع أية أداة من الأدوات ؛ ذلك لأن صنع الأداة يتطلب ، إلى جانب الذكاء ، ملكة التخيل ؛ كما يتطلب أيضاً مهارات الأصابع أحد أقوى عناصر نجاح الإنسان في تفوقه على كافة المخلوقات ؛ كما أن صنع الأداة ، يتطلب القدرة على التفكير والمحاكمة والتفاعل والاقتباس والتجربة .

### الطريق إلى المعرفة

وبفضل هذه الملكات ، تمكن الإنسان من وضع أساس لنشأة العلوم ؛ وبالحدس والتخمين استطاع أن يرسي للفلسفة قواعدها وللدِين مبادئه ، وبذلك كله شق الإنسان طريقه إلى المعرفة . وإننا كلما ازددنا علماً بطبيعة الإنسان ، وبخصائصه المميزة ، التي بَوَّأته المكانة الأسمى بين الكائنات الحية ، وأعطته هذا السلطان ، ازددنا إيماناً بقدرته الفكرية ومعرفته برسالة هذا الفكر .

كيف استطاع إنسان اليوم أن يعرف ما كان عليه إنسان الزمن الغابر البعيد ؟ وكيف أصبح إنسان الغابة ، أو إنسان الكهوف ، الطبيب السومري ، والفلكي البابلي ، والمعماري المصري ، والشاعر اليوناني ، والمهندس الروماني ، والحكيم الصيني ؟

### علم الآثار وعلم الأجناس

لقد كان السبيل إلى معرفة ذلك ، هو أن يلجأ إنسان اليوم إلى علم الأجناس البشرية ، عن طريق علم الآثار ، ليصل بذلك إلى خفايا التاريخ .  
فلقد حَبَّتْ الأرض فيما خَبَّتْ في باطنها من بقايا الأولين ، فتاتاً من عظام ، وقطعاً من حراب وأجزاء من رماح ونصال ، كان الإنسان الأول يتخذها سلاحاً له . وكان من هذه الفتات ما تحجر بفعل المؤثرات في باطن الأرض ، فبقي على مر العصور .

## • قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

لذلك قام الباحثون والمنقبون ، وهم يملأون اليوم بطاح الأرض ، يبحثون وينقبون . فمنهم من يفتش عن الذهب ، ومنهم من يسعى إلى الفضة ، ومنهم من ينشد الحديد ، أو الفحم . وإلى جانب هؤلاء الباحثين والمنقبين ، قامت فئة من العلماء ، تبحث عن المعرفة . ولن يجد المرء في حياة الجنس البشري اليوم ، أجمل وأنبل وأروع من هذه الرسالة التي يحملها أولئك العلماء ، في سبيل الوصول إلى المعرفة .

## أدوات ، وصور ، وجماجم

لقد استخرجوا من باطن الأرض ، ومن كهوفها ، ما حفظت القرون الطوال ، من أدوات العصر الحجري وآلاته ، ودرسوا بأعناق مُشترَبة ، الصور المعبرة التي رسمها إنسان ما قبل التاريخ على سقوف تلك الكهوف ، وعلى جدرانها ، وكشفوا المدائن الدفينة ، وأخرجوا الجماجم القديمة من قبورها ، وفي سلال تحملها قوافل الدواب نقلوا أنقاض المدافن التي استنزل ساكنوها اللعنة على نابشيها ! كل ذلك ، من أجل دراسة الإنسان ومعرفة مراحل تطوره .

لقد كان الإنسان الأول ، في أول عهده بالحياة ، راضياً بما تقدمه الطبيعة ؛ كان راضياً بحشائش الأرض وثمارها طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه كساءً ، وبالكهوف في سفوح التلال ملاجئاً ومنازلاً .

## الإنسان يقلد الحيوان

ثم تلا ذلك ، فيما يظن العلماء ، أن أخذ الإنسان يقلد الحيوان في وسائله ؛ رأى القردة وهي تقذف أعداءها بالحجارة وبثار الشجر ؛ كما رآها تكسر الجوز وتفتح الحجار بالحجر ؛ ثم رأى كلاب الماء تبني لنفسها السدود ؛ ورأى الطير تبني لنفسها الأعشاش ؛ ورأى الشامبزي تقيم لها بيوتاً أشبه ما تكون بالأكواخ التي بناها الإنسان لنفسه فيما بعد . وأخذ هو أيضاً لنفسه الوسائل ، على غرار ما للحيوان من وسائل ، إلا أنه تفوق في ذلك وتميز ، لأنه ، كما نعت «فرانكلن» ، حيوان صانع للألة .

## الإنسان يصنع الأدوات

صنع من نبات الخيزران المحيط به ، السهام ، والمِدى ، والابر ، والقوارير ؛ وصنع من فروع الشجر ، الملاقط ، والمماسك ، والعصى ، التي مالبث يرى فيها رمزاً لقوته وسلطانه ؛

ومن لحاء الشجر وأليافه وأوراقه، صنع الحبال والثياب والبسط، وأغطية الجدران؛ وصاغ من الصخر الصوّاني أسلحته، وأدواته، هي اليوم تحف المتاحف؛ منها المطرقة، والسندان، والوعاء يغلي فيه الماء، والسكين، والمنشار، والنصال، ورؤوس الحراب والفؤوس، والخوابير. وصنع من حجر الصوان المرهف، ومن زجاج البراكين الأسود، أدوات الجراحية، من مِدى ومشارط، ومكاشط، ومثاقب، واتخذ من أشواك السمك، إبره ومخارزه؛ ومن عظام الحيوان، وأسنانه، وأنيابه، أدوات مختلفة، كان لمعظمها مقابض خشبية شدت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها، تلك المهارة التي قد تفوق، مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث. ولم تكن هذه الأسلحة، وهذه الأدوات والآنية والأردية التي صنعها الإنسان الأول سوى وسائل أولية ابتدعها من أجل بقائه، إذ كانت تحوم من حوله الحيوانات الضارية، وتحاصره عناصر الطبيعة الغامضة.

### الإنسان وظواهر الطبيعة

كان يصغي إلى صوت الرعد المخيف، وينظر إلى وميض البرق المرعب، وما قد يحدثه في الحقل أو الغابة من حريق، يرجح أن يكون الإنسان قد عرف منه النار لأول مرة. وكان يسمع قصف الصواعق، وعصف الرياح، وحفيف أوراق الشجر، وهدير المياه؛ وكان يتأمل تعاقب المواسم وتوالي الليل والنهار؛ وكان يشاهد الزلازل، وثوران البراكين، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، وظهور الشفق القطبي، وتحرك الظل الذي تحدثه أشعة الشمس، وانعكاس هذا الظل على سطح الماء.

### الإنسان يعبد الطبيعة

لهذه الظواهر الطبيعية كلها، أعطاها خيال الإنسان المعاني الخارقة فعرفها على أنها الآلهة، وقال عنها إنها الشياطين، ودعاها أيضاً بالأرواح. عبد الشمس والقمر والنجوم، والشجر، والنار والأنهار، والريبع والرياح، والحيوانات التي كانت تخيفه. كان دينه عبادة الطبيعة، اعتقاداً منه أن عالمه يعج بالأرواح غير المرئية، التي تجلب، إلى جانب ما تجلب الكوارث والمرض والموت.

### عبادة الدكاكير

ومع تقدمه وترقيه، عمل الإنسان على أن يلمس بيده، وأن يدرك بحسه، ما كان من

## • قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

قبل غير ملموس وغير مدرك، فمثل تلك القوى غير المرئية، بمنحوتات، جعلها رموزاً يمكن أن يكافح بها بشكل أكثر سهولة وأكثر يسراً. وهكذا تحول الإنسان من عبادة الطبيعة إلى عبادة «الدكاكير».

### صيد الحيوان وإغراء المرأة

وكان على الإنسان أن يصطاد الحيوان ليحصل على لحمه وعظمه وجلده، وكان عليه أن يغري المرأة ليحافظ على جنسه البشري، وأن يثير الخوف في نفوس رجال القبيلة المجاورة خشية أن تُختطف زوجته، أو يُعتدى على أراضي الصيد التي اتخذها مجالاً حيواً له. وكان باستطاعة الإنسان الأول أن يعرف الحيوانات التي يطاردها، أهي سليمة أم مريضة، أضرارية مفترسة أم ضعيفة مزردة؟ أذكر أم أنثى؟ أحامل أم مرضع؟ وكان يعرف متى يتسلق الشَّره «الولفرين» الشجرة، ومتى يقرر الدب أن يكمن له في الدغل. لقد مزقت مخالبُ الحيوانات المفترسة، وأنيابها، الكثير من أسلافه وأقربائه؛ فلم ينس تلك الدروس القاسية؛ وكان الاهتمام بالحيوانات يأخذ كل وقته ويستنفد كل طاقته.

### المرأة، والنبات

وكما كان عالم الحيوان يستحوذ على انتباه الرجل، كذلك كان عالم النبات يستغرق انتباه المرأة واهتمامها. فمن النبات تؤخذ الجذور والأثمار والأعشاب، والأوراق الناعمة النظرة، التي تُكمل وجبات الطعام؛ ومن حطب النبات تُوقد النار التي يطبخ عليها، وتصطلي بها الأسرة. ومن ألياف النبات تُصنع السلال، والحبال، والحصر؛ ومن النبات أيضاً تستخلص المواد ذوات الخصائص العجيبة التي تشفي الأمراض وتخفف الآلام.

### لقاءات موسمية، للمصارعة أو الرقص

وكان إنسان العصر الحجري القديم، ينظم مع أسرته، ومع عشيرته لقاءات تقليدية في مواسم معينة، ينصرف فيها الشيوخ إلى الأحاديث، بينما يقوم الشبان بالمصارعة أو الرقص، أو يمثلون أدواراً قصيرة يقلدون بها سلوك بعض الحيوانات، أو يقلدون الصيادين وهم يطاردون فرائسهم.

### وللممارسة الجنس

وفي الليالي، توقد النار، وتتوهج فتضيء أشعتها وجوهاً ملونةً وأجساماً مطلية



بالأصبغة، وتتابع الرقصات، ويتسلل الرجال إلى ما وراء الأكمة القريبة، وهنالك نزول التقاليد الجنسية المعتادة، ولا يبقى منها إلا القواعد التي تحرم الاتصال الجنسي بين الأم وابنها، وبين الأب وابنته، وبين الأخت وأخيها.

### أهداف بيولوجية

وكما أن هذه الاجتماعات تحقق للأسرة وللعشيرة، غاياتها الاجتماعية، فإنها تحقق لها في الوقت ذاته، أهدافاً بيولوجية هامة؛ فالنساء اللواتي كانت علاقاتهن الجنسية مع أزواجهن علاقات غير مثمرة، يمنحن هنا فرصة خاصة للإنجاب، مما يزيد في قدرة هذه الجماعات على البقاء، ويدعم عملية التنوع الضرورية لتخليد كل الجماعات المشتركة في تقديم خصائصها الوراثية.

### متى بدأ الإنسان الاهتمام بالطب

لقد سبق أن قلنا إن الإنسان شعر منذ أن وجد على كوكب الأرض، بالحاجة إلى معالجة ذاته، بدافع من غريزة إنسانية عنده هي « غريزة الشفاء ». وقلنا إنه اكتسب بالتأمل والملاحظة خبرة، نمت وازدادت عبر القرون، وأسهمت، في تكوين المعرفة الطبية. فإذا ما أردنا تحديد الزمن الذي أخذ الإنسان فيه يُبدي اهتماماً فعلياً بالطب، فلا بد لنا من أن ننظر إليه من زاوية أنه كان أيضاً « جراحاً مستعملاً للأداة ».

### الهياكل العظمية أدلة هامة

فالإنسان الأول، لم يكن مؤهلاً، ولا متطلعاً إلى تزويد الأجيال اللاحقة، بوثائق تنبئ عن أعماله الطبية، ولكننا نستطيع الاستدلال على مدى معرفته في هذا المضمار، من أدواته، من المشارط الحادة التي صنعها، ومن مجالات الاستعمال التي من أجلها صمم تلك الأدوات. ولسوف يكون مجرد ظن وتخمين، أن ندعي بأن الإنسان الأول قد سبق من أتى بعده من الأطباء، ففتح الأوردة، أو قام بالفصادة، ذلك لأن العضلات والعروق والأعضاء، تفنى كلها بمرور الزمن، وليس لوجودها أي أثر في مكتشفات ما قبل التاريخ. إلا أن الهياكل العظمية للإنسان، والباقية على مر العصور، هي التي زودتنا، كما سنرى فيما بعد، بمعلومات دقيقة، وأدلة دامغة بالغة الأهمية. وقد يكون لإنسان جاوة، وهو الإنسان القرد، المتوسط بين القردة العليا والإنسان الحديث، ولمن أتى بعده من فصائله، قد يكون هؤلاء بعض الأعمال الطبية أو الجراحية، ولكن ليس لدينا من أثر يذكر لمثل هذه الأعمال.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

### التربيّة، قبل ثلاثين ألف سنة

إلا أننا نستطيع، وبوثوق كبير، العودة ثلاثين ألف سنة إلى الوراء، إلى النماذج التي تبدو بشكل ظاهر، إنها نماذج الإنسان في سحنه، وفي جلسته أو وقفته، لنجد جماجمها الكثيرة التي جمعت من كافة أرجاء العالم، وأشهرها تلك التي وجدت في البيرو، في أمريكا اللاتينية، ولنشاهد فيها الفتحات التي أحدثها أخصائيو التربيّة، أو «ثقب الجماجم» في تلك العصور. فلقد ذكر ذلك كل من: جوزيف جارلند في كتابه «قصة الطب»، وجورج سارتون في كتابه «تاريخ العلم».

ويتم ذلك بثقب عظم الجمجمة بمثقب صنعه الإنسان الأول من حجر الصوان، أو من العظم، أو من زجاج البراكين الأسود. وتُجرى عملية الثقب هذه بحذر، وتؤدّة، بالغين، للوصول إلى الدماغ، دون أن يُصيب نسيجه أي أذى.

### مداخلة حقيقية

هذه المداخلة، تعتبر في الواقع، مداخلة جراحية حقيقية. قام بها الإنسان الأول، ولا تزال باقية على مر العصور. وإنه بالنظر لأهميتها العلمية والتاريخية، رأينا أن نقف هنا وقفة قصيرة، نُسهب فيها بعض الإسهاب، في الحديث عن هذه العملية، عملية ثقب الجماجم.

## التربيّة أو عملية ثقب الجماجم

### أقدم جراحة عرفها الإنسان

تعتبر عملية ثقب الجماجم من أقدم العمليات الجراحية التي عرفها الإنسان. ويؤكد علماء الأعراق البشرية، أنها قد أُجريت في العصر الحجري في العديد من أرجاء المعمورة.

### في البيرو

أما في العصر ما قبل الكولومبي، فقد انفردت البيرو، دون غيرها من بلدان أمريكا اللاتينية، في إجراء هذه المداخلة، المثيرة للدهشة والتي كانت تعتبر حين ذاك، عملية تقليدية يتوارثها الأبناء عن الآباء.

**في البيرو:** في عام ١٨٦٧، وجد المنقبون في البيرو، في أحد مدافن الآنكا التي تعود إلى العصر ما قبل الكولومبي، مجموعة مثقوبة بمثقب، عمرها ثلاثون ألف سنة، وكانت الثقة متكلسة الحواف مما يدل على أن صاحب الجمجمة كان على قيد الحياة عندما ثقبت جمجمته، وأنه عاش بعد ذلك أشهراً أو سنيناً.

**في فرنسا:** وفي عام ١٨٧٣، اكتشف العالم الفرنسي الدكتور برونيه، في وادي لوزير بفرنسا، مجموعة من قمم جماجم تبدو فيها ثقوب مماثلة.

**في باراكاس:** ولكن الكشف المثير والبالغ الأهمية، تم عام ١٩٢٥، حين تمكن الدكتور جوليو تيللو، من العثور على مدفن ضخم في شبه جزيرة باراكاس، يحتوي على عدد كبير من الجماجم المثقوبة جراحياً. ولم يتسنى لهذا العالم، ولا لغيره من بعده، معرفة السبب الذي من أجله تم تجميع هذا العدد الكبير في موقع واحد.

### ثقوب صناعية

ولقد كانت الثقوب العظمية الصناعية هذه، موضع تفسيرات وتساؤلات وتأويلات مختلفة، أغنت كثيراً العديد من الأبحاث والدراسات.

### بعضها عقب الوفاة

بعض هذه الثقوب، تم إجراؤها عقب الوفاة، وكانت الغاية من ذلك، القيام ببعض أعمال السحر، أو ممارسة بعض الشعائر والطقوس، أثناء نزع تعويذة عظمية مستديرة، من جمجمة الميت، وفي مثل هذه الحالات، تكون حواف الفتحة واضحة ومنظمة، وخالية من أي تكاثر مرمم في نسيجها العظمي وبشاهد الزائر لمتحف «علم الإنسان» في مدينة مكسيكو، نماذج تمثل جيداً هذا النمط من الثقوب، التي لم تكن نتيجة مداخله جراحية فعلية.

### وبعضها عند الأحياء

وأما النمط الآخر من هذه الثقوب، ويشكل العدد الأكبر منها، فقد تم إجراؤه عند أناس كانوا على قيد الحياة، عندما ثقبت جماجمهم، ويقوا من بعد ذلك على قيد الحياة، أشهراً أو سنيناً، يؤكد ذلك وجود مناطق تكاثر في الخلايا، وتجدد في نسيج العظم، في حواف تلك الثقوب.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

## من حضارة الكهوف إلى حضارة «الآنكا»

وكانت عملية ثقب الجماجم هذه، والتي تعتبر بحق عملية جراحية، سائدة في البيرو منذ عصر الحضارة المسماة بحضارة الكهوف، وحتى ما بعد حضارة الآنكا، تلك الحضارة الغنية التي نشأت في القرن الثالث عشر، وبقيت مزدهرة طوال ثلاثة قرون، ثم دمرها الاسبان إبان غزوهم لتلك البلاد.

## كيف ولماذا؟

والسؤال الهام الذي تطرحه هذه المداخلة هو كيف كان إنسان ما قبل التاريخ يجري هذه المداخلة ولأية غاية؟

ولقد أجاب العالم «ريتل» على الشق الأول من السؤال هذا بقوله. إن أسلوب هذه المداخلة قد اختلف باختلاف العصور، وإن الطريقة الأكثر قديماً والتي اتبعها الإنسان الأول في عملية ثقب الجمجمة، كانت تعتمد على قشط العظم، بمقشط من حجر الصوان، أو من العظم، أو من رجاج البراكين الأسود «السج»، كما سبق أن ذكرنا، وحك هذا العظم حكاً بخطوط مستقيمة، مما يؤدي إلى إحداث فوهات متعددة الأضلاع أو مثلثة الشكل، ذات حواف مستديرة قليلاً. وفي مرحلة تالية لجأ ثاقبوا الجماجم، إلى عملية حك دوراني، لولبي الحركة، كان يحدث فوهات بيضوية الشكل. وفي مراحل لاحقة، اتبع الجراح أسلوباً متطوراً، من الثقوب، صغيرة القطر، وذلك بإحداث سلسلة تشكل عند التقائها فتحة واحدة ذات محيط مشرشر، متعدد الانحناءات.

ولقد ازدادت معرفة العلماء، بأسلوب إجراء هذه الجراحة، عند اطلاعهم على بعض الأعمال الفنية التي تركها الأقدمون، وعلى المحاولات التي بذلها علماء العصر الحاضر، لإعادة إجراء المداخلة بالأسلوب التاريخي نفسه. ففي متحف مدينة «ليما» عاصمة البيرو، إناء أثري رسمت عليه صورة شخص ممسك برأس إنسان، يجري فيه عملية الثقب، كما أن الزائر لمتحف علوم الإنسان في مدينة هامبورغ بألمانيا الاتحادية، يشاهد ضمن معروضاته، مثقب أثري اكتشف في البيرو، رسم على أنبوته مشهد لعملية ثقب الجمجمة.

## عمليات معاصرة بأدوات أثرية

ولقد تمكن جراح الأعصاب المعاصر «غرانا» من إجراء عملية ثقب للجمجمة ناجحة تمت في «ليما» عاصمة البيرو، واستخدم فيها أدوات الثقب الأثرية نفسها، في معالجة

جريح عمره ٣١ سنة مصاب بورم دموي في الدماغ، عقب رض الجمجمة رضاً شديداً أدى إلى شلل شقي أيسر وإلى انعدام النطق.

ثم هذا كبار جراحي الأعصاب في أوربة، أمثال «هولاند وروسي وبروكا»، حذو الجراح «غرانا» فأجروا عمليات تجريبية مماثلة لعملياته، استخدموا فيها، هم أيضاً، أدوات الثقب الأثرية.

وإننا لنعجب اليوم، كل العجب، حين نعلم أن الذين مارسوا هذه المداخلات، كانوا لا يعرفون من أمر تشريح جسم الإنسان شيئاً، وكانوا لا يملكون من الإمكانيات سوى الوسائل البدائية، ونجدهم، مع ذلك، يغامرون، ويقومون بمثل هذه المداخلات الجراحية الجريئة.

### وفي العديد من أرجاء العالم

ولم تكن القارة الأمريكية هي السبابة، في مجال ممارسة عملية ثقب الجمجم، فلقد برهنت المكتشفات الأثرية العديدة، التي عُثر عليها خلال التسعين سنة الأخيرة، برهنت بجلاء على أن هذه الجراحة، قد عُمل بها في العالم القديم، في عصور ما قبل التاريخ. فلقد تمكن العلماء المنقبون من نيش جماجم بشرية كثيرة، مثقوبة بالثقب، من مدافن مختلفة، في العديد من بلدان العالم، التي سكنتها في الماضي البعيد، مجتمعات بدائية، مثل: فرنسا، واسبانيا، وبلاد ما بين النهرين، وإيطاليا، والتمسا، وسكاندينافيا، وبعض جزر المحيط الهادي، وسيبيريا، وشمالي إفريقيا.

### تدبير: لإخراج روح شريرة، وعلاج: لكسور الجمجمة، أو لأورام الدماغ

وإنه لمن المؤكد أن هذه العمليات الجراحية التي كان إنسان ما قبل التاريخ يجريها بمهارة فائقة، كانت تطبق في مجالين اثنين:

الأول: كان مجرد تدبير علاجي، يملية السحر، وغايته إحداث فوهة خروج لروح شريرة ومؤذية، كان يظن أنها تسكن في داخل رأس المريض.

وأما المجال الثاني: فكان أكثر شيوعاً من الأول، وكانت عملية الثقب فيه، تشكل علاجاً معقولاً لكسور الجمجمة، أو رضوضها، أو لأورام الدماغ أو للصداع الدائم... وكان هذا المجال وليد الاختبار والخبرة، وكان تصوراً مبكراً ورائعاً لفن الجراحة العصبية.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

ولقد درس العلماء عدة مئات من الجماجم التي اكتشفوها، فوجدوها تحمل آثار الثقب بالثقب عند أحياء، كانت أعمارهم تتراوح ما بين ٢٠ و ٦٠ سنة، ثلاثة أرباعهم من الذكور والباقي من الإناث.

كما أن العالم الدكتور «جوليو تيللو»، درس ٤٠٠ جمجمة مثقوبة بالثقب، فوجد أن ٢٥٠ منها تبدو في ثقوبها مناطق تكاثر مرم في نسيج العظم، يشهد على نجاح المداخلة الجراحية ويدل على بقاء أصحابها أحياء، لأشهر، وسنين، بلغت عند بعضهم الثماني سنوات.

### عمليات سائدة حتى عصرنا الحاضر

ولئن انتشرت طريقة ثقب الجماجم، في مجتمعات بدائية، في عصور متوغلة في القدم، إلا أنها بقيت سائدة، حتى عهود متأخرة، ذلك لأن القبائل المتخلفة، بقيت، وحتى عصرنا الحاضر، محافظة، في معالجة مرضاها، على الأسلوب المتوارث التقليدي.

ففي عام ١٩٣٥ تبين للعالم الألماني «بوشان» (١٨٦٣ — ١٩٤٢) أن عمليات ثقب الجمجمة كانت لاتزال تجرى، من وقت لآخر، في ثلاث مناطق من العالم وهي: شمالي البلقان، ومراكش، وبعض جزر المحيط الهادي.

وفي عام ١٩٥٨ كتب «غراوندز» مقالاً في «المجلة الطبية لشرقي إفريقيا» زينه بصور لجمجمة فتحت بالثقب، وبقي المريض بعدها على قيد الحياة. كما زينها بصورة أخرى للأدوات التي استعملت في سبيل تحقيق هذه العملية الجراحية.

وفي عام ١٩٦٢، ذكر العالمان كوكسون وماركيتس، مشاهدتهما لحالات ثقب أجريت في منطقة قبيلة «كيسزي»، على ضفاف بحيرة فكتوريا، وأتى ماركيتس، في مقال نشر له عام ١٩٦٧، بمثالٍ منها. ثلاث حالات من ثقب الجمجمة، وعرض إلى جانب صور الأدوات الجراحية المستعملة، صوراً شعاعية، تبرهن على أن تلك العمليات قد تمت بنجاح.

وفي عام ١٩٦٤، قام قسم التصوير السينمائي لإحدى الشركات الصيدلانية، في جنوب ألمانيا، بإخراج فيلم بعنوان «ماغانغا»، السحر الأسود والأبيض في قلب إفريقيا، شاهد هذا الفيلم جمهور غفير، ورأوا مشاهد من عملية ثقب جمجمة، أجريت في كينيا. وكان تعليق عدد من الحضور أن الفيلم خدعة.

وفي ربيع عام ١٩٨٠ توجهت بعثة ألمانية، يرأسها الدكتوران «ميشيج» و

« كيبويت »، من معهد تاريخ الطب، بجامعة دوسلدورف، بألمانيا الاتحادية، توجهت إلى إفريقيا، لدراسة موضوع ثقب الجماجم البشرية، هناك، دراسة ميدانية. وبينما كان أعضاء هذه البعثة يقومون بالمهمة الشاقة التي أوكلت إليهم، عثروا على ١٢ من المرضى الذين ثقبت جماجمهم، أتوا من ثلاث قرى تقع على بعد ٥٠ كم من منطقة « كيزي »، القرية من بحيرة فيكتوريا. ولقد أخذت لجماجم أربع من هؤلاء المرضى، صور شعاعية، للتحقق منها؛ كما قدم اثنان من « فاتحي الجماجم »، عمر أحدهما ٧٠ سنة والآخر ٧٢ سنة، ويسميهما أفراد القبيلة، « الأطباء المحليين »، قَدْماً للبعثة إيضاحات هامة منها، إن كل واحد منهما يقوم بإجراء حوالي خمسين عملية كل عام، ومنها أنهم أربعة أطباء، في المنطقة، يمارسون هذه الجراحة؛ مما دفع البعثة إلى أن تقدر عدد العمليات المجرأة عند قبيلة الـ « غوزي » التي تقطن السهل الأعلى لكينيا، بـ ٢٠٠ عملية كل عام. ويعتقد أعضاء البعثة هذه، أن هذه الجراحة، لا بد وأنها تمارس في تنزانيا القرية من حدود كينيا. وكذلك على ضفاف الجانب الآخر من بحيرة فكتوريا. ويقدر « ماركيتس » أن نسبة النجاح، في عام ١٩٥٨ — ١٩٥٩، بلغت ٩٥٪ تقريباً.

وأخيراً، يمكننا أن نخلص إلى القول، إن عملية ثقب الجمجمة عند الإنسان بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ، وكانت تبدو تارة، وكأنها لون من ألوان السحر، وتارة أخرى وكأنها نمط من أنماط الشعائر والطقوس. ولكن الدور الرائع الذي أدته، كان في سعيها الجريء، إلى معالجة الإنسان والقضاء على آلامه. وإنه لمن العبث غير المشمر، أن نحاول التمييز بين فتح الجمجمة كطقس من طقوس وشعائر القبائل البدائية، وبين فتحها من أجل المداواة الطبية؛ ذلك لأن دور الطبيب الساحر، ودور الطبيب الكاهن، في أغلب المجتمعات البدائية، المعاصرة منها، ومجتمعات ما قبل التاريخ، دوران متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

## الطبيب الساحر في حضارة الكهوف

كانت حياة الإنسان، في العصر القديم، حياة قاسية، فكان يُمضي كل نهاره في صراع مع الطبيعة، وفي مطاردة الحيوانات لقنصها، وكان الصيد وسيلة حياته وغايتها. ثم كان عليه، عند حلول الظلام، أن يلجأ إلى كهفه وأن يكون على أهبة الاستعداد، مخافة أن يداهمه حيوان مفترس.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

## قصص الأشباح، وصور جدارية لحيوانات نافرة

وتحكي ليالي الشتاء، ليالي النار الموقدة، والأساطير، والأضواء الخافية حيناً، والمتوهجة أحياناً، قصص الأشباح الهائمة. حيوانات نافرة، والقناص في أثرها، وحيوانات قد عُثِّقَت على أعناقها عوذات تدفع عنها الأذى، وصور جدارية، في مساحات عريضة، تكاد تثير الرعب بظلماتها، وغموض تاريخها القديم المجهول، وعول وأبقار وحشية وجياد، وأحياناً كائنات مشوهة، لها جسم إنسان ورأس حيوان؛ ونجد أحياناً قطعاناً متناثرة تتوسطها أشكال بديعة، من صنع فنان كبير.

وكانت هذه اللوحات البدائية، على جدران الكهوف، أول أثر مرئي، للديانة، التي نشأت عن الاتصال بالعالم الخارجي، والإحساس به، فكانت المعجزة الأولى للإنسان، إذ شملت كل ما لا يعرفه وكل ما لم يصل إلى معرفته فيما بعد.

## آثار خالدة لفن الكهوف

إن الآثار الخالدة لفن الكهوف الرائع التي خلفها لنا أبناء العصر الحجري القديم ما زالت قائمة في كهوف فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، ولقد بقيت على مر العصور، بفضل ثبات الحرارة والرطوبة في تلك الكهوف.

وتبرز بعض الصور المرسومة بأصباغ معدنية، كما تبرز تخطيطاتها المحفورة بالمناحت الحجرية، شاحخة تضاهي أعظم روائع الفن التي ابتدعها الفكر الإنساني في جميع العصور.

## رسوم بلغت حد الكمال

وكان أولئك الرسامون، الذين بلغوا في إجادة الرسم حد الكمال، يعرفون تفاصيل أجسام الحيوانات التي صوروها، معرفة تامة. ومما لا ريب فيه أنهم قاموا بتشريح العشرات من تلك الحيوانات تشريحاً مفصلاً، قبل البدء بتصويرها؛ تماماً كما فعل الفنان الشهير، ليوناردو دافنشي، عندما شرح الأجسام البشرية في سبيل الإبداع في فنه.

## رسم امرأة عارية

ففي أحد كهوف فرنسا، التي ترجع إلى العهد المجدليني (من العصر الحجري القديم)، صورة امرأة عارية رسمت على حائط الكهف، بألوان معدنية أخذاة، وبراعة فائقة، تنافس أعظم لوحات فن الرسم، في عصرنا الحديث.



وفي كهف « لاسكو »، في مقاطعة الدوردونيو في فرنسا، صورة جدارية رائعة ويعتبرها النقاد، الصورة الوحيدة التي يظهر منها أثر التأليف .  
وفي كهف بالقرب من مدينة باليمو، في إيطاليا، صورة رائعة التأليف، تمثل جماعة من الراقصين، يحيطون بحيوانين ذكرين، سقطا فريسة في أيديهم .  
وفي أحد الكهوف الفرنسية، رسم يرقى إلى العصر الحجري القديم الأعلى، يمثل رجلاً صياداً متنكراً بهيئة وعل .  
وفي تلك الكهوف الفرنسية، رسوم أخرى، واحدة لثورين وحشيين، والثانية، للماموث، والثالثة للكركدن، ورسمت كلها بمنتهى الإتقان .

### كآال التشريح

ويبدو كآال التشريح في فن الكهوف، في كهف كلاباتا قرب كريتاس، في اسبانيا، في رسم يظهر فيه وعلان، متقابلان .  
كما يبدو ذلك في رسم في أحد الكهوف الاسبانية، يمثل عدداً من صيادي العصر الحجري الوسيط، يتعقبون سرباً من الغزلان والوعول، وقد أصابت النصال صدور بعضها، واستقرت فيها . وتبدو « الحركة » في هذا الرسم البارع، في تقدم الصيادين، برشاقة وهم ممسكون بالأقواس، ومسددون للرماح ؛ وفي سرعة هرب هذه الحيوانات خوفاً من القناصين .  
وفي كهوف « التاميرا »، قرب سانتاندار باسبانيا، وعمرها ٢٠٠٠٠ سنة، وجدت صورة رائعة، للثور البري الأمريكي، ولغيره من الحيوانات، رسمت بتفصيل تشريحي دقيق .  
وقد نجد أحياناً، في الرسوم الجدارية التي رسمها إنسان ما قبل التاريخ، ربحاً أو سهماً، أعمد بدقة في أحد الأعضاء الحيوية للحيوان، مما يدل أيضاً على أن صيادي ذلك الزمان، كانوا على معرفة دقيقة بتشريح ضحاياهم من الحيوانات .

### تعبير فني، أم طقوس وشعائر ؟

ولم تكن رسوم الصياد الوعل، أو الثور البري الأمريكي، مجرد تعبير فني فحسب ؛ ذلك لأنها رسمت في أماكن من الكهوف مربةكة وحرجة، وتحت أضواء المصابيح الحجرية، التي كان وقودها من سائل شحم الحيوان ؛ بل كانت هذه الرسوم، كما هو المرجح، جزءاً من طقوس وشعائر ذلك العهد . وأن السهم الذي غرس في القلب، لم يكن رسمه مجرد لوح طبي

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

مصور ، لتعليم الصيادين ، بقدر ما كان أيضاً جزءاً من السحر الفني ، للوصول إلى تحقيق صيد جيد ومثمر .

وفي كهف « الأخوة الثلاثة » في فرنسا ، وهو أشهر الكهوف وأعظمها شأنًا ، توجد الرسوم الجدارية التي يعود تاريخها إلى ما قبل ١٦٠٠٠ سنة ، وفيها ظهرت صورة منحوتة للطبيب الساحر أو رجل الطب ، مقنع برأس وعل ، وهو يعالج مريضاً .  
والطبيب الساحر ، أو الإنسان الوعل هذا ، هو أقدم طبيب ، أمكننا معرفته ؛ وهو النموذج الأول ، للطبيب « ييلبو » والطبيب المنجم ورجل الطب : « الشامان » ، لكل من المجتمعات البدائية ، منذ العصور الحجرية الأخيرة ، « النيوليتيك » وحتى يومنا هذا .

### غضب الآلهة والأرواح الشريرة

كان إنسان ما قبل التاريخ ، يعمل جاهداً لمعالجة نفسه ، بما لديه من وسائل محدودة ؛ ولكنه عند استعصاء الداء ، وتعذر الشفاء ، كانت تأملاته البدائية تدفعه إلى إعطاء تفسير آخر للمرض . فتارةً ، كان يعزوه إلى غضب الآلهة ، فيلجأ إلى التماس رضاها بتقديم القرابين إليها . وكان الكهنة يقومون بالتوسط لدى الآلهة ، كما هي الحال في المجتمعات المتخلفة في كل مكان وفي كل زمان ؛ وطوراً ، كان يرى في المرض رجساً من عمل الشياطين ، أو أذى سببته أرواح شريرة ؛ فكان لا بد له من اصطناع الرقى والتمايم السحرية ، وكان لا بد من أن يضحي بالذبائح استرضاءً للآلهة .

وفي مرحلة لاحقة راودت الإنسان هواجس قادته إلى أن يعزو داءه إلى أعداء له ، على قيد الحياة ، يرسلون إليه الداء بالتعاونيد والسحر ؛ كما هي الحال عند قبائل الجوجو الإفريقية ، وكما هي الحال أيضاً ، عند بعض المجتمعات المتخلفة ، في عصرنا الحاضر . فلا بد له إذن من أن يلجأ إلى السحرة ، لمحاربة التعاويذ بالتعاونيد ، والسحر بالسحر .

### حياة أخرى آهلة بالأرواح

وفي تطور آخر نشأ عند إنسان ما قبل التاريخ اعتقاد بوجود حياة أخرى ، آهلة بالأرواح ، منها أعداء له ، ماتوا ، فأرسلوا إليه الداء ، ليثأروا منه . فكان يلجأ إلى ترديد العبارات السحرية ، وإلى استرضاء الآلهة ، طلباً للشفاء .

هنا في هذه المرحلة ، تبرز إلى الوجود ، شخصية هامة هي « الطبيب الساحر » وقد يكون كاهناً أيضاً ، وقد يكون ساحراً ، وكاهناً معاً .

## الشامان أو الطبيب الساحر

بيئته :

### في الطفولة الأولى

أنشأ الإنسان الأول مؤسسة تربوية، تضم الأسرة والعشيرة، المؤلفة عادةً من بضع أسر تنتمي إلى أصل واحد. وكان الطفل فيها، في أول عهده، يتلقى تربيته من أمه وأخواته الكبيرات؛ ثم عندما يكبر يبدأ باللعب مع أترابه من الأطفال؛ ثم يأخذ بالذهاب إلى الصيد مع والده، وتبقى البنت مع أمها، لجمع جذور النباتات وأثمارها.

### مَحَن قاسية في سن البلوغ

وعندما يصل الصبي سن البلوغ، تتولى العشيرة كامل تربيته، فتعزله مع أترابه من الصبية في جماعة مستقلة، حيث يُعرضهم الشيوخ لحن وتجارب قاسية، تصل في كثير من الحالات، بتر عضو من أعضاء الجسم. ونحن نعرف ذلك، من صور ظلال الأيدي، التي قطعت منها بعض الأصابع، تلك الصور التي لا تزال باقية على جدران الكهوف الفرنسية حتى الآن. وهناك دليل آخر، عُثر عليه في الجزائر، وفي ألمانيا، وهو أن الشايبا العليا قد نُخلعت من جماجم تعود لأشخاص تجاوزوا سن البلوغ. وعملية بتر الأصابع وخلع الأسنان، من الحن والتجارب التي يتعرض لها الأولاد في مدارس البالغين بين الأقوام البدائية الحية.

### الصيام والصلاة ليلاً ورؤية الرؤى

بمثل هذه الهزات التي يتعرض لها الجهاز العصبي، وبالصيام وصلاة الليل، يصل الصبي إلى الحالة النفسية التي يرى فيها الرؤى بسهولة، وخاصة، عندما يطلب إليه أن يبحث عنها. كما أن مظهر الرجال المقنعين، وهم يمثلون أدوار الأجداد أو الأرواح الأخرى، يترك في نفس الصبي تأثيراً عميقاً. وكانت هذه الأعمال المرهقة، والمحفوفة بالغموض، مصحوبة بسلسلة من الدروس المؤثرة، عن السلوك اللائق، الذي على البالغين أن يسلكوه تجاه النساء والأطفال ومن هم أكبر سنّاً منهم، وتجاه عالم النبات وعالم الحيوان، وتجاه الأرواح. ويشمل هذا المنهاج كافة الحوادث الطارئة التي قد تقع في حياة الأولاد الذين يتابعون هذه الدراسة. ويعتقد العلماء، أن مدارس الغابات هذه ترجع إلى حضارة العصر الحجري القديم الأسفل.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

## أول اختصاصي بين البشر

في مثل هذه البيئة، نشأ الشامان، الطبيب الديني، وهو أول اختصاصي ظهر بين البشر. وما لا ريب فيه أن الشامان قد وجد في عصر البليستوسين المتأخر؛ ذلك لأن الأطباء الدينيين، وُجدوا في جميع الشعوب الحية التي تمارس الصيد، بما في ذلك الشامانيون الذين انقرضوا حديثاً. والأطباء الدينيون يشبهون الدراويش، وأهل الطرائق عندنا، الذين يأتون بخوارق الأعمال، ويقومون أحياناً بعمليات الإبراء والشفاء.

## التلميذ الكاهن وأحلامه

والشامان، رجل، لا كباقي الرجال، إذ كان في صباه يختلف عن سائر رفاقه، حالم، خيالي، مضطرب التوازن؛ وقد يقع مريضاً قبيل حلول الوقت الذي يجب أن تظهر فيه كفاءته كصياد. وأثناء مرضه، يثير انتباه أساتذته الشامانيين الذين يرون فيه تلميذاً نخبياً، وهنا يحظى هذا التلميذ الكاهن باهتمام أساتذته، الذين يخبئونه في أحد ملاجئهم حيث يعتزلون... وينصرف التلميذ، في معتزله هذا إلى أفكاره وأوهامه، وأحلامه الكثيرة. وكان صيادو ذلك العصر ينظرون إلى الأحلام بكثير من الاهتمام والجد، تماماً كما يفعل اليوم أتباع فرويد من علماء التحليل النفسي، ثم يحدث شيء خارق للعادة.

## أطباء الأونا وأعمالهم السحرية

ولقد ذكر بعض الرواة، أن الأطباء الدينيين، في قبائل الأونا، وهم يمثلون اليوم إنسان العصر الحجري القديم أحسن تمثيل، يشقون بطن هذا التلميذ الكاهن، بعملية سحرية، ويخرجون أمعائه، ثم يستبدلونهم بقماش «روحي» ذي خملة كزغب الأوزة؛ ومن ثم يصبح بطن الشامان مسكناً مريحاً تأوي إليه الأرواح. أما ماذا حدث فعلاً؟ فأغلب الظن أننا لن نعرفه أبداً. على أننا واثقون من شيء واحد وهو أن الشامان يتعلم السيطرة النفسية على بعض وظائف جسمه، والتي تعتبر عادة من الأعمال التلقائية، لقد تعلم زمارس، كمن يمارس رياضة «اليوغا» رياضة الروحانيين في الهند؛ تعلم طرقاً عديدة للسيطرة على النفس. ويساعد الرقص بالدوران السريع، وترديد بعض العبارات، على تغيير مستوى حرارة اليدين، وعلى الدخول في حالة من الغيبوبة والتجلي.

## قصص مثيرة

ويروي لنا لوكاس بريجز، وكان راويةً ممتازاً، ونزيهاً كل النزاهة، يروي لنا في كتابه الفذ،

## الشامان أو الطبيب الساحر

بيئته :

### في الطفولة الأولى

أنشأ الإنسان الأول مؤسسة تربوية، تضم الأسرة والعشيرة، المؤلفه عادةً من بضع أسر تنتمي إلى أصل واحد. وكان الطفل فيها، في أول عهده، يتلقى تربيته من أمه وأخواته الكبيرات؛ ثم عندما يكبر يبدأ باللعب مع أترابه من الأطفال؛ ثم يأخذ بالذهاب إلى الصيد مع والده، وتبقى البنت مع أمها، لجمع جذور النباتات وأثمارها.

### مَحَن قاسية في سن البلوغ

وعندما يصل الصبي سن البلوغ، تتولى العشيرة كامل تربيته، فتعزله مع أترابه من الصبية في جماعة مستقلة، حيث يُعرضهم الشيوخ لحن وتجارب قاسية، تصل في كثير من الحالات، بتر عضو من أعضاء الجسم. ونحن نعرف ذلك، من صور ظلال الأيدي، التي قطعت منها بعض الأصابع، تلك الصور التي لاتزال باقية على جدران الكهوف الفرنسية حتى الآن. وهناك دليل آخر، عُثر عليه في الجزائر، وفي ألمانيا، وهو أن الثنايا العليا قد نُحِلِعت من جماجم تعود لأشخاص تجاوزوا سن البلوغ. وعملية بتر الأصابع وخلع الأسنان، من المحن والتجارب التي يتعرض لها الأولاد في مدارس البالغين بين الأقوام البدائية الحية.

### الصيام والصلاة ليلاً ورؤية الرؤى

يمثل هذه الهزات التي يتعرض لها الجهاز العصبي، وبالصيام وصلاة الليل، يصل الصبي إلى الحالة النفسية التي يرى فيها الرؤى بسهولة، وخاصة، عندما يطلب إليه أن يبحث عنها. كما أن مظهر الرجال المقنعين، وهم يمثلون أدوار الأجداد أو الأرواح الأخر، يترك في نفس الصبي تأثيراً عميقاً. وكانت هذه الأعمال المبهمة، والمحفوفة بالغموض، مصحوبة بسلسلة من الدروس المؤثرة، عن السلوك اللائق، الذي على البالغين أن يسلكوه تجاه النساء والأطفال ومن هم أكبر سناً منهم، وتجاه عالم النبات وعالم الحيوان، وتجاه الأرواح. ويشمل هذا المنهاج كافة الحوادث الطارئة التي قد تقع في حياة الأولاد الذين يتابعون هذه الدراسة. ويعتقد العلماء، أن مدارس الغابات هذه ترجع إلى حضارة العصر الحجري القديم الأسفل.

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

## أول اختصاصي بين البشر

في مثل هذه البيئة، نشأ الشامان، الطبيب الديني، وهو أول اختصاصي ظهر بين البشر. وما لا ريب فيه أن الشامان قد وجد في عصر البليستوسين المتأخر؛ ذلك لأن الأطباء الدينيين، وُجدوا في جميع الشعوب الحية التي تمارس الصيد، بما في ذلك الشامانيون الذين انقرضوا حديثاً. والأطباء الدينيون يشبهون الدراويش، وأهل الطرائق عندنا، الذين يأتون بخوارق الأعمال، ويقومون أحياناً بعمليات الإبراء والشفاء.

## التلميذ الكاهن وأحلامه

والشامان، رجل، لا كباقي الرجال، إذ كان في صباه يختلف عن سائر رفاقه، حالم، خيالي، مضطرب التوازن؛ وقد يقع مريضاً قبيل حلول الوقت الذي يجب أن تظهر فيه كفاءته كصياد. وأثناء مرضه، يثير انتباه أساتذته الشامانيين الذين يرون فيه تلميذاً نجيباً، وهنا يحظى هذا التلميذ الكاهن باهتمام أساتذته، الذين يجتبعونه في أحد ملاجئهم حيث يعتزلون... وينصرف التلميذ، في معتزله هذا إلى أفكاره وأوهامه، وأحلامه الكثيرة. وكان صيادو ذلك العصر ينظرون إلى الأحلام بكثير من الاهتمام والجد، تماماً كما يفعل اليوم أتباع فرويد من علماء التحليل النفسي، ثم يحدث شيء خارق للعادة.

## أطباء الأونا وأعمالهم السحرية

ولقد ذكر بعض الرواة، أن الأطباء الدينيين، في قبائل الأونا، وهم يمثلون اليوم إنسان العصر الحجري القديم أحسن تمثيل، يشقون بطن هذا التلميذ الكاهن، بعملية سحرية، ويخرجون أمعائه، ثم يستبدلونهم بقماش «روحي» ذي خملة كزغب الأوزة؛ ومن ثم يصبح بطن الشامان مسكناً مريحاً تأوي إليه الأرواح. أما ماذا حدث فعلاً؟ فأغلب الظن أننا لن نعرفه أبداً. على أننا واثقون من شيء واحد وهو أن الشامان يتعلم السيطرة النفسية على بعض وظائف جسمه، والتي تعتبر عادةً من الأعمال التلقائية، لقد تعلم زمارس، كمن يمارس رياضة «اليوغا» رياضة الروحانيين في الهند؛ تعلم طرقاً عديدة للسيطرة على النفس. ويساعد الرقص بالدوران السريع، وترديد بعض العبارات، على تغيير مستوى حرارة اليدين، وعلى الدخول في حالة من الغيبوبة والتجلي.

## قصص مثيرة

ويروي لنا لوكاس بريجز، وكان راويةً ممتازاً، ونزياً كل النزاهة، يروي لنا في كتابه الفذ،

قصصاً مثيرة عن أعمال سحر مدهشة ، قام بها طبيب ساحر ، يدعى هوشكين ، ينتمي إلى إحدى قبائل الأونا . ولقد شاهد بريجز تلك الأعمال ، بأمر عينه ، ولم يستطع أن يجد تعليلاً لما شاهد ، إلا أن الشيء الحقيقي ، الذي بدا ثابتاً لبريجز ، هو أن الطبيب الساحر هذا ، جعل أفراد الأونا ، الذين شاهدوا أعماله السحرية ، يعتقدون بقواه الخارقة ، التي يستطيع بها أن يشفي أصدقاءه من المرض ، كما يستطيع أن يتلي أعداءه به .

### الطبيب الساحر في خطر دائم

إن الشهرة التي يتمتع بها الطبيب الساحر ، بين أفراد قبيلته ، تجعل من حياته حياة رخاء وعناء معاً ؛ فلم يكن يذلل في سبيل قوته ، إلا جهداً قليلاً ، لأن الآخرين كانوا يتكفلون بإعاشته . ولكنه كان في الوقت نفسه ، في خطر دائم ؛ فقد تُعزى إليه الأمراض والنكبات ، ومن ثم ما كان على الناس أهون من أن يقتلوه . وكما يقول بريجز « وغالباً ما يكون هدف الغزاة الرئيسي ، في الحروب التي تقوم بين القبائل ، قتل الطبيب الساحر عند الجماعة المعادية » . ويقول بريجز ... « كلا لا أريد أن أكون طبيباً ساحراً (شامان) ، لئلا ألام يوماً على نوبة قلبية قاتلة يصاب بها إنسان يعيش على بعد مئة ميل مني ! » .

### حركاته وصراخه

كيف كان الشامان يتعاطى مهنة الطب ؟

يقول لوكاس بريجز « إن الشامان يقف منتصباً إلى جانب المريض المسجى ، أو ينحني عليه ، وبطيل النظر إلى موضع الألم ، ويترك مسحة من الرعب تكسو وجهه ، وكأنه يرى أشياء خفية لا نراها نحن ؛ وهو يتقدم ببطء وحذر نحو المريض ، أو يقفز مرتعاً كأنه يهرب من الشيء الخبيث الذي سبب المرض . وهو يحاول أن يجمع يديه هذا الشيء الخبيث في موضع واحد من جسم المريض ، في الصدر غالباً ، ثم يضع عليه فمه ويمصه بعنف شديد . وقد يدوم هذا الصراع مدة ساعة ، ثم يعاد فيما بعد كرتة أخرى . وفي أوقات أخرى يتعد الطبيب عن المريض ، وهو يُرى وكأنه يحمل شيئاً منه في فمه يستره يديه . وبعد أن يدير الطبيب الساحر ظهره ، يسحب يديه ، ثم يضمهما ضمّاً قوياً ، ويرمي هذا الشيء ، غير المرئي ، على الأرض ويدوسه بقدميه ، ويعنف ، ويطلق صرخة هائلة يصعب وصفها ويستحيل فهم معناها . وقد يُظهر الساحر ، أحياناً ، قطعة من الطين ، أو قطعة من الصوان ، أو فارة صغيرة ، ويعلن أنها سبب علة المريض . » .

- قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

## تنكره بهيئة وعل أو غول ، ودخوله في غيبوبة

وللطبيب الساحر رداؤه المميز له عن سواه من الناس . وقد يتنكر بهيئة وعل حيناً ، كما في منحوتة « كهف الاخوة الثلاثة » ، أو بهيئة حيوان غريب الشكل بشع ، حيناً آخر . ويبدو وكأنه وحش هائل ، يسير على ساقيه الخلفيتين ، وهو يصرخ ويذمر ويهذي ، ثرافقه في سحره وفي حركاته الغريبة هذه ، دقات الطبول العنيفة ، وذلك لإضفاء الهيبة وإقناع المرضى بقدراته الفائقة في تعقب الأرواح الشريرة . وقد يدخل في بعض الأحيان في غيبوبة قصيرة ، أو يدخل في سبات عميق . وهيئة الطبيب الساحر هذه ، وكذلك حركاته ، تكاد تكون واحدة في كل زمان وفي كل مكان .

ونحن اليوم ، قد تبدو لنا أفعال الطبيب الساحر هذه ، قبيحةً وغريبة ، أو سخيفة ومضحكة ، إلا أنها في واقع الحال ليست كذلك ، لأننا إذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية الطقوس أو الشعائر ، وجدنا أن عمل الروح الشريرة ، أو الشيطان المسبب للمرض ، عملٌ بشع وغريب ، فلا بد إذاً من أن يُقابل بشيء مماثل بشع وغريب . أضف إلى ذلك أن ارتداء الزي المثير للرعب ، يزود الطبيب الساحر بثقته بنفسه ، كما يزوده بثقة الآخرين به .

وإننا نلاحظ أن اللباس الخارق للطبيعة ، والذي حَبَّت الطبيعة به بعض الحيوانات ، يمنحها « روحاً خارجية » ، أو قوة خارجية مؤثرة . لذلك نجد الناس ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، يسعون إلى « حماية » أنفسهم ، ووقايتهم ، واكتساب تلك « الروح الخارجية » المؤثرة ، بازتداء جلود الحيوانات والظهور بالمظهر الساحر والمؤثر .

لقد كان هرقل يحمي نفسه ، ويمارس « الطب الوافي » ، عندما لبس جلد الأسد ، شعار قبيلته الطوطمي ، الذي كان أفراد القبيلة ينصبونه أمام منازلهم ؛ كما أن كهنة بابل كانوا ينشدون تلك « الروح الخارجية » عندما كانوا يقيمون الشعائر ، وهم مرتدون جلود الأسماك .

وهناك غاية أخرى من ارتداء هذه الجلود ، ومن تباهي الطبيب الساحر بها وبقوة سحره ، وهي أن يُدخل في روح مريضه الأثر الأقوى .

ولم تكن غايته ، الخطوة عند الآلهة ، بقدر ما كانت غايته وضع « النفس » ، نفس المريض في إطارها الصحيح . أضف إلى ذلك أن بعض المكتشفات الأثرية تشير إلى أن هؤلاء المعالجين السحرة كثيراً ما كانوا يُضيقون إلى سحرهم بعض الأدوية ، وكان أكثرها من الأعشاب الطبية ؛ وأن بعضها كان مفيداً ، لمعالجة الأمراض ، ومن هنا بدأت تتحقق طرق مداواة طبية جديدة وسليمة .



وإنه لمن اليسير اليوم، أن ننبد تلك الحشائش الطبية، وأن نطرح جانباً الأدوية المستخلصة منها بالغلي، وكذلك الكمادات والمعالجات الفيزيائية، بحجة أنها خدع من عمل المشعوذين البدائيين، ولكن أمراً هاماً ينبغي ألا يغرب عن بال علماء الطب الحديث، وخاصة منهم، أولئك الذين يثقون بعناد وتكبر في طرقهم الحديثة، وفي أدويتهم، ويعمدون إلى نبذ الأعمال الطبية القديمة كلها، وقد نجد اليوم بعض هذه الأعمال تافهة لا قيمة لها؛ إلا أننا نرى، في الوقت نفسه، أن نبذها كلها يشكل إنكاراً لفضل الأقدمين، وازدراءً بمميزات طبهم، الذي يحمل في بعض جوانبه، معارف، وخبرات ذات أهمية بالغة.

وأخيراً نرى أنه من الأهمية بمكان، القول بأن من الشامان، الطبيب الساحر والديني، تحدرت عبر العصور، سلسلة من الاختصاصيين تضم في حلقاتها: الكهنة، والأطباء، والجراحين، والعلماء، والباحثين. ولكي يتمكن كل واحد من هؤلاء من تأدية عمله على الوجه الأكمل، لا بد له من أن يستوحي من أسلافه الأطباء السحرة، فن إتقان الصنعة، وحسن عرضها. كما أنه لا بد له في الوقت ذاته من أن يؤمن برسائله وبقدسيته.

## بعض المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ

من المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ، والتي تعود إلى حضارات لا نملك الكثير من المعلومات الدقيقة عنها، محاولة استئصال شأفة الداء بمصه بواسطة «أنبوبة جوفاء»، ويتم ذلك بشكل صوري حيناً، وبشكل فعلي حيناً آخر، عندما يُمص السم عبر تلك الأنبوبة.

كما أن «أكل لحم الحيوان»، الذي تتخذه القبيلة رمزاً لها، «طوطمها»، يعتبر جزءاً من شعائر المداواة. ومن الطريف أنهم كانوا يعتبرون «بعض أجزاء الحيوان»، كالقلب والكبد والدماغ، مقرأً للأرواح الشريرة؛ وكانوا يعتقدون أن أكلها نيئة يزيد من قدرتها الشافية، وأن أكل بعضها يداوي الأعضاء المماثلة، المريضة، عند الإنسان. فأكل كبد الحيوان يطرد الروح الشريرة من كبد الإنسان المريضة؛ وأكل قلب الحيوان، يداوي قلب الإنسان، المريض، وهو ما يسمونه «مداواة الداء بالداء». ويذكرنا هذا، بقول قيس، مجنون بني عامر، وصاحب ليلى، عندما أتوه بشاة نُزِع منها قلبها، يريدون بها شفاءه من دائه، فقال:

وشاةً بلا قلب يداووني بها وكيف يداوي القلب من لاله قلب ؟

كما أننا نجد مثل هذه المعتقدات في شعائر الرومان واليونان ، وقرايينهم . ولقد بقيت هذه المعتقدات مدونة في لوائح الأدوية ، في أوربة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت هذه المعتقدات جزءاً هاماً من الشعائر الدينية النصرانية . فالخبزُ القرباني يرمز إلى جسد السيد المسيح ، وخمرةُ السر المقدس ترمز إلى دمه : وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : « خذوا كلوا هذا هو جسدي . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم ، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد ، الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » . (إنجيل متى ٢٦ / رقم ٢٦ و ٢٧ و ٢٨) .

ولم تكن ممارسة الأطباء السحرة لفنهم ولشعائرهم العلاجية ، تقتصر على المداواة الخارقة للطبيعة فحسب ، بل إنهم اكتسبوا أيضاً معرفة بدائية ، إذ تعلموا من التقاليد المتوارثة ، ومن تجاربهم الخاصة ، أساليب يُعتمد عليها في المداواة ؛ وأحرزوا إلى جانب تقدمهم في التطبيب بالأعشاب ، تقدماً آخر في مجال الجراحة ، وجبر الكسور ، والتوليد ، لقد حققوا ذلك ، في الوقت الذي كانوا يزرعون فيه تحت أعباء حياة قاسية ، همهم فيها الكفاح من أجل البقاء .

وكما أن ملاحظة الإنسان لبعض النباتات والحبوب الصالحة للأكل ، ومبادرته إلى زرعها ، قد أدت إلى نمو وتطور زراعة المواد الغذائية ، كذلك أدت ملاحظة « رجل الطب » و « المرأة الحكيمة » لطبيعة المرض من جهة ، ولخواص النباتات الطبية من جهة أخرى ، إلى نمو وتطور الكثير من المعالجات التي انتقلت بعد تجربتها ، إلى الأجيال اللاحقة .

ولقد كشفت أدراج ورق البردي ، التي خلفها قدماء المصريين ، عن معلومات واسعة ، وأسماء كثيرة ، لأدوية وعقاقير ، كان يستعملها إنسان ذلك الزمان . كما أن قصائد هوميروس ، تعتبر كتاباً طبياً يرجع إليه ، لأنها تحتوي على الكثير من الوصفات الطبية السليمة .

ولقد خلّفت لنا آثار حضارات وادي النيل القديمة ، صوراً لنباتات طبية ذات خصائص مفيدة ، وكان للمصريين والصينيين والأرثيكي ، حقائق خاصة بالنباتات الطبية .

ولقد سبق لنا أن قلنا إن البدائيين القدماء كانوا يستعملون الأعشاب الطبية ، وكانوا يلجؤون إلى صنوف من المخدرات المنومة منها أو المسكنة للألم . ولقد تمكنوا أيضاً من الكشف المبكر لخصائص السموم النافعة ، ولخصائصها المميّنة أيضاً . عرفوا « الإييكاكوانا » السم

الأمازوني، وذي الخصائص المقيئة. كما عرفوا «الكورار» سم السهام أيضاً، الذي يمت بشل العضلات، والذي أصبح في عصرنا الحاضر واحداً من أهم العقاقير المساعدة للجراح أثناء قيامه بعملياته الجراحية.

وعرفوا نبات الماندراغورا أو اللُفاح، ويسمى أيضاً تفاح الجن. وهو مثل آخر لنبات اشتهرت خصائصه المختلفة، عند أقوام عديدة، تفصلها عن بعضها المسافات الشاسعة. ونبات اللُفاح جذور رئيسية وتدية ذات فرعين يشبهان ساقَي الإنسان ويعطيان النبات هذا شكل شخص خشبي. ولقد عزت الأساطير الشعبية إلى هذا النبات خصائص حيوانية، فقالت إنه يزعم ويصيح، إذا ما اقتلع من جذوره؛ وقالت إن أي إنسان يسمع صياحه، لا بد أن يصاب بالجنون؛ وقالت إن له تأثير السحر. وكان الاعتقاد السائد أن هذا النبات مُقوٍ للباه، أي للشهوة الجنسية، ويشفي من العقم. وإذا ما رجعنا إلى كتاب العهد القديم (التوراة)، وقرأنا ما جاء فيه في سفر التكوين، الأصحاح الثلاثون رقم ١٤: «ومضى رأوبين في أيام حصاد الحنطة فوجد لُفاحاً في الحقل جاء به إلى ليئة أمه، فقالت راحيل لليئة أعطيني من لفاح إبنك، فقالت لها أقليل أنك أخذت رجلي فتأخذين لفاح ابني أيضاً. فقالت راحيل: إذا يضطجع معك الليلة عوضاً عن لفاح ابنك. فلما أتى يعقوب من الحقل في المساء خرجت ليئة لملاقاته وقالت إليّ تجيء لأني قد استأجرتك بلفاح ابني. فاضطجع معها تلك الليلة.... وذكر الله راحيل وسمع لها وفتح رحمها فحبلت وولدت ابناً، فقالت قد نزع الله عاري. ودعت اسمه يوسف...». فإذا ما رجعنا إلى التوراة، وقرأنا ما جاء في سفر التكوين، تبين لنا أن راحيل عندما طلبت إلى أختها ليئة أن تأتيها بنبات اللُفاح هذا، كانت تبغي من وراء ذلك: معالجة عقمها والقدرة على الإنجاب. وكانت راحيل على جانب من الحكمة أيضاً إذ أرادت من استعماله أن يساعدها أثناء الوضع، بخصائصه المنومة والمخدرة الحقيقية.

وكان المصريون يعتقدون أن اللُفاح هذا، هبة خاصة وهبها لهم رع إله الشمس.

وفي القرن التاسع، استعمل ديسكوريدس، هذا النبات، كمخدر لإجراء العمليات الجراحية. وفي روايته. أنطونيوكليوباترة، أشاد شكسبير بالخصائص المنومة لهذا النبات عندما أنشد على لسان كليوباترة، التي قالت:

«إسقوني من شراب الماندراغورا، علني أنام فأمضي بذلك هذا الزمن الطويل، وقد غاب فيه حبيبي أنطونيوكليوباترة بعيداً عني».

## • قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

وواقع الحال، أن لكل شعب من الشعوب، في كل مكان، وعبر كل العصور، منوماته الخاصة كالأفيون والحشيش والكوكا، وكثير غيرها. كما أن هنالك حشائش محلية نجدها في أصقاع مختلفة من العالم، تستعمل كعقار مجهض للحمل، وذلك بغية تحديد النسل.

وإذا ما عدنا بالذاكرة إلى قصة ميلاد السيد المسيح، وقدم المجوس من المشرق إلى القدس، يسألون أين الملك الذي ولد؟ فقد رأينا نجمه فجئنا لنسجد له...  
« فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً، وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه. فخروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له الهدايا ذهباً ولباناً ومرّاً » (إنجيل متى الأصحاح الثاني ١٠ و ١١).

ولم يكن تقديم هذه الهدايا مجرد ممارسة لشعائر الزمان القديم: فاللبان دواء، واسمه العلمي Olibanum مشتق من العربية؛ وهو صمغ راتنجي، لا يزال يعطى في معالجة أمراض النساء، كما أنه يُعطى في معالجة أمراض الحلق، وبعض أمراض الصدر. والمُرُّ، دواء أيضاً، وهو منبه وقابض، ويستعمل في معالجة التهاب القصبات المزمن، وكذلك في مداواة بعض أمراض النساء. كما أن صبغته، صبغة المر، تطبق في معالجة آلام الأسنان وفي بعض أمراض اللثة.

وفي قصة هيرودوتس عن فن التحنيط يقول: « إن قدماء المصريين كانوا يغسلون الجوف مراراً وتكراراً بخمر النخيل، ويمنقوع أقوى العطور، ثم يملأونه بالمُرِّ المهروس، والشمشم الأسود، وبكل أصناف الطيوب ».

ومن أجل تجهيز جسد يسوع وحفظه، (إنجيل يوحنا، ١٩ / ٣٩) كتب: « وجاء نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منا ». أي خليط من المر والصبر يناهز مئة درهم، وحملوا الجسد وطيبوه وكفنوه.

وأخيراً إذا كنا قد استعرضنا مراحل تطور المعالجة عبر أقدم العصور، لحضارات لم يعرف العلماء عنها إلا النذر اليسير، فإن المكتشفات الأثرية المعاصرة قدمت لنا معلومات بالغة الأهمية، عن حضارات لاحقة، غنية، كحضارات سومر، وبابل وآشور، أثرت معرفتنا بمراحل تطور فن المداواة عبر تلك العصور.



## الفصل الثاني



الطب السومري

- سومر .
- حضارة سومر ، وحضارة الشرق الأدنى القديم .
- كتاب في الطب ، وأول دستور للأدوية .
- حضارة ما قبل الطوفان .
- دور الآلهة في تشخيص الأمراض ومداواتها .
- أسلوب المداواة في العصور السومرية والأكدية الأولى .

# اِطْبَـلُـمُـرِي

## سومر

### جبابرة .. من الخليج

حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م، كتب المؤرخ البابلي «بروس» أول كتاب عن سومر. وكان ماجاء في كتابه هذا، مزيجاً من الخرافات والأساطير. فلقد تحدث فيه عن جيل من الجبابرة، أتوا من الخليج، ليقطنوا بلاد ما بين النهرين، ويدخلوا فيها فنون الزراعة والكتابة وطرق المعادن. وكان على العالم أن ينتظر ألفي سنة قبل أن يتسنى له الكشف عن بلاد سومر، وعن أسرارها الغامضة وقصصها العجيبة التي لا آخر لها.

### الآثاريون يكتشفون مدن سومر

ففي عام ١٨٥٤، كشف عالمان إنكليزيان النقب عن مواقع مدن سومر: «أور» و «أريدو» و «أوروك».

وفي أواخر القرن التاسع عشر كشف العلماء الفرنسيون، النقب عن مدينة «لاغاش». كما تم الكشف عن مدينة «نيبور» أو «نُفر».

وفي عام ١٩٢٩ نُقب الآثاري الإنكليزي Leonard Woolley، والأستاذ في جامعة بنسلفانيا، في مدينة «أور» العتيقة التي أنشأ فيها السومريون حضارة لهم قبل ٤٥٠٠ سنة ق.م.

في هذه المدن السومرية القديمة، سكنت أجناس مختلفة الأصول، كانت تتصارع فيما بينها؛ أقوام غير سامية تسعى للاحتفاظ باستقلالها، وهجرات سامية تزحف من مدينة «كيش»، صاحبة أقدم ثقافة عرفت في تلك البلاد. ومن «أكاد»، وغيرها من مراكز العمران الشمالية. وكانت هذه الأجناس المتصارعة، تتعاون، دونما سعي أو إرادة منها، لتقيم قبل عام ٤٥٠٠ ق.م، صرح حضارة هي أول ما عرفت في التاريخ من الحضارات القديمة، وهي أعظم تلك الحضارات اتساعاً وشمولاً وإنشاءً وإبداعاً.



### السومريون أوجدوا الخط المسماري

كان السومريون أول من أوجد وطور الكتابة التي عرفت فيما بعد بالخط المسماري ، ذلك الخط الذي اقتبسته عنهم معظم شعوب الشرق الأدنى القديم .  
ففي عام ١٨٧٧ ، بدأ الآثاري الفرنسي دوسارزيك أولى التحريات الآثارية في ربوع وادي الرافدين . وفي تلك الربوع ، في موضع سومري قديم يدعى « تلو » ، كشف هذا العالم النقاب عن الكتابات السومرية بأنواعها المختلفة .

### التنقيب في نفر

ثم بعد عشر سنوات ، أي في عام ١٨٨٧ ، بدأت البعثات الأمريكية بالتنقيب في موضع سومري آخر قديم ، يدعى « نفر » ، يقع على بعد ١٠٠ ميل تقريباً ، عن مدينة بغداد ، واستمرت في التنقيب حتى عام ١٩٠٠ ميلادي ، فكشفت عن عشرات الألوف من الكتابات السومرية .  
ثم أرسلت ، في عام ١٩٤٨ ، بعثة تنقيب أمريكية خاصة لاستئناف الحفر في مدينة « نفر » ، بعد مضي حوالي نصف قرن على التنقيبات الأولى .

### حضارة وادي الرافدين

ولقد أثبتت الكشوف الآثارية كلها ، التي تمت في ربوع الشرق الأدنى عامة ، وفي بلاد وادي الرافدين خاصة ، أن الإنسان الأول انتقل في تطوره ، من عهود الفطرة والبدائية ، إلى تجربة مثيرة ، غيرت حياته ، وذلك عندما أنشأ الحضارة الرائدة وأسس المدنية ؛ وأن حضارة وادي الرافدين ، أثَّرت في كافة حضارات الشرق الأدنى القديم .

### حضارة وادي النيل

وكانت هنالك ، في وادي النيل ، حضارة مماثلة تنمو وتزدهر وتتفاعل مع حضارة وادي الرافدين . وكانت بلاد الشام ، تشكل ملتقى لهاتين الحضارتين ، ومكاناً لتفاعلهما .

### الشام ملتقى

في هذا الجزء من العالم ، الآهل بالسكان والزراخر بالثقافات المختلفة أنشأت الزراعة والتجارة والمركبات ، وسُكَّت النقود ، كما نشأت الحِرَف والصناعات والشرائع وعلوم الحساب

والهندسة والفلك والطب ؛ وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والخبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المدارس والمكتبات ، وفيها نشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج .

### الآريون أخذوا الحضارة عن بابل ومصر

عرفت كل هذه الأشياء ، ومنها استمدت أوربة ثقافتها ، على مدى القرون ، عن طريق كريت ، واليونان ، والرومان ؛ ويقول ول ديورانت . « إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ؛ وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً ، لأن ماورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ؛ وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم ، مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغامرات التجارة والحرب ؛ فإذا درسنا الشرق الأدنى ، وعظمتنا شأنه فإننا بذلك نعرف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي منذ زمن بعيد » .

### إنجازات سومر الرائدة

وإننا لنجد في حضارة سومر ، التي تعود جذورها إلى ما قبل عام ٤٥٠٠ ق . م ، أول ماأسسه الإنسان من دول ، وماأنشأه وأقامه من امبراطوريات ، وأول نظم للري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول كتب القانون ، وأول من أوجد الكتابة ، وهي أروع ما خلفه السومريون من فنون ، ذلك لأنهم أوجدوا الكتابة وطوروها ؛ ولقد عرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية ، التي اقتبستها عنهم معظم شعوب الشرق الأدنى القديم .

كما أننا نجد في حضارة سومر أولى المدارس والمكتبات ، وأول أدب وأول شعر ، وأول أصباغ التجميل والحلي ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين . وكما أنهم تميزوا بهذه الإنجازات الحضارية المادية ، فإنهم تميزوا أيضاً بالإبداع الروحي ، وذلك حين كتبوا قصص الخلق ، والطوفان . ولقد تسرب فيما بعد الكثير من هذه الأفكار ، وهذه التصورات ، إلى معتقدات الديانتين العبرية والمسيحية .

ولم تكن تلك الإنجازات التاريخية ، الرائدة ، من مادية وروحية ، الميدان الوحيد الذي كشفت عنه الوثائق السومرية ، بل كان هنالك كنز طبي تاريخي عظيم ، كشفت عنه تلك الوثائق : وهو أول دستور للأدوية عرفه الإنسان .

### الكشف عن كنز طبي عظيم

ففي عام ١٩٥٤ ، نشر العالم « صموئيل كريمر » ... الاختصاصي في الأبحاث

السومرية، وأمين القسم البابلي في متحف الجامعة في فيلادلفيا، في الولايات المتحدة الأمريكية، نشر تقريراً أولاً يصف فيه وثيقة طبية منقوشة على لوح من الطين، اعتبرت أول وصفة صيدلية في تاريخ البشرية. ولقد عكف «كريم» على ترجمة هذه الوثيقة الهامة؛ ومقارنتها مع النصوص المكتشفة سابقاً، تبين له أنها ترقى في تاريخها إلى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد؛ وأنها لا تتضمن، في وصفاتها الطبية المدونة فيها أي أثر لتعاويد أو رقى سحرية.

### أقدم كتاب في الطب

ترك لنا هذه الوثيقة التاريخية، طبيب سومري اسمه غير معروف، ارتأى أن يجمع ويدون أثمن وصفاته الطبية، لفائدة زملائه الأطباء، ولفائدة طلابه أيضاً. فهياً لوحاً طرياً من الطين طوله ١٥ سم وعرضه ٩ سم؛ وبرى قلماً من القصب، نهايته مثلبة كالأسفين، ونقش بالخط المسماري، المستعمل في ذلك الزمان، أكثر من اثنتي عشرة وصفة طبية من وصفات الأدوية المفضلة عنده.

ولقد بقيت هذه الوثيقة الطينية، وهي أقدم «كتاب موجز» في الطب عرفه الإنسان، بقيت مطمورة في خرائب مدينة «نفر» طوال أكثر من أربعة آلاف عام، إلى أن أظهرتها إلى الوجود بعثة تنقيب أمريكية، وجاءت بها إلى متحف الجامعة في فيلادلفيا.

وفي متحف الجامعة هذا، قام أمين القسم البابلي، الدكتور «ليون لوغران Leon Legrain» بكتابة مقالة نشرتها مجلة المتحف عام ١٩٤٠، عنوانها «صيدلية نفر القديمة». وكانت محاولة جريئة حين أقدم «لوغران» على ترجمة جزء من محتويات تلك الوثيقة؛ ذلك لأن من الواضح أن فهم محتوياتها عبء لا يمكن أن يحمله الباحث المسماري وحده. فالتعابير الواردة في الوصفات الطبية فيها تعابير فنية اصطلاحية، وعلى مستوى عالٍ من التخصص، الأمر الذي يستوجب اشتراك مختص بتاريخ العلوم وضليع في علم الكيمياء أيضاً.

ومرت الأيام، وبقيت الوثيقة مخبأة في خزانة خاصة، في متحف الجامعة، وبقي «كريم» متردداً وحائراً في أمر ترجمتها، حتى أتت يوماً الفرصة الذهبية.

### أول دستور للأدوية

ففي صباح أحد أيام السبت من ربيع عام ١٩٥٣، جاء شاب يدعى «مارتن ليفي

M. Levey « وقد نال حديثاً شهادة الدكتوراة في « تاريخ العلوم » ، جاء إلى مكتب العالم « صموئيل كيرمر » ، ليسأله إن كان يعرف بعض الألواح الموجودة في متحف الجامعة ، لعله يساعده في درسها من وجهة موضوع تاريخ العلوم والأساليب التقنية . فما كان من « كيرمر » ، وقد جاءت له الفرصة الملائمة التي كان ينتظرها ، إلا أن أحضر لوحاً ، كان يحتفظ به في مخزنه خاصة ، وعكف هو على ترجمته ترجمة أولية ثم بدأ بالاشتغال مع « ليفي » بدراسة النصوص .

وكان عمل « كيرمر » ينحصر بالدرجة الأولى ، في قراءة الرموز السومرية وتحليل تراكيبها اللغوية ، وكان على « ليفي » وهو العالم بالطرق الكيماوية والأساليب التقنية ، أن يعيد إلى الحياة الأجزاء المفهومة من أول دستور للأدوية ( أقرياذين ) في تاريخ البشرية .  
قضى « كيرمر » و « ليفي » أسابيع عدة ، اشتغلا خلالها في دراسة نصوص الوثيقة وأمكنهما في نهاية الدراسة التوصل إلى نتائج مذهلة :

### مصادر تحضير العقاقير الطبية

لقد كان ذلك الطبيب السومري ، على ما جاء في تلك الوثيقة ، يلتجئ ، مثل زميله الطبيب في عصرنا الحاضر ، إلى المصادر النباتية والحيوانية والمعدنية في تحضير عقاقيره الطبية . وكان مصدر معظم مفرداته الطبية من نباتات مثل « القثاء الهندي — القاسيا » والآس ، والحلتيت Asafoetida والصعتر Thyme ، ومن أشجار وثمار مثل الصفصاف ، والشوح ، والكمثرى والتين والتمر . ومن عالم الحيوان استعمل اللبن ، وجلد الحية ، وصدف السلحفاة ، وكان من جملة المعدييات المفضلة لديه ، ملح الطعام « كلوريد الصوديوم » وملح البارود « نترات البوتاسيوم » ؛ وكانت العقاقير تهبأ إما من البذور أو الجذور أو الفروع أو اللحاء أو الصمغ . وكان يحتفظ بها إما بشكل مادة صلبة أو بشكل مسحوق . أما الأدوية التي ذكر ذلك الطبيب وصفاتها فكانت على شكلين : إما أنها تستعمل بشكل مراهم ، أو بشكل مقطرات ؛ وإما أن تستعمل استعمالاً خارجياً ، أو أن تستعمل استعمالاً داخلياً بشكل سوائل .

### تركيب المراهم

وكانت الطرق المتبعة في تركيب المراهم هي ان يدق ويسحق عقار واحد ، أو أكثر من عقار ، ثم ينقع المسحوق في نوع من النبيذ المسمى « كوشما » ، ثم يضاف زيت الشجر

الاعتيادي وزيت شجر الأرز إلى الخليط . وفي إحدى الوصفات ، التي كان « طين » النهر المسحوق ، أحد العقاقير الداخلة فيها ، عجن المسحوق هذا بالماء والعسل ، وكان الزيت المستعمل هو الزيت الذي ذكر باسم « زيت البحر » بدلاً من زيت الشجر .

### تحضير المقطرات

أما المقطرات ، فكانت الوصفات المحضرة بالتقطير ، أكثر تعقيداً ، وقد ذكرت معها إرشادات في كيفية استعمالها للتداوي ؛ وفي ثلاث وصفات ، والتي كان النص السومري فيها صريحاً ومؤكداً المعنى ، استعملت طريقة استخلاص الدواء بالغليان ؛ فلكي يحصل الطبيب على الدواء المطلوب كانت الأجزاء المخلوطة تغلى في الماء ، وتضاف إليها الأملاح والقلوي ؛ ولفصل المواد العضوية ، كانت طريقة الترشيح تطبق ، في الغالب ، على الخليط السائل .

### تحضير الشراب

وفي تحضير الأدوية التي كانت تستعمل استعمالاً داخلياً ، كانت « الجعة » الوسيط المفضل لجعلها سائغة المذاق ؛ فكانت العقاقير المتعددة تطحن لتصبح مسحوقاً ثم تذاب في « الجعة » مكونة شراباً لاستعمال المريض ؛ وفي حالة واحدة ، كانت الجعة واللبن يستخدمان لنقع تلك العقاقير .

### طرق تحضير الأدوية السومرية

يتضح من كل ذلك ، حتى وإن اقتصر الأمر على هذا اللوح بمفرده ، وهو النص الطبي الوحيد الذي كشف عنه حتى عام ١٩٥٤ ، يتضح أن طرق تركيب الأدوية السومرية ودرجاتها ، قد بلغت درجة كبيرة من التقدم ؛ إذ يكشف لنا هذا اللوح ، عن معرفة واسعة وبجملته طرق كيماوية متقنة نوعاً ما .

ففي عدة وصفات ذكرت إرشادات بلزوم « تنقية » المادة الداخلة في الدواء ، قبل « السحق » وهي مرحلة كانت تتطلب ولا شك جملة عمليات كيماوية .

وفي مثال آخر نجد أن « القلوي » المسحوق المستعمل دواءً في إحدى الوصفات هو على الأرجح ، الرماد القلوي المستخرج من حرق نبات من فصيلة النباتات « الرمامية » .

والجدير بالملاحظة من الناحية الكيماوية ، أن الوصفين الواردتين في لوح الطين موضوع البحث ، والداخل في تركيبهما « القلي » ، قد تم استعمال القلي فيهما ، مع مواد

## • الطب السومري

تحتوي على كميات كبيرة من الشحم الطبيعي ، الأمر الذي ينتج عنه « صابون » يستعمل استعمالاً خارجياً .

وهناك مادة أخرى ورد ذكرها في وصفات « طبيينا » السومري جديرة بالذكر ، لأنه لا يمكن الحصول عليها إلا بمعرفة كيماوية ، وهي « نيترات البوتاسيوم » أي ملح البارود ؛ أما فصل العناصر والأجزاء المركبة التي كانت تحتوي على كلوريد الصوديوم ، وعلى أملاح أخرى للصوديوم والبوتاسيوم ، وعلى فضلات من المواد النيتروجينية ، فقد أمكنهم ذلك ، على ما يحتمل ، بالطريقة الكيماوية المعروفة باسم « التبلور الجزئي Fractional Crystallization » .

## إغفال ذكر الأمراض ، ومقادير الأدوية

وفي نص هذه الوثيقة ، أمر نخب لآمالنا ، وهو أن النص لا يسمي الأمراض التي وضعت من أجلها الوصفات ، كي نستطيع أن نحكم على قيمتها العلاجية . إلا أن اختيار كثير من العقاقير يؤكد لنا معرفة وثقة القدماء ، بخصائصها المفيدة . كما أن النص أغفل تعيين المقادير المراد استعمالها ، في تركيب تلك الأدوية ؛ كما أغفل ذكر المقدار الذي يجب أن يستعمل من تلك الأدوية ، وعدد المرات التي تستعمل فيها ؛ ولعل منشأ ذلك الإغفال « التحكم المهني أو الغيرة المهنية » ، إذ من المرجح أن يكون الطبيب السومري قد أخفى عن قصد ، تفاصيل المقادير ، حرصاً منه على صون « أسرار » من أن يتطفل عليها أحد من غير أهل المهنة الطبية ، أو لعله أخفاها حتى عن زملائه من الأطباء .

## الوثيقة خلت من التعاويذ ، والسحر

وأخيراً فإن الأمر الجدير بالملاحظة ، هو أن الطبيب السومري الذي دون هذه الوثيقة الطبية البالغة الأهمية ، لم يعتمد على التعاويذ والرُق السحرية ؛ إذ لم يرد فيها ذكر لأي إله أو شيطان في جميع نصوصها . على أن عدداً كبيراً من الألواح الأخرى الصغيرة ، المنقوشة بالتعاويذ ، قد عنوانها مدونون نصوصها على أنها تعاويذ ؛ ذلك لأن السومريين ، في الألف الثالث قبل الميلاد ، كانوا ، مثل البابليين في العهود المتأخرة عنهم ، يعزون الكثير من الأمراض إلى وجود الشياطين في جسم المريض . وقد ذكرت أسماء ستة شياطين في ترتيلة سومرية خصصت للآلهة الحامية للفن والطب . « أدهشت حتى العلماء المختصين بالمسماريات » .

ومع كل ذلك ، لا تزال الحقيقة التي أدهشت حتى العلماء المختصين بالمسماريات . قائمة ، وهي أن وثيقتنا هذه ، ( التي يرقى عهدها إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ) ، قد خلت خلواً تاماً من التعاويذ وأعمال السحر الخارجة عن نطاق العقول .

## مهنة الطب في بلاد سومر

### عرفوا الطب في الألف الثالث قبل الميلاد

لقد تبين مما جاء في تلك الوثيقة، وفي غيرها من الوثائق، أن مهنة الطب كانت معروفة في بلاد سومر، في الألف الثالث قبل الميلاد. فلقد علم مثلاً أن طبيباً اسمه «لور» كان يمارس الطب في مدينة «أور» في زمن قديم يعود إلى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد. كما أن لوحة مسمارية، وجدت في مدينة «لاجاش» يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ذكرت فيها آلات جراحية، وذكرت فيها طريقة تحضير بعض العقاقير. وكانت اللوحة هذه موقعة من قبل شخص اسمه «أورو كاليرينا»، قد يكون أول طبيب معالج في تاريخ البشرية.

### لوحة طبية طريفة

وهناك لوحة طبية طريفة، وجدت في مدينة «نيبو» يرجع عهدها إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، تحتوي على وصفات من التعاويذ، وفيها ثلاثة أعمدة: كتبت في العمود الأول منها أسماء ١٥٠ نباتاً طبياً؛ وفي العمود الثاني، ذكر المرض الذي يعالج بهذه النباتات؛ وفي العمود الثالث، مقادير الجرعات وعددها في اليوم الواحد، وهل تؤخذ قبل الطعام أم بعده، وغير ذلك من الإرشادات الطبية.

### مشارط جراحية

ولقد عثر المنقبون، في بعض حفريات تلك الحقبة، على العديد من السكاكين النحاسية الصغيرة، مما يوحي بأنها استعملت كمشارط جراحية من قبل الأطباء الجراحين؛ كما عثروا في مدينة «كيش»، على صكوك طبية أصلية (رُقم وألواح)، كتبت بالحروف التصويرية، ويعود تاريخها إلى ٤٢٠٠ سنة قبل الميلاد.

### أختام للأطباء

كما عثر في مدينة «لاغاش» على ختم لطبيب، يعود تاريخه إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، يصور المعبود «إيرو» وقد بدا بهيئة الإله «نيرغال» إله الأرض السفلى والأوثنة والمرض. والختم هذا عبارة عن أسطوانة مجوفة نقش عليها اسم صاحبها، إلى جانب اسم المعبود «إيرو».

## • الطب السومري

ولقد ورد في بعض الأختام الأسطوانية أيضاً، والخاصة بطبيب سومري، ورد اسمه، واسم بعض الأدوات الطبية العائدة له، من إبر ومشارط وأحقاناً للزيت . وكانت أختام المعالجين هذه، تُدخّل فوق ألواح من الطين الطري، وبها يتم التوقيع على آجُرّات كانت بمثابة سجلات، أو بطاقات معانية للمرضى، في ذلك الزمان .

## الحية رمز للشفاء

وعثر في مدينة « لاغاش » على لوحة، رسم عليها دورق عليه صورة حيتين ملتفتين على بعضهما، وخلفهما « جوديا » أمير « لاغاش »، وقد كتب عليها أنها مهداة إلى « نيدكيش زيدا » إله الشفاء . ويعود تاريخ هذه اللوحة إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهذا يخالف ما كان يظن من أنها شعار من وحي « اسكولابيوس » الإغريقي . والحية عند السومريين رمز للشفاء، ورمز للحياة الدائمة، لا تموت وإنما تخلع ثوبها كل عام لتجدد شبابها . وفي ملحمة « غالاميش » ما يشير إلى منشأ هذا الاعتقاد .

## غضب الآلهة

على أن ما ذكر لا يعني أن أساليب المعالجة، عند شعوب وادي الرافدين كانت كلها مبنية على أسس مادية صرفة؛ إذ كان قدماء هذه الشعوب، في أول عهدهم بالطب، ينظرون إلى المرض على أنه عقاب من الآلهة، وانتقام من الأرواح الغامضة، تدفعها إليه نزوة أو رغبة في معاقبة الإنسان المسيء . وكان لهذه الآلهة الدور الكبير في تشخيص الداء، وفي علاجه . ولاتقاء غضب الآلهة، والأرواح الناقمة، والقوى الشريرة، ابتدعت شعوب وادي الرافدين، طرقات شتى كاسترضاء الآلهة بتقديم القرابين، أو اللجوء إلى الرُق والسحر والتعاويز .

## حضارة ما قبل الطوفان

### قصة الطوفان

عندما قدم العهد بحضارة سومر، حاول الشعراء السومريون، حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م، استعادة تاريخ بلادهم القديم؛ فكتبوا قصصاً عن بداية الخليقة، وعن الجنة، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة، فخرّبها، عقاباً لأهلها على ذنب اقترفه أحد ملوكهم



الأقدمين . وتناقل البابليون ثم العبرانيون قصة الطوفان هذه ، التي أصبحت فيما بعد جزءاً من العقيدة المسيحية .

وقبل حدوث الطوفان ، أي قبل عام ٢٣٤٨ ق . م ، وقبل أن يترك ابراهيم الخليل أرض أور ، إلى حران في شمالي سورية ، ويصبح فيما بعد التوراتي الأول ؛ كان هنالك في « أور » ثقافة سبقت حتى السومريين ، وتجلت في صنع الآنية الفخارية المزينة بالرسوم والصور الدقيقة ؛ ثقافة قامت ونمت على شروخ ضفاف الفرات الغنية بالطين ، ثم حدث فيضان النهر فيما بعد ليغمر معالم تلك الثقافة .

ولقد اتفق علماء الآثار ، ولزمن طويل ، على أن قصة الطوفان ، كما جاءت في سفر التكوين ، الأصحاح السابع ، من كتاب العهد القديم ، استندت في أساسها إلى الأسطورة السومرية التي يعود أقدم نص لها إلى أكثر من ٢٣٠٠ عام قبل الميلاد .

### حضارة سبقت السومريين

إلا أن العالم السير « ليونارد ووللي » وجد سنة ١٩٢٩ الأدلة على حدوث الطوفان ، وبرهن على أن الأمر ليس مجرد أسطورة أخذت عن أسطورة : نبش ووللي قبور مدافن الملوك ، في بلاد ما بين النهرين ، وأصبحت لديه القناعة بأن الحضارة المتقدمة التي كان أولئك الملوك يمثلونها لا بد أنها كانت تعود إلى حضارة سابقة في ماض بعيد . فعمق الحفر عبر أنقاض تلك المدافن حتى وصل إلى طبقة من الطين الفخاري ، نظيفة ومتجانسة من أولها إلى آخرها ، وذات بنية تشير إلى أنها وجدت وبسطت هناك بفعل المياه .

وكان العاملون مع ووللي يصرون على أن هذه الطبقة من الطين ، هي النهاية ، هي القعر ، ولا شيء بعدها . وأن عليها شيدت المنازل الأصلية لذلك الموطن . ولكن ووللي لم يكن مقتنعاً بذلك . حيث أن الطبقة كانت أعلى بكثير من المستوى الذي عليه الفيض الأصلي . لذلك طلب إلى العاملين المضي في الحفر ، فشقوا الطين الفخاري ، إلى عمق ثمانية أقدام وهنا وجدوا أنفسهم أمام حضارة أخرى ، أعرق في القدم ، هي حضارة « أور » التي أغرقها الطوفان ، وغمرتها مياهه .

وإن الطوفان القادر على أن يرسب ما ارتفعه ثمانية أقدام من الطين الفخاري هو طوفان عظيم وكاف لإقناع أولئك الذين نجوا منه وبقا على قيد الحياة ، بأنه طوفان أغرق العالم كله . ويقدر العلماء بأن ذلك الحدث يعود إلى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد .

### عندما يموت الملك يدفن معه أتباعه

وفي المدافن الملكية في مدينة «أور» وجدت، في قبر اكتشفه المنقب الإنكليزي «ليونارد ووللي L. Woolley» عام ١٩٢٩، ثروة مدفونة فيه، منها قارب من الفضة الخالصة، طوله ٦٥ سم وارتفاعه ٢٠ سم في حالة جيدة يدعو للدهشة؛ ويرتبط وجود هذا القارب بتصور السومريين لمياه تحت الأرض، التي على الميت اجتيازها ليصل إلى العالم الآخر. ومن هذه الثروة أيضاً لوحة من الفضة، قيمة جداً، وتعتبر مثلاً رائعاً لفن الترسيع الراقى عند السومريين. وتتكون زخرفتها من ٢٠ حقلاً مربعاً، تحمل مناظر وأشكال وتزيينات من الصدف واللازورد، وفي داخل صندوقها سبع أحجار صدفية، مع رسوم محفورة عليها. وما هو هام في الأمر، هو أن «وللي» وجد، إلى جانب الثروة المدفونة في القبر، أدلة على أن شعب «أور» كان يقدم لآلهته، الأوصياء من الأحياء. فعندما يموت الملك أو الملكة أو أحد أفراد الأسرة الملكية، تدفن معه ثروته، وكذلك يدفن معه أتباعه، يلحقون به إلى الحياة الأخرى في موكب ينزل عبر منحدر من الأرض إلى نفق يؤدي إلى حُفر الموت الجماعي المعدة لهم وكانوا يدفنون أحياء.

### ٦٦ هيكلاً من النساء

وفي حجرة طولها ٣٧ قدماً وعرضها ٢٤ قدماً وجدت الهياكل العظمية للأتباع، وعددها ٥٧ هيكلاً من النساء، ممددة على أرضية النفق، وستة محاريب، في مدخل الممر، على رؤوسهم خوذ من النحاس، كبيرة، وإلى جانب كل منهم، رحمان. وتقف وراءهم عربتان، بأربع عجلات، جَرَّ كل منهما ثلاثة ثيران. وقد وجدت هياكلها العظمية ممددة أمام العربتين، وباتجاه مدخل المدفن.

كما وجدت بمحاذاة أحد جدران الحجرة، هياكل عظمية، لتسع من النسوة، تغطي رؤوسهن عمارات مرتبة ترتيباً جيداً، لم يمسسها أو يغير من شكلها شيء، سوى ضغط التراب عليها. وتزين تلك الرؤوس حلل وحلقات من الذهب، وأكاليل من اللازورد والعقيق، ووريقات ذهبية، ومشابك شعر من الفضة، وحلية بشكل أمشاط على مؤخرة رؤوسهن وحلي في أعناقهن. وهنالك رأس ثور من الذهب وأدوات وتريه، وزخرف مرصع من الواجهة الأمامية بقيثارة كبيرة، مما يدل على أن النسوة كن موسيقيات في حاشية الملك.

### قرايين إلى الآلهة

وكانت هذه الهياكل ممددة على أرضية المدفن في صفوف مرتبة ترتيباً، متقناً، مما لا يدع

مجالاً للشك في أن ذلك قد تم دون أن يصحبه عنف أو خوف، وهذه الحال، لم تكن لتبدو على هذا النحو، لو أن أولئك النسوة ضُربن على رؤوسهن أو طُعُن بسكين، أو عانين من النزاع بالاختناق. فالأدلة كلها، كانت تؤكد أنهن لم يقتلن خارج الحفر، وأنهن تطوعن للتضحية بأنفسهن كقرايين تقدم إلى الآلهة.

### شربوا شرباً منوماً

لذلك كله، نرى أنه إذا ما أوكل إلى خبراء بالجنايات، والطب الشرعي، أمر التحقيق في أسباب وفاة أصحاب هذه الهياكل العظمية المُعيرة، والتي تكاد أن تنطق وتحدثنا أحاديث يعود تاريخها إلى ٤٥٠٠ سنة خلت، فلسوف يكون قرار هؤلاء الخبراء هو كالتالي: «إن حاشية الملك، من خدم، وحراس، وأتباع، وندماء، اختاروا الموت مع ملكهم ومليكتهم طوعاً، وبملاء إرادتهم وإنهم انتظموا في صفوف مرتبة، ثم شربوا شرباً منوماً، قوي التأثير، وناموا نومهم الأبدى؛ وإن أحد الأتباع نزل الحفرة، وقام، بكل رفق، وبكل عناية، بترتيب الحلي، والقيثارات المعلقة فوق الصدور، والأوراق الذهبية، المزينة للعمرات، قبل أن تطم الحفرة بالتراب.

وإذا ما سلطنا بحقيقة وجود العقاقير المخدرة والمنومة عند السومريين، مع وجود وسائل الزينة والتجميل التي اكتشفت في حجرة الملكة، في المدافن الملكية في مدينة «أور Ur». فلا بد لنا أيضاً من أن نقبل بحقيقة وجود نوع من النظام الدوائي «أفربازين»، فيها، وفي كل من ممالك أريخ Erech وكيش Kish ولاغاش Lagash.

ولقد ثبت بالفعل وجود مثل هذا النظام عندما أخرجت إلى النور، وثيقة مدينة «نفر»، التي يرق تاريخها إلى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، والتي اعتبرت أول دستور للأدوية عرفه الإنسان.

### دور الآلهة في تشخيص الأمراض ومداواتها

وإننا هنا، نرى فائدة، من ذكر أسماء الآلهة عند شعوب بلاد ما بين النهرين، ودور بعضها في التشخيص، والمداواة:

١ — آن = آنو. «إله السماء»

تبوأ رئاسة مجمع الآلهة السومري، وكان أباً لكثير من الآلهة؛ وكان مركز عبادته في مدينة «أوروك».

## ٢ — آنكي = أيا . « إله الماء »

وهو الخالق للماء العذب ، كان يقيم مع الربة « نينتو » في « تلمون » (= جزيرة البحرين) ؛ ضاجع « آنكي » الربة « نينتو » ، فولدت له ، بعد حمل قصير مدته تسعة أيام فقط ، الربة « نينمو » ،

## ٣ — انليل = إلّيل . « سيد نسيمات الريح »

هو الابن الأكبر للإله آنو ؛ وهو الأب القومي للسومريين ؛ وكانت « نينليل » الربة الأم ، زوجته ؛ ومن أبنائه نينورتا ، ونيرجال ، إله الأرض السفلى .

## ٤ — أنين = أي — نانا . « عشتار »

ربة الحب وربة الجنس ، وكذلك ربة الحرب والغزو ؛ وهي أهم الآلهة منزلة في مجمع الآلهة السومري — الأكادي ؛ لها ظهورات خاصة بالمدن ؛ فكانت تسمى : عشتار أكاد ، وعشتار كيش ، وعشتار نينوى ، وعشتار آشور ... إلخ .  
وهي ابنة إله القمر « نانا » ؛ ومركز عبادتها في مدينة « أوروك » ، وفي معبدها « بيت السماء » .

## ٥ — بابا

كانت ربة مدينة « لاغاش » السومرية ، وهي ابنة الإله « آنو » وعقيلة الإله « نينجيرو » والدة البنات السبع ؛ وتسمى في أحد الأناشيد الدينية طيبة الرؤوس السود ، طيبة الأكاديين .

## ٦ — مردوك

ورد اسمه في مقدمة قانون حمورابي ( كما سنرى ) ؛ كان له معبد في مدينة « بابل » عرف باسم « أيانجيلا » ، وهو ابن الإله آنكي ، خالق الماء العذب . وأهم صفاته : الحكمة ، والتنبؤ بالمستقبل ، وشفاء الأمراض .

## ٧ — نانا

إله القمر عند السومريين ؛ ابن الإله أنليل والربة نينليل ؛ ونيكال زوجته . وكان لهما

طفلان ريان : عشتار ، وأوتو إله الشمس — وكان شعاره بشكل « هلال » فتحته إلى الأعلى .  
 وكان مقر عبادته الرئيسي في مدينة « أور » ، وكذلك في مدينة « حران » ، التي احتفظت  
 بعبادة إله القمر هذا ، حتى الفتح الإسلامي .  
 لقد كانت شعوب بلاد ما بين النهرين تعتقد بوجود هذه الآلهة ، وكانت تسعى إلى  
 استرضائها لاتقاء أذى القوى الشريرة ، فتضع تماثيلها في بيوتها ، وتقدم لها القرابين .

## أسلوب المداواة في العهود السومرية والأكادية الأولى

كانت المداواة ، في فجر حضارة بلاد ما بين النهرين ، تتم من قبل شخصين اثنين :  
 الكاشف والمعالج .

١ — الكاشف : ويسميه العلماء « أشيبو Asipu » ، هو أول من يستدعى لفحص  
 المريض ، ومهمته تأمل المريض ، وملاحظة أعراض المرض ، ثم وضع التشخيص ، وقراءة بعض  
 الأدعية والتعاويذ .

٢ — المعالج : يسمى « آسو Asu » ، وهو الذي يشخص الداء ، مستنداً إلى  
 أعراض المرض . وهو الذي يحضر الدواء ، ويصفه للمريض ؛ وهو الجراح الذي يستدعى  
 لمعالجة الحالات التي تستلزم الجراحة .

### سلاحه الرق والتعاويذ

الكاشف « أشيبو Asipu » : كان الكاشف ، يعتمد في عمله ، اعتماداً كلياً على  
 النواحي الروحية ، والدينية . لذلك كانت مكانته عند المرضى ، أرفع من مكانة المعالج . وكانت  
 الرق والتعاويذ ، التي يتسلح بها هي التي تحظى بثقة المرضى ، لأنها كانت نابعة من صميم  
 معتقداتهم . تبدأ مسؤولية الكاشف بتقصي كل ماتبصره عينيه ، وتسمعه أذنه ، منذ لحظة  
 استدعائه وحتى لحظة وصوله إلى فراش المريض . فإذا لاحظ طيراً يطير في السماء ، راقب  
 اتجاهه ، أهو طائر يتجه إلى اليمين أم إلى الشمال ؛ وإذا نظر إلى الأرض ، فرأى قطعة حجر ،  
 أو عظم حيوان ، أو بقية ثوب ، ربط كل ذلك بحالة المريض ؛ ثم حين يصل إلى المريض ، ينظر  
 إليه ، ويلاحظ وضعه : هل هو مستلق على ظهره ، أم على جنبه الأيمن أم على الأيسر ؛ ويتأمل

بشرته ، ويلمس جلده ، ويلحظ عينيه ، ويجس بطنه ، ويفحص أطرافه ؛ ثم يضيف إلى ما توفر له من معلومات ، يضيف حساب الفلك ، والأبراج ؛ ثم يدلي برأيه في حالة المريض ؛ ويقوم بعد ذلك بتلاوة بعض الأدعية ، ثم يترك الأمر للمعالج .

### نماذج التشخيص الغريبة

وإنه لمن المفيد والطريف معاً ، ذكر بعض نماذج التشخيص الغريبة ، التي كان الكاشف يقوم بها ، كما وردت في عدد من الألواح المسمارية السومرية ، التي ترجمها المؤلف الفرنسي «رينيه لابات» من نصوص وردت في تلك اللوحات الموجودة في متحف اللوفر بمدينة باريس ، ونقلها إلى العربية الباحث السوري الأستاذ كمال شحادة :

- ١ — إذا رأى الكاشف ، وهو في طريقه إلى المريض كلباً أسود ، فإن المريض سوف يموت .
- ٢ — وإذا شاهد خنزيراً أبيض فإن المريض سيشفى .
- ٣ — وإذا رأى في الطريق بقرة بيضاء ، فإن المريض سينعم برعاية الآلهة .
- ٤ — وإذا كان المريض مصاباً بحمى شديدة في رأسه ، وكانت عضلات صدغيه وقدميه ويديه تؤلمه وكان وجهه أحمر ، وساخن ، فإن يد الإله ستشفيه .
- ٥ — إذا كانت رقة المريض تستدير نحو اليمين بغير انقطاع ، وكانت يداه متشنجتين ، وكذلك قدماه ، وكانت عيناه معلقتين ومقلوبتين . وكان اللعاب يسيل من فمه ، وكان يشخر ، فهذه هي أزمة النوبة الشديدة ؛ فإن كان وعيه كاملاً عند اشتداد هذه الأزمة فذلك ليس صرعاً بالتأكيد ؛ وبالعكس فعندما تضيق مداركه عند اشتداد الأزمة فإن ذلك هو الصرع بالتأكيد .
- ٦ — إذا أصيب في صدره ، وكان به نرف وكان يهذي فإنها يد الإله «نرجال» ؛ وقد أصيب بهذا المرض من قبل وأنه سيموت .
- ٧ — إذا كان المريض يتحدث مع نفسه دون انقطاع ويضحك بسبب أو بدون سبب ، فهو يعاني من مرض الحب ، وهذا ينطبق على الرجل وعلى المرأة .
- ٨ — إذا كان جبين المرأة الحامل ، أصفر اللون ، فإن الجنين الذي تحمل ، طفل ذكر .
- ٩ — وإذا لوحظت في جبين المرأة الحامل ، بقعة براقية بيضاء ، فإن الجنين الذين في أحشائها سيكون بنتاً ، وستكون غنية .

- ١٠ — إذا وضعت امرأة توأمين ذكرين ، فإن البلاد ستعرض للشدة .
- ١١ — وإذا وضعت توأمين أنثيين ، فإن دارها ستكون كما تتمنى .
- ١٢ — إذا كانت المرأة الحامل مريضة ، وواصل زوجها التقرب منها وهي في الشهر الثالث من الحمل ، فإن ذلك سيشفئها .
- ١٣ — إذا قالت امرأة حامل خلال حملها إن قلبها مغموم ، فإن الآلهة « عشتار » ستشفئها .
- ١٤ — إذا ظهرت الحرارة على طفل وكان مع ذلك بارد الجسم بصورة مستمرة فإن يد بنت الإله « آنو » قد استحوذت عليه .
- ١٥ — إذا كانت أحشاء الطفل ملتهبة بصورة دائمة فإن يد الإله « آنو » ستشفئها .

هذا عن الكاشف .

وأما « المعالج » Asu « ، فهو الشخص الثاني الذي يستدعى إلى فحص المريض ، بعد أن يكون الكاشف قد أتم مهمته . ويقوم المعالج بوضع تشخيصه للداء ، بالاستناد إلى الأعراض التي يشكوها المريض ، دون أن يتعرض للناحية الروحية أو الدينية ، يشخص الداء ، ويصف الدواء ، فيذكر عناصره ويوضح كيفية تحضيره ، وطريقة استعماله .

وما أن بدأت الحياة الاجتماعية للشعوب السومرية والأكدية الأولى ، في التطور ، حتى أخذ دور « الكاشف » يضعف شيئاً فشيئاً ، وأصبح « المعالج » أقوى تأثيراً ، وأرفع مكانة ، في مجال تشخيص الداء ومداواته .

وعندما أخذت الحضارة البابلية — الآشورية بالازدهار ، استطاع « المعالج » التغلب على « الكاشف » حتى إن شريعة حمورابي ، ذكرت « المعالج » في بنودها المتعلقة بالطب ، ولم تأت على ذكر « الكاشف » مطلقاً .

## الفصل الثالث



الطب البابلي والطب الآشوري



- علم السحر والتنجيم عند البابليين .
- الطب في العصر البابلي القديم .
- العرافة والكهانة في حضارة بابل .
- العرافة والكهانة وتفسير الأحلام عند عرب الجاهلية .
- أنماط المعالجة في حضارة بابل وآشور .
- أطباء بابل .
- شريعة حمورابي وتنظيم شؤون الطب والأطباء .
- الطب الآشوري .

# اطب البابلي واليط الآشوري

## الكهانة : مجمع الفكر والمعرفة

حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م ، اندرست الحضارة السومرية ، لتحل محلها الحضارة البابلية الآشورية . وكانت العلوم عند البابليين تركز على الدين ، وترتبط به . فكما كانت الحال في الحضارات الأولى ، كان الطبيب المعالج هو الكاهن بآن واحد . والسبب في ذلك يعود إلى أن الكهانة كانت مجمعاً لسبل الفكر والمعرفة ، تخزنها وتؤمن استمراريتها عبر العصور . فكان الكهنة يلحظون الحقائق من حولهم وإن لم يكونوا قادرين على فهمها كلية ، وكانوا يجمعونها في إطار معرفة كهنوتية اكتسبوها جيلاً بعد جيل ، مثال ذلك الفعل الدوائي لأعشاب الصحراء ، وللراتنجيات التي تفرزها شجيراتنا . وكما أصبح علم الفلك عند البابليين ، وهو العلم الدقيق والمنطقي ، أساساً للسحر والتنجيم ، كذلك أصبحت مشاهدات الكهنة لحالات المرض ، ولمعالجاتها ، أساساً لممارسة شعائرهم الكهنوتية . لذلك كان علم السحر والتنجيم ، وعلم الطب عندهم ، علمين متلازمين لا ينفصلان .

## حمورابي ينظم مهنة الطب

ولقد أثر ارتكاز العلوم عند البابليين على الدين وارتباطها به ، في ركود علم الطب ، أكثر مما أثر في ركود علم الفلك ، وفي عهد حمورابي ، خرجت مداواة المرض ، إلى حد ما ، عن اختصاص الكهنة ، وسيطرتهم ، حين نشأت مهنة الطب ، ونظمت ، فأصبحت ذات أجور وذات عقوبات يحددها القانون . فكان المريض الذي يستدعي طبيباً لزيارته ، يعرف مسبقاً ، ما الذي سيؤديه من مال لقاء هذا العلاج أو ذاك ، ولقاء هذه الجراحة أو تلك ؛ وإذا كان المريض من الطبقات الفقيرة ، فإن القانون قد نص على أن يخفض الأجر بما يتناسب مع فقره . وإذا أخطأ الطبيب أو أساء العمل ، كان عليه أن يؤدي للمريض تعويضاً . وقد يبلغ الأمر ، في بعض الحالات التي يكون فيها الخطأ جسيماً ، إلى حد تقطع معه أصابع أو يد الطبيب ، كي لا يعود إلى ممارسة صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة !

### تمسك الشعب بالخرافات

ولكن علم الطب الذي تحرر من سلطان الدين والكهنة تحرراً كاد أن يكون تاماً، كان في عجز عن التطور، بسبب تمسك الشعب بالتشخيص القائم على الخرافات، والأوهام، وعلى المداواة بأساليب السحر. لذلك كان السحرة والعرافون أحب إلى أفراد الشعب من الأطباء؛ وقد فرضوا على الناس، بنفوذهم عندهم، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل. فكان منشأ المرض في رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه؛ وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة التعاويذ وأعمال السحر والابتهاال إلى الآلهة. وإذا ما استخدمت العقاقير الطبية، فلا إلهاب الشيطان وإخراجه من الجسم. وكان أكثر الأدوية شيوعاً عندهم، عقار مركب من خليط من العناصر التي تعافها النفس، اختيرت لهذا السبب، عن قصد. وكانت العناصر المستعملة لديهم هي اللحم النقي، ولحم الثعابين، ونشارة الخشب الممزوجة بالنبيد والزيت، والطعام الفاسد ومسحوق العظام، والشحم، والأقذار، ممزوجة ببول الحيوانات أو الإنسان أو برازه! وكان العلاج بالأقذار هذا، يستبدل في بعض الحالات، باللبن والعسل والزبد والأعشاب العطرية، في محاولة لاسترضاء الشيطان.

### ألواح مكتبة نينوى

على أنه من الإنصاف القول إن الثمانمائة لوح (من ألواح مكتبة نينوى الكبرى) والتي وصلت إلينا لتحدثنا عن طب البابليين، لا تحتوي بالضرورة على كل ما كان لديهم من هذا العلم. ولعلنا نظلمهم إذا ما حكمنا عليهم بالاستناد إلى ما وجدناه من هذه الألواح وحدها. إذ ليس ببعيد أن يكون السحر، استخداماً لقوة الإيحاء، وأن تكون هذه المركبات الكريهة، علاجاً مقيتاً؟ ولعل قول البابليين، إن المرض إنما ينشأ من غزو الشياطين لجسم الإنسان عقاباً له على ما اقترف من آثام، لعل هذا القول لا يعني شيئاً أبعد من المعقول من قولنا نحن اليوم إن المرض إنما ينشأ من غزو الجراثيم لجسم الإنسان بسبب إهماله لنفسه ومخالفته لقواعد حفظ الصحة.

### الآلهة مصدر الطب، والأمراض!

لقد كان البابليون يعتقدون أن الآلهة هي مصدر الطب، كما هي مصدر المعارف الإنسانية كلها، وإليها يرجع فن التطبيب وفن الشفاء. كما كانوا يعتقدون أن الآلهة هي مصدر الأمراض أيضاً. كيف لا؟ وهي، في عقيدتهم خالقة كل ما في الأرض، وكل ما في

## • الطب البابلي والطب الآشوري

السموات من خير وشر؛ وما الأمراض إلا دلالات على غضبها وسخطها على الناس لآثام ارتكبوها. لذلك كانوا يرون أن استرضاء الآلهة هو العلاج الشافي، وأما العقاقير فكانت تعطى لتسكين الداء وتخفيف آلامه. ولذلك كان الطبيب المعالج، طبيباً وكاهناً معاً، يصف العقاقير المسكنة، ويقوم بأعمال السحر، ويستعطف الآلهة. ولقد خصصوا للطب الإله الحكيم «أيا»، سيد المياه.

### العارف بالمياه وبالزيت

ولأنهم استعملوا المياه في الطب، فقد سمو الطبيب «آزو» وهي كلمة سومرية، معناها العارف بالمياه، ومنها اشتقت الكلمة البابلية «آسو» التي استعملت في معظم اللغات السامية، ومنها أيضاً الكلمة العربية «الآسي». كما كان للطبيب اسم آخر هو «يازو» ومعناها باللغة السومرية، العارف بالزيت.

### الحية رمز الحياة الدائمة

ومن الآلهة التي نسبوا إليها الطب، الإله «ننازو» أي سيد الحكماء والأطباء. ومنها أيضاً الإله «تنجشزيذا» ابن الإله «ننازو». ومن الطريف في أمر هذا الإله، بعض الرموز المقدسة التي كانت خاصة به، وهي العصا، وقد التفت عليها حية أو حيتان؛ وكان اعتقادهم أن الحية رمز الحياة الدائمة، لأنها لا تموت، وإنما تخلع جلدها كل عام، فيعود إليها شبابها. وهذا الرمز لا يزال كما نعلم شعار الطب، والأطباء، حتى يومنا هذا. ومن نتائج هذه المعتقدات، أن الطب البابلي لم يكن يقتصر في طرقه وأساليبه على فن تشخيص الأمراض ومداواتها بالعقاقير، أو بالعمليات الجراحية فحسب، وإنما كان مستنداً أيضاً إلى طرق وأساليب العرافة والكهانة والسحر.

## علم السحر والتنجيم عند البابليين

### الكلدانيون أسسوا علم الفلك

لقد امتاز البابليون بعلم الفلك، واشتهروا به بين أُمم العالم القديم كله. وكان كلدانيون (مملكة «أور») شعباً عظيماً. فهم الذين أسسوا علم الفلك وجعلوا منه علماً دقيقاً. استطاع الفلكيون الكلدانيون منذ ألف عام قبل الميلاد حساب زمن السنة، فوجدوه ٣٦٥

يوماً و ٦ ساعات و ١٥ دقيقة و ٤١ ثانية . وهذا الحساب صححته أجهزة القياس الحديثة ، بفارق ٢٦ دقيقة و ٢٦ ثانية فقط . وكانت قياساتهم لقطر القمر أكثر دقة من قياسات العالم « كوبرنيك Copernicus » الذي يعتبر اليوم مؤسس علم الفلك الحديث !  
وكان السحر منشأ هذا العلم ، إذ أن البابليين ، في أول عهدهم ، لم يدرسوا النجوم ليسموا الخرائط التي تعين القوافل والسفن في مسيرها ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ، وبمصائرهم .

### منجمون أكثر منهم فلكيون

ولذلك كان البابليون منجمين أكثر منهم فلكيين . وكان كل كوكب عندهم ، إلهاً من الآلهة ، هم شؤون الناس ، ولا غنى عنه في تدبيرها . فكان نجم المشتري ، الإله « مردوك » ؛ وعطارد « نابو » ؛ والمريخ « دنرجال » ؛ والشمس « شمس » ؛ والقمر « سن » ؛ وزحل « نيبب » ؛ والزهرة « عشتار » . وكانت كل حركة من حركات كل نجم ، أو كوكب ، تدل على أن حادثاً وقع على الأرض ، أو سوف يقع . وأصبحت الجهود المبذولة لاستخلاص العلم بالغيب ، والتنبؤ بالمستقبل من حركات النجوم ، شهوة من شهوات البابليين ، استطاع بها المنجمون ، أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك ومن الشعب على السواء .

## الطب في العصر البابلي القديم

### الوثائق الطبية

إننا ، وإن كنا لا نملك الكثير ، الكثير ، من الوثائق الطبية ، التي تعود إلى العصر البابلي القديم ، إلا أن ما لدينا من هذه الوثائق ، يبرز بشكل واف وصرح « البنية الواضحة » لطب ذلك العصر ، وخاصة إذا ما قورنت هذه النصوص ، بنصوص العصرين البابليين : الوسيط والحديث .

فأحد هذه النصوص العائدة إلى العصر البابلي القديم ، وجد محفوظاً بحالة سيئة ، ولكنه مع ذلك ، يبدو للباحثين ، على جانب كبير من الأهمية . ولقد ذكرت من هذا النص مادتان ، كانت قراءتهما أكثر وضوحاً من قراءة النصوص الأخرى ، وهما :

١ — إذا بدا الخوف في عيني المريض ، أكثر مما كان يبدو عليه ، في زمن صحته ، وإذا كان وجهه بارداً ، فإن هذا المريض لن يشفى .

- الطب البابلي والطب الآشوري

٢ — إذا كانت يدا المريض ، وقدماه ، تؤله ، وكان لا يكف عن الصراخ ، وكان جسده بارداً فإن يد السحر قد استحوذت عليه .

وهنا يبدو الشبه ، بين هذا النص ، وبين نصوص العرافة ، التي سبق ذكرها جلياً واضحاً : ففي كل مادة من مواد النص قسمان :

**الأول :** ويبدأ بـ « إذا كان المريض ... » ، ويستمر في وصف واقع الحال ، وصفاً يأخذ هنا شكل تتابع في الأعراض والعلامات ، من النمط « الطبي » .

**الثاني :** وهو إنذار المرض ، إنذاراً مباشراً ( المادة ١ ) ، أو إنذاراً غير تشخيص الداء ( المادة ٢ ) . وإن تصنيف هذا النص ، على أنه نص « طبي » هو تصنيف ذو طابع حديث ، يصعب الأخذ به .

### تطور منهجية النصوص

إن هذا المثل الوحيد ، لا يمكننا من الحكم على الدرجة التي وصلت إليها المنهجية ، في العصر البابلي القديم . ولكننا نستطيع ، على الأقل ، دراسة تطور تلك المنهجية من خلال الخلاصة الموجزة التالية ، لترجمة نهائية ، لنص آشوري حديث ، تشمل أربعين رُقماً (لوحاً) ، متتالياً ، وتعد واحداً من كنوز مكتبة ، آشور بانيبال :

إذا كانت إلبته اليمنى حمراء ....

إذا كانت إلبته اليسرى حمراء ، فسيؤمن داؤه .

إذا كانت إلبته ، حمراوين ، فلن يكون الداء قاضياً .

إذا كانت إلبته اليمنى صفراء ، فسيبذل داؤه .

إذا كانت إلبته اليسرى صفراء ، فسيكون داؤه أليماً .

إذا كانت إلبته صفراوين ، فسيكون قلقاً ومهموماً .

إذا كانت إلبته اليمنى سوداء : فسيكون داؤه أليماً .

إذا كانت إلبته اليسرى سوداء : فسيكون قلقاً ومهموماً .

إذا كانت إلبته ، سوداوين : ( .... ) .

إذا كانت إلبته اليمنى ملطخة بالسواد ، وممزقة ، فسيؤمن داؤه ، ثم يموت .

إذا كانت إليته اليسرى ملطخة بالسواد ، وممزقة ، ( ..... ) .  
إذا كانت إلياته ، ملطختين بالسواد وممزقتين ، فسيموت .

إذا كانت إليته اليمنى ملتبهة : فسيستبدل داؤه .

إذا كانت إليته اليسرى ملتبهة : ( ..... ) .

إذا كانت إلياته ملتبعتين : فسيستبدل داؤه .

إذا كانت إليته اليمنى خاسفة وهابطة ، ( ..... ) .

إذا كانت إليته اليسرى خاسفة وهابطة ، فسيطول داؤه .

إذا كانت إلياته خاسفتين وهابطين ، فسيكون قلقاً ومهموماً .

إذا كانت إليته اليمنى ، بارزة وناتئة : فسيستبدل داؤه .

إذا كانت إليته اليسرى ، بارزة وناتئة : فسيكون داؤه أليماً .

إذا كانت إلياته ، بارزتين : فسيكون قلقاً ومهموماً .

إذا كانت إليته اليمنى مسترخية ، فسيستبدل داؤه .

إذا كانت إليته اليسرى مسترخية ، فسيكون داؤه مصدراً للقلق .

إذا كانت إلياته مسترخيتين : فسيموت .

إذا كانت إلياته بحالة جيدة فسيشفى .

إذا أصيب الرجل بالسحر : يؤتى بخروف لم يقتات بالعشب بعد ، وتؤخذ كليته ، وتجفف ، ثم تعطى للمسحور ، يأكلها فيشفى .

إذا أصيب رجل باليرقان : تنقع جذور عرق السوس ، في الحليب ثم تترك ليلاً تحت النجوم ، ثم ، ( في الصباح ) ، تمزج بالزيت يشربها المريض فيشفى .

إذا أصيب الرجل بألم في ضرسه : أسحق نبات « براز البحار » ، فإذا كان الألم في ضرسه اليمنى طبق العلاج على ضرسه اليسرى فيشفى . وإذا كان الألم في ضرسه اليسرى ، طبق العلاج على ضرسه اليمنى فيشفى .

إذا انتشر الطفح ( الشرى ) ، وعم جسم الرجل ، أمزج طحين الشعير ، شيئاً فشيئاً ، بالزيت ، يدهن المريض به فيشفى .

إذا أصيب الرجل بلدغة عقرب : طبق له « روث الثور » فيشفى .

إذا أصيبت عينا الرجل بالمرض : أسحق مادة الـ « أنيمون » ؟ ، وطبقها له ، فيشفى .

## • الطب البابلي والطب الآشوري

إذا أصيب الرجل، بحمى الجفاف: أمزج ... من الرماد، ومن طحين «الأسكيوكوم» ومن نبات «الأقاستاكل»، ومن مسحوق آجرة عتيقة، أمزجها بزيت السمسم، يشرب منها فيشفى .  
وهنا نجد نمطاً، من النصوص، جديداً، تبحث فيها الأمراض ومداواتها، وإنذارها .

### أنماط أخرى من النصوص

وفي تطور آخر، لطب العصر البابلي القديم، نجد نمطاً ثالثاً: إذا كان الرجل يعاني من «ضربة» على الخد: أعجن ( ٨ أصناف من العقاقير )، في ... مع الجعة ( البيرة )، الثقيلة، ثم إغلبها في قدر من النحاس، ثم، مدها على قطعة جلد وضمد بها فمه .

إذا كان الرجل يعاني من «ضربة» على وسط جسمه، وتعذر عليه المشي: جفف ثم اسحق ... ( ٤ عقاقير )، تخلط في قدر صغير من النحاس، ثم تمد على قطعة من الجلد ... ثم يضمّد المريض بها، وتترك لمدة ثلاثة أيام ...

مثل هذا النمط من النصوص، وعلاقتها بالنصوص الأخرى المختلفة، يدل على تحول نوعي في بعض الميادين التي كانت لها مكانتها عند البابليين .

### نماذج الكبد

وكان البابليون يعرفون بنية الكبد، ولقد احتفظوا منها بنماذج متقنة صنعوها من الغضار (الفخار) . وكانت هذه النماذج التي تمثل تشريح الكبد، أفضل بكثير من نماذج الكبد، غير المتقنة، وغير الصحيحة، التي كانت سائدة في العصور الوسطى .

### أدوية ووصفات ومعالجات كثيرة

وكانت لوائح الأدوية والوصفات والمعالجات التي استعملها الكهنة الأطباء في بابل، كثيرة وواسعة . وكانت مزيجاً من الرقى والتعاويذ والسحر . وما يمكن اعتباره، حتى في يومنا هذا، دواءً حقيقياً، كان يركب من بعض العناصر المثيرة للاشمئزاز، لتضايق الشيطان وتفرّه . مثال ذلك: «العيون المحتقنة، Sore Eyes»، والحمرة، التي كانت ولا تزال شائعة في مناطق الرياح الخماسينية، تلك الرياح الحارة والجافة التي تعصف في بعض الصحارى الإفريقية :



### شيطان الريح الجنوبية

وكانت إصابات هذه العيون، تعزى إلى شيطان الريح الجنوبية الغربية، الذي كانوا يصورونه على هيئة نسر رأسه رأس كلب، ومخالبه، ومخالب الأسد. وكانوا يفترضون ويتوقعون أن تصاب هذه الريح بالربح عند رؤيتها لبشاعة صورتها. ولذلك كانوا ينصبون هذه الصورة، عالياً، خارج بيوتهم لتبعد عنهم الشيطان وبلاياه.

### العرافة والكهانة في حضارة بابل

#### الآلهة ترسم آفاق المستقبل

كان البابليون يعتقدون أن تلك الآلهة (الكواكب) قادرة على الكتابة، وأنها تكتب بالفعل، وترسم آفاق المستقبل على أنواع من المادة أيضاً مختلفة، وبرموز وأشكال متعددة. وكان العراف يفسر هذه الأشكال، ويترجم هذه الرموز، رابطاً إياها بالمشكلات التي من أجلها أتى المريض إليه.

#### التنبؤ بحال المريض وبحوادث أخرى

هذا الفن، فن الرجم بالغيب، والذي يسميه اختصاصيو الدراسات الآشورية، العرافة أو الكهانة، كان يشكل أحد عناصر الفكر البابلي، عبر تاريخ بابل كله. ولم يكن هذا الفن مقتصرًا على التنبؤ بحال المريض ومصيره فحسب، بل كان يشمل أيضاً الكثير من الأحداث في مجالات متعددة، كأن يتكهن العراف بالطقس الممطر، أو غير الممطر؛ وبالمعركة مع الأعداء أخاسرة هي أم رابحة؛ وبالآلهة أغاضبة هي أم راضية؛ والقلاع أساقطة بيد الغزاة أم صامدة.

كان القدماء يعتقدون أن لا سبيل إلى استطلاع كنه السر إلا بالعرافة والكهانة وتفسير الأحلام، وهي عادة جرى عليها القدماء، في كل الملل والنحل، وأمثلتها في التوراة كثيرة. وكان العراف عند العرب ساحراً ومنبئاً بالغيب وطبيباً أيضاً.

وهنا نرى فائدة من ذكر شيء عن:

### العرافة والكهانة وتفسير الأحلام عند عرب الجاهلية

#### أشهر الكهان في الجاهلية

يقول ابن خلدون في مقدمته: كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث،

• الطب البابلي والطب الآشوري

ويلجؤون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم . وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك . واشتهر منهم في الجاهلية : شق بن أنمار بن نزار ، وسطيح بن مازن بن غسان . ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر ، وما أخبر به من ملك الحبشة لليمن ، وملك مصر من بعدهم ، وظهور النبوة المحمدية في قريش ، ورؤيا الموبدان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح ، فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس ، وهذه كلها مشهورة .

كذلك العرافون ، كان في العرب منهم كثير ، وذكرهم في أشعارهم : قال عروة بن حزام :

فأبته حتى ما أكاد أجيب      فما هو إلا أن أراها فجاءة  
فإنك إن داويتني لطبيب      فقلت لعراف اليمامة داوني  
وقال أيضاً :

ألفنا الهوى واستحكم الحب بيننا      وليدين ما مرت بنا سنتان  
فدقنا رخاء العيش عشرين حجة      أليفين ما نرتاع للحدثان  
جعلت لعراف اليمامة حكمه      وعراف نجد إن هما شفياني  
فما تركنا من حيلة يعلمانها      ولا رقية إلا بها رقياني  
فقالا شفاك الله والله ما لنا      بما حُمِلت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عَجْلة ، وعراف نجد هو الأبلق الأسدي . وجاء في الياذة هوميروس أن النساء كن عند اليونان يمارسن الكهانة ، كالرجال ، وإن كن أقل عدداً . وكذلك كان للرومان كاهنات مشهورات .

### وأشهر الكاهنات

ولقد تعاطت النساء الكهانة عند العرب أيضاً وأشهرهن :  
طريفة الكاهنة ، امرأة عمرو بن عامر ، التي أنبأت بانفجار سد مأرب وسيل العرم ، وما لبثت نبوءتها أن تحققت . وهي التي استخلفت شقاً وسطيحاً ، يوم أشرفت على الموت ، فدعت بهما وتفلت في فميها ، وأخبرت أنهما سيخلفانها .

ومنهن زبراء الكاهنة ، وسلمى الهمدانية ، وغفيرة الحميرية .  
ومنهن الزرقاء بنت زهير ، التي استشارها بنو خزيمة لما نزلوا « هجر » فقالت : « مقام

وتنوخ . فأولد مولود ونقفت فروخ ، إلى أن يجيء غراب أبقع . أجمع أفرع . عليه خِلْخالاً ذهب . فطار فألهب . ونعق فنعب . يقع على النخلة السحوق . بين الدور والطريق . فسيروا على وتيرة . ثم الحيرة الحيرة » .  
قال صاحب الأغاني ( ١١ : ١٦٢ ) : فسميت تلك القبائل تنوخ لقول الزرقاء . ثم لما تمت نبوءتها ارتحلوا من هجر إلى الحيرة .

### بعض نصوص العرافة في المرض والمريض

لقد خلف لنا العصر البابلي القديم وحده ، ما ينوف على مائة نص من نصوص العرافة ، تقتصر هنا على سرد ماورد في بعضها من تكهنات تتعلق بالمرض والمريض . ففي القسم الأول من هذه النصوص يعالج العراف أشكال بقع الزيت الذي يُصبّ في الماء ، ويتكهن بما تعنيه تلك الأشكال ، بالنسبة لحالة المريض الذي أتى يستشيريه :

- ١ — إذا غطس الزيت الذي سكه في الماء ، ثم صعد إلى السطح ، وانتشر في المحيط فإن يد الإله قد استحوذت على المريض .
- ٢ — إذا انقسم الزيت إلى قسمين ، فإن المريض سيموت .
- ٣ — إذا انفصلت قطرة من وسط بقعة الزيت ، واتجهت إلى الشرق ، ثم توقفت ، فإن المريض سيشفى .
- ٤ — إذا انفصلت قطرتان من بقعة الزيت ، إحداها صغيرة والثانية كبيرة ، فلسوف تلد زوجة الرجل ، غلاماً ذكراً . وأما المريض ، فإنه سيشفى .
- ٥ — إذا انتشرت بقعة الزيت ، فملأت سطح ماء القدح ، فإن المريض سيموت .
- ٦ — إذا كانت فقاعة الزيت ، ذات شق متجه إلى الشرق ، فإن المريض سيموت .
- ٧ — إذا تحرك الزيت متجهاً نحو الحافة اليمنى للقدح ، فإن المريض سيشفى .
- ٨ — وإذا تحرك الزيت نحو الحافة اليسرى للقدح ، فإن المريض سيموت .
- ٩ — إذا ولّد الزيت زبداً ، فإن المريض سيموت .
- ١٠ — إذا انطلقت قطرة من بقعة الزيت باتجاه الشرق ، وبقيت ملتصقة بحافة البقعة ، فإن المريض سيشفى .

وكما كان العراف قادراً على تفسير تلك الأشكال الزيتية ، الطافية على سطح الماء ،

وعلى ترجمة رموزها، كذلك كان في مقدوره أن يفسّر الأمارات التي خطتها يد الآلهة على قسّمات الإنسان .

وهنا، لم يكن العراف بحاجة إلى استعمال مادة للرجم بالغيب، بل كل ما كان عليه أن يفعل، هو أن يتأمل، ويرقب ظاهرة تبدو له في وجه المريض، أو يلحظها في حركاته وأفعاله :

- ١ — إذا كان الرجل غير قادر على معرفة رجل آخر، حين ينظر إليه، فإن مصيره الموت .
- ٢ — إذا كان الرجل قادراً على معرفة رجل آخر، وهو على بعد يتراوح ما بين : الذراع الواحد، وثلاثين (ننداناً) ؟ فإن إلهه الخاص به، سيقى معه دائماً .
- ٣ — إذا كان الرجل غير قادر على تركيز بصره، عندما ينظر، فإن نفسه تعاني من الاحتلال .
- ٤ — إذا بقيت عينا الرجل ثابتتين، في كل مرة ينظر بهما، فإنه سيصاب بتشوش في نفسه .
- ٥ — إذا كان من عادة الرجل النظر بشكل مائل فإنه سيقضي نجه من الحصر .
- ٦ — إذا كان من عادة الرجل النظر بشكل مستقيم فإن إلهه يسعده ويبقى معه دائماً، وسوف يحيا مع الصدق والحقيقة .
- ٧ — إذا طرف الرجل بعينه اليمنى عند النظر، فإنه سوف يحيا مع الألم .
- ٨ — وإذا طرف بعينه اليسرى، عند النظر، فإنه سيحيا مع الفضيلة .
- ٩ — إذا كان الرجل يطرف بالعينين، فإن ذلك يشير إلى أن جمجمته قد تعرضت للرض، ولسوف تتعرض نفسه للصدمة أيضاً .
- ١٠ — إذا كان حاجبا الرجل يغطيان عينيه، فإن إلهه سيؤمن له غذاء .
- ١١ — إذا كان شعر الرجل أحمر اللون كالصوف المصبوغ، فإنه سيحيا بعيداً عن الراحة النفسية .
- ١٢ — إذا كان شعر الرجل بلون أسود رمادي، فإن إلهه سيعطيه غذاء .
- ١٣ — إذا وجدت في شعر الرجل خصلة بيضاء، وكانت بشكل شعلة، فإنه سينعم بالصحة التامة .
- ١٤ — إذا وجدت في جلد الرجل، لطح بيضاء، وقد نثرت على الجلد ... هنا، وهناك، فلسوف ينبذه إلهه، وكذلك بنو جنسه .

## أنماط المعالجة في حضارة بابل وآشور

### المعالجة بالعقاقير والأدعية والتعاويذ

من قراءة بعض النصوص الآشورية نجد أن للمعالجة، في حضارة بابل وآشور، أنماط عدة: فهناك المعالجات التي تسير فيها العقاقير، المادية، جنباً إلى جنب مع الأدعية والتعاويذ، مثال ذلك ما جاء في أحد الرقم المسمارية، في معالجة العين:

«إذا كانت عين الرجل مريضة، ويسيل منها مفرز،... خذ صداً النحاس، ومسحوق الزرنينخ والكبريت الأصفر وامزج الجميع بالحليب، وطبق المزيج على عينه أو دق النعناع والصبر وانفخهما في عين المريض بواسطة أنبوب...».

### معالجة الأذن

ومثال آخر في معالجة الأذن: «إذا مست كف الشيخ شخصاً، وطلت أذناه، يطحن الخردل والحلبة وحب الخروع والأقحوان والشيلم، ويمزج الجميع بزيت الأرز، ويلف شيئاً من هذا المزيج بقطنة توضع في الأذن» وسوف يشفى المريض. ومع هذه الأدوية المادية كان يوصى بالأدعية.

### معالجة حالة نفسية

ولقد وجد في أحد الرقم المسمارية نص طريف يتعلق بمعالجة حالة نفسية: «إذا أصبح الرجل بحالة كرهٍ معها نفسه، وأظلمت الدنيا في عينيه، وفقد إنسانيته، وحجب نفسه عن الجماع، وأصابه سحر خبيث، ولاحقه عدوه، وأهين أمام الرب والملك، فإن روحاً ما تناصبه العداء. ولتلطيف هذا السحر: امزج عشب البحر المحروق، والأقحوان والحلبة، وصدأ الحديد في زيت حب العزيز وزيت الأرز ودهن المرة وتربنتين الصنوبر، مع زيت نقى، واتل عليها الدعاء: «كن رؤوفاً»، ثلاث مرات، وادهن المريض بها ولسوف تكون حالته أفضل».

### معالجة السعال

وهناك المعالجات المادية البحتة. ومثالها: «إذا كان سعال الرجل جافاً، دون نفث، إطحن النعناع، وروث الغزال معاً، وامزجها بالجنة، يشربها المريض قبل الأكل، ويشفى».

وهنالك المعالجات بالأدعية فقط. ومثالها: «يامردوخ، السيد العظيم، ابن الإله انليل، يا من بإرادتك تحيي الموتى، انظر إلى المبتلي، فبرعايتك الحميدة تزيل عنه المرض. وأنت أيها الإله كولا، أسرع الشفاء، وخذ نذرك!». وهذا الدعاء يوصف للمريض سبع مرات.

## المهتدين

### مداواة العيون

وكان الطبيب الكاهن يداوي العيون المحمّرة، بأن يسقي مريضه عصير البصل مع جعة النخيل، لمساعدة دموع العين على أن تفيض بغزارة؛ والدموع كما نعلم اليوم، لها خواصها المضادة للجراثيم؛ ثم ترطب العين ويسكن احمرارها بالزيت. ومهما يكن هذا العلاج حميداً، وينصح باستعماله، إلا أن الكاهن لا يرى فيه القوة الكافية لمحاربة مثل هذا الشيطان الكريه وتنفيره. لذلك كان يضيف إليه الوصفة الشعائرية التالية «قم بنزع أحشاء ضفدع صفراء اللون، وامزج مرة حويصلتها بخثارة اللبن، ثم طبق ذلك على العين».

### الحشرات تحمل المرض

وكان نيرغال، إله المرض عند البابليين، والذي اتخذ الآشوريون والبابليون معاً، إلهاً رئيسياً لهم، كان يرمز إليه بالذبابة. والمراد من ذلك واضح، وهو أن الأقدمين هؤلاء، كانوا يعرفون حق المعرفة أن الحشرات إنما هي التي تحمل إليهم المرض.

### عرفوا انتقال الجذام

وفي مجال الصحة العامة، كان للبابليين والآشوريين إنجاز هام هو معرفتهم بانتقال الجذام: ولخوفهم من عدوى هذا الداء الويل، كانوا يقصون المجذوم عن مجتمعه. ولقد وجد نص يعود تاريخه إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد جاء فيه:

« ينبغي ألا يهتدي المجذوم أبداً إلى الطرق التي تؤدي به إلى مكان إقامته الدائمة ».

### الكهنة والمعالجون والجراحون

ويستدل من المصادر التي خلفها لنا الأقدمون أنه نشأت عندهم طبقات من الأطباء، فكانت طبقة الكهنة «الأسيبو Asipu»، وتعنى بالتشخيص بالاستناد إلى دلالات تحيط بالمريض وبقراءة الأدعية، والتعاويز؛ وطبقة المعالجين «الأسو Asu»، وهم العمليون

الذين يضعون تشخيصهم من واقع أعراض المرض ، ويحضرون الدواء ويصفونه للمريض ؛ وهم مهرة بالمداواة بالأعشاب والمعادن ؛ وطبقة الجراحين ، وهم الذين يعنون بالكسور والجروح ، وهم الوحيدون الذين كانت تتناولهم العقوبات ، فيما إذا أحدثت مداخلاتهم الجراحية ضرراً للمريض .

وتشير الكتابات المسمارية إلى أن عدد الأطباء ، في بابل ، لم يكن بالقليل ، وإنه كان منهم فئة من العاملين كموظفين ، وفئة أخرى من الأطباء الخاصين بالملوك . وكانوا ينتقلون من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر ، وكان الواحد منهم يحمل دائماً كيساً ، يضع فيه أدواته . ولقد تمتعت طبقة الأطباء المعالجين ، بمكانة مرموقة لدى الملوك ، ولدى عامة الشعب . وجاء في أحد الألواح المسمارية أن الملك «توشرانا» أرسل إلى الفرعون «أمينوفيس الثالث» ، تمثال عشتار ، ومعه أحد الأطباء المعالجين ، ليداوي الفرعون من داء ألم به . وجاء في لوح آخر أن «موطاليش» ملك الحثيين كان يشكو من فأفة عصبية تعذبه ، فأرسل له الملك البابلي «روتاشي» ، أحد المعالجين من بابل ، فنجح في معالجته . وكانت عادة إرسال الملوك لأطبائهم الخاصين ، إلى الملوك الآخرين لمداواتهم ، عادة متبعة في شتى أقطار الشرق الأدنى . وبينما كان الكهنة مسؤولين أمام الآلهة ، كان الجراحون مسؤولين أمام الحاكم . وكانوا موضع ثقة واحترام الدولة لأنهم كانوا يمارسون الطب بدون شعائر كهنوتية . ويستدل من نصوص شريعة حمورابي ، على أن الطب بلغ في العهد البابلي القديم مكانة في المجتمع رفيعة ، استلزمت تنظيم هذه المهنة بقوانين تحدد أجور الأطباء والجراحين والبيطريين ، كما أنها تحدد العقوبات بحق من يسيء منهم ممارسة مهنته .

## أطباء بابل

معرفتهم لبعض الأمراض وتصنيفهم لها  
عرف الأطباء البابليون جملة من الأمراض صنفوها بحسب الأعضاء المصابة بها : فذكروا أمراض الرأس ، والعين ، والأنف والحنجرة ، والصدر والقلب ؛ كما ذكروا بعض الأمراض النفسية كالجزع ، وضعف الهممة ، والخور ؛ وذكروا بعض الأمراض التي استعصت عليهم كالسرطان ، وسل الرئة ؛ وكذلك ذكروا أمراض الجلد ، كالجرب والجذام ؛ وبعض الأمراض التناسلية ، عند الذكر وعند الأنثى ، وأمراض الشرج ، ولا سيما البواسير ؛ وذكروا التسممات الناجمة عن لدغة العقرب أو لسعة الأفعى .

## معرفتهم بتشريح جسم الإنسان

لقد عرفوا بعض الشيء عن تشريح جسم الإنسان ، ووظائف أعضائه ؛ وكانت معرفتهم تلك مستقاة من طرق العرافة عندهم ، والتي كان من أهمها ، طريقة فحص أحشاء الحيوانات ، وخاصة منها الكبد . واستفادوا من تشريح الحيوان ؛ كما استفادوا مما كان يصيب الأفراد من إصابات في الحرب ، وبذلك وقفوا على أهم أعضاء الجسم الإنساني . وكان اهتمامهم ينصب بشكل خاص ، على بعض الأعضاء الرئيسية ، كالكبد ، شأنهم في ذلك شأن الرومان ، فعُدّوه مقر العواطف ، ومستودع الحياة نفسها ، بسبب احتوائه على كمية كبيرة من الدم . وكذلك قالوا إن القلب مستودع الفهم والدكاء ؛ واهتموا أيضاً بالطحال ، والمعدة والرئتين . وقد ذكر المؤلف الفرنسي ، « كونتونو » في كتابه : « الطب في آشور ، وفي بابل » ، أنهم كتبوا إثباتاً بأسماء أعضاء جسم الإنسان ، وأحشائه .

### أصناف أدويتهم :

وكانت أصناف أدويتهم ثلاثة ، وذلك بحسب المواد الأساسية المستخرجة منها :

١ — الأدوية النباتية المصدر .

٢ — الأدوية الحيوانية .

٣ — الأدوية المعدنية .

فالأدوية المستخرجة من النباتات ، والأعشاب تأتي في مقدمة أدويتهم . ولقد خلفوا لنا لوائح كثيرة بأسماء الأعشاب ، والنباتات والأزهار التي استخلصوا منها أدويتهم هذه . وكانوا يضعون شروطاً لذلك : منها المكان الذي تنبت فيه ، وأوقات قطفها . ولم يكن النبات يستعمل في تحضير الدواء ، وإنما جزء منه ، أو مادة تستخرج منه ، كالعرق واللحاء والساق واللب والورق والزهر ، والنسغ والبذور ... إلخ .

وأما الأدوية المستخرجة من عالم الحيوان ، فقد استعملوا لتحضيرها أعضاء ، وأجزاء ، ومواد ، أخذوها من بعض الكائنات اللبونة ، ومنها الإنسان ، والبقر ، ولا سيما البقر الأصفر ، والخنزير ، والغنم والعنز والحمار والكلب وخاصة الكلب الأسود ، والذئب والغزال والابل . ومن الطيور : الصقر والنسر والبومة والغراب والدجاج والعصفور والحمام . ومن أنواع الحيوانات السفلى : الثعل والحية والسرطان .

وكانوا يأخذون نتاج هذه الحيوانات أو أجزاء منها كالعظام أو الشحم والحليب ، أو الشعر ، أو المخ أو اللسان ... إلخ .



وأما الأدوية المستخرجة من المعادن والأحجار ، فقد كتبوا فيها إثباتاً ، وجداول مطولة . وكانوا يستحضرون منها الأدوية بطرق كثيرة ومعقدة ، كالسحق والخلط والتسخين والتركيب مع مواد أخرى ، وينسب معينة . وذكروا بعض الأدوات والآلات المستعملة في طرق التحضير تلك .

### استعمالهم لبعض الأدوات والآلات :

ولقد ذكروا ، في المراجع المسماة ، بعض الأدوات والآلات التي استعملوها في طبهم ، ولكننا لا نعرف الكثير منها ، وكيفية استعمالها . ومن تلك الأدوات :  
« المفتاح » وهو أنبوب من النحاس أو البرونز ، يستعمل لوضع الدواء في العين ، أو لإدخال العلاج في الأعضاء التناسلية .  
ومنها « الزرافة » ، ولفظها بالبابلية كلفظها بالعربية ؛ يدخلون بها الدواء في مجرى الأذن .

ومنها آلات ، كمباضع التشريح ، والأحقاق ، والإبر .  
واستخدموا بعض الأحجار الزجاجية ولاسيما البلور منها ، لصنع العدسات التي استعملوها للتكبير .

ولقد وجد في مدينة (نمرود) القديمة ، عدسة بلورية ، من النوع المستوي المحدب ؛ وإنه لمن المرجح أنهم استعملوا تلك العدسات « كمنظارات » أيضاً .

### الأطباء يستعملون السومرية

وجدير بالذكر أن النصوص الطبية القديمة كانت تكتب باللغة السومرية ، وكان الأطباء يستعملون الدساتير السومرية ، تماماً كما كان أطباء الغرب يستعملون اللغة اللاتينية . ولعل الأطباء البابليين ، كانوا يقصدون من استعمال اللغة السومرية ، استعمال لغة لا يفهمها المرضى حين يتحدثون فيما بينهم عن المرض ، وإنذاره ، تماماً كما يفعل أطباؤنا اليوم عندما يناقشون حالة المريض بالإنكليزية أو الفرنسية ، ليقوى نفوذهم وتزداد شهرتهم .

### التشخيص بالمشاركة

لقد وصل الطب البابلي ، أثناء تطوره ، إلى مرحلة وصفها هيرودوتس ، ويمكن تسميتها اليوم : « مرحلة التشخيص بالمشاركة » :

يقول هيرودوتس : كان البابليون يأتون بالمرضى إلى سوق ساحة المدينة . وكان على

المارة من أمامه ، أن يتباحثوا معه ، حول مرضه ، ليعرفوا فيما إذا سبق لهم أن أصيبوا بنفس الداء ، وأن يُسدوا إليه النصيح باللجوء إلى نفس الدواء الذي تداووا به هم أنفسهم ، أو الذي تداوى به أناس آخرون يعرفونهم . ولم يكن يسمح للناس بالمرور أمام المريض وهم صامتون وغير محققين في طبيعة علته .

فإذا ما نظرنا إلى هذا على أنه عمل بدائي ، فلنتذكر أن العادات والأعراف من العسير أن تزول . ولنتذكر أيضاً أصدقاءنا ، اليوم ، هنا ، وهناك ، في مجالس الرجال وفي مجالس النساء ، على حِدٍ سواء ، يفضون بشكاواهم من أعراض يعانون منها ، ويتبادلون النصائح في أمر معالجات تصيب حيناً ، وتتضارب ولا تجدي نفعاً ، في أكثر الأحيان . كل ذلك وكأننا نعيش في سوق الساحة في إحدى مدن بابل .

## شريعة حمورابي وتنظيم شؤون الطب والأطباء

بابل : موطن حضارة غنية

ما من زائر اليوم ، لموقع مدينة بابل ، أو متأمل له ، يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ، الممتدة على جانب نهر الفرات ، كانت في الزمن الغابر موطناً لحضارة غنية وقوية ، كادت أن تكون وحدها المبدعة لعلم الفلك ، وصاحبة الفضل الأكبر في تطور علم الطب ، وإنها كانت السبابة في إعداد أول كتب القانون الكبرى .

حضارة علمت اليونان مبادئ الحساب والطبيعات والفلسفة ، وأغنت الأدب القديم بالأساطير ، التي توارثتها الأجيال فيما بعد ؛ ونقلت إلى العرب المعارف العلمية التي أيقظوا بها أوربة من سباتها العميق إبان العصر الوسيط .

## نشأة البابليين ، وظهور حمورابي

نشأ الجنس البابلي من تزواج سلالتين اثنتين : سلالة الأكاديين ، وسلالة السومريين . وكانت الغلبة في السلالة الجديدة ، للأصل السامي الأكادي ، إذ انتهت الحروب التي شبت بينهما بانتصار أكاد ، وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها .

وفي بداية هذا التاريخ برزت شخصية قوية هي شخصية حمورابي (٢١٢٣ — ٢٠٨١ ق.م) ، الفاتح العظيم ، والمشرع ، الذي دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . تصوره بعض الأختام والنقوش البدائية ، بعض الشيء ، ويمكن من خلالها أن نتخيله

شاباً يفيض حماسة وعبقرية وعنفواناً، وعاصفة هوجاء في زمن الحرب . قَلَمَ أظافر الفتن ، وقطع أوصال أعدائه ، وسار في شعاب الجبال الوعرة ، ولم يخسر في حياته واقعة . وَحَدَّ الدويلات المتحاربة في الوادي الأدنى ، ونشر في ربوعها لواء السلام ، وأقام فيها الأمن والنظام ، بفضل قانونه التاريخي العظيم .

### كشف شريعة حمورابي ، وأصولها

كشف علماء الآثار الفرنسيون ، قانون حمورابي ، في مدينة السوس ، عام ١٩٠١ — ١٩٠٢ ؛ حيث وجد منقوشاً نقشاً جميلاً على لوح من حجر الديوريت الأسود ، ارتفاعه ثمانية أقدام ، نقل حوالي عام ١١٠٠ ق.م ، من بابل إلى عيلام ، على يد بعض الغزاة العيلاميين ، مع ما نقل من مغامم الحرب ؛ وهو الآن في متحف اللوفر ، بمدينة باريس .

لقد أخذ حمورابي ، بعض قوانين شريعته ، من التشريعات القديمة ، مثل قانون «أرنامو» مؤسس أسرة «أور» الثالثة ، وقوانين «لبث عشتار» ملك أبسين ؛ وكلها قوانين كانت تضم تشريعات كاملة لتنظيم شؤون المجتمع وحمايته . ثم أضاف حمورابي على تلك القوانين الكثير من المواد الأخرى .

### شريعة منزلة من السماء

ولقد قيل عن شريعة حمورابي أنها منزلة من السماء ، فترى الملك ، في نقش يعلو اللوح ، مائلاً أمام إله الشمس «شمش» ، يتلقى منه شريعته . تقول مقدمة القوانين هذه : «ولما أن عهد «أنو الأعلى» و «بل» رب السماء والأرض ، الذي يقرر مصير العالم ، لما أن عهداً حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك ... ولما أن نطقاً باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر ، قواعد ثابتة ثبات السماء والأرض ، في ذلك الوقت ناداني «أنو» و «بل» ، أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم ، وأقضي على الأشرار ، والآثمين ، وأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء ... وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق . أنا حمورابي الذي اختاره «بل» حاكماً ، والذي جاء بالخير والوفرة ... والذي وهب الحياة لمدينة «أرك» ، والذي أمد سكانها بالماء الكثير ، والذي جعل مدينة بارسيا ... والذي أعان شعبه في وقت المحنة ، وآمن الناس على أملاكهم في بابل ، حاكم الشعب الخادم ...

### شريعة راقية كشرعية دولة معاصرة

وإن المرء ليحار، قبل أن يصدق أن هذه العبارات ذات النغمة الحديثة، أن قائلها حاكم «شرق» جبار عاش في عام ٢١٠٠ ق.م. أو أن يتوهم أن القوانين التي عهد لها، استمدت أصولها من قوانين سومرية مضى عليها الآن ستة آلاف سنة .

لقد رتبت هذه القوانين، البالغ عددها ٢٨٢ قانوناً، ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث، فقسّمت إلى قوانين خاصة بالأموال المنقولة، وبالأموال العقارية، وبالتجارة، والصناعة، والأسرة، وبالأضرار الجسدية، وتنظيم شؤون الطب، وبالعمل، وحددت أجور الجراحين، البنائين والتجارين والبحارة والرعاة... وهي في مجموعها شريعة أكثر رقياً من شريعة آشور، التي وضعت بعدها بألف عام؛ وهي من وجوه عدة، لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة معاصرة حديثة .

### مبدأ القصاص: « النفس بالنفس والعين بالعين »

ولقد ظل قانون حمورابي، العظيم، محتفظاً بجوهره خمسة عشر قرناً، يعترف بسلطانه ويسترشد به، رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير، ورغم ما أدخل على القانون من تفاصيل. وكانت العقوبات في أول الأمر على مبدأ قانون القصاص: « النفس بالنفس والعين بالعين »، وهو قانون معروف ورد ذكره في التوراة مفصلاً، في سفر لاويين: الأصحاح الرابع والعشرين: الآيات: ١٧ — ١٨ — ١٩ — ٢٠ :

١٧ — « وإذا أمات أحد إنساناً فإنه يقتل » .

١٨ — « ومن أمات بهيمة يعوّض عنها نفساً بنفس » .

١٩ — « وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل كذلك يفعل به » .

٢٠ — « كسر بكسر وعين بعين وسن بسن » .

وكذلك ورد ذكره في الآية القرآنية الكريمة، رقم ٤٥ من سورة المائدة: « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين... إلخ »؛ فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً، أو فقاً له عينا، أو هشم له طرفاً من أطرافه، حل به نفس الأذى الذي سببه لغيره .

### قانون « التحكيم الإلهي »

كما كانت العقوبات ترتكز أحياناً على قانون « التحكيم الإلهي »، الذي كان شائعاً عند البابليين، وعند بعض الأمم الأخرى، فكانت محاكمة المتهم توكل إلى الآلهة! فإذا اتهم رجل

بممارسة السحر، أو اتهمت امرأة بالزنى، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات، وكانت الآلهة في جانب الأقدر على السباحة، فإذا نجت المرأة من الغرق، كانت نجاتها برهاناً على براءتها، وإذا غرق الساحر آلت أملاكه إلى من اتهمه، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولي على أملاك من اتهمه !

### عقوبات بالغة القسوة

ثم استبدلت هذه القوانين، شيئاً فشيئاً، بالفدية المالية، بدلاً من العقوبة الجسمانية. وكانت هنالك إلى جانب العقوبات الرادعة هذه، عقوبات بالغة القسوة، قد تصل إلى بتر أحد الأعضاء، أو إلى الموت. فإذا تسبب طبيب أثناء جراحة، في موت المريض، أو في فقد إحدى عينيه، قطعت يده ! وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعاليتها، قطع ثدياها ! وكانت جريمة هتك العرض يعاقب عليها بالموت.

### تنظيم شؤون الطب والأطباء

لقد عالجت شريعة حمورابي الكثير من الأمور التي تتعلق بحياة الشعب ؛ وإن ما يهمنا منها هنا، هو ما جاء فيها من مواد تتعلق بتنظيم شؤون الطب، والأطباء. ويلاحظ في أحكام هذه المواد أنها تقتصر على الجراحين والبيطريين، ولم يرد فيها ذكر للأطباء الكهنة، الذين يداوون بالعقاقير. ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الطبيب الكاهن كان شخصية ذات قدسية، لا يمسها القانون، لأن علاجه كان بالدرجة الأولى بالسحر والرق واستعطاف الآلهة، إضافة إلى إعطاء بعض العقاقير. وأما الجراحون فقد اعتبرتهم الشريعة من ذوي الحرف، يجازون خيراً أو شراً بحسب نتائج أعمالهم.

### وبعض الشؤون الأخرى

وإننا، قبل أن نسرد نصوص المواد المتعلقة بتنظيم ممارسة الطب، والواردة في شريعة حمورابي، نرى أنه من المفيد بمكان إلقاء الضوء أيضاً على بعض المواد الأخرى، لعلنا نتمكن من التعرف بشكل أفضل على أحكام هذه الشريعة :

**المادة ١ :** إذا اتهم رجل رجلاً آخر بجريمة قتل، ولم يستطع إقامة الدليل عليها، يقتل.  
**المادة ٣ :** إذا أدلى مواطن بشهادة كاذبة في دعوى، ولم يثبت صحة الأقوال التي أدلى بها، وكانت تلك الدعوى تتعلق بالحياة، فإن ذلك المواطن يعدم.

**المادة ٥ :** إذا حكم قاض حكماً ، وأصدر قراراً ، وأبرز وثيقة مختومة ، ثم غير حكمه ، فعليهم أن يشتبوا أن ذلك القاضي قد غير الحكم الذي أصدره ، وعليه أن يدفع اثنتي عشرة مرة قيمة الشكوى التي رفعت في تلك الدعوى ، ويطرده من كرسي القضاء أمام الجميع ، ولا يجلس مرة ثانية مع القضية .

**المادة ٦ :** إذا سرق مواطن متاع معبد أو متاع الدولة ، فإنه يقتل . وكل من وضع يده على متاع مسروق يقتل .

**المادة ١٤ :** إذا سرق مواطن ابناً صغيراً لمواطن آخر ، يحكم عليه بالموت .

**المادة ٢٧ :** إذا أسر جندي خاص أو مبعوث ، وهو في الخدمة العامة للملك ، وكانت حقوله وبساتينه قد أعطيت بعد اختفائه إلى آخر ارتبط بالتزاماته الإقطاعية ، فإنه عند عودته من الأسر ، ورجوعه إلى المدينة يسترد حقوله وبساتينه ، ويباشر بنفسه التزاماته الإقطاعية .

**المادة ٤٥ :** إذا أجرة مواطن حقله لمستأجر ، وتسلم إيجار حقله ، ثم اجتاحت الحقل فيضان فأغرقه ، فإن الخسارة تقع على المستأجر .

**المادة ٦١ :** إذا لم يقيم المستأجر برعاية الحقل كله ، بل ترك جزءاً منه بوراً فيكون هذا الجزء من نصيب صاحب الحقل .

**المادة ٧٨ :** إذا أجرة مواطن منزلاً لمواطن آخر ، ودفع المستأجر الأجر ، لمدة عام ، ثم طلب المالك من المستأجر « ترك المنزل » ، والعقد لا يزال نافذ المفعول ، فإن المالك يدفع غرامة ، المال الذي دفعه المستأجر .

**المادة ١٣٨ :** إذا أراد رجل أن يطلق زوجته ، التي لم ترزق منه أطفالاً ، فعليه أن يسلمها كامل ثمن زواجها ، وكذلك بائنتها التي جاءت بها من بيت أبيها ثم يطلقها .

**المادة ١٦٢ :** إذا اتخذ مواطن زوجة ، ورزقت منه بأطفال ، ثم ماتت ، فليس لأبيها أن يسترد بائنتها ، لأن بائنتها تلك لأولادها .

**المادة ١٩٥ :** إذا ضرب ولد أباه ، تقطع يده .

**المادة ٢٠٥ :** إذا لطم عبد خد نبيل ، تقطع أذنه .

وأما المواد المتعلقة بتنظيم شؤون الطب والأطباء ، فهي :

**المادة ٢١٥ :** إذا قام الطبيب بعملية كبرى لرجل ، ( من الخاصة ) بمشروط من البرونز ، فأنقذ حياته ؛ أو فتح خراجاً في عين رجل ، بمشروط برونزي ، فأنقذ العين ؛ فأجره عشرة شواقل من الفضة . ( الشاقل هو وزن يعادل ٨٤١٦ غراماً ) .

- المادة ٢١٦ : وإذا كان المريض من العامة فأجر الطبيب خمسة شواقل من الفضة .
- المادة ٢١٧ : وإذا كان المريض عبداً فإن صاحب العبد يعطي الجراح شاقلين .
- المادة ٢١٨ : إذا قام طبيب بعملية كبرى لرجل ، بمشرط برونزي ، وتسبب في موته ؛ أو فتح خراجاً في عينه فأتلفها ، تقطع أصابعه .
- المادة ٢١٩ : إذا كانت العملية لعبد يملكه رجل من العامة ومات العبد ، فيعوضه عبداً بعبد .
- المادة ٢٢٠ : إذا قام بالعملية على عين العبد بمشرط برونزي ، فأتلفها ، يدفع نصف ثمن العبد ، من الفضة .
- المادة ٢٢١ : إذا أصلح طبيب عظماً مكسوراً ، أو شفى تمزقاً عضلياً ، فعلى المريض أن يدفع للطبيب خمسة شواقل من الفضة .
- المادة ٢٢٢ : وإذا كان المريض من العامة ، فيدفع ثلاثة شواقل من الفضة .
- المادة ٢٢٣ : وإذا كان المريض عبداً ، دفع صاحبه للطبيب شاقلين من الفضة .
- المادة ٢٢٤ : إذا قام طبيب بيطري بعملية كبرى لثور أو حمار وأنقذ حياته ، فإن صاحب الثور أو الحمار ، يدفع للجراح سدس شاقل من الفضة أجراً له .
- المادة ٢٢٥ : إذا قام بالعملية لثور أو حمار ، وتسبب في موته ، يدفع لصاحب الثور أو الحمار ربع ثمنه .
- وما لا ريب فيه أن هذه المواد تبدو لأول وهلة صارمة جداً ، وغير قابلة للتطبيق ؛ وأنها فيما لو تطبق فعلاً ، والطب القديم على ما كان عليه من بداءة ، لفقد الأطباء الجراحون أموالهم ، وربما أيديهم ! ولما بقي طبيب قادر على ممارسة مهنته . إلا أن التفسير المقبول لهذه القوانين الصارمة ، هو أن أحكامها لم تكن لتطبق إلا في الحالات الشاذة ، التي يثبت فيها فشل العمل الجراحي بسبب إهمال من قبل الجراح ، متعمد ؛ وأن العقوبة لم تكن تفرض بدون محاكمة رسمية تثبت الإدانة ؛ حيث كانت في مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان بوسع المتهم أن يرفع استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه .

### شريعة ضمت أرقى القوانين مع أقصى العقوبات

ومهما يكن من أمر ، فإن الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذٍ هي التي جعلت من شريعة حمورابي ، شريعة دستورية ، مركبة ، امتزجت فيها أرقى القوانين وأعظمها استنارة ، بأقصى العقوبات وأشدّها قسوة ، إذ وضعت قانون النفس بالنفس والعين بالعين ، وقانون

## • الطب البابلي والطب الآشوري

التحكيم الإلهي، إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة، للحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم، وللحد من طغيان الأقوياء على الضعفاء، ولتحقيق العدالة للأرامل واليتامى في بابل... ولتوطيد القانون وسيادة العدالة على الأرض.

وإنه لمن العسير أن يجد المرء، في تاريخ الشرائع كلها ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته:

«... أقمت في الأرض دعائم ثابتة، وحكماً صالحاً... في قلبي حملت شعوب أرض سومر وأكاد... قيديهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء...».

وليس أدل على صلاح الحكم في عهد حمورابي، من الحماية المادية التي كانت توفر للناس آنذاك؛ ولنقرأ ما جاء في المواد ٢٢ و ٢٣ و ٢٤، من تلك الشريعة لنجد أنه:

**المادة ٢٢:** إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه حكم على ذلك الرجل بالإعدام.

**المادة ٢٣:** إذا لم يقبض عليه، كان على المسروق منه، أن يدلي أمام الإله، ببيان مفصل عن خسائره؛ وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها، والحاكم الذي ارتكبت السرقة في دائرة اختصاصه، أن يعوضاه عن كل ما فقده.

**المادة ٢٤:** إذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مئناً (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل.

فهل ثمة مدينة، في هذه الأيام، يبلغ صلاح الحكم فيها درجةً تُقدم معها، لمن تقع عليه جريمة، بسبب إهمالها، مثل هذا التعويض؟ وهل ارتقت الشرائع كثيراً في عصرنا، عما كانت عليه في عهد حمورابي؟

## الطب الآشوري

لم يزدهر عند الآشوريين سوى علم الحرب. وأما الطب فقد كان هو الطب البابلي دوغماً زيادة عليه. كما أن علم الفلك الآشوري لم يكن سوى علم التنجيم البابلي. وكانت أهم غاية تدرس من أجلها النجوم هو التنبؤ بالغيب، تماماً كما كانت عليه الحال في بابل.

### لوائح بأسماء النباتات

ولقد وضع علماء اللغة الآشوريون قوائم بأسماء النباتات؛ ولعلمهم وضعوها ليستعينوا بها في صناعة الطب. وبذلك قدموا بعض العون لعلم النباتات.



## العالم مليء بالشياطين

وكان الآشوريون يصورون العالم على أنه مليء بالشياطين التي يجب اتقاء شرها بالتهايم المعلقة في الرقاب ، أو الرقي الطويلة التي تجب تلاوتها بدقة وعناية .

## مكتبة نينوى الكبرى

إن أهم ما يخلد ذكر آشور ، في تاريخ الحضارة الإنسانية هو مكتبتها ؛ فقد كانت مكتبة آشور بانيبال ( ٦٦٩ — ٦٢٦ ق . م ) ، تحتوي على ثلاثين ألف لوح من الفخار ، منها ٨٠٠ لوح تبحث في الطب ، مفهومة ، وعلى كل لوح منها رقعة يسهل بها الاستدلال عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحل غضب آشور وبلت .... على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه ... » ويحمو اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض » . وقد أعلن آشور بانيبال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية من أن يجرّ عليها النسيان ذيله .

## ألواح فيها : وصفات ، وأرصاء ، وترانيم

وكانت ألواح مكتبة آشور بانيبال ، في معظمها ، وصفات طبية ، وسجلات رسمية ، وأرصاء يراد منها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة .

ويبدو من قراءة ما جاء في تلك الألواح ، أن الشياطين تعتبر سبب المرض . وكان تشخيص الداء يستند إلى تأمل المريض والنظر إليه . وكان المرتجى من حالته ؛ أي إنذار المرض ، يقرر بالكهانة والعرافة والفأل والرجم بالغيب ، وذلك بعد الاستعانة بفحص كبد شاة ، نفخ المريض في خيشومها لينقل إليها أعراض دائه . وفي بعض الأحيان ، كان الكهنة يقررون إنذار المرض بقراءة المعاني والدلالات في نماذج أخذت من دم المريض أو من بوله أو لعابه . من هذه الطقوس ، ومن هذه الشعائر ، اكتسب الإنسان فيما بعد ، الكثير من المعارف الأساسية .

ولقد سبق لنا أن قلنا ، إن علماء اللغة الآشوريين وضعوا لوائح بأسماء النباتات ؛ وأغلب الظن أنهم وضعوها ليستفيدوا بها في صناعة الطب . ولقد أسهموا بذلك بعض الشيء في تطور علم النباتات .

- الطب البابلي والطب الآشوري

## الطبيب الآشوري يصنع الدواء

كما تمكن الطبيب الآشوري من أن يصنع الدواء ويصفه ؛ وكانت أدويته مركبة من عددٍ من العناصر العلاجية . وقد تعددت عنده الأشكال الدوائية : فالحاليل والعصارات والمنقوعات كانت بعضاً من تلك الأشكال التي تعطى بطريق الفم . وقد ذكرت في بعض الوصفات أدوية بشكل حقن شرجية ؛ كما وصفت التحاميل الشرجية والمهبلية ؛ ولقد توصل المعالج الآشوري إلى زرق بعض الأدوية داخل الإحليل بواسطة أنبوب خاص ؛ ووصف المنشوقات لمعالجة أمراض الأنف ، كما وصف الغسول والمراهم والقطرات لمعالجة أمراض الأنف والعين . وعالج أمراض الجلد بالغسول والمراهم واللبائخ والمساحيق والضمادات . وكان من بين أدويته : زيت الزيتون ، وزيت الخروع ، وشراب التمر ، والعسل ... إلخ .

## معارف انتقلت إلى النساطرة، واليعاقبة .

وأخيراً ، من المفيد التنويه بأن العديد من المؤرخين ذكروا أن بعض المعارف الطبية الآشورية ، انتقلت فيما بعد ، إلى النساطرة ، واليعاقبة ، لاسيما في زمن العرب . ومن أسهبوا في وصف فنونهم الطبية ، في مطلع هذا القرن ، المستشرق الفرنسي «دوفال Duval» في كتابه : «الآداب السريانية» ، الذي طبع في باريس في مجلد يقع في أكثر من أربعمئة صفحة .



## الفصل الرابع



الطب الهندي

- أقدم مدنية عرفها المؤرخون .
- اتصالها مع سومر وبابل .
- تقدم الطب والعلوم الأخرى ، عند قدماء الهنود .
- أسفار الفيدا المقدسة .
- أشهر أطباء الهند القدامى .
- طرق تشخيص الأمراض ، ومعالجتها .
- العرب وكتب الطب الهندي .
- ابن بهلة ، وهارون الرشيد .

# الطب الهندي

## أقدم مدينة عرفها المؤرخون

في عام ١٩٢٤، أعلن العالم الآثاري البريطاني «جون مارشال»، أن أعوانه من الهنود، وخاصة «ر. د. بانرجي»، اكتشفوا عند «موهنجو — دارو»، على الضفة الغربية من السند الأدنى، آثاراً لمدينة يبدو أنها أقدم عهداً من أية مدينة أخرى عرفها المؤرخون. فهنالك أزيلت طبقة من الأرض، عن أربع مدن أو خمس، بعضها فوق بعض طبقات، وفيها مئات من المنازل والدكاكين بنيت بالآجر بناءً متيناً، واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً، وأزقة ضيقة حيناً آخر؛ وترتفع في الكثير من الحالات، عدة طوابق.

وتؤيد هذه الكشف، كما يقول «مارشال»، قيام مدينة بالغة الرقي، في السند والبنجاب، خلال الألف الرابعة، والألف الثالثة قبل الميلاد؛ كما أنها تدل على وجود حالة اجتماعية، في حياة سكان تلك المدن، تساوي على أقل تقدير، ما وجد العلماء في «سومر»، وتفوق ما كان سائداً في العصر نفسه، في بابل، وفي وادي النيل.

## أدوات للزينة، وخزف مزخرف، وأقدم نقود، وأقدم عربة ذات عجلات

وبين الموجودات في هذه الأماكن، آنية منزلية، وأدوات للزينة، وخزف مطلي، وخزف مزخرف من الطراز الفاخر، وتمائيل من الخزف، وزهر اللعب، وشطرنج، ونقود، هي أقدم من أي نقود وجدت من قبل؛ وأسلحة وأدوات نحاسية، ونموذج نحاسي لعربة ذات عجلتين، هي أقدم نموذج وجد لعربة ذات عجلات؛ وأساور وأقراط وعقود، وغيرها من الحلي المصنوعة من الذهب والفضة صناعة، كما يقول مارشال، بلغت من دقة الإتقان، ومهارة الصقل حداً كبيراً.

ولقد وجدت في تلك الأماكن أيضاً، آلات بعضها صنع من الحجر، وبعضها من النحاس، وبعضها من البرونز، مما قد يدل على أن هذه الحضارة السندية، نشأت في مرحلة الانتقال من العصر الحجري إلى العصر البرونزي.

### « موهنجو — دارو » كانت تتصل مع سومر وبابل

وتشير الدلائل على أن « موهنجو — دارو » كانت في ذروة ازدهارها، حين شيد « خوفو » الهرم الأكبر ؛ وعلى أنها كانت تتصل مع سومر وبابل بصلات تجارية ودينية وفنية ؛ وأنها ظلت قائمة أكثر من ثلاثة آلاف عام، حتى كان القرن الثالث قبل الميلاد .

### أختام متشابهة في بابل والهند ، أقدم من سومر

ويعتقد العالم « ماكدونل » أن هذه المدينة العجيبة استمدت أصولها من « سومر » ؛ بينما يرى العالم « هول » أن السومريين نقلوا ثقافتهم عن الهند ؛ وأما « وولي » فيقول إن الثقافتين السومرية ، والهندوسية القديمتين جاءتا معاً من ثقافة مشتركة في بلوخستان أو بالقرب منها . ولقد دهش الباحثون حين رأوا الأختام المتشابهة الموجودة في بابل وفي الهند ، ترجع إلى أقدم مراحل الحضارة في أرض ما بين النهرين ؛ أي إلى المرحلة السابقة لسومر ، ولكنها ترجع إلى آخر مرحلة من مراحل المدنية السندية ، مما يدل على أسبقية الهند .

### تفاعل الحضارات

ولسنا هنا في معرض الجدل حول الأرض التي انبعثت منها الحضارة ، وإنما لنبين أن حضارات الشعوب القديمة ، في العديد من أرجاء هذا العالم ، كانت تتفاعل مع بعضها ؛ وكانت هذه الشعوب تناضل من أجل بقائها ؛ وكان ما نسميه اليوم بعلم الطب ، هو أحد أقوى عناصر ذلك النضال .

### كان الدين لب حياة الهند . وعلمائها كهنتها

ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية وصميمها ، فإن العلوم التي كان من شأنها أن تعاون الدين هي التي حظيت أكثر من غيرها بالرعاية والتمو ، فالفلك ، نشأ عن عبادة الأجرام السماوية ، ومراقبة حركاتها ، لتحديد أيام الأعياد ، والقرايين ، وعلم اللغة ، نشأ عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة أو كل صيغة دينية ، صحيحة في تركيبها وفي مخارج أصواتها . وقد كان علماء الهند هم كهنتها .

### تقدم الكيمياء وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء

وتقدمت الكيمياء بفضل مصدرين ، الطب ، والصناعة . وكان ينظر إلى الهند على أنها

أمهر الأمم جميعاً، في صناعات كيمياوية مثل الصباغة، والدباغة، وصنع الصابون، وصنع الزجاج. وكان علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، نتيجتين لعلم الطب الهندي، إذ عرف الأطباء الهنود خصائص الأربطة العضلية، والصفائر العصبية، والأنسجة الشحمية، والجهاز اللمفاوي، والأوعية الدموية، والأغشية المفصلية، وأنواعاً من العضلات؛ كما أنهم عرفوا الوظائف المختلفة للعصارات المعدنية، في عمليات الهضم، وتحول الكيموس إلى كيلوس، وتحول الكيلوس إلى دم.

### «أتريا»: في نطفة الأب كل كيانه العضوي

ولقد سبق «أتريا» «ايزمان» بألفين وأربعمئة عام، حين قال، حوالي ٥٠٠ ق.م، «إن نطفة الأب مستقلة عن جسمه، وإنها تحتوي، في ذاتها، كل الكائن العضوي له». وجاء في شريعة «مانو» تحذير من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل أو الصرع أو البرص.

### طريقة ضبط النسل

وكان مما فكرت به مدارس الطب الهندية سنة ٥٠٠ ق.م، ضبط النسل، وفق أحدث طريقة يأخذ بها رجال اللاهوت في أيامنا، وهو يقوم على نظرية هي «أن الحمل مستحيل في مدى اثني عشر يوماً من الحيض، ووصفوا تطور الجنين وصفاً فيه كثير من الدقة.

### ارتباط الطب كلياً بالدين

وكما أن علوم الفلك، والنحو، واللغة، قد حظيت بالرعاية، والنمو، لعلاقتها بالدين، فإن علم الطب الهندي، كان مرتبطاً كلياً بالدين. وأسفار الفيدا، تلك الديانة التي أتت بعد ديانة روحانية، سابقة لها كانت في أول عهدها، أناشيد، ثم أخذت تنمو مع تتابع الأجيال، التي تناقلتها جيلاً بعد جيل. ومن هذه الأسفار استمد العلماء معرفتهم بالهند في مراحلها البدائية.

### أسفار الفيدا شبيهة بالتوراة والأنجيل

إن كلمة «فيدا» معناها معرفة «وسفر الفيدا» معناه الحرفي، «كتاب المعرفة». والفيدات يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم؛ وهي



شبيهة بالتوراة عند اليهود، وبالإنجيل عند المسيحيين؛ وهي تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة « كتاب ». ولم يبق من الفيدات الكثيرة التي عرفها الماضي سوى أربعة أسفار :

١ — رج فيدا، أو معرفة تراتيل المديح ( المدايح ) .

٢ — ساما فيدا، أو معرفة الأنغام .

٣ — ياجور فيدا، أو معرفة صيغ القرابين .

٤ — أثارفا فيدا، أو معرفة الرق السحرية .

### ترانيم تعود إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد

ولقد كتبت أسفار الفيدا، باللغة السنسكريتية؛ وكلمة « السنسكريتية »، معناها : الخالصة أو الكاملة، أو المقدسة . وهذه اللغة تحتوي على التعابير الأدبية الكلاسيكية التي لم يكن يستخدمها إلا العلماء والكهنة، ويعتقد أصحاب الرأي من الأتقياء الهندوس، أن أقدم ترانيم هذه الأسفار، يعود إلى تواريخ تتراوح ما بين سنة ٦٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. ويرجع أنها جمعت ورتبت بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٥٠٠ ق.م.

### « أثارفا فيدا » سفر الطب الهندي

وإن ما يهمننا من هذه الأسفار، هو السفر الرابع، « أثارفا فيدا »، الذي يعود إليه الطب الهندي بشكله المدون، والذي يكشف لنا عن طب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالآلهة، وعن التعاويذ والرق التي كانت تستخدم لتهذئة شياطين المرض، وعن ضروب العرافة والسحر . في هذا الكتاب : « أثارفا فيدا Atharva Veda » تبدأ مدونات الطب الهندي . وفيه نجد قائمة بأمراض مقرونة بعلاماتها، ولكننا نجدها محاطة بكثير من السحر والتعويذ . وفي هذا الكتاب نجد ملحقاً يسمى « آجو فيدا »؛ أي علم إطالة العمر .

### المرض والعناصر الأربعة

ويذهب الطب الهندي القديم هذا، إلى أن المرض يسببه اضطراب في واحد من العناصر الأربعة : الماء والهواء والدم والبلغم .

### أعشاب طيبة وتمايم سحرية

وكانت طرائق العلاج هي الأعشاب والتمايم السحرية . وفي كتاب « رج فيدا » نجد نحو ألف من أسماء هذه الأعشاب . ونجد فيه أيضاً أن الماء هو خير علاج لمعظم الأمراض .

## أطباء جراحون، ومعالجون سحرة وحدائق للأعشاب

ولقد كان الطب، في العهدين: الفيدي (ما قبل ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، والبراهماني ما بين ٨٠٠ ق.م، وعام ١٠٠٠ ب.م) كان برمته في أيدي الكهنة وتلامذتهم. وكان الأطباء الجراحون، يتميزون، بما يفرق بينهم، وبين المعالجين بالسحر والتعويد. وكانت لهم منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية.

## مستشفيات وجراحة مزدهرة

وفي القرن الثالث قبل الميلاد، كانت هنالك مستشفيات، وكانت هنالك جراحة مزدهرة، برع فيها قدماء الهندوس. وكان الأطباء في ذلك العهد يتحلون بالنصر، وبعد النظر؛ ولقد سبقوا عصرهم، إذ حققوا اكتشافات طبية، لم يتحقق بعضها إلا في عصرنا الحاضر.

## في كتاب سوسروتا أساس جراحة التجميل الحديثة

ففي كتاب «سوسروتا Susruta» الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نجد أساس جراحة التجميل الحديثة؛ إذ أن قدماء الهندوس كانوا يجرون مانسميه اليوم بجراحة الأنف التصنيعية، أو التجميلية؛ وهذا يعني قلب شريحة من جلد جبهة المريض، إلى الأسفل، لتغطي، وتصلح عيباً من عيوب الأنف البشعة التي كانت شائعة في ذلك الزمان. ولم تكن هذه الجراحة مجرد مداخللة لتجميل الأنف فحسب، كما هي الحال عند بعض نجوم السينما، أو عند غيرهن، في عصرنا الحاضر، بل كانت تجري لأسباب أخرى. ففي ذلك الزمان، كانت تقاليد الهندوس، وأعرافهم، تعاقب الزوجة الخائنة لزوجها، بجذع أنفها، وكان الجراحون يقومون فيما بعد بالمداخللة لترميم، أو تصنيع هذا الجذع.

## معرفة مبكرة لعلم المناعة

وما هو مثير للاهتمام هنا، هي هذه المعرفة المبكرة لعلم المناعة الحديث، عند قدماء الهندوس. فنحن نعلم اليوم، بفضل ما انكشف لنا من أسرار الوراثة، أن الجسم الإنساني، بنظامه البيولوجي الخاص، يرفض الخلايا الغريبة عنه، فإذا ما حاولنا زرع قطعة من جلد إنسان ما، في جسم إنسان آخر فإن جسم هذا الأخير، يرفض تلك الشريحة ذلك لأن المثيل فقط يرم المثيل، والطعم ينبغي أن يؤخذ من جسم المريض ذاته؛ ولو أن الطعم المأخوذ من

توأم مماثل لأخيه التوأم، يمكن أن يثبت أيضاً، ولقد كان الأقدمون من الهندوس يعلمون هذا، لذلك كانوا يلجؤون إلى طريقة الشريحة هذه، المأخوذة من المصاب نفسه، والتي تتغذى بدوران دمه .

### سوسروتا، أشهر أطباء الهند القدامى، وأعماله

كان سوسروتا «Susruta»، وهو واحد من أشهر أطباء الهند القدامى، ورث العلم بالأمراض وطرائق علاجها عن معلمه «ذانو أنتاري»، كان يعلم الطب في إحدى مدارس بينارس . ولقد بحث في سفره الشهير، في الجراحة والتوليد، والطعام الصحي، والاستحمام، والعقاقير، وتغذية الرضع، والعناية بهم . ووصف كثيراً من العمليات الجراحية، كعملية الماء في العين؛ وعمليات الفتق وإخراج حصاة المثانة؛ وعملية إخراج الجنين بشق بطن المرأة الحامل، وتسمى اليوم بالعملية القيصرية، كما وصف عمليات جبر الكسور بعد ردها، بتثبيتها بقضبان من الخيزران .

### جراحات كبرى، وإيقاف النزوف، وتطهير الجروح

ولقد ورد في كتاب «سوسروتا» هذا مائة وإحدى وعشرين أداة من أدوات الجراحة : مشارط، ومفاسد، ومسابر، ومناشير، وملاقط، ومقصات، وإبر، وقناطر ومناظير للفرج وللشرج، ومحاقن، وشمعات، وغير ذلك ... ويقول العالم «جارسون»، لقد أجرى قدماء الهندو كل العمليات الجراحية الكبرى تقريباً، باستثناء عملية ربط الشرايين؛ إذ كانوا يبترون الأطراف بمهارة، ثم يوقفون نزف الدم بالكوي أو بالزيت المغلي، أو بالضغط على مكان النزف .

ولقد رسم «سوسروتا» القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة، واقترح تعقيم الجرح بالتبخير، وهذا أول ما عرف من جهد في سبيل التطهير أثناء الجراحة . وحدث سنة ٩٢٧ ميلادية أن قام جراحان بترينة جمجمة لملك هندي بعد أن خدروه بفعل عقار يسمى «ساموهيني» .

### عقاقير مخدرة

ولقد ذكر سوسروتا فوائد أنواع من الشراب الطبي في تخدير الجسم أثناء العمليات الجراحية . واستعمل قدماء الهندو العقاقير المخدرة، كالبلادونا، أو نبات المرأة الحسنة، ونبات القنب الهندي .

## وصفوا ١١٢٠ مرضاً

وأحصى قدماء الهندوس، كما نجد في موسوعة «سوسروتا» الشهيرة، ألفاً ومائة وعشرين مرضاً وصنفوها إلى فئتين: «أمراض طبيعية» و «أمراض فوق الطبيعية».

## وعلموا إصغاء القلب، والرئين ورحم الحامل

ومن أجل تشخيص هذه الأمراض، علموا تلامذتهم: جسن البطن، لتحري ما هو غير طبيعي فيها وجس النبض، الذي جاء وصف له في رسالة تعود إلى سنة ١٣٠٠ بعد الميلاد؛ وعلموهم فن إصغاء القلب بتطبيق الأذن على صدر المريض؛ وكذلك إصغاء الرئين؛ وإصغاء رحم المرأة الحامل.

وكان فحص البول، طريقة متبعة في تشخيص الأمراض؛ حتى أن أطباء التبيت اشتهروا بقدرتهم على معالجة المريض دون النظر إلى ما يتعلق به، باستثناء بوله.

## أطباء التبيت وفحص البول — وصفوا الملاريا، وبحثوا الطاعون، ووصفوا السكري — عرفوا لقاح الجدري قبل أوربة بقرون

ولقد وصفوا حمى الملاريا وصفاً دقيقاً، وعزوها إلى البعوض، وذكرت مراجع سنسكريتية أخرى، غير سفر سوسروتا، أنهم تحققوا من أن الفئران هي التي تحمل جرثومة الطاعون. كما وصفوا الداء السكري، ونصحوا بالتلقيح، للوقاية من مرض الجدري.

وهنا لا بد من التنويه بأن الهنود عرفوا التلقيح منذ عام ٥٥٠ م. في حين أن أوربة لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر. وهناك نص يعزى إلى «ذانو أنتاري» وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود، وكان أستاذاً لـ «سوسروتا»، يقول: «خذ من سائل البثور التي تجدها على ضرع البقرة... خذه بسنان المشروط، ثم طعم به الذراع بين الكتف والمرفق، حتى يظهر الدم، عندئذٍ يخلط السائل بالدم، فتنشأ عن ذلك حمى الجدري».

## المعالجة بالصيام قبل العقاقير — لوائح لـ ٧٦٠ نوعاً من النباتات الطبية

هذا ما كان من أمر تشخيص الأمراض، والوقاية من بعضها. وأما المعالجة عند قدماء الهنود فكانت، في عهد «يوان شوانج» تبدأ بصيام مدته سبعة أيام، وكثيراً ما كان المريض يتأمل إلى الشفاء في هذه الفترة؛ أما إذا بقي الداء، فإنهم كانوا يلجؤون إلى العقاقير. ولم

يكونوا مسرفين في استخدام العقاقير ، لأنّ جلّ اعتمادهم كان ينصب على الحمية الملائمة ، والاستحمام والحقن الشرجية ، والاستنشاق ، والفصادة . وكانت الأدوية الهندية ، في ذلك الزمان البعيد ، تشتهر بجودتها ، وبقيمتها العلاجية . ولقد وردت في سفر « سوسروتا » ، لوائح تشتمل على ٧٦٠ نوعاً من الأعشاب والنباتات الطبية ، ذكر العديد منها في لوائح الغرب الصيدلانية ، ولا يزال موجوداً حتى يومنا هذا .

### مقويات الجنس ، ترياق السموم

ولقد اهتم الهندوس ، بشكل خاص ، بمقويات الجنس ؛ وكانت لهم شهرة خاصة بتحضير الترياق ضد السموم ؛ ولا يزالون متفوقين على الأطباء الأوربيين في معالجة لدغة الثعبان ، بالأدوية المضادة لها .

### العلاج بالتنويم أو « نعاس المعابد »

وكان الأطباء الهنود وكهنتهم ، يطبقون العلاج « بالتنويم » ، وأغلب الظن أنه نشأ عندهم ، لأنهم كثيراً ما كانوا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالتنويم بالإيحاء ، وهذا ما كانوا يسمونه بـ « نعاس المعابد » ، كما كان يحدث أيضاً في مصر وفي اليونان . وإن الأطباء الإنكليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم ، إلى بلادهم ، وهم « بريد » و « ازدويل » و « اليوتسن » ، لا شك في أنهم استوحوا آراءهم ، وبعض خبرتهم من اتصالهم بالهند .

### ترانيم هندوسية تذكر الثوم وفضائله

وكان الهندوس ينشدون أناشيد الحمد والتسبيح ، ويترنمون بذكر الثوم وفضائله ، هذا النبات الذي كان الغربيون يرون فيه مجرد طعام مقبّل ، في حين تبين لنا الآن أثره الخاص في الوقاية من قرحات المعدة ، وأثره الآخر والفعال في مراقبة ارتفاع الضغط الشرياني .

### نبات آخر مهدئ للأعصاب وخافض للضغط

وهناك علاج هندي كبير الأهمية يدعى : « رولفيا سيربانيتينا » ، يستخلص من أوراق نبات ينمو على سفوح جبال الهيمالايا ؛ ولقد استطاعت وسائل العلوم الصيدلانية الحديثة أن تستخلص من هذا النبات عنصره المؤثر ، الذي يستعمل اليوم كعلاج فعال في مداواة ارتفاع الضغط الشرياني ؛ كما أنه يستعمل في معالجة بعض الحالات النفسية والعصبية .

وهكذا نجد أن العالم القديم، القديم في الزمان والقديم في المكان، يسهم اليوم في معالجة حالات الحصر، والشدة والتوتر، التي يعاني منها عالمنا الجديد.

### موسوعة فاجبهاتا نثراً وشعراً — «بهافامسرا» ذكر الدورة الدموية

ويلي «سوسروتا»، القرن الخامس قبل الميلاد، و«شاراكا»، القرن الثاني ميلادي؛ وهما أعظم اسمين في تاريخ الطب الهندي، يليهما تألقاً اسم «فاجبهاتا»، ٦٢٥ م؛ الذي أعد موسوعة طبية نثراً ونظماً؛ ثم اسم «بهافامسرا»، ١٥٥٠ م؛ الذي جاء في كتابه الضخم عن التشريح ووظائف الأعضاء والطب، ذكرُ الدورة الدموية، قبل أن يذكرها «هارفي» بمائة عام؛ والذي وصف الزئبق علاجاً لذلك المرض الجديد، مرض الزهري، الذي كان قد دخل الهند مع البرتغاليين، هدية من التراث الأوربي إلى سكان القارة الهندية.

### العرب ترجموا موسوعتي سوسروتا وشاراكا

ولابد لنا من أن ننوه بأن العرب ترجموا، في القرن الثامن الميلادي، موسوعتي «سوسروتا» و«شاراكا» اللتين كانتا قد مضى عليهما أكثر من ألف عام. وإننا نعلم أن الخليفة هارون الرشيد استدعى عدداً من الأطباء الهنود إلى بغداد، للإسهام في العمل في مستشفياتها، وفي مدارسها الطبية، وكان ذلك اعترافاً منه بعلو مكانة الهنود في المجالين العلمي والطبي.

### والرازي أخذ عنهما

ويقول ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، ووجدت الرازي قد نقل في كتابه الحاوي وفي غيره، عن كتب جماعة من الهند، مثل كتاب «سسردي»، ويعني به كتاب «سوسروتا»، الذي قام يحيى بن خالد بن برمك بتفسيره؛ وعن كتاب «شاراكا»، الذي نقل من الهندية إلى الفارسية، ثم نقله إلى العربية، وفسره، عبد الله بن علي؛ وكتاب «بدان»: في علامات أربعمائة وأربعة أدواء؛ وكتب هندية أخرى في قوى الأدوية، وعلاجات الحبالى، وفي العقاقير وعلاجات النساء، «لروسي» الهندية، وفي أجناس الحيات وسمومها «لراي» الهندي... إلخ.

### أطباء من الهند

ويذكر ابن أبي أصيبعة، في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء، عدداً من الأطباء

الذين كانوا من الهند، ومنهم :

١ — « كنيكه الهندي » ، وهو حكيم بارع من متقدمي حكماء الهند ، له نظر في صناعة الطب وقوى الأدوية . ويقول جعفر بن محمد البلخي ، في كتاب الألوف ، إن كنيكه ، كان من أعلم الناس بهيئة العالم وتركيب الأفلاك وحركات النجوم ... وله عدة كتب في الطب والفلك .

٢ — « صنجهل » ، وكان من علماء الهند وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب ، وعلم النجوم ، وله كتاب « المواليد الكبير » .

٣ — « شاناق » ، وهو من أطباء الهند المشهورين ، كانت له معالجات وتجارب كثيرة ، في صناعة الطب وفي علم النجوم ، وفي الحكمة ؛ وكان حسن الكلام ، ومتقدماً عند ملوك الهند .

وله من الكتب « كتاب السموم » ، ويقع في خمس مقالات ، فسره من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي « منكه » الهندي ، وتولى تفسيره ونقله إلى العربية أبو حاتم البلخي ، فسره ليحيى بن خالد بن برمك ، ثم نقل للمأمون على يد مولاة العباس بن سعيد الجوهري ؛ وله كتب أخرى .

٤ — « منكه الهندي » ، كان عالماً بصناعة الطب حسن المعالجة ، وكان متقناً للفرسية ، والعربية ، أتى من الهند إلى العراق ، في أيام هارون الرشيد ، واجتمع به ، وطببه من علة صعبة اعتل بها ، فأجرى عليه رزقاً واسعاً وأموالاً كافية .

٥ — صالح بن بهلة الهندي ، أحد علماء الهند المتميزين ؛ كان خبيراً بالمعالجات ، وله قوة وإنذارات في مقدمة المعرفة .

### قصة ابن بهلة المثيرة مع الخليفة هارون الرشيد

كان في العراق ، في عهد الخليفة هارون الرشيد ؛ وله مع الرشيد قصة مثيرة تدل على مهارته في التشخيص والمعالجة ، رواها أبو الحسن يوسف بن ابراهيم الحاسب ، قال : « في أحد الأيام ، قُدِّمت الموائد بين يدي الرشيد ، وكان طبيبه جبرائيل بن بختيشوع غائباً ، فأمر بطلبه ليحضر أكله على عادته في ذلك ، فلم يقموا له على أثر ؛ فأخذ الخليفة يلعنه ويقذفه ؛ وبينما كان الخليفة على تلك الحال من الغضب ، إذ دخل عليه جبرائيل ، يخبره بقرب وفاة ابن عمه ابراهيم بن صالح ؛ فاشتد جزع الرشيد وأخذ بالبكاء ، وأمر برفع الموائد فرفعت ، وكثر منه البكاء حتى رحمه مما نزل به كل من حوله .

فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين : إن طب جبرائيل طب رومي ، وصالح بن بهلة الهندي في العلم بطريقة أهل الهند في الطب مثل جبرائيل في العلم بمقالات الروم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره وتوجيهه إلى ابراهيم بن صالح لنفهم عنه ما يقول مثل ما فهمنا عن جبرائيل ، فعل ، فأمر الرشيد جعفرأ بإحضاره ... ومضى ابن بهلة إلى ابراهيم ابن عم الرشيد فعائنه وجس عرقه ، ثم عاد وجعفرأ إلى أمير المؤمنين ، ليخبره بأن ابراهيم لن يموت ... في هذه الليلة أو في هذه العلة ...

ولما كان وقت صلاة العتمة ورد كتاب صاحب البريد ، يخبر بوفاة ابراهيم ... فأقبل الرشيد على جعفر بن يحيى باللوم ... وأخذ يلعن الهند وطبهم ... ووقف صالح بن بهلة بين يدي الرشيد فلم يكلمه أحد إلى أن سطعت روائح المجامر ، فصاح عند ذلك ابن بهلة ... والله الله إن تدفن ابن عمك حياً ، فوالله يا أمير المؤمنين ما مات ، فأطلق لي الدخول عليه والنظر إليه ، وهتف بهذا القول مرات ؛ فأذن له بالدخول على ابراهيم وحده . فدخل . وسمع القوم صوت ضرب بدن بكف ، ثم انقطع عنهم ذلك الصوت ، ثم سمعوا تكبيراً ، وخرج إليهم ابن بهلة وهو يكبر ثم قال ، قم يا أمير المؤمنين حتى أريك عجباً ... فدخل الرشيد فأخرج ابن بهلة ابرة كانت معه ، فأدخلها بين ظفر إبهام يد ابراهيم اليسرى ولحمة ، ف جذب ابراهيم يده وردها إلى بدنه ، فقال ابن بهلة يا أمير المؤمنين ، هل يحس الميت بالوجع ؟ فقال الرشيد : لا ، فقال له ابن بهلة لو شئت أن يكلم أمير المؤمنين الساعة لكلمه فقال له الرشيد فأنا أسألك أن تفعل ذلك ، فقال يا أمير المؤمنين أخاف إن عاجلته وأفاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط أن ينصدع قلبه فيموت موتاً حقيقياً ، ولكن يا أمير المؤمنين ، تأمر بتجريده من الكفن وردة إلى المغتسل ، وإعادة الغسل عليه حتى تزول رائحة الحنوط عنه ، ثم يلبس مثل ثيابه التي كان يلبسها في حال صحته وعلته ، ويطيّب بمثل ذلك الطيب ، ويحول إلى فراش من فرشه ، حتى أعالجه بحضرة أمير المؤمنين ، فإنه يكلمه من ساعته . فأمر الرشيد بالعمل بما حده ابن بهلة .

ودعا ابن بهلة بكندس ومنفخة من الخزانة ، ونفخ من الكندس في أنفه فمكث مقدار ثلث ساعة ، ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس قدام الرشيد ، وقبل يده وسأله الرشيد عن قصته فقال : كنت نائماً نوماً طيباً لا أذكر أنني نمت مثله قط ، إلا أنني رأيت في المنام كلباً قد أهوى إلي فتوقيته بيدي ، فعض إبهام يدي اليسرى ، وأراه إبهامه التي كان ابن بهلة قد أدخل فيها الابرة .



وعاش ابراهيم بعد ذلك دهراً، ثم تزوج العباسة بنت المهدي، وولي مصر وفلسطين وتوفي في مصر، وقبره بها .  
إن قصة ابن بهلة هذه، مع الخليفة هارون الرشيد، ومثيلاتها من القصص الأخرى الكثيرة لتدل دلالة ساطعة على أن أطباء الهند القدامى، كانوا يتمتعون بالسمعة الطيبة، والخبرة الواسعة في مجال علم الطب .

### تفاعل الطبيب الهندي واليوناني في عهد الاسكندر

وهنا يحسن بنا أن نذكر ما قاله « جاريسون » من « أنه في عهد الاسكندر الكبير ، كانت للأطباء الهنود وجراحهم شهرة واسعة ، هم جديرون بها ، لما يتميزون به من تفوق في العلم ومهارة في العمل » .  
وإنه لمن العسير الجزم في القول ، في مدى ما أخذه الطب الهندي عن اليونان ، في عهد الاسكندر ، وما أخذه اليونان عن الهنود ، في ذلك العهد ، كما أنه من العسير أيضاً ، معرفة مدى ما اقتبسه الطب الهندي من طب بابل عن طريق بغداد .

### أوربة مدينة للعرب والهنود

وأخيراً لا بد لنا من أن نردد ما قاله اللورد « امتهل » ، وهو أن أوربة ، الوسيطة والحديثة ، مدينة بعلمها في الطب ، للعرب الذين حملوه إلى الغرب ، وللهنود ، الذين وصل علمهم إليها ، عن طريق العرب ؛ ولعل علم الطب ، وهو أشرف العلوم كلها ، قد نشأ في بلاد مختلفة في آن واحد تقريباً ، ثم أخذ ينمو ويتطور ، بفضل ما كان بين الشعوب المتعاصرة ، في الهند ، وفارس ، وسومر ، ومصر ، من صلات ومن تبادل فكري .

## الفصل الخامس



الطب الفارسي

- الفرس وأصولهم البعيدة .
- نشأة الامبراطورية الفارسية .
- كتاب الفرس المقدس مجّد الأعمال الزراعية .
- الإيمان القوي بالقواعد الصحية .
- عقاب خطايا الجسد .
- تدريس الأغنياء : الدين والطب والقانون .
- الطب وعقيدة زردشت .
- الكهنة الأطباء ، والأطباء الممارسون — قوانين ممارسة الطب .
- معرفة الفرس في تحضير واستخدام العقاقير والأعشاب الطبية .
- كلمات ومصطلحات فارسية في لغتنا العربية .

# الطب الفارسي

## تمهيد

### الفرس ، وأصولهم البعيدة

«بارسوا» : جنة من الجنان

إن أول ما عُرف من أخبار الميديين ، لوحة من الطين ، اكتشفها علماء الآثار ، تسجل حملة أرسلها ملك آشور شلما نصر الثالث ، الذي حكم بلاده من عام ٨٥٩ إلى عام ٨٢٤ ق.م ، إلى منطقة «بارسوا» ، في جبال كردستان ، عام ٨٣٧ ق.م ؛ وفي «بارسوا» كان يقطن أناس يسمون «ماداي» أو «ميديين» ، وهم أقوام أتوا من شواطئ بحر الخزر ، إلى غربي آسيا ، إلى فارس ، قبل الميلاد بحوالي ١٠٠٠ عام . ويشيد كتاب الفرس المقدس ، «الابستاق» ، بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان .

### الميديون مهدوا السبيل إلى حضارة فارس

ولقد أقام الميديون في هذا الموطن القديم دولة لهم ؛ وفي «اكباتانا» ، ولعلها مدينة همذان ، الواقعة في واد خصب وجميل ، أنشأ ديوسيس ، أول ملوكهم ، عاصمته الأولى . ولكن هذه الدولة الفتية ، القصيرة الأجل ، لم تتمكن من الإسهام في بناء الحضارة بقسط كبير ، سوى أنها قامت بتمهيد السبيل إلى حضارة فارس ، إذ أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية ، وحروفهم الهجائية البالغة ستة وثلاثين حرفاً ؛ واقتبسوا منهم استعمال ألواح الطين في الكتابة ؛ واستخدموا العمد في العمارة ؛ كما أخذوا عنهم قانونهم الأخلاقي الذي يوجي بالاعتصاف والتدبير في زمن السلم ، وبالشجاعة والإقدام في زمن الحرب . وأخذوا عنهم أيضاً دين زردشت ، وإلهيه «تأهورا — مزدا» و «اهرمان» . وعملوا مثلهم بنظام الأسرة الأبوي ، وتعدد الزوجات ، وتبنوا طائفة من قوانينهم .

## نشأة الامبراطورية الفارسية

ولكن انهيار دولة الميديين كان أسرع من نهضتهم هذه. فلقد قام قورش (٥٥٥ — ٥٢٩ ق.م)، حاكم ولاية «أنشان» الفارسية، التي كانت تابعة للميديين، بالإطاحة بملكهم الطاغية «استياجس»، فارتضوه ملكاً عليهم، وأصبحت فارس سيدة ميديا، وأخذت فيما بعد، تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله. وفي عام ٥٣٩ ق.م، استولى قورش، ملك الميديين والفرس، على مملكة بابل، وأنشأ الامبراطورية الفارسية.

### فارس تحكم ٤٠ مليوناً على مدى مائتي عام

وفي عهد دارا الأول، ملك الفرس (٥٢١ — ٤٨٥ ق.م)، بلغت الامبراطورية الفارسية أعظم اتساعها، إذ شملت عشرين ولاية، تضم: مصر، وفلسطين، وسورية، وفينيقية، وليديا، وفريجية، وابونيا، وقبادوش، وقلقية، وأرمينية، وآشور، وقفقاسية، وبابل، وميديا، وفارس، والبلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان، وبلوخرستان، وقسماً من الهند، وغربي نهر السند، وسيمنديانا وبكتريا (بلخ)؛ وقدّر بذلك لإقليم فارس، الذي كان عدد سكانه مليوني نسمة، أن يحكم أربعين مليوناً، من الأنفس، على مدى مائتي عام. ولم يسجل التاريخ من قبل ذلك، أن دولة واحدة، حكمت مثل هذه الرقعة الشاسعة من البلاد.

### استخدموا لغات عديدة

وتكلّم الفرس لغات عدة عبر تاريخهم. وكانت الفارسية القديمة، لغة البلاط في عهد دارا الأول، وثيقة الارتباط بالسنسكريتية حتى ليخيل للباحثين أن اللغتين، كانتا في زمن من الأزمان، وليدتي لغة واحدة أقدم منهما عهداً. وعندما مارس الفرس الكتابة استخدموا نقوشهم الخط المسماري، وفي كتابة وثائقهم، الحروف الهجائية الآرامية؛ كما أنهم بسّطوا مقاطع اللغة البابلية الصعبة، فأنقصوها من ثلاثمائة رمز إلى ستة وثلاثين علامة، تبدلت شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت حروفاً هجائية مسمارية.

### كتابهم المقدس مجّد الأعمال الزراعية

ولقد مجّد كتابهم المقدس، «الابستاق»، الأعمال الزراعية واعتبرها أهم أعمال الجنس البشري وأشرفها، يتهج بها «أهورا — مزدا»، الإله الأعلى، أكثر مما يتتهج بغيرها من

الأعمال . لذلك كان هم الرجل الفارسي ، بذل كل جهده ، في فلاحه الأرض وزرعها . وكان ملاك الأراضي يشكلون جماعات زراعية تعاونية ، مكونة من عدة أسر ، تزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضي . وكان القمح والشعير يشكلان أهم محاصيل الأرض ، وأهم موارد الغذاء .

### كان قورش ، يقدم الخمرة لجيوشه !

وكان الفرس القدماء ، يكثر من أكل اللحم ، وشرب الخمرة ؛ وكان ملكهم قورش يقدم الخمرة لجيوشه . ويقول « استرابون » : « وهم يمشون ، في أهم مناقشاتهم ، وهم يحتسون الخمرة ، ويرون أن ما يصدر من قراراتهم على هذه الحال ، أنقى مما يصدر منه منها وهم غير سكارى » . وكان من أهم مشروباتهم ، شراب مسكر يسمى « الهوما » ، يقدمونه قرباناً محبباً لأهلهم . وكانوا يعتقدون أن هذا المسكر لا يبعث في مدمنه الغضب أو الهياج ، بل يبعث فيه التقى والاستقامة !

### عصير « الهوما » المقدس

وظلت العادة الآرية القديمة ، عادة تقديم عصير « الهوما » المسكر قرباناً للآلهة ، باقية بعد انتشار الدين الزردشتي بزمان طويل ، وإن كان زردشت نفسه قد جهر بسخطه على هذه العادة ، وإن لم يرد لها ذكر في كتابهم الأستاق . وكان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون ما بقي منه على المؤمنين المجتمعين للصلاة .

### القوة عماد ثروة فارس

وكانت حياة فارس حياة سياسية وحرية أكثر منها اقتصادية . وكانت القوة عماد ثروتها ؛ ولذلك كان تاريخهم حافلاً بالدم والحديد . إلا أنهم كانوا يتحلون بأخلاق اجتماعية رفيعة قوامها الحزم والصرامة وحفظ الود . وكانوا يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصاً يكاد لا يقل عن حرص الصينيين .

### الإيمان القوي بالقواعد الصحية

وكانوا يؤمنون بالقواعد الصحية إيماناً قوياً ، فكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام أو الشرب على قارعة الطريق ؛ كما كان يسوءهم أن ييصق الإنسان أمام الناس ؛ وكانوا مقتصدين

في مأكلهم ومشربهم ، لا يطعمون إلا وجبة واحدة في اليوم ، ولا يشربون إلا الماء القراح . وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها ؛ « وإن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت فاقدة لقيمتها ، لأن الإنسان ، إذا لم يقض على الفساد ، فإن الملائكة لا تسكن في جسده » . وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون في نشر الأمراض المعدية ؛ وكان الناس يجتمعون في الأعياد وقد ارتدوا كلهم الملابس البيضاء . وكانت الشريعة الأبستاقية ، كالشريعتين البرهمية والموسوية ، مليئة بمراسم التطهير ، والحذر من النقذارة . وفي كتاب الزردشتيين المقدس فقرات طويلة تشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الروح والجسد . وقد جاء فيها أن قلامات الأظافر ، وقصاصات الأشعار ، وإخراج النفس من الفم ، كلها أقدار يجب على الفارسي العاقل أن يتجنبها ، إلا إذا كانت قد طهرت من قبل .

### عقاب خطايا الجسد

كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة في عقاب خطايا الجسد ، صرامة الشرائع اليهودية . فالاستمناء باليد ، كان يعاقب عليه بالجلد ، وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنى ، أو اللواط ، أو السحاق ، من الرجال والنساء ، « أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئب العاوية » .

### الإجهاض ، عقابه الإعدام

وكان الإجهاض في تقديرهم أشد جرماً من سائر الجرائم ، وكان عقابه الإعدام . وقد ورد في أحد النصوص القديمة المسماة « بالبندھش » وصف لجملة وسائل لمنع حمل ولكنها ، أي تلك النصوص ، كانت تحذر الناس من اللجوء إليها . ومما جاء فيها : « وفيما يختص بالتناسل قبل في الكتاب المنزل ، إن المرأة إذا خرجت من الحيض ، تظل عشر ليال وعشرة أيام عرضة للحمل إذا اقترب منها الرجال » .

### تدريس الأغنياء ، الدين والطب والقانون ؛ وتعليم الفقراء ، الرماية وركوب الخيل

وكان الوليد يبقى في حضانة أمه حتى السنة الخامسة من العمر ، ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة . وفي هذه السن يدخل المدرسة . وكانت الكتب المدرسية هي « الأبستاق »

وشروحها؛ وكانت المواد الدراسية تشمل الدين والطب والقانون. ولم يكن أبناء الطبقات الفقيرة يُفسدون بتلقي ذلك النوع من التعليم! بل كان تعليمهم يقتصر على ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق.

### الرقى... لا تقتل المريض

وكان للطب الفارسي تقاليد آرية مشتركة مع الطب الهندي. ولقد ترك أثره الرئيسي في تاريخ الطب عبر عقيدة زردشت التي تعود إلى ١٠٠٠ عام قبل الميلاد. وكان في بادئ الأمر من عمل الكهنة، يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق ٩٩٩٩٩ مرضاً ينبغي أن تعالج بمزيج من السحر، ومن اتباع قواعد الصحة. وكانوا يلجؤون في علاج مرضاهم إلى الرقى، أكثر من اعتمادهم على العقاقير؛ وكانت حجتهم في ذلك هي أن الرقى، إن لم تشف من المرض، فإنها لا تقتل المريض. وهذا ما لا يمكن قوله في العقاقير.

### كلمة عقار معناها الشيطان

ولقد ترك لنا الطب الفارسي كلمة «عقار Drug»، نفسها، وهي لا تعني في الأصل، العلاج أو الدواء، ولكنها تعني الشيطان. وإن انقلاب معنى هذه الكلمة إلى المفهوم الحالي لها، يشبه في واقع الأمر، استخدام البابليين للصور البشعة للآلهة الشريرة، لإخافة تلك الآلهة نفسها، وإبعادها عنهم. وهكذا كان (العقار) هو الرقية والعلاج معاً، لمكافحة (العقار) أو الشيطان!

وكان الكهنة هم «المجوس Magi» أو السحرة، ومن كلمة «Magi»، اشتقت كلمة «Magic» أي السحر. وكانوا هم الذين يستعطفون الشياطين الأشرار، ليخرجوهم من أجساد مرضاهم. ولقد نص القانون على أن يعالج الكهنة، المرضى، بدون أجر.

### في عقيدة زردشت: العناصر الأربعة، نقية وطاهرة

وكان المبدأ الأكثر أهمية في عقيدة زردشت هو: «أن العناصر الأربعة: الماء والهواء، والنار والتراب، هي نقية وطاهرة، فيجب ألا تلوث»؛ وهكذا أهدت هذه العقيدة، الطب، مبدأ النظافة، ووضعت لها قواعد وتعاليم شعائرية في سبيل مكافحة القذرة.

### «أهورا — مزدا» إله الشفاء

«أهورا — مزدا» الإله الطيب، العالم بكل شيء، كانت له أسماؤه الستة عشرة، وكان



أحد هذه الأسماء: «إله الشفاء». ومن وصاياه: «قد يشفى الإنسان بالقداسة، وقد يشفى بالمشروط، وقد يشفى بالأعشاب، وقد يشفى بالكلمة المقدسة، وهي من بين سبل الشفاء، أفضل من كل دواء».

### كهنة أطباء، وأطباء ممارسون

قلنا إن الكهنة كانوا يمارسون الطب، بمناشدة الشياطين الأشرار، لإخراجهم من أجساد المرضى. ولكن كان إلى جانب الكهنة، ممارسون للطب، ذوو كفاءة عالية في مجالي الطب، والجراحة. وكانوا يقدمون بعملهم هذا باسم الإله «أهورا — مزدا».

### الطبيب الناشئ يجرب طبه في عبدة الشيطان!

وكان على الطبيب الناشئ، أن يبدأ حياته العملية بمعالجة الهرطقة؛ أي المنشقين عن العقيدة! وكان ذلك مجرد اختبار لكفاءته. بذلك أمر ربّ النور نفسه إذ قال: «يا خالق الكون، يا قدوس، إذا شاء عبد من عباد الإله أن يمارس فن العلاج، فأني الناس يجب أن يجرب فيهم حذقه؟ ليجربه في عباد «أهورا — مزدا» أم في عبدة الشيطان؟ فأجاب «أهورا — مزدا»: «يجرب نفسه في عبدة الشيطان».

### قوانين ممارسة الطب

فإذا حدث أن مات منهم، ثلاثة، الواحد تلو الآخر، اعتبر المرشح غير صالح أبداً الدهر، ويجرد من لقبه، ويمنع من معالجة أي عبد من عباد الإله. وإذا ما تجرأ وعالج عبداً رابعاً وتسبب في موته، فلسوف يعتبر قاتلاً عن عمد، ومصيره القتل.

وأما إذا عالج بالمبضع ثلاثة من عباد الإله، الواحد تلو الآخر، وشفوا، كان صالحاً أبداً الدهر، وكان له، إذا أراد، أن يعالج عباد الإله، ويشفيهم من أمراضهم بالمبضع.

ولم يكن هذا القانون الصارم، ليطبق على معالجي الكفرة والهرطقة فحسب، بل كان يطبق على كل راغب في ممارسة العمل الطبي، ولم تكن العقيدة الزردشتية، تسمح بالقيام بأية مداخلة تجريبية على الجثث، لأنها كانت تعتبر الجثث غير طاهرة، ولا يحق للممارس الأمين أن يمسه.

## معرفة الفرس في تحضير واستخدام العقاقير والأعشاب الطبية

ولقد أضاف قدماء الفرس ، إلى جانب علم الصحة ، المنبثق من الإيمان بالنظافة ، قدراً كبيراً من المعرفة في مجال تحضير واستخدام العقاقير والأعشاب الطبية في معالجة المرض .

سابور تزوج ابنة أولينوس قيصر ، وبنى لها جنديسابور تناول الفرس قسماً هاماً من طبهم ، من البلدان المجاورة لهم ، وكانت الهند على رأس تلك البلدان . ولقد نبغ منهم أطباء اشتهروا بالحدق والعناية بصناعتهم . كما أن الطب اليوناني دخل بلاد فارس ، عندما زوّج أولينوس قيصر ابنته ، لسابور ملك الفرس ، الذي بنى لها مدينة جنديسابور ، ووضع في خدمتها أطباء يونانيين ، نقلوا الطب البقراطي إلى الشرق .

## قورش وداريوس استقدا ، أطباء مصريين

ولقد استخدم كل من قورش وداريوس ، ملكا الفرس ، أطباء مصريين لمعالجتهم . وكان الفرس يحنطون جثث موتاهم بطلائها بالشمع ، ليحفظوها من التلف . ومن أقوال حكمهم بزرجمهر : « إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض » .

## كلمات ومصطلحات فارسية ، في لغتنا العربية

وإنه لمن المفيد هنا ، أن نذكر أن في لغتنا العربية مئات من الكلمات والمصطلحات الفارسية ، في حقلي الطب والنبات ، عربّها الأطباء العرب القدماء ، الذين اتصلوا بالفرس ، واستعملوها في كتاباتهم ، نذكر منها على سبيل المثال :

- ١ — البرسام ، ومعناها : التهاب الحجاب بين الكبد والصدر .  
وهي تتركب من كلمتين : ( بر ) ، ومعناها الصدر ، و ( سام ) ومعناها التهاب .
- ٢ — السرسام ، ومعناها : التهاب حجاب الدماغ .  
وتتربك من كلمتين : ( سر ) ، ومعناها الرأس ، و ( سام ) ، ومعناها التهاب .  
وتقول العامة : سرساب ، وهو نوع من الخوف أو الجنون . ولقد اشتقوا منها فعلاً ، فقالوا : مسرّسب ، أي خائف .

- ٣ — السل ، ومعناها : التهاب الرئة .  
وأصلها الفارسي : ( سل ) ، ومعناها الرئة .
- ٤ — السمادير ، ويراد بها ضعف البصر ، حتى ليتراءى للناظر فيه أشباح .  
وأصلها الفارسي : سمراد ، ومعناها : الوهم والخيال .
- ٥ — اليمارستان ، ومعناها : مكان المريض ( مستشفى ) .  
وتتركب من كلمتين : ( ييمار ) ، ومعناها مريض ، و ( ستان ) ومعناها : محل .  
وخففوها فقالوا : مارستان .
- ٦ — الجلاب ، ومعناها : العسل أو السكر المعقود بماء الورد .  
وتتركب من كلمتين : ( كل ) أي ورد ، و ( لاب ) ؛ أي ماء .
- ٧ — الجلنجبين : وهو معجون الورد والعسل .  
وتتركب من كلمتين : ( كل ) ، أي ورد ، و ( أنكين ) ، أي عسل .
- ٨ — الزيرباج ، وهو طعام يطبخ من لحم الطير ، والكمون والخل .  
وتتركب من كلمتين : ( زيرا ) ، أي كمون ، و ( باج ) ، أي لحم .
- ٩ — الشهرترج ، نبات يعطى للجرب والحكة .  
وتتركب من : ( شاه ) ؛ أي سلطان ، و ( تره ) ، أي بقول .
- ١٠ — الشيطرج : ومعناها مسواك الراعي . وهو دواء يعطى لآلام المفاصل ، وللتهق .  
وتتركب من : ( شي ) ، أي الراعي ، و ( تره ) ، أي البقول .
- ١١ — سكبستان ، أي ثدي الكلب . وهو نبات لمعالجة أمراض الصدر .  
تتركب من : ( سك ) ، أي كلب ، و ( بستان ) ، أي ثدي .
- ١٢ — برشت ، ومعناها مشوي .  
والبرشت من البيض : أصله : ( نيم ) أي نصف ، و ( برشت ) ، أي مشوي .
- ١٣ — البوتنج ، ومعناها الحبق .  
وأصلها الفارسي : ( بودنة ) .
- ١٤ — الزنجبيل ، وأصلها الفارسي : ( شنكبييل ) .
- ١٥ — الزراوند ، فارسية ، نبات للنقرس .
- ١٦ — المزر ، نبذ الشعير ، المعروف بالبيرة .
- ١٧ — الزئبق ، وأصلها الفارسي : ( زيو ) .
- ١٨ — النعناع ، وأصلها الفارسي : ( ناناه ) .

- الطب الفارسي

١٩ — الهاون ، فارسية ، وهو ما يدق فيه الدواء .

٢٠ — البنج ، وأصلها الفارسي : ( بنفشه ) .

إلى كثير من هذه الألفاظ الطبية .

### قدماء الفرس ، أسهموا في تطور الطب

وإنه ، بفضل موقع فارس ، في مكان التقاء شرقي آسيا بغيرها ، وبسبب اتساع الامبراطورية الفارسية ، في ذلك الزمان ، اتساعاً عظيماً ، وتفاعلها فكرياً ، وحضارياً ، مع فكر وحضارات الأمم العديدة ، التي كانت تحت حكمها ، استطاع قدماء الفرس ، أن يسهموا في تطور الطب ، إسهاماً قيماً ، لا في الشرق الأوسط فحسب ، بل في بلاد الصين أيضاً .



## الفصل السادس



الطب الصيني

- أقدم مدنيات العالم وأغناها .
- من هم الصينيون ؟
- أعظم اختراع عرفته البشرية .
- الطب الصيني في مذكرات ماركو بولو .
- شوارع للعاشرات ، وأخرى للأطباء والمنجمين .
- غذاء الصينيين وشرابهم .
- العفة والزنى ...
- المعرفة الطبية ، وأهم كتب الطب الصينية وأقدمها .
- الأعشاب الطبية .
- الوخز بالإبر : العلم العجيب .

# الطب الصيني

## تمهيد

يقول الفيلسوف الفرنسي « ديدرو » : « الصينيون قوم يفوقون كل الأقوام الآسيوية ، في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وفي حكمتهم ، وحسن سياستهم ، وفي ولعهم بالفلسفة ؛ وهم برأي بعض المؤلفين ، يضارعون ، في كل هذه الأمور أرقى الشعوب الأوربية ، حضارة ، وأكثرها استنارة » .

## امبراطورية دامت ٤٠٠٠ عام

يقول فولتير : « لقد دامت امبراطورية الصين أربعة آلاف عام ، دون أن يطرأ عليها تغير يذكر ، في قوانينها ، وعاداتها ، ولغتها ... وإن نظام هذه الامبراطورية هو في الحق خير ما مشهده العالم من نظم » .

## أرقى حضارة عرفها العالم

ويقول الكونت كيسرلنج ، في خاتمة كتاب له ، عن الصين القديمة : « لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية ... وأنشأت أعلى ثقافة عرفها العالم كله ... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وليس ثمة من يشك في تفوق الصين في كل شأن من شؤون الحياة ... » .

## فن الخزف ذروة حضارة الصين ورمزها

ومدنية الصينيين ، من أقدم المدن القائمة في العالم وأغناها : تقاليد قديمة في الشعر ، يرجع عهدها إلى ١٧٠٠ سنة قبل الميلاد ، وسجل حافل بالفلسفة المثالية ، وبراعة



في فن الخزف، الذي يعد ذروة حضارة الصين ورمزها وأروع ما صنعه الجنس البشري، وإبداع في فن الرسم، وكذلك في فن النقش، وإتقان في الكثير من الفنون، وأخلاق قومية لا نظير لها عند شعوب العالم، ونظام اجتماعي كاد أن يكون المثل الأعلى للنظم التي يدعو لها كبار الفلاسفة، ومجتمع كان راقياً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة؛ مجتمع شهد قيام بابل، وآشور، وفارس، وأثينة، وروما، والبندقية، واسبانيا، ثم شهد سقوطها كلها.

### من هم الصينيون؟

وليس من العلماء من يعلم من أين جاء الصينيون، وإلى أي جنس ينتسبون، ومتى بدأت حضارتهم القديمة. وتدل كشوف «أندرسن» وغيره في منطقة «هونان» وفي منشورية الجنوبية، على أن ثقافة، تنتسب إلى العصر الحجري الحديث، وجدت في تلك البلاد، وكانت متأخرة ألفي عام عن مثيلتها، في وادي النيل، وفي وادي الرافدين.

ولقد تبين، أن خزف «هونان» المنتمي إلى العصر الحجري الحديث، يكاد لا يختلف في شيء عن خزف «السوس» وخزف «أنو»، مما يشير إلى أن بعض فنون وصناعات الصين القديمة جاءتهم من تركستان، ومن بلاد ما بين النهرين.

ولقد كانت حياة الشعب الصيني تجري مجراها الطبيعي، برغم ضروب التجارب والحن، والنظم المتعاقبة. وعندما انهار حكم أسرة «سونج» في شمالي البلاد، عقب غزو التتر لعاصمتها «بيانج ليانج»، عاد هذا الحكم من جديد، واستقر في الجنوب، وبدأت آثار النعم تظهر في العاصمة الجديدة «لين — آن»، بعد أن ازدهرت التجارة، والصناعة، والفنون.

### فن الرسم . ومجمع للفن

ولقد برع الصينيون في فن الرسم على الحرير. ولكن ضعف مقاومة هذه المادة، كان سبباً في تلفها، وبذلك ضاعت معظم الروائع الفنية. وضرب الامبراطور «هواي دزونج» (١١٠١ — ١١٢٥م)، لشعبه، أروع الأمثال، بأن كان فناناً، قبل أن يكون حاكماً؛ وفي الوقت الذي كان البرابرة يهاجمون عاصمة ملكه، كان الامبراطور يعمل في رسم الصور الفنية. ولقد أنشأ مجمعا للفن فبعث النشاط في الفنون بما كان يعرض في ذلك المجمع من روائع، وبما كان يغدقه من جوائز على الفنانين.

## أعظم اختراع عرفته البشرية

وفي عهد أسرة «سوج»، دخل فن الطباعة البلاد، فأحدث في حياتها الأدبية ثورة شاملة، بلغت ذروتها في عام ٧٧٠م، حين صُنعت الألواح المحفورة، لتطبع عليها صفحات كاملة، وحين صُنفت الحروف المفردة من المعادن المجموعة في قوالب، فكان هذا الكشف الصيني الخالص، أعظم اختراع عرفته البشرية بعد اكتشاف الكتابة.

### التدوين على العظم، فالحجر، وصنع الورق... انتحار مخترع الورق!

لقد بدأ الصينيون بتدوين معارفهم على العظم، ثم دونوها فيما بعد، على رقائق من قشر الخيزران، وكانت أمهات الكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر، في القرن الثاني الميلادي؛ وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة، بعد طلائها بالحبر. ثم صنعوا الورق ليدونوا عليه: ففي عام ١٠٥م. أبلغ رجل يدعى «تساي لون»، الامبراطور، بأنه اخترع مادة للكتابة عليها، صنعها من خليط من لحاء الشجر، وألياف القنب، والخرق البالية؛ فأعجب الامبراطور بهذا الاختراع، وعين «تساي لون» في منصب كبير، ومنحه لقباً رفيعاً. ولكن «لون» هذا تورط مع الامبراطورة في دسيسة افتضح أمرها، «فذهب إلى منزله، واغتسل، وصفف شعره، ولبس أحسن ثيابه، ثم تجرع السم».

### صناعة الورق: من الصينيين، إلى العرب، ومنهم إلى أوربة

ولقد انتشرت صناعة الورق الجديدة انتشاراً واسعاً، واستطاع الصينيون «حوالي عام ١٥٠م» أن يرتقوا بها إلى درجة أعلى حين استخدموا مادة غروية مقوية، مزجوها بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف، مما جعل الورق، سريع الامتصاص للحبر. وعندما أخذ العرب هذه الصناعة عن الصينيين، في القرن الثامن الميلادي، ثم عندما أخذتها أوربة عن العرب في القرن الثالث عشر، كانت قد بلغت غاية الكمال.

### الحبر الصيني — الأوراق النقدية — وأوراق اللعب

ثم كان اختراع الحبر أيضاً. وما لاريب فيه أن المصريين صنعوا الورق، وصنعوا الحبر في أقدم العهود. إلا أن الصينيين هم الذين أخذت أوربة عنهم طريقة خلط الحبر بسناج المصاييح. وكان اختراع الحبر الصيني الأسود، من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة.

وظهرت الأوراق النقدية عام ٩٥٠م، وكانت من أقدم ما أخرجته الطباعة في الصين .  
في حين أن أوربة ، لم تعرف النقود الورقية إلا في عام ١٦٥٦م .  
ولقد ظهرت في الصين أيضاً ، ولأول مرة ، أوراق اللعب ، في عام ٩٦٩م .

### اختراع البارود

واختراع الصينيون البارود في عهد أسرة تانج (٦١٨ — ٩٠٥م) ، ولكنهم قصرُوا استعماله وقتلٍ على الألعاب النارية . ولقد عرف العرب ملح البارود ( نترات البوتاسيوم ) ، وهو أهم مركبات البارود ، عرفوه أثناء إجتارهم مع الصين ، وسموه « الثلج الصيني » ، كما أنهم هم الذين نقلوا سر صناعة البارود إلى بلاد الغرب .

### الطب الصيني في مذكرات ماركو بولو

وأما ميدان الطب ، وما أنجزه الصينيون فيه ، فإننا نجد من المفيد ، أن نمهد لبحثه ببعض ماورد في كتاب يعتبر من أشهر كتب الرحلات ، والأشعار في آداب العالم كلها ، وهو كتاب مذكرات « ماركو بولو » ، الرحالة الإيطالي ، الذي غادر مدينة البندقية مع أبيه وعمه ، وله من العمر سبعة عشر عاماً ؛ غادرها عام ١٢٦٩م ، متجهاً إلى الصين ، وعاد منها إلى وطنه عام ١٢٩٥م ، بعد أن قضى فيها وعلى غير توقع منه زهاء خمسة وعشرين عاماً . فلقد أثرى هناك فبقي وارتقى إلى مناصب الدولة ، في عهد حكم كوبلاي ، الذي عينه حاكماً لمدينة « هانجتشاو » .

### مدينة أرق من مدن أوربة

وفي كتابه الشهير ، يصف ماركو بولو ، هذه المدينة وصف المعجب بها والحافظ لعهدها ، فيقول : « إنها أرق من بلاد أوربة بأجمعها في جمال مبانيها ، وجسورها ، وفي عدد مستشفياتها العامة ، ورشاقة دورها ذات الحقائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها ، وسحرهن ... ورقة أهلها وحسن أخلاقهم ... ويسهب في وصف المدينة وحياة سكانها إسهاباً منقطع النظر ... ثم يقول : والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد ، وفي الكثير منها حمامات يشرف عليها خدام وخدامات ... وكان من عادة الأهلين كلهم أن يغتسلوا كل يوم ، وخاصة قبل وجبات الطعام .

## شوارع للعاهرات وأخرى للأطباء والمنجمين

وخصصت في شوارع معينة من المدينة أحياء للعاهرات، وهن على جانب من الجمال لا يتصوره العقل، ويبلغن من الكثرة حداً لا أجروء على ذكره... يلبسن الثياب الجميلة ويتعطرن، ويسكنن في بيوت أنيقة، يقوم على خدمتهن فيها عدد غفير من الخادومات. ولقد رُخص هؤلاء العاهرات، بمزاولة مهنتهن؛ وكانت الدولة تنظم لهن شؤونهن، وتخضعهن لمراقبة طبية دورية.

وفي شوارع أخرى، من المدينة، كان الأطباء والمنجمون يقيمون... وكان أهل المدينة، رجالاً ونساءً، يصنعون معظم ملابسهم من الحرير... وكانت النساء الصينيات ذوات جمال أتخاذ ورائع، وقد عودن منذ صغرهن على الرقة والنحافة معاً.

## العفة، والزنى، والأمراض التناسلية

وكانت العفة من الفضائل السامية عند الصينيين. ولقد نجحوا في غرسها في نفوس البنات نجاحاً منقطع النظير. أما عند الرجال فكان الزنى من الشهوات المألوفة، والواسعة الانتشار! ولذلك تفشت وكثرت فيما بينهم الأمراض التناسلية، التي سنأتي على ذكرها فيما بعد.

## غذاء الصينيين وشرابهم

### الأرز، والذرة، والقمح، والشعير

وإنه لما لا شك فيه أن سكان الصين الأولين، ظلوا قروناً طويلاً، يكافحون الأدغال والغابات، والوحوش والحشرات، والجفاف والفيضانات... حتى استطاعوا أن يحولوا تلك البراري الشاسعة والموحشة، إلى حقول خصبة مثمرة. وكانت طرق الزراعة عندهم، ساذجة.

وكانت أهم الحبوب التي زرعوها هي الأرز والذرة، ثم يأتي القمح والشعير. وكانوا يتخذون من الأرز غذاءً، ويصنعون منه خمرًا؛ إلا أن الفلاح لم يدمن على تعاطي هذا الشراب في يوم من الأيام، بل كان شرابه المحبب إليه، ومحصوله الذي يلي الأرز في الأهمية، هو الشاي.

## الشاي

وكان استعمال الشاي في بادئ الأمر، مقصوراً على التداوي، ثم زاد انتشاراً، واستنبت أنواع جديدة منه، وأخذ المولعون به يعقدون مجالس لشربه، والحكم على خير ما يقدم من أنواعه، كما أخذ الشعراء يتغنون به في أشعارهم.

## فول الصويا والتوابل — السمك والبط

وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر المغذية، كفول الصويا، والتوابل المقوية كالثوم والبصل والثلاث من أنواع الفاكهة. وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة، هو الأرز الجاف، وقليل من الخضر والسمك؛ وأما الطبقات الوسطى، فكانت تضيف إلى هذا، لحم الخنزير والدجاج؛ وكانت الطبقات الغنية تضيف إلى كل ذلك لحم البط، ولديهم مائة صنف منه.

## كانوا يأكلون كل ما تنتجه الطبيعة

ولقد تطور فن الطهو في الصين حتى أصبح فناً من الفنون الجميلة؛ وكانت تستخدم فيه كل ما تنتجه الطبيعة، في الأرض، والماء، والسماء؛ فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع، وأعشاش الطير تنتهب، لتعمل منها أنواع الحساء؛ وكانت أطعمة لذيدة تتخذ من الطيور، ومن كلاب البحر، ومن الأسماك، وطحالين الماء، والجراد والجنادب ودود القز، ولحوم الخيل والبغال والجرذ، والقطط والكلاب. وكان من المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغني على أربعين صنفاً، وأن يظل القوم حول الطعام، ثلاث ساعات أو أكثر، يأكلون فيها ويشربون.

## المعرفة الطبية وأهم كتب الطب الصينية وأقدمها

### كتاب الحشائش العظيم، وكتاب القانون في الطب

وأما المعرفة الطبية، فمما لا ريب فيه أنها تطورت في الصين، كما تطورت في غيرها من بلدان الشرق الأقصى والأدنى، بفضل عامل الأخذ والعطاء بينها وبين مختلف الحضارات المجاورة لها. وإننا إذا ما عدنا إلى مراحل تطور هذه المعرفة، وجدنا أن جذورها الأولى تعود إلى عهد الامبراطور «شن نونج Shen Nung» (٢٧٣٧ ق. م)، الذي يعتبر بحق مؤسس الطب

## • الطب الصيني

الصيني، وإليه يعزى وضع مؤلف «Pentsao البنتساو»، كتاب الحشائش العظيم «The Great Herbal»؛ كما يعزى إلى الإمبراطور «Huangti هوانجتي»، (٢٦٩٧ ق.م)، وضع كتاب الـ «Neiching نيشنج»، (القانون في الطب).

ولقد كتبت هذه المؤلفات بصمغ اللك (اللكر)، على رقائق من قشر الخيزران. وكان الشعار الذي يرمز إلى الطب يشبه الشعار المصري الهروغليفي: في نصفه العلوي، مفصّد، وفي نصفه السفلي، قدح دمداة.

### ذكر الدورة الدموية — ووصف فيزيولوجيا الجسم

ولقد جاء في كتاب «نيشنج»، «أن كل دم الجسم يقع تحت سلطة القلب، يسري باستمرار في دائرة واحدة، ولا يتوقف أبداً». كان ذلك قبل ٤٣٠٠ سنة من اكتشاف وليم هارفي (١٥٧٨ — ١٦٥٧) للدورة الدموية. وفي هذا المؤلف وصف لفيزيولوجيا الجسم رائع إذ يقول: «القلب هو الملك، والرئتان تمثّلان سلطته التنفيذية، والكبد، هو قائد جيشه، والمرارة مدعيه العام، والطحال رئيس خدمه، والمشرف على المذاقات الخمسة، الحلاوة والملوحة والحموضة والمرارة والحراقة؛ وعلى مواقع الاحتراق الثلاثة: الصدر والبطن والحوض.

### التدوين على العظام — أبحاث في وظائف الأعضاء

وفي عهد «ين» (١٧١١ — ١٠٦٦ ق.م)، دوّنت معلومات عن الأمراض، على العظام، وتعتبر من الآثار التاريخية الهامة المتبقية حتى الآن.

وفي عهد أسرة «شو Chow» (١١٢٣ — ٢٥٦ ق.م) الملكية، أخذت تظهر المؤلفات التي تذكر أبحاثاً في جهاز الدم، وأبحاثاً في الأمعاء، إلى جانب دراسات، يركن إليها، في طبيعة ووظائف الأعضاء.

### تنظيم المهن الطبية

وفي هذه الحقبة بالذات، أي منذ أيام أسرة «شو» كانت الدولة تجري امتحاناً سنوياً للذين يرغبون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مراتب الناجحين منهم، كل حسب كفاءته، كما أنها بدأت بوضع نظام لدفع أجور الأطباء، بما يتفق ونتائج معالجتهم.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد، أمر حاكم صيني بأن تشرح جثث أربعين من المجرمين الذين حكم عليهم بالإعدام، وأن تدرس جثثهم، دراسة تشريحية.

## أقدم كتب الطب الصينية، وعملية الوخز بالإبر

### الموجب والسالب وصحة البدن

وفي عهد الممالك المتحاربة (٤٧٥ — ٢٢١ ق.م) وضع كتاب «هوانج دي ني جينغ» الذي يعتبر أحد أقدم كتب الطب الصينية، والذي يشرح وظائف الأعضاء فزيولوجيا وباثولوجيا الجسم البشري، ويبين مدى فعالية عملية الوخز بالإبر، في علاج الأمراض، وذلك لأنها تزيد من مناعة الجسم ضد الداء، بتحريضها لطاقته الحيوية، ولدورته الدموية؛ وقد أرسى هذا الكتاب الأساس النظري لتطور عملية الوخز بالإبر فيما بعد.

كما يعرض أيضاً، مبادئ تشخيص الأمراض، ومداواتها، وذلك بالاعتماد على نظرية: وحدة الضدين: الموجب والسالب ومكونات العالم من العناصر الخمسة: الذهب والخشب والماء والنار والتراب. ويرى رجال الطب الصيني القديم أن الضدين: «ين» و «نانغ»، أي الموجب والسالب، هما متوازنان حيناً ومتحولان حيناً آخر، وفي رأيهم أن صحة البدن مرتبطة بالتوازن بينهما، وأن كل الأمراض، دون استثناء، تعود إلى فقدان هذا التوازن.

### كتاب حمى الملاريا — الحميات الغذائية

وفي أوائل القرن الثاني الميلادي، وضع «تشانغ تشونغ جينغ» كتابه الخالد: «حمى الملاريا وأمراض أخرى»، وفيه يضع مبادئ للطب الصيني، أولية، ومنطقية. وفي القرن الثاني ميلادي أيضاً، كتب «جانج جونج تنج» عدة رسائل، تبحث في نظام التغذية، وفي الحميات الغذائية، بقي الصينيون يتبعونها، ويعملون بها زهاء ألف عام.

### كتاب الوخز بالإبر

وفي عهد أسرة «جين الغربية» (٢٦٥ — ٣١٧ م) أخرج «هوانغفومي» كتاب «الوخز بالإبر وملحقه»، وهو أقدم كتاب في الصين يبحث في هذا الموضوع، مستنداً إلى الأسس النظرية التي وردت في كتاب «هوانج دي ني جينغ» وفي «مختصر علم الوخز بالإبر» وغيرهما.. ويشير هذا الكتاب إلى وجود ٣٤٩ نقطة في بدن الإنسان صالحة للوخز، ويبين مقدار وتأثير الوخز، في كل نقطة من هذه النقاط، في معالجة مختلف الأمراض، ولذلك يعتبر كتاباً وثائقياً هاماً لعلم الوخز بالإبر.

### كتاب في الجراحة ؛ والنبيذ كمخدر

وفي القرن الثالث كتب « هوا — دو » كتاباً في الجراحة ، وانتشرت المداخلات الجراحية ، بعد أن حضّر نبيذاً يخدر المريض تخديراً تاماً . ومن سخرية القدر ، أن ضاعت أوصاف ذلك الشراب المخدر ، فيما بعد ، ولم يعرف أحد عنها شيئاً .

### رسالة في ضربات القلب

وفي نهاية القرن الثالث ميلادي ، كتب « وانج تو — هو » رسالة ، ذاع صيتها ، تبحث في ضربات القلب .

وفي أوائل القرن السادس ، كتب « داو هنج — جنج » وصفاً شاملاً لسبعمئة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم في تحضير الأدوية الصينية .

وفي عهد أسرة سوي ( ٥٨١ — ٦١٨ م ) كتب « تشاو يوان نانغ » ، أقدم كتاب صيني يتناول علم الباثولوجيا .

### كتاب في أمراض النساء

وفي أوائل القرن السابع ، كتب « جاو يوان — ننج » ، كتاباً قيماً في أمراض النساء وأمراض الأطفال ، بقي واحداً من المراجع الهامة زمناً طويلاً .

### كتاب الوصفات الطبية

وفي عهد أسرة « تانج » ( ٦١٨ — ٩٠٥ م ) ، ظهر كتاب بعنوان : « الوصفات الطبية القيمة كالذهب » ، ألفه « صيون سي مياو » ، وهو عبارة عن موسوعة طبية لها مكانتها الكبيرة في الصين ، وذلك لعرضها لمختلف طرق الأطباء القدامى ، ووصفاتهم العلاجية .

### رسائل متخصصة ؛ وكلية للطب

وفي أواخر عهد أسرة « تانج » المذكورة ، وأباطرتها ، كتبت أولى دوائر المعارف الطبية . كما أنه في عهد ملوك « أسرة سونج » ، كتبت بكثرة الرسائل الطبية المتخصصة ، التي تبحث كل منها في موضوع واحد . وأنشئت كلية تعليم الطب وظل أسلوبها في التدريس ، مقتصرًا على التمرين والممارسة .



### الطب الشرعي

ولقد تميز الصينيون بحق، حين كانوا أول من مارس الطب الشرعي، في عام ١٢٤١م، في عهد هذه الأسرة، وُضِعَ مُؤَلَّفُ اسمه «هسي يوان لو»، يتضمن تعليمات للمحققين في أسباب الوفيات المشتبه بها، وإرشادات دقيقة تتعلق بفحص الجثة، قبل دفنها، أو بعد إخراجها من مدفنها، وشرح مسهب لكيفية التحقق من أسباب الوفاة: هل كانت نتيجة للضرب أم للطن، أم للخنق، أم لإعطاء السم؟ وشرح لكيفية التمييز بين حالات القتل المتعمد، وبين حالات الانتحار. وإلى جانب كل هذا، يعطي المؤلف تعليمات تتعلق بالإسعاف، بالتنفس الاصطناعي، وبمعالجة السموم بترياقها.

### موسوعة: «مرايا الطب الذهبية»

وفي «مرايا الطب الذهبية»، وهي موسوعة طبية قيّمة تقع في أربعين مجلداً، كتبت بإشراف الامبراطور «كين لونج» (١٧٣٦ - ١٧٩٦م) رُتِبَ عصور المعرفة الطبية ترتيباً منسقاً، وذكرت فيها حصيلة العديد من طرق المداواة، ومنها التمسيد، والجراحة والمعالجة بالوخز بالإبر.

### كتاب في الأعشاب

وهناك كتاب: «منهاج الأعشاب الطبية»، بقلم «لي شي تشن»، كتبه في عهد أسرة «ينغ» (١٣٦٨ - ١٦٤٤م)، ويعتبر أكبر وأول كتاب في العالم، يبحث في علم النبات، وعلم العقاقير.

### كتاب الجامع في علم الوخز بالإبر

كما أنه في عهد تلك الأسرة، ألف «يانغ جي تشو»، كتاباً اسمه «الجامع في علم الوخز بالإبر»، يلخص فيه المنجزات التي تم إحرازها في علم الوخز بالإبر قبل عهد أسرة «مينغ»، موضحاً النظريات الخاصة بهذا العلم، ومحددات مواقع الوخز، ومبيناً كيفية تطبيقه، ومعدداً التجارب الناجحة في مجال هذه المعالجة.

وأخيراً، وفي عهد أسرتي ينغ وتشينغ (١٣٦٨ - ١٩١١م)، تكاملت النظريات الخاصة بالطب الصيني التقليدي، وبالعقاقير الصينية.

### أنواع للنفض ، وللحميات وقصائد لمداواة الملاريا

ولقد كان الأطباء الصينيون يبالغون أحياناً في وصف الأمراض وتشخيصها ، فوضعوا من أنواع النفض أربعاً وعشرين نوعاً ، ومن الحميات ألف نوع ، وكانت حمى الملاريا ، موضع اهتمام شاعر الصين الكبير «دوفو» (٧١٢ — ٧٧٠م) ، الذي أعلن للناس أن قصائده هي العلاج الناجع للشفاء من هذه الحمى ، ويقول أنه قد جرب ذلك بنفسه !!

### لقاح للجدرى

ولقد استخدم الصينيون اللقاح في معالجة مرض الجدرى ، وعرفوا التطعيم للوقاية منه ، ولعلمهم أخذوا ذلك عن الأطباء الهنود .

### الزئبق لمداواة الزهري

وأغلب الظن أن الصينيين سبقوا «باراسيلسوس Paracelsus» بقرون ، باستعمالهم الزئبق في معالجة الأمراض التناسلية ، التي اكتشفوا منها مرض السيلان ، في عام ٢٥٠٠ ق.م . وداء الزهري ، الذي لوحظ في عهد أسرة مينغ الملكية ، في القرن الرابع عشر ميلادي ، والذي انتشر ، في ذلك الزمان ، انتشاراً مروعاً بين الأهليين .

### الأعشاب الطبية

وأما العقاقير الأخرى ، والأعشاب الطبية ، فكان عددها عظيماً ، حتى أن أحد محالها ، كان منذ حوالي أربعة قرون ، يبيع منها بما يعادل ألف ريال في اليوم الواحد . وإنه لمن الإنصاف بمكان ، أن نكرر القول ، بأن العلوم الطبية الحديثة ، لا يحق لها الزهو ، ولا ينبغي لها أن تنبذ الأعمال الطبية القديمة العهد ، قبل أن تخضعها للدراسة العلمية . ولقد سبق لنا أن ذكرنا ، في هذا السياق ، مثلاً يتعلق بنبات «الروولفيا» الهندي ، وهنا ، نستطيع أن نذكر مثلاً آخر يتعلق بممارسة الصينيين للعرافة والسحر ، لدى تحضيرهم لخليط من جلود ضفادع الطين ، لمعالجة داء الاستسقاء (أو الحبن : Dropsy) . فنحن اليوم ، نعرف السر الكامن وراء هذا الخليط ، فلقد تبين لنا أن جلد ضفدع الطين ، غني بمادة الـ «بوفاجين Bufagin» ، والتي من خصائصها ، أنها تدر البول بغزارة ، وتساعد كثيراً على تحرير نسج البدن من السوائل المحتبسة فيها . وكانت هذه الجلود الغنية بمادة الأدرينالين تخفف أيضاً من سرعة القلب . وترفع الضغط الشرياني ، وتسهل إطرار السكر من البدن .

وإنه، منذ أن بدئ بالمعالجة بالوخز بالإبر، تلك المعالجة التي سوف نأتي على ذكرها ببعض الإسهاب، منذ ذلك الحين اتسم الطب الصيني التقليدي، بمعرفة فريدة في علم التشريح، وفي علم مقاييس الإنسان « Anthropometric Measurements »، وتمكن من إحراز تقدم في ضبط وإحكام هذه المعالجة.

### العودة إلى الطبيعة

وفي العقود الأخيرة من هذا القرن، أخذ علم الطب، في العديد من البلدان، يتطور باتجاه العودة إلى الطبيعة، وأخذت حملة وحمى دراسة الطب الصيني التقليدي تنتشر، في كل جزء من أرجاء العالم. ولقد أنشأت الصين في عصرنا الحاضر، مجموعة تامة من المؤسسات الخاصة بالطب الصيني التقليدي، منها ٦٥ معهداً طبياً، و ٦٠ هيئة بحوث صيدلانية، وقرابة ألفي مستشفى.

### الوخز بالإبر ! « العلم العجيب »

لقد سبق لنا أن قلنا أنه في عهد الممالك المتحاربة (٤٧٥ — ٢٢١ ق.م)، صدر كتاب « هوانج دي ني جينغ »، وهو أقدم كتاب صيني يوضح وظائف الأعضاء، ويرسي الأسس النظرية لعلم الوخز بالإبر.

### ٣٤٩ نقطة، صالحة للوخز

كما قلنا أيضاً، إنه في عهد أسرة جين الغربية (٢٦٥ — ٣١٧ م) ألّف « هوانج فومي » كتاب « الوخز بالإبر وملحقه »، وفيه يشير إلى وجود ٣٤٩ نقطة، في البدن كله، صالحة للوخز بالإبر.

وذكرنا كتاب « الجامع في علم الوخز بالإبر »، الذي ألّفه « يانج جي تشو » في عهد أسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤ م)، ولخص فيه كافة المنجزات السابقة، التي أحرزت في هذا العلم العجيب.

### قصة عالم الطب، والأمير

وهناك قصة وردت في كتاب « السجلات التاريخية »، والذي يرجع تاريخه إلى أكثر

من ألفي عام، جاء فيها أنه «عندما كان «بيان تشيويه»، أحد كبار علماء الطب في عهد الممالك المتحاربة، ماراً بملكة «قوه»، قيل له إن أميراً من أمراء المملكة قد توفي قبل وقت قصير من وصوله، ودعي إلى فحص جثة الأمير. وما أن فرغ هذا الطبيب العالم من فحصه، حتى قال للملك «قوه» إن الأمير لم تفارقه الروح، وإنما أغمي عليه لا أكثر! وفي الوقت ذاته، أوصى هذا الطبيب أحد أتباعه بشحذ إبرة صخرية وخز بها رأس الأمير. ولم يمض على ذلك سوى زمن قصير حتى صحا الأمير من غيبوبته... وعاد إلى نشاطه المعتاد».

### تطور أنواع إبر الوخز

وتؤكد المعلومات التاريخية أن الصينيين القدماء بدأوا، منذ العصر الحجري الجديد، يستفيدون من الوخز بالإبر الصخرية في معالجة الأمراض. ومع تطور حياتهم، حلت على التوالي الإبر العظمية، ثم إبر الخيزران، والفخار، محل الإبر الصخرية. وأما الإبر المعدنية، فأغلب الظن أنها ظهرت في العصر البرونزي.

### عملية الوخز، تقوي المناعة

وعملية الوخز بالإبر، تعطي عادةً نتائج مُرضية، وتُجرى بوخز نقاط معينة من جسم المريض بالإبر، وتفتيل هذه الإبر المغروزة في البدن بكل خفة، ونقرها في الوقت ذاته. وتفيد عملية الوخز هذه، في علاج الأمراض، بزيادتها لمناعة الجسم، عن طريق تحريضها لفعالية «جينغلو» ، وجينغلوه هذا، مصطلح طبي قديم يرمز إلى القنوات الرئيسية المتوتية في كل أجزاء البدن، والتي تدور فيها الطاقة الحيوية والدم، والغذاء كوحدة متكاملة في الجسم البشري.

### نقاط الوخز تنبئ عن حالة الأعضاء

وأما نقاط الوخز المعينة على سطح البدن، فهي التي تنبئ عن أوضاع الأعضاء، والقنوات المتوتية، وهي مرتبطة بها كلها ارتباطاً وثيقاً. فإذا ما شكك عضو من الأعضاء، أو جزء منه، ظهرت على نقطة الوخز المرتبطة به، ظواهر مرضية، (باثولوجية)، كازدياد الألم بالضغط عليها أو غير ذلك. هنا، يمكن وخز هذه المنطقة بالإبر، مما يسبب شعوراً بالألم، خفيفاً، وخوراً، وخدرًا، وانتفاخاً، والتهاباً في مكان الغرز. وعندما تصل هذه الأحاسيس إلى مركز الداء، أو الشكوى، عبر القنوات المتوتية، تنزل أعراض المرض تلقائياً.

### التدرب على وخز بعض النقاط

وقد تبدو النظريات الخاصة بالوخز بالإبر معقدة تعقيداً شديداً! — إلا أن العلاج به كما يقول الدكتور « تشيوي يويه هوا » قابل للتطبيق والتعميم بسهولة، إذ ليس من العسير، حتى على غير الطبيب، أن يعرف عدة نقاط وخز أساسية، وأن يتدرب على وخزها، في سبيل الوقاية من بعض الأمراض، ومعالجتها. ويعرف الدكتور « هوا »، بعدد من النقاط يمكن التدرب على وخزها بالإبر، وذلك كما يلي:

- ١ — نقطة: « تايتسونج »، وتقع بين السلامى الأولى والسلامى الثانية، ويداوى بوخزها: الصداع، والدوار، والأرق، وذعر الأطفال، وارتفاع الضغط الشرياني.
- ٢ — نقطة: « خه قو »، وتقع بين الإبهام والسبابة، ويداوى وخزها: ألم الأسنان، والصداع، والتهاب الحلق، والحول، والزكام. ويوصى بالحذر عند معالجة المرأة الحامل بهذه الطريقة.
- ٣ — نقطة: « تسوسان لي »، وتقع على بعد عشر سنتيمترات تحت فلكة الركبة، ويداوى وخزها: سوء الهضم، وألم المعدة، وآلام البطن الأخرى، وارتفاع الضغط الشرياني.
- ٤ — نقطة: « النثرة »، والنثرة، هي الانخفاض في منتصف الشفة العليا، تحت الأنف، ويداوى وخزها: الصرع، والجنون، والتشنج، والغيبوبة وذعر الأطفال.

### الوخز فعال في أكثر من ٣٠٠ داء

ويقول الدكتور « هوا » أن المعالجة بالوخز بالإبر فعالة في مداواة أكثر من ٣٠٠ داء، وأن الأدوية الأكثر استجابة لها، هي: النوراستينيا، والسكتة الدماغية، وآلام المعدة، وأمراض الأطفال، والطمث المؤلم، وانقطاع الطمث، وقصر النظر، والصمم والزكام وطنين الأذنين.

### نجاح التخدير بالوخز

ولقد اهتمت الأطباء الصينيون إلى طريق التخدير بالوخز بالإبر، وطبقوه في الجراحة بنجاح كبير.

### اهتمام الأمريكيين بالطب الصيني التقليدي

يقول الدكتور « هو شي مينغ » نائب وزير الصحة في الصين: « منذ أن زار ريتشارد

## • الطب الصيني

نيكسون، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق، الصين سنة ١٩٧٢، أثار الطب الصيني التقليدي، وكذلك العقاقير الصينية، اهتمام الأمريكيين. ولقد استخلص الأمريكيون سوائل من حشيشة الملاك الصينية، وحقنوا بها رواد الفضاء مما ساعد على أن تدور دماؤهم في الفضاء بصورة طبيعية، مما أثار إعجاباً كبيراً في الأوساط الطبية العالمية.

## الانتشار الواسع لفن الوخز بالإبر

وفي وقتنا الحاضر، انتشر فن الوخز بالإبر، انتشاراً سريعاً، حتى عم أكثر من ١٢٠ بلداً. وهناك العديد من الأطباء والطلبة، الأجانب، يفدون من كافة أرجاء العالم، إلى معهد بكين للطب الصيني التقليدي، ليتعلموا هذا الفن السحري.



## الفصل السابع



الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين



- هيرودوت ، أول من كتب عن حضارة مصر .
- من هم المصريون ؟ ومن أين جاؤوا ؟
- حضارة مصر ، أولى الحضارات القديمة وأرشقها وأجملها وأقواها .
- حجر رشيد ، أروع كشف في علم الآثار .
- علم الطب عند قدماء المصريين .
- عين حوروس ، التيممة الخالدة .
- الآلهة ، والكهنة ، وعلم السحر في الطب الفرعوني .
- البرديات الطبية .
- الأمراض وفن معالجتها . الجراحة . الاختصاص الطب الشرعي .
- الاغتصاب وعقوبته ... إذا أُجْرمت امرأة حامل .
- المصريون منشئوا علم الصحة .
- التحنيط وأسراره .
- محاكمة الروح .
- تأثير الآداب المصرية القديمة في نصوص التوراة .

al-maktabeh

# لطبّ لفِ عروني

## أولطبّ عند قدام المصريين

مكتبة

### المؤثرين

هيرودوت في مصر

قبل حوالي أربعمئة وخمسين عاماً من ميلاد السيد المسيح، جاء إلى مصر المؤرخ والرحالة اليوناني الشهير «هيرودوت Herodotus» (٤٨٤ — ٤٢٠ ق.م)، ليشاهد آثارها، ويستقصي أخبارها.

#### يوليوس قيصر

ثم، بعد أربعمئة عام من رحلة هيرودوت هذه، أي حوالي عام ٥١ ق.م، أتى إلى مصر امبراطور روما «يوليوس قيصر Julius Ceasar» (١٠١ — ٤٤ ق.م)، ووقف متأملاً معالم حضارتها الغنية، ثم عاد إلى بلاده، بعد أن نصب «كليوباترة» (٦٩ — ٣٠ ق.م) ملكة على عرش مصر، (٥١ — ٣٠ ق.م).

#### نابليون بونابرت

ثم، في العصور المتقدمة، أتى «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ — ١٨٢١)، أتى سنة ١٧٩٨م. على رأس حملة عسكرية، لاستكشاف مصر، ووقف هو ومن معه من قادة وعلماء، يتأملون بدهشة بالغة، معالم حضارة عظيمة.

#### أولى الحضارات

ولقد كان «أبو التاريخ» هيرودوت، أول من كتب للناس عن حضارة مصر، تلك الحضارة التي استطاع المصريون، بترائهم، وقوتهم وحذقهم، أن يشيدوها، فكانت بذلك أولى الحضارات القديمة، وكانت أيضاً أجملها وأرفعها شأنًا. نقلوا الحجارة الضخمة، وترن الواحدة منها عدة أطنان من أماكن تبعد أكثر من ستمائة ميل، ورفعوها إلى علو خمسمائة قدم، وظل عمالهم المائة ألف، يكدحون عشرين عاماً في بناء الأهرام.

### أروع القصص عن مصر

استمع «هيرودوت» إلى المصريين، ودَوَّن كل ما رأت عيناه، وكل ما سمعت أذناه، من قصص وأساطير، وأتحف بما دَوَّن، مؤرخي العالم وعلماءه؛ وعندما عاد إلى «أثينة» قص على مليكه «بيريكلس Pericles» (٤٩٥ — ٤٢٩ ق.م)، أروع القصص، عن مصر، وأهلها، فأثار بذلك دهشته، وإعجابه. تحدث «هيرودوت» في قصصه، عن عقائد المصريين وآدابهم، وأساطيرهم، كما تحدث عن علومهم وطبهم وممارستهم للسحر؛ وكان حديثه عن فن التحنيط أروع حديث.

### من هم المصريون؟ ومن أين جاؤوا؟

ما من أحد يعلم من أين جاء المصريون الأولون، الذين كتبوا تلك الأساطير وشيدوا تلك الحضارة. فبعض الباحثين يقولون بأن المصريين مولدون من النوبيين والأبشاش واللوبيين من جهة، ومن المهاجرين الساميين من جهة أخرى. وأغلب الظن أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية. قد حملوا معهم ثقافة أرق من ثقافة أهل البلاد، وأن تزواجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء، قد أنجب سلالات امتزجت ببعضها شيئاً فشيئاً.

### ظهرت ملامح دول في الألف الرابع قبل الميلاد

وفي الألف الرابع قبل الميلاد تكونت ملامح دول في أعالي النيل، وفي الدلتا، وكان لها ملوك يحكمونها وينظمون شؤونها. وفي الألف الثالث قبل الميلاد، توحدت مصر في عهد «مينا» الذي أسس العاصمة «ممفيس»؛ وساد «رع» إله الشمس، وابنه «حوروس» إله الشفاء.

### الكهنة أرسوا قواعد العلوم

وكان معظم علماء مصر القديمة، من الكهنة الذين كانوا يحيون بعيداً عن صخب الحياة، وينعمون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ وكانوا هم الذين أرسوا قواعد العلوم المصرية على الرغم مما كان في عقائدهم من خرافات. وهم يزعمون في أساطيرهم أن العلوم قد ابتدعها «نحت» إله الحكمة المصري، قبل ١٨.٠٠٠ ق.م. وإن هذا الإله حكم على ظهر الأرض ثلاثة آلاف سنة، وأنه هو الذي وضع أقدم الكتب في كل علم من العلوم، في عشرين ألف مجلد.

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

## تقدم العلوم الرياضية

يقول العلماء أنهم وجدوا العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدون؛ ويشهد على ذلك، تصميمهم للأهرام، وبناءؤها؛ وحسابهم الدقيق لارتفاع وانخفاض مستوى النيل؛ وقياسهم للأراضي التي يحا الفيضان حدودها. ويجمع الأقدمون كلهم، على أن ذلك القياس كان منشأ علم الهندسة، وأن هذا العلم هو من إبداع المصريين. وليس مستحيلاً أن يكون علم الحساب، وغيره من العلوم والفنون، قد جاءت إلى مصر من «أوركلدان» أو من غيرها من بلدان غرب آسية.

## تأثر مصر بسومر وبابل — حضارة مصر أغنى الحضارات

ويرى العلماء أن عناصر معينة من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد سومر وبابل؛ وهم يعلمون أن مصر وبلاد الرافدين كانتا تتبادلان التجارة؛ وأن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى غرب آسية، أكثر من انتمائها إلى إفريقيا. ولا غشاضة في أن تعترف مصر بالسبق لبلاد سومر، ذلك لأنه مهما تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات، فإن هذه الأصول لم تلبث أن نمت سريعاً، وأينعت، وأثمرت حضارة مصرية خالصة، هي بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ، وأعلاها شأنًا وأعظمها قوة، وأكثرها رشاقة وجمالاً.

## مصر مهد الحضارة

في عصر النهضة، كان الباحثون يظنون أن الحضارة إنما بدأت، أول مانشأت، في بلاد اليونان. ولم يكن أحد يعرف عن مصر أكثر من أنها بنت الأهرام، وعندما قاد نابليون بونايرت الحملة الفرنسية، على مصر، عام ١٧٩٨، اصطحب معه فريقاً من المساحين والمهندسين ليرتادوا أرض مصر ويسمونها؛ كما اصطحب معه عدداً من العلماء، الذين كانوا يسعون لفهم تاريخ مصر، باهتمام أوفى، وأفضل، مما كان يفعله مؤرخو ذلك العصر.

## شامبوليون حل رموز الهيروغليفية

ولقد ظل هؤلاء العلماء، سنين طويلاً، عاجزين عن قراءة الرموز والنقوش المتبقية على آثار مصر. ولقد بذل «شامبوليون»، أحد هؤلاء العلماء، من الجهد والصبر ما مكنه في نهاية

الأمر من حل رموز الكتابة الهيروغليفية، وذلك أنه حين عثر على مسلة مكتظة بهذه «الرموز المقدسة»، المكتوبة باللغة المصرية، وحين وجد في قسمها السفلي، نقوشاً باللغة اليونانية، عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترة .

وعندما لاحظ «شامبوليون» تكرار إحدى العبارات الهيروغليفية بكثرة، وأنها محاطة، في كل مرة، بإطار ملكي، خطر له أن تكون تلك العبارة اسم الملك والملكة . ويهدي من هذه الفكرة أمكنه عام ١٨٢٢، تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف الهجائية المصرية ؛ وكان ذلك مجرد ظن، ولم يكن يقيناً، إلى أن أتيحت له فرصة تطبيق، ومقارنة هذه الحروف، برموز وجددها منقوشة على حجر أسود، عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد .

## حجر رشيد أروع كشف في علم الآثار

وكانت على «حجر رشيد» هذا، نقوش كتبت بثلاث لغات :  
أولاًها : الهيروغليفية Hieraglyphic ، وثانيها : الديموتية Demotic ، الكتابة المصرية الدارجة ؛ وثالثها : اليونانية Greek ، وهنا ، استطاع «شامبوليون»، بفضل معرفته باللغة اليونانية، وبالأحد عشر حرفاً التي ميزها، من المسلة الأولى، وبعد عناء استمر أكثر من عشرين عاماً، استطاع أن يحل رموز هذا النقش، وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية كلها . وبذلك مهد السبيل للكشف عن عالم عظيم كان مفقوداً، وكتب بذلك أروع فصل في كتاب علم الآثار .

## اكتشاف البرديات

ولقد اعتبر الباحثون، أن الكشف عن الحروف الهجائية المصرية كلها، هو أعظم الكشف في تاريخ الإنسانية . ثم اكتشفت الأوراق البردية، التي أودعت فيها الحضارة المصرية العظيمة، روائع أسرارها في العلوم والدين، والآداب، والفنون الطبية .

## اختزال الهيروغليفية

وكان الكاتب المصري يجد عناء في حفظ الرموز الهيروغليفية الخمسمائة، مما دفع الكهنة وكتبه المعابد، إلى اختزال الهيروغليفية ؛ فنشأ بذلك شكل من أشكال الكتابة سهل وسريع، أطلق عليه اليونان اسم الكتابة «الهيراتيكية Hieratic» ، ومعناها المقدسة .

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

## البرديات الطبية

وأما البرديات الطبية، فكان بعضها مكتوباً بالخط الهيراتيكي، بالمدادين الأحمر والأسود، وكان بعضها الآخر يمتاز برونق التذهيب والإبداع بالنقوش، للدلالة على أهمية موضوعاتها.

## مصر مهد الحضارة

ولقد أثبتت البرديات عامة، والبرديات الطبية خاصة، والتي سوف نأتي على ذكرها بإسهاب فيما بعد، أن مصر كانت مهد الحضارة، وأن إليها يرجع الفضل، على سائر الأمم، في تطور فنون الطب، وازتقاء وسائل العمران؛ وأن منها استمدت شعوب بلدان أوربة المظلة على البحر الأبيض المتوسط، كاليونان والرومان وغيرهم، الكثير من علومهم وفنونهم وآدابهم وصناعاتهم. ثم نقلت هذه الشعوب نتاج هذه المعارف إلى بقية بلدان أوربة الغربية.

## حضارة تعود إلى خمسة آلاف عام

ويعود تاريخ حضارة مصر، إلى ما لا يقل عن خمسة آلاف عام، كان فيها أبنائها يحيون في نعيم من البحبوحة والرخاء.

## علم الطب عند قدماء المصريين

### أحموتب الطبيب والمهندس المعماري

يعتبر علم الطب أكبر وأعظم مفخرة علمية لحضارة قدماء المصريين، حدثتنا عنه موميائاتهم وبردياتهم أروع حديث. ففي عهد السلالة الفرعونية الثالثة (حوالي ٣٠٠٠ سنة ق. م)، وبعد أن قويت طبقة الكهنة، ظهر «أحموتب Emhotep»، أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ؛ كان سياسياً وفناناً وعالمًا وطبيباً ومهندساً معمارياً ماهراً. وكان يشغل منصب كبير مستشاري الملك «زوسر Zoser»، وهو الذي بنى للملك أول هرم هو هرم سقارة المدرج، الذي يرتفع بطوابقه الستة، غير المتساوية، إلى علو ٢٠٤ أقدام.

### سموه إله الشفاء — أول جامعات طبية

ولم يكن المصريون، خلال قرون عديدة، ينظرون إلى «أحموتب»، على أنه الباني للهرم

فحسب ولكنهم كانوا يرون فيه الطبيب الماهر أيضاً. وأن اسمه، «أمحوتب»، معناه، «الذي يأتي بسلام». ولقد عظمه المصريون القدامى وألوهوه حتى العبادة، إذ سموه: «إله الشفاء»، وكانوا يسمونه ابن «بتاح»، إله الخلق. وكانوا يمثلونه بطفل جالس يحمل سجلاً من ورق البردى ممدداً على ركبتيه. ولقد شيدوا باسمه معبداً في منفيس، وأنشأوا فيه مشفى يقصده المرضى الآتون من مناطق نائية ليلتمسوا فيه الشفاء. كما خصصت له ثلاثة معابد في منف وطيبة ومنيلة، حيث كان الكهنة يُدرّسون الطب ويعالجون المرضى؛ ويمكن بالتالي اعتبار هذه المعابد أول جامعات طبية، وأول مستشفيات جامعية. وفي جوار معبد منفيس تم اكتشاف مكتبة هي أشهر ما اكتشف في تاريخ مصر القديم. ولقد بقيت هذه المكتبة حتى عصر الرومان، ومنها أخذ الرومان الكثير من العلوم الطبية وبرعوا فيها.

#### كاتب بردية «أدوين سميث»

ولقد عرف الإغريق أمحوتب فيما بعد، فوضعوه في مرتبة إلههم «اسكلابيوس» إله الشفاء أيضاً. ويعتقد بعض العلماء أن أمحوتب، هو كاتب بردية «أدوين سميث» التي تعتبر أقدم مخطوطة طبية وصلت إليهم.

### نشأة الطب عند قدماء المصريين

مما لا شك فيه أن غريزة الشفاء عند الإنسان، وقوة حدسه، وقوة إدراكه، حملته على السعي لمعالجة ما ينتابه من أمراض، وما يصيبه من آلام؛ وما يقال عن تطور سبل اقتباسه للعلوم والفنون عامة، يقال أيضاً عن تطور معالجته لأدوائه وآلامه. وللمؤرخين وكبار العلماء آراء كثيرة في الكيفية التي بها ترسخت في الأذهان، طرائق المداواة عند قدماء المصريين. يقول «سترابون Strabon»، المكتشف والمؤلف اليوناني الشهير<sup>(١)</sup>: «كان قدماء المصريين لا يترددون في استقصاء طرق البحث، والتقاط الحكمة أينما وجدت، ولو من أفواه العامة؛ وكانوا إذا أصيب أحدهم بمرض استعصى عليهم علاجه،

(١) سترابون. جغرافي يوناني ولد في «أماسيا» عام ٥٨ ق.م. مؤلف كتاب «مذكرات تاريخية» وكتاب «جغرافيا» الشهير.

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

يعرضونه في أشهر ساحات المدينة، أو عند أهم أبوابها، حيث يبقى الزمن المناسب، ليراه الناس في ذهابهم وإيابهم؛ وكانوا يخصصون لكل مريض حارساً يرافقه؛ وكان على الحارس أن يصف للناس كيف بدأ الداء عند مريضه، وكيف سار، وما هي أعراضه. وكان من عادة القوم حب الاستطلاع؛ ومن واجب الحارس التباحث مع كل جمع يلتف حول المريض، وسؤالهم عما قد يكون في ذاكرتهم من علم، أو مألدهم من خبرة، من أجل معالجة مثل هذا الداء الذي يعاني منه مريضه». وكان حب المصريين للاستطلاع هذا متأصلاً في طباعهم، ومقترناً بالعطف على المريض، والرافة به؛ لذلك كانوا يقدمون معلوماتهم بإخلاص ووضوح، فيتلقاها حارس المريض، ويبادر إلى تنفيذها، أملاً في شفاء المريض.

### سجلات طبية لدى الكهنة

وكانوا يحرصون على تدوين الصفات، والتجارب، وتلقيها للآخرين، وعلى وضع ما ثبت عندهم من علم نافع، في مذكرات كانت تدون في سجلات خاصة، وتودع لدى كهنة المعابد؛ وكان الكهنة يقرأون تلك السجلات، ويدونون فيها كل ما يستجد لديهم من معرفة، وبذلك أصبحوا مع مرور السنين، أطباء اختصاصيين، مما رفع من شأنهم وعلا بمكانتهم عند الشعوب. ومرت أجيال، عمد بعدها المفكرون إلى جمع تلك المعلومات، وتدوينها في مجموعات ثمينة سموها «الكتاب المقدس»، وهذا الكتاب اشتهر عندهم بكتاب «إمبر Ember»، ونسب إلى الإله «تحت» إله الحكمة.

واتخذوه كقوانين أساسية للفنون والعلوم الطبية، وغرسوا في الأذهان أنه من مصدر وحي إلهي، لا يجوز لأحد، أن يغير أو يبدل فيه شيئاً، خشية التعرض لخطر عقوبات شديدة. وكان «الكتاب المقدس» هذا، سبباً في عرقلة تطور الطب السريري عندهم، عدة قرون.



### عين حوروس، التهمة الخالدة

عندما تستشير طبيبك، من أجل مرض ألمَّ بك، فيفحصك، ثم يتناول قلمه وورقة وصفة طبية له، تحمل في أعلاها اسمه واختصاصه، وشهاداته، ويهم في تسطير تعليماته إلى زميله الصيدلي، ليعطيك أقوى مضاد للحياة، أو أحدث دواء للقلب، تجده يبدأ وصفته



تلك ، بكتابة حرف "R" الروماني في أعلى وأيمن الوصفة ، ثم يضرب بقلمه أسفل الساق الأمامية لهذا الحرف ، ضربة سريعة ، يرسم بها حرفاً خاصاً بشكل  $R_x$  عندما يفعل طبيينا ذلك ، فإنه يقر ويعترف ، دونما علم منه ، بانتمائه للعقيدة الوثنية عقيدة السحر والكهانة . ذلك لأنه بفعله هذا ، يناشد ، بل يتضرع إلى الإله « حوروس Horus » إله الشفاء عند قدماء المصريين .

وبما أن طبيينا هذا ، إنسان عاقل ، ومفكر ، ومتقف ، فلسوف يرفض هذا القول رفضاً قاطعاً ، ولنسوف يفسر الرمز "R" على أنه أول حرف من كلمة « Recipe » اللاتينية ، ومعناها « خذ » ، تماماً كما هي الحال في وصفة بعض أطباق الطعام الشهية : خذ أربع بيضات ... إلخ ، ولكن الأمر ليس هكذا ... فلقد أوضح العالم وليم أوسر ، إن هذا الرمز يشير إلى « عين الإله حوروس Horus » ، وهو حجاب أو تيممة مصرية يرجع عهدها إلى ما قبل ٥٠٠٠ سنة ، وقصة هذه التيممة هي أنه عندما أقدم حوروس على الانتقام من « سيث » ، قاتل أبيه « أوزيريس Osiris » ، تمكن سيث ، أثناء العراك ، من سمل عين حوروس ، وذلك قبل أن يتمكن هذا الأخير من السيطرة عليه وقتله ؛ فأخذت أمه ، « إيزيس Isis » ، بالتوسل ، إلى الإله « تحوت » إله الحكمة ، الذي رم عين حوروس وأعاد إليها الرؤية . وأنه بالنظر لمعانة حوروس الشديدة من جهة ، وبالنظر لتحليه بالإخلاص والولاء لأبيه من جهة أخرى ، أصبح « إله الشفاء » وأصبحت عينه شعاراً للوقاية من المرض . وأما التيممة « عين حوروس » ، فلقد كانت في الأصل على الشكل التالي  وفي عهد الرومان ، نصح جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) تلامذته من الأطباء ، بأن يستخدموا في كتاباتهم ، الشعارات والرموز المصرية ، للتأثير في نفوس مرضاهم ؛ وكانت « عين حوروس أحد هذه الشعارات ؛ وكان ، الأطباء القدامى ، في البدء ، يرسمون العينين معاً ثم حوروا الرسم إلى حرفي RS الرومانيين ، ظهر الواحد ، لظهر الآخر ، على هذا الشكل :  $R_x$  ؛ ثم اكتفى فيما بعد بالرمز  $R_x$  وحده ، وفي العصور الوسطى حُوِّرَ هذا الشعار ثانية ، إلى شكل "Z" ليومز إلى « زيوس » أو « جوبيتر » ؛ ولكن هذا الرمز ، مالبث أن أعيد إلى شكله السابق  $R_x$  ، وإلى معناه المنطقي Recipe أي « خذ » . وإن هذا الرمز ، ليمثل الأفعى المقدسة ، أفعى إمام الطب والأطباء ، « اسكلابيوس » ، والتي تذكرنا اليوم ، بأن الطب الحديث ، إن هو إلا وريث التقاليد والمعتقدات القديمة ، من أساطير وخرافات وسحر ، والتي كان لقدماء المصريين التأثير البالغ في مضمارها .

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

## الآلهة والكهنة وعلم السحر في الطب الفرعوني

### عبدوا ملوكهم

كان قدماء المصريين يدينون بإله واحد أعلى، إلى جانب إيمانهم بوجود آلهة صغرى، للمقاطعات تخضع في مجموعها للإله الأعلى؛ وكانوا يرون أن الإله قد اتخذ لنفسه، منذ الأزل، طبيعة بشرية وبدا في سمات الملك؛ من أجل هذا عبد المصريون ملوكهم.

### رع إله الشمس، وأوزيريس إله النيل وصراع بين المؤمنين

ولقد اتجهوا إلى الشمس واهبة الحياة فاتخذوها إلهاً، ثم إلى النيل، واهب الأرض الخضرة، والخصب، فاتخذوه هو الآخر إلهاً. واستحالت نظرتهم إليهما كقوتين من قوى الطبيعة، إلى الإيمان بهما كمعبودين، يصرفان حياتهم، ويديران شؤونهم بهما، وفق نظام مرسوم بينهما؛ وسماوا إله الشمس «رع» وإله النيل والزرع «أوزيريس». وكان ثمة صراع بين المؤمنين بهذين الإلهين، لم يتحرروا من تبعاته إلا مع نهاية القرن الخامس لميلاد المسيح. وكان طبعياً أن يقوم مثل هذا الصراع: فلشمس وادي النيل المشرقة سحرها في النفوس ولها بهاؤها الذي يملأ العيون؛ وللنيل العظيم، جلاله في فيضه، ورهبته في غيضه، من مائه يروى الإنسان ويروى الحيوان، وبمائه يخرج الزرع الذي عليه يعيشون.

ويبدو أن تأليه المصريين للشمس، يرجع إلى عصر الصيد، أي إلى عصر ما قبل التاريخ. فلقد صوروها على شكل صياد في زورق، وهو يعبر بزورقه الأبحار وسط الغاب. وإننا لنجد شيئاً من هذا في «نصوص الأهرام»: فنرى «رع»، إله الشمس، على صورة إنسان يجذف عبر المستنقعات السماوية، في زورقه المركب من حزمتين من حزم الغاب.

### آلهة الطب

كان قدماء المصريين يزعمون أن عدداً من آلهتهم التي كانوا يعبدونها بوجه عام، تخصص ببعض العلوم، وبعض نواحي الحياة الإنسانية. فكانوا يعتقدون أن «إيزيس Isis» هي إلهة الطب المصري الحقيقية، وأن جمالها كان جاذباً للأرواح، وأن إليها يرجع الفضل في كل ما حاز زوجها «أوزيريس Osiris» إله النيل والزرع، من عظمة وسلطان؛ وأن أمحوتب هو إله الطب وإله الشفاء، وأن «سخت» هي إلهة الجراحة؛ وأن «نيت»، هي إلهة

التناسل، وإليها كانوا ينسبون الاهتمام العظيم بالنساء الحوامل؛ ولقد شيدوا باسمها معبداً خاصاً، أُعِدَّ لتعليم القابلات من جهة، وللعناية بالحوامل من جهة أخرى.

### الكهنة والطب

لقد كان الكاهن والطبيب عند قدماء المصريين، شخصاً واحداً، تماماً كما كانت عليه الحال في العصور الأولى. والكهنة هم أول من بدأوا الطب في مصر القديمة. وهناك من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية نبتت من السحر. وكانت التمايم أكثر شيوعاً بين الناس من العقاقير، لعلاج الأمراض أو للوقاية منها.

### المرض شيطان، أو روح خبيثة — تعويذة لمداواة لدغة الأفعى

#### — عبارات سحرية لمعالجة الرشح

كانوا ينظرون إلى المرض على أنه حلول الشياطين في جسم المريض، أو أن روحاً خبيثة أو نفس ميت، أتت تطلب الثأر من إنسان حي. وكان من واجب الكاهن — الطبيب عندئذ، إخراج الشيطان أو طرد تلك الروح الشريرة أو القضاء عليها وهي في داخل جسد المريض. من أجل ذلك، كان على الكاهن أولاً، أن يكشف عن طبيعة هذه الروح، وأن يعرف مصدرها، ومن ثم يبتدع السحر القوي، بشكل رُقى وتعويذ لقهق تلك الروح والتغلب عليها. مثال ذلك أنهم كانوا يداوون لدغة الأفعى بالتعويذة السحرية التالية: «إخرج أيها السم، واهبط إلى الأرض، فالمعبود «حوروس» يأمرك، ولا تقم ثانية ولتسقط رأسك إلى الأسفل، أنه «حوروس»، الساحر الكبير الذي يكلمك. ومثال آخر، أنهم كانوا يداوون الرشح والزكام بمثل هذه العبارات السحرية: «أخرج أيها البرد، يا ابن البرد، أنت يا من تهشم العظم وت تلف الدماغ، وتمرض مخارج الرأس السبعة. إخرج على الأرض، دفر، دفر، دفر!». وأكثر الظن أن هذا النوع من العلاج، لا يقل في مفعوله عن أي علاج عرف حتى اليوم، لمداواة هذا الداء القديم.

### الآلهة كشفت المعرفة الطبية

وكان قدماء المصريين يعتقدون أن الآلهة هي التي كشفت لهم سبل المعرفة الطبية كلها. لذلك كانوا وكان ملوكهم معهم يخصصون مهنة الطب، دون غيرها من المهن، ببالغ الاحترام، وببالغ الاهتمام أيضاً. فكانوا يؤكدون على ألا يمارس الطب، إلا من قضى سنوات

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

في تلقي علوم الكهنوت وأسرارها، إلى جانب نيله من الشهادات، ما يثبت أهليته لمزاولة هذا الفن. بهذا يستطيع الأطباء — الكهنة، مباشرة أعمالهم، بقلب نقي، ونفس صافية، وإيمان قوي بقدرة الإله الأعلى.

## علم السحر

### المعالجة بالإيماء — المعالجة بالعقاقير

لقد كانت التمام، كما سبق لنا أن ذكرنا، أكثر شيوعاً بين قدماء المصريين، من حبوب الدواء. ذلك لأنهم كانوا يرجعون إلى تعاليم السحر والرق والتعاويذ، في معالجتهم للأمراض وفي الوقاية منها. وكانت للمعالجة عندهم طريقتان: الأولى، بالإيماء الروحي أو النفسي، وهذه كان بعض الكهنة أو السحرة يقومون بها. والثانية، باستعمال العقاقير الطبية. التي أوصى بها الإله «تحت» رئيس السحرة، وذلك لفعاليتها الملموسة ونفعها الأقوى.

### الفراغة يرعون مدارس السحرة — كتب السحر مقدسة

ويرجع علم السحر عندهم إلى أقدم العصور. وكانت للسحرة مدارس يسمونها: «بيوت العلم والحياة»، ويعتقدون أنها تحت رعاية المعبود «تحت»، الذي كان في رأيهم، أول من وضع للسحر كتبه وأسراره. وكان الفراغة يفاخرون برعايتهم لهذه المدارس، ويلقبون أنفسهم «برؤساء السحرة». وكانوا يضعون كتب السحر في مصاف الكتب المقدسة، ويصنفونها مع العلوم الأخرى، كالطب والحكمة والبيان، ويحفظونها في خزائن الكتب الملكية، في الهياكل والمعابد. ومن جملة محفوظات متحف لندن الثمينة، بردية اكتشفت في القاعة الكبرى لمعبد «كبتوس» جاء فيها: «إن الأرض كانت مظلمة، ولما ظهر القمر، أضاءت أشعته سطحها».

### ترانيم سحرية وبخور خلف الأذنين

وكان من عادة السحرة العناية بحفظ صيغ السحر المنظومة، حفظاً متقناً، يكررونها مراراً، وهم يترنمون بها. وكانوا يشترطون فيمن يريد لنفسه صيغة تجلب له الخير، أن يكون على طهارة تامة في بدنه ولباسه، وأن يعطر بأنواع معينة من الزيت والطيب، وأن يلبس نعلًا من الجلد الأبيض، ويظهر فمه بالنظرون، ويرسم عليه، بالخير الأخضر، رسم الإله

« ماعت »، إله الحق، وكانوا يتلون الصيغة السحرية، مترنمين بها ويطلقون البخور من مبخرة تدور خلف أذنيه، ويتركونه في ركن، منعزل عن العالم يزاول هذه الرياضة النفسية، حتى تظهر لمداركه علامات النجاح.

### السحرة « أبناء الحياة »

ولقد بلغ من إكرام الفراعنة للسحرة، أنهم اعتبروهم « أبناء الحياة »، فكانوا يستوضحون منهم خواطرهم، وهواجسهم، ويسألونهم تفسير أحلامهم، ويعتقدون، أن بهم يتحقق النصر على الأعداء. وقد بلغ بعض السحرة درجة من البراعة، أبهرت أبصار المشاهدين، إذ كانوا قادرين على الإتيان بعجائب تكاد تشبه المعجزات.

## البرديات الطبية

لقد وصلت إلى العلماء عدة برديات تبحث في الطب، أهمها :

### ١ — بردية « أدوين سميث Edwin Smith Papyrus »

هي أعظم هذه البرديات الطبية شأنًا، سميت كذلك نسبة إلى العالم « سميث »، الذي اكتشفها في مدينة « طيبة Thebes »، عام ١٨٦٢، والتي أهديت إلى جمعية الدراسات التاريخية في نيويورك. وهي ملف من أوراق نبات البردى طوله خمس عشرة قدماً؛ ويرجع تاريخه إلى عام ٢٥٠٠ ق. م، تقريباً.

### أقدم وثيقة علمية عرفها التاريخ — أول كتاب جراحي في العالم

ويعتقد بعض العلماء، كما سبق لنا القول، إن الطبيب أمحوتب، إله الطب، هو كاتب هذه البردية، وهي أقدم وثيقة علمية عرفها التاريخ، قلبت المفاهيم السائدة عن الطب المصري القديم، إذ جاء فيها وصف دقيق لثماني وأربعين حالة جراحية، ارتكزت على معلومات لم تكن معروفة في ذلك الزمان، بدءاً من كسور الجمجمة، وانتهاءً بإصابات النخاع الشوكي، وبذلك كانت هذه البردية: « أول كتاب جراحي في العالم ». ولقد تم فيها بحث كل حالة من الحالات، بحثاً دقيقاً، وبأسلوب علمي، يقرب من الأساليب العلمية الحديثة، من ترتيب للأبحاث منطقي، وفحص للمريض، وتشخيص لمرضه، أولي، وسرد للأعراض

## • الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

المشتركة بين مرضه، وأمراض أخرى مختلفة، والاستدلال بأعراض المرض، على تشخيصه النهائي، وعلى عواقبه، وطريقة علاجه؛ ومن معرفة بالتشريح، وبوظائف الأعضاء، وعلاقتها ببعضها، ومن ربط بين ظواهر مرضية متلازمة، في أجزاء من البدن متباعدة.

### أول وصف علمي في الطب

ويشير مؤلف هذه البردية، بوضوح لا نجد له مثيلاً، قبل القرن الثامن عشر ميلادي إلى: «أن المركز المهيمن على عمل الطرفين السفليين، من جسم الإنسان، كائن في المخ». وتلك أول مرة يظهر فيها مثل هذا الوصف، في عالم الطب.

وتذكر بردية «أدوين سميث» هذه، شرحاً للمصطلحات العلمية الواردة فيها، كما تعطي وصفاً للوسائل الجراحية، التي كانت تستعمل، من جبائر، وأربطة، وفنائل، وكبي، إضافة إلى الخياطة الجراحية، التي كانت معروفة لديهم في ذلك الزمان.

وكانت هذه البردية تحتوي إلى جانب ذلك على بعض التعاويذ السحرية، وخاصة منها، ما كان يُعتقد أنه يبعد عنهم الطاعون السنوي أو الريح الوبائية، المهلكة؛ كما وجدت فيها تعاويذ ورق أخرى لإعادة «الصبأ» إلى المسنين من الرجال.

### ٢ — بردية «كاهون»

#### وصف الأدوية، وبحث شؤون النساء

ويرجع عهدها إلى عام ١٩٥٠ ق. م وتتكون من قسم طبي، وقسم بيطري، وقسم خاص بالمسائل الحسابية. ويقع القسم الطبي في ثلاث صفحات، ليس فيها من أمور جراحية، ولكن فيها وصف للأدوية، وبحث في شؤون النساء، وتشخيص العقم عندهن والتكهّن بجنس الجنين؛ كما جاء فيها وصف لأقماع اللبوس النسائية، ولعلها تستعمل لمنع الحمل.

### ٣ — بردية «إبيرز The Ebers Papyrus»

#### أضخم ملف طبي

وتعود إلى عام ١٥٠٠ ق. م، وهي أضخم ملف طبي عثر عليه. وجد في أحد مقابر طيبة عام ١٨٧٣، وسعى الدكتور إبيرز، أثناء وجوده في مصر، إلى شرائها؛ وقد اعتنوا

بحفظها في مكتبة لايبزيغ، حيث رُتبت في أُطر حفظاً لها؛ ثم ترجمها العالم الأثري الكبير «يواكيم» ترجمة علمية صحيحة وذلك تسهيلاً للاقتباس منها.

### فيها وصف لـ ٨٧٧ داء من عضلة الأفعى، إلى حمى النفاس

وفي هذه البردية وصف لـ ٨٧٧ داء، من عضلة الأفعى إلى حمى النفاس؛ وفيها ثبت بأسماء سبعمئة دواء لمعالجة هذه الأمراض؛ وهي توضح كيفية التشخيص؛ وفيها مثلاً تشخيص دقيق «للفتق الأربي Inguinal hernia»، وتمييزه عن الورم أو التوسع الشرياني؛ وتذكر الأمراض الباطنية ومعالجتها، ووصفات لأمراض العيون، وأمراض الجلد وأمراض الأطراف؛ وتصف أمراض النساء ومداواتها. وفيها فصل خاص بالقلب والشرابين، والنبض، وأهميته في التشخيص؛ ويتبين مما جاء في بردية إيبز هذه، أن المصريين القدامى، عرفوا أن القلب هو القدرة الدافعة في الكائنات الحية، وأنه مركز الدورة الدموية، إذ جاء فيها: «أن القلب تنفرع أوعيته إلى جميع أعضاء الجسم، فسواء جس الطبيب جبهة الإنسان أو مؤخرة رأسه أو يديه... أو أعلى قدميه، فإنه يلتقي بالقلب في كل مكان». ولم يكن بين هذا القول وبين أقوال ليوناردو وهارفي إلا خطوة واحدة. ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف سنة.

### علاج الأسنان، وعسر الهضم، وضعف نمو الشعر

كما أن هذه البردية تذكر الأمراض الجراحية وخاصة منها الأورام. وتذكر علاجاً للأسنان النخرة، بحشوها بخليط من كاربونات النحاس، والصمغ، ومواد أخرى، وتشيد بفصائل بذر الكتان: «إذا ما نقتع جذوره في الماء حتى تذوب، ثم وضعتها على رأس المريض فإنه يشقى في الحال؛ وإذا كانت الشكوى عسر الهضم، فليمضغ بعضاً من ثماره مع الجعة، فيطرد هذا المرض من جوفه. ولمساعدة نمو الشعر عند المرأة، تدق ثماره أو تعجن حتى تصبح كتلة، ثم تنقع في الزيت، ثم تدهن المرأة رأسها بها. وفي الفصل الأخير من هذه البردية، ذكر للسحر وتأثيره، في معالجة بعض الأمراض.

### ٤ — بردية برلين

#### فيها ١٧٠ نموذجاً لبطاقات طبية

اكتشفت في مدينة «منفيس» بالقرب من سقارة؛ يرجع تاريخها إلى عام

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

١٣٠٠ ق.م، أي إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة. وهي موجودة في القسم المصري، في متحف برلين، على شكل كتاب علمي نادر، ويتألف من ٢١ صحيفة، فيها تشخيص للأمراض شتى، وطرق لمعالجتها، متعددة؛ وفيها حوالي مائة وسبعين أمثلة نموذجاً لتذاكر طبية، تعدد الأمراض، وتصف علاجاتها، وتوضح تركيب العقاقير المختلفة، اللازمة لهذه الأمراض. وفيها فصل خاص بالشرابين، ودوران الدم. ويبحث دقيق في الأمراض النسائية. وهكذا نجد أنه بينما كانت أعمال السحر والكهانة لا تزال باقية، كانت هنالك فحوص طبية ومعالجات جراحية، ودوائية تشق طريقها، وتتقدم.

## ٥ — بردية لندن

### دراسة للتداوي بالكي

ويرجع عهدها إلى عام ١٣٠٠ ق.م أي إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة. وفي هذه البردية دراسة شاملة للتداوي بالكي. كما أنها تحتوي على مجموعة من التعاويذ، وأعمال السحر. وهي موجودة في المتحف البريطاني.

## ٦ — بردية كارلرزبرغ

### تبحث في طب العيون

وتعود إلى عام ١٢٠٠ ق.م موجودة في متحف كوبنهاغن، وتبحث خاصة في طب العيون.

## ٧ — بردية ليدن

### قواعد للوقاية من الأمراض المعدية

وفيها وسائل طبية، وقواعد صحية للوقاية من الأمراض المعدية، وطرق لمنع انتشارها؛ كما أن فيها تعاويذ لمن اعتاد التداوي بالرق والسحر والتمايم، تتلى لطلب الشفاء. وهناك العديد من الأوراق البردية، أقل شأنًا من البرديات التي جئنا على ذكرها؛ بعضها يصف القناة الهضمية، وعملية الهضم، وبعضها يصف الأمراض البولية، والأمراض التناسلية عند الرجل والمرأة، وبعضها يصف الكبد وعملها، وأن منها تأتي الصفراء.



## الأمراض عند قدماء المصريين

أمراض كثيرة ومتنوعة، تحدثنا عنها مومياؤهم  
مُني المصريون القدامى بطائفة من الأمراض، كبيرة، ومتنوعة، انتشرت في وادي النيل،  
انتشاراً واسعاً، مما دفع أطباءهم في ذلك الزمان، إلى بذل كل اهتمامهم وقصارى جهدهم،  
في سبيل تشخيصها، ومعالجتها، ووضع طرق للوقاية منها. وتحدثنا بردياتهم، وكذلك  
مومياؤهم، التي حفظت إصابات وأمراضاً شتى، تمكن العلماء من معرفتها، عن التهاب  
النخاع الشوكي السنجالي، في عهد السلالة الثانية عشرة (١٥٠٠ ق.م)، وعن تصلب  
الشرايين، وحصيات المرارة، والجدرى، والشلل، وشلل الأطفال، وفقر الدم، والسل  
الرئوي، والتهاب المفاصل، وتضخم القلب، وانصباب التأمور، والتهاب الزائدة الدودية،  
والبواسير، وتبول الدم، والصرع، والنقرس، وأمراض العين، والأذن؛ وليست لدى العلماء  
أدلة تثبت حدوث إصابات بالزهري أو السرطان؛ إلا أن تقيح اللثة، وتسوس الأسنان، هما  
اللذان لا أثر لهما في أقدم الجثث المحنطة، في حين يظهران بكثرة في المومياة الباقية من العهود  
المتأخرة؛ ويرى بعض الباحثين، أن ذلك دليل على تقدم الحضارة في هذه العهود.

## فن المعالجة عند قدماء المصريين

سبق أن قلنا إن بردية إيبزر، ذكرت ثبناً بأسماء سبعمئة دواء لمعالجة كل الأدوية  
المعروفة عند قدماء المصريين، كما قلنا إن بردية برلين جمعت نحواً من مائة وسبعين أنموذجاً  
لتذاكر طبية، تعدد الأمراض وتصف لها علاجاتها؛ ويبدو أن مجموع البرديات الطبية  
المكتشفة، ذكرت ووصفت ما يقرب من خمسمئة دواء.  
ولقد جمعت، وصنفت هذه العقاقير، من قبل أكثر من باحث، وخاصة منهم العالم  
الفرنسي «لوريه Loret»، فهناك عقاقير من منشأ نباتي، وعقاقير من منشأ معدني، وعقاقير  
من منشأ بشري وحيواني.

### ١ — العقاقير المستحضرة من النباتات

كانت كثيرة عندهم، استعملوا منها: رماد خشب الأنوس، كحلاً؛ وجذع شجر  
الرمان، سفوفاً، لطرد الدودة الوحيدة؛ ونشارة خشب الأرز، لتسهيل الطبيعة، والعرعر،  
لإدرار البول؛ والأفيون، في إعداد الأشربة المهدئة، والمسكنة للألم؛ وزيت البابونج،

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

للمسيد، وبصل العنصل، لمعالجة الاستسقاء؛ والخردل، ل مداواة الجنون؛ ومطبوخ الكزبرى، لعلاج الخناق؛ والثوم، للتعفن.

وما وجد في بردية «إبيرز» الطبية، أن المصريين القدامى استعملوا الخروع بكثرة، فحبوبه، تعطى للمصاب بعسر الهضم، ويشرب بعدها قليلاً من الجعة؛ وإذا سحقت هذه الحبوب، ومزجت بالزيت، شكلت عجينة تدهن بها الرؤوس لتساعد في نمو الشعر؛ وإذا مزجت بالعسل، خففت آلام الرأس؛ وأما زيت، زيت الخروع، فاستعملوه في الإضاءة، وفي تضميد الجروح المتقيحة.

ومن النباتات التي تستخرج منها العقاقير ذات الخواص: النعناع، والكزبرى، والشيح، وكف الذئب، والخردل، وعود الند (البخور)، والزعفران، والورنجان، والشمار، والكرفس، والفجل، وحب الكتان، وحب القرع، والمصطكي، وصمغ الصنوبر، وبعض محاصيل أخرى أساسها التريبتين؛ وهناك بعض المنقوعات كمغلي الشعير، والجعة، والزيت، والخل، والنبيد.

## حدائق للنباتات محيطة بالمعابد — الكهنة «سينو» يحضرون العقاقير

وكانوا يجمعون هذه النباتات من الحدائق المحيطة بالمعابد، والتي كانت تحت حراسة وإشراف الكهنة، وكان الكهنة المعروفين باسم «سينو Sinu» هم الذين يحضرون العقاقير من هذه النباتات، ومن غيرها، في أماكن خاصة، من المعابد، تسمى «آسيت Asit». وكانوا يستجلبون النباتات والعقاقير الأخرى غير المتوفرة لديهم، من بلدان بعيدة. ولقد وجد على الباب الشرقي لمعبد الدير البحري في الأقصر، نقش يثبت أن الملكة «حتشبسوت» (أي قبل ٣٤٠٠ سنة)، استحضرت من بلاد العرب نباتات عطرية، زرعتها وأنفقت من أجلها الشيء الكثير، وكونت أول حديقة أحدثت في العالم القديم.

## ٢ — العقاقير المستحضرة من المواد المعدنية

ومنها: ملح الرصاص، وخلات النحاس، وأوكسيد الحديد، وحجر النسر، الذي كان يستعمل في علاج الاستسقاء، وكاربونات الصوديوم، ونترات البوتاسيوم، والمغنيزيا، والنفط.

## ٣ — الوصفات المستحضرة من مواد بشرية وحيوانية

وأهمها: عسل النحل، وكان الأكثر استعمالاً لأنه في متناول الإنسان، ولبن المرأة، وماء المرأة

الطاهرة، وبول الإنسان، وألبان البقر والماعز، ومرارة الثور، وكبد ودم بعض الحيوانات، ودهنها، الذي كان المصريون القدامى، يعالجون به الصلع، وذلك بتدليك الرأس به، وروث (براز) القطط، والكلاب، والأسود، والتمساح، والسلحفاة، كل هذه وردت في تذاكر الأطباء.

كانت هذه العقاقير موضع اهتمام قدماء المصريين، فأنشأوا من أجلها مدارس خاصة ملحقة بالمعابد، درسوا فيها النباتات الطبية، من حيث صفاتها، وزراعتها، ومواسم استخلاص العقاقير منها؛ كما درسوا فيها العقاقير الأخرى المعدنية، والحيوانية.

### معامل لتحضر العقاقير والطور — أسماء العقاقير على أعمدة الهياكل — — من الطائر الكركي أخذوا علماً ثميناً :

وكان للكهنة المعروفين باسم « سينو Sinu »، الفضل الأكبر في استحضر وتركيب العقاقير، في معامل شيدت على مقربة من المعابد؛ وكانوا يصنعون فيها أيضاً العطور، والطيب المخصص للهيكل. وكان الصيادلة أيضاً يجهزون العقاقير، بسحقها، ويعتنون بغليها، وتصفيتها عبر أقمشة نقية، ويكتبون لاستعمالها التذاكر الطبية، على أوراق نبات البردي؛ وكانوا ينقشون رسوماً على أعمدة الهياكل. في الأماكن المعدة للأطباء، تبين أهم تلك العقاقير، وتصور نشاط العاملين في تحضيرها. وأهم ما كانوا يبدؤون به في المداواة، إعطاء المسهل والحفنة المناسبة، اعتقاداً منهم أن لكل غذاء مقدار زائد عن الحاجة، إذا تجمع في الأمعاء سبب أدواء كثيرة؛ وكانوا يستعملون المسهلات، ثلاثة أيام متباعدة، في كل شهر، وكانوا يعتقدون أن الحقن الشرجية من مصدر إلهي، ويقولون في ذلك أن الإله « تحوت » ظهر ذات يوم على شواطئ النيل بشكل الطائر الكركي، المعروف بأبي منجل، وأن الكهنة رأوه يأخذ الماء بمنقاره الطويل، ويدخله في دبره، لمقاومة الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من طعام، فاستنتجوا من ذلك علماً ثميناً. وكانوا يستعملون الحجامة، لمعالجة الصداع؛ والكلي، لمعالجة الأمراض الرئوية. وأمراض المفاصل.

### علم الجراحة عند قدماء المصريين

كان فن التحنيط، الذي امتاز به قدماء المصريين، بل أعجزوا ببراعتهم فيه، كافة الأمم، كان يستلزم بالدرجة الأولى، إتقاناً لثلاثة فنون: التشريح، والجراحة، وعلم النباتات.

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

## معلومات غنية عن تشريح الإنسان

ولقد وجد الباحثون، أن البرديات الطبية غنية بالمعلومات المتعلقة بتشريح الإنسان؛ كما وجدوا فيها وصفاً دقيقاً، وتسمية لسائر أعضاء الجسم، وهيكله العظمي، وعضلاته؛ وصفوا أغشية الدماغ، الأم الجافية، والأم الحنون؛ وصفوا القلب، وحركاته، والنبض وأهميتها في التشخيص؛ وأتوا على ذكر الغدة الدرقية والكبد والرئتين.

## أعمال وأدوات جراحية

ولقد تبين لهم أيضاً، أن طبقات من الكهنة، كانوا يؤدون الأعمال الجراحية في العيادات والمستشفيات المجاورة للمعابد؛ وكثيراً ما عثر علماء الآثار، على أدوات جراحية بديعة، في اكتشافات متعددة، منها ما وجدته العالم « كومري Comrie » في مقابر طيبة، وترجع إلى عام ١٥٠٠ ق. م.

## عرفوا التخدير

ولقد عرفوا التخدير الموضعي، بحجر منفيس، المسحوق، والممزوج بالخل وعرق الأفيون. وقد شوهدت في بعض الجماجم المحنطة جراح ملتزمة تنبئ عن آثار مداخل جراحية، وقد مضى على هذه الجماجم نحواً من ستة آلاف سنة.

## قدماء المصريين أجروا « الترنة »

ووجد في مقبرة بني حسن، رسم له نحو ثلاثة آلاف سنة، يمثل طبيباً متربعا، يجري عملية جراحية في رأس مريضه. ويقول، العالم « أرماند روفر » أن قدماء المصريين توصلوا بذلكهم ومهارتهم وخبرتهم بالفنون الطبية والجراحية إلى إجراء عمليات الترنة « Trepanation » على الأحياء.

وما اشتهر به قدماء المصريين فن تجبير الكسور. وقد وجد العالم « إدوين سميث Edwin Smith » هيكل امرأة مكسورة الكفين، يرجع إلى عهد الأسرة الفرعونية الخامسة عشرة؛ وشاهد قطع خشبية، والمسماة بالجباير، ملتصقة بالكف بلفائف محكمة تشهد بإتقان المصريين لهذا الفن، ودقتهم في المعالجة؛ وكثيراً ما وجدت آثار تجبير أخرى في عظام السواعد والأرجل وفي الكتف والفخذ والأضلاع.

## أذنان اصطناعيتان

وفي المتحف البريطاني، في قسم الآثار المصرية، نجد مومياء شاب، يافع، له أذنان

اصطناعتان صنعتا من مزيج من الصمغ الصنوبري، وألياف القطن، وقد يكون هذا الشاب، قد اقترف جريمة معينة عوقب عليها بقطع أذنيه؛ وقد تكون أذناه قد تعرضتا لحادث ما، استوجب بترهما.

### الختان نشأ في وادي النيل

وتدل بعض آثار قدماء المصريين على أنهم كانوا يجرون عملية الختان، وكذلك عملية قطع الخصيتين في ظروف خاصة. ولقد رجح معظم المؤرخين القدماء، أن الختان، نشأ في وادي النيل. ويؤيدهم في ذلك المؤرخون المتأخرون، أمثال هيرودوت، وديودور الصقلي، وسترابون. ولقد استدلو على ذلك، حين وجدوا تمثالاً لكاهن يدعى «أنيساخ Anisakh»، من الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق.م) عاري الجسم، ومختوناً. كما اكتشف العالم الآثاري «لورتيه Lortet»، في مقبرة الأطباء في سقارة «ويرجع عهدها لعصر الملك تيتي، أول ملوك الأسرة السادسة (١٦٠٠ ق.م)». رسوماً شتى تبدو في جوانبها صور لعمليات جراحية؛ ومن هذه الرسوم، بجانب باب المقبرة، رسم لطبيين: أمام أحدهما مريض شاب رافع يديه، ويمسك بهما أحدهما معاون للطبيب؛ وأمام الآخر، مريض شاب أيضاً غير رافع ليديه، ولا يمسك بهما أحد؛ وكل من الطبيين يجري لمريضه، عملية جراحية، على عضوه التناسلي، يرجح أنها عملية ختان.

### ختان الكهنة في الطفولة

وكان من عاداتهم ختان الكهنة، في سن الطفولة، للدلالة على أن آبائهم قد نذروهم للخدمة الدينية. وقد روى المؤرخ «أكليمندس الاسكندري»، أن الكاهن اليوناني «بيتا غوروس»، قدم لمصر عام ٥٥٠ ق.م، وزار مدينة هيليوپوليس؛ وعندما علم أهلها بأنه غير مختنن، نفرو منه، وأخرجوه من البلاد، لكونه كاهناً أجنبياً، لم يحترم تقاليدهم؛ فما كان منه إلا أن خضع للعرف المتبع، وأجرى لنفسه عملية الختان؛ وعندما تثبتوا من ذلك، قبلوه في مدارسهم، وانتظم في سلك الكهنوت، وتلقى عن رجاله علومهم وطرقهم، وأسرارهم.

### قطع الخصيتين، عقوبة الاغتصاب

أما عملية الخصى، فإنها، كما يقول المؤرخ الألماني «أوفل Ofele» كانت منتشرة في وادي النيل؛ ذلك لأن الفراعنة، كانوا يتخذون من بعض الغلمان خدماً لنسائهم؛ كما أن قوانينهم كانت تعاقب من يغتصب امرأة، بقطع خصيتيه؛ ولهذا السبب رأى كبار الأطباء،

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

أن يتدرب العديد من الكهنة على هذه الجراحة ، لتكون في جملة العقوبات التي ينفذونها على مقترفي الآثام ، كواجب ديني . من أجل هذا كانوا يفضلون اتخاذ المعابد ، أو الأماكن القريبة منها ، مكاناً لممارسة أعمالهم . وفي هذه المعابد كانوا يدرّسون الطب ويعالجون المرضى ، وبذلك يمكن اعتبار هذه المعابد ، أول كليات للطب ، أو أول مستشفيات جامعية ، في التاريخ .

### أجر الطبيب ، زنة شعر المريض فضة أو ذهباً

وكان من عادة المصريين ، في تلك العصور ، إعطاء الطبيب أجراً مالياً لقاء معالجته للمريض ، يتناسب وحالة المريض بين قومه . ثم أخذوا ، فيما بعد ، يتبعون طريقة أخرى ، وهي أن يمنع المريض منذ أول يوم من بدء معالجته ، عن قص شعره ، إلى أن يتم شفاؤه ؛ ثم في أول يوم من بدء نقاهته ، يخلق شعره بكامله ، ويقدم للمعبد زنة هذا الشعر ، فضة ، أو ذهباً . وكانت المعابد ، هي التي تقدم للأطباء ، رواتب دورية لقاء أتعابهم .

## نمو الاختصاص في فنون الطب

### طبيب لكل عضو

لقد نما التخصص في فنون الطب ، في عصر السلالات المتأخرة ، وتطور إلى درجة نادرة ومدهشة ؛ إذ كان الفراعنة يحيطون أنفسهم بالأطباء ، وكان كل واحد من هؤلاء موكل بالعناية بعضو من أعضاء الجسد ، أو بوظيفة من وظائف تلك الأعضاء . وتطورت مهنة الطب ، وأخذ الأطباء العظام ، من الجراحين والاختصاصيين ، في السير في صناعة الطب وفق قانون أخلاقي ظل يُتوارث جيلاً بعد جيل ، حتى وصل إلى قسم أبقرات الذائع الصيت .

### اختصاصيون في التوليد وفي أمراض النساء — كرسي حجري للولادة

ولقد ذكر « هيرودوت Herodotus » ، في كتابه عن الطب والأطباء عند قدماء المصريين ، أنه كان من بين المصريين القدامى ، اختصاصيون في التوليد ، وفي أمراض النساء ؛ فلقد وردت في بعض البرديات الطبية نصوص تتعلق بالسيلان المهبل ، والقلق الطمثي ، والتهديد بالإجهاض ، ومعالجتها : كما وجدت فيها تعليمات خاصة بالولادة ، تناقلتها الكاهنات عن المعبودة « نيت » ، إلهة التناسل ، وتوصيات بشأن سلامة الأم أثناء المخاض ، ووقاية الوليد

أثناء ولادته ، وغسله بعد ذلك وقطع حبله السري ، وتخصيب ملابسه بالطيب . وكانت الولادة تتم والحامل جالسة على كرسي حجري خاص ، منذ بدء المخاض وإلى أن ينزل الجنين من رحمها ، ويخرج إلى النور . ويرجع عهد هذا الكرسي إلى زمن الأسرة السادسة (٢٥٠٠ ق.م) .

### اختصاصيون بالرأس ، وبالمعدة ، وبفتح الجماجم

ومن الأطباء من كان مختصاً بأمراض الرأس ، ومنهم من لم يكن يعالج إلا أمراض المعدة ، وآخر لا يعالج إلا أمراض الشرج ؛ وكان منهم الفاتح لجماجم الفراعنة ، يقوم بفتح الجمجمة عندما تخفق كل الوسائل العلاجية الأخرى .

### قورش يستدعي اختصاصي العين

وكان منهم اختصاصيون بأمراض العيون ، وهؤلاء طبقت شهرتهم الآفاق ، حتى أن « قورش Cyrus » ملك العجم ، استدعى واحداً منهم ، لمعالجة عينيه ، وبعد أن شفي من دائه ، كلفه بتعليم طرائق فنه لأطباء فارس .

### إحصاء لأمراض العين ولعلاجاتها

وفي بردية « إبيرز » ، التي سبق لنا ذكرها ، ورد في أحد نصوصها ، إحصاء لأمراض العين ولعلاجاتها ، ومنها التهاب الملتحمة ، والتهاب القرنية ، والذباب الطائر ، والتهاب الجفن ، والقرحة القرنية ، وورم الجفون . وذكر العالم « غارينو Guarino » ، أنه لاحظ في أكثر من مومياء آثار المعالجة الباهرة لداء الجفون الداخلة . وكانوا يقرون معالجة أمراض العين البسيطة بالكحل والمرهم ، شريطة أن تكون موادها المعدنية ، أو النباتية ، نقية ومطابقة في تركيبها لطرقهم الدقيقة .

ويوجد في متحف « ليد » صندوق فيه أنواع من مواد التبرج والزينه للسيدات المصريات ، وفيه أيضاً أربع عيون كتبت عليها النقوش الآتية باللغة الهيروغليفية :

- ١ — الدهان اليومي للعين .
- ٢ — الدهان المخصص لزينة العين .
- ٣ — الدهان المسيل للدمع .
- ٤ — الدهان المستجلب للحيض في غير موعده .

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

## نساء طبيبات

وكانت النساء، في مصر القديمة، تُقبلن كطبيبات. ففي عهد السلالة الملكية الخامسة (أي حوالي ٢٧٣٠ ق.م)، وصَفَ لوح، امرأة على أنها طبيبة رئيسية. وفي عهد السلالة الملكية، المتوسطة، الأخيرة، تسلمت النساء مراكز مرموقة، في مجال المهنة الطبية.

## اختصاصيون بالطب الشرعي

كانت عناية قدماء المصريين بالتشريع، في مقدمة ما يبنون عليه دعائم سلطانهم، وكانوا يحرصون كل الحرص على كشف الجرائم، بإقامة الأدلة وإثباتها على فاعليها؛ وكان من جملة ما تنص عليه قوانينهم نظام «الطب الشرعي»، وذلك بالكشف على الوفيات بمعرفة أطباء مختصين بهذه المهنة، وقادرين على التمييز بين الوفاة غير الطبيعية، والوفاة الطبيعية؛ وكانوا في حالة الوفاة غير الطبيعية، يعرضون الأمر على السلطة القضائية، لتتخذ التدابير، وتقوم بالتحريات. وكانوا يخصصون بعض الكهنة، المتصفين بالصدق والأمانة، من الوجهتين الطبية والدينية، للقيام بمثل هذه التحريات. كما أنهم كانوا يخصصون لها بعض القابلات.

## يُوجَل تنفيذ العقاب، إلى أن تضع الحبلَى مولودها

وكان من عادتهم، إذا ما وجدت في حالات الجرائم، نساء حوامل، أن يترث القضاء، ويُوجَل تنفيذ العقاب، إلى أن تضع الحبلَى مولودها، وذلك خشية أن يتأثر وهو في ظروف التكوين.

## قواعد الصحة عند قدماء المصريين

### الحثان، والمليّنات، والصوم

لقد عمل المصريون القدامى على المحافظة على صحة أجسامهم باتباع القواعد الصحية العامة، التي تقيهم من الأمراض، والتي تحد من انتشارها، ختنوا الذكور، وعودوا الناس على الإكثار من استخدام الحقن الشرجية، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير لحبثه؛ وكانوا يصومون أياماً عديدة في السنة؛ ووضعوا نظاماً للأغذية وأوقات تناولها. ويقول «تيودوروس Theodorus»، الصقلي: «والمصريون يتقون الأمراض باستخدام المليّنات، وبالصوم، وبالمقيّات، ويقولون إن الفسط الأكبر مما يدخل البدن من طعام، إنما يزيد على حاجته، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد من الغذاء.



وكذلك يقول «هيرودوت Herodotus» ، إن المصريين كانوا يطهرون أجسامهم لثلاثة أيام متوالية كل شهر .

### الملوك وأطبائهم

وكان الملوك يتبعون القواعد الصحية ، فلا يتناولون من الطعام والشراب أكثر مما يحدده لهم أطبائهم ؛ وكان هؤلاء يحددون للملوكهم زمن رياضتهم ، وأوقات عملهم أيضاً ، بما يحفظ لهم لياقتهم البدنية ، ويساعدهم على تحمل أعباء مسؤولياتهم .

### النظافة ... — الاغتسال قبل دخول الهياكل

واشتهر الشعب المصري بالنظافة ؛ وكان الكهنة يزيلون عن أجسامهم الشعر والأدران ، ويغتسلون بالماء البارد مرتين كل يوم ، وكانوا يدعون الناس إلى الاقتداء بهم . وكان المصريون يغتسلون بعد مباضعة النساء ؛ وكانوا يحتِّمون على أنفسهم الاغتسال قبل الدخول إلى الأماكن المقدسة ؛ وكانوا يعنون بغسل الأيدي قبل الطعام وبعده ، وغسل كافة الأواني المخصصة للطبخ ؛ وكانوا يفضلون الماء القراح على غيره من الأشربة ، ويعمدون إلى تطهيره من الجراثيم بغليه على النار ، ثم يجعلونه في آنية خاصة ، حتى يكتسب البرودة ويصبح سائغاً للشرب .

ويقول «هيرودوت» إن الفرس أخذوا هذه القواعد الصحية عن المصريين ، وأنه في عام ٥٥٠ ق.م عندما قرر الملك شورش ، ملك الفرس ، مقاتلة أعداء له ، أمر بأن تحمل معه ، كميات من الماء المطهر ، في أواني من الفضة ؛ وأنه فعل ذلك امتثالاً لنصائح اثنين من أطبائه الثقة الذين تلقوا علم الطب على يد أساتذة من الأطباء المصريين .

### منشئو علم الصحة

ولقد اعتبر اليونان أن المصريين هم منشئو علم صحة الأبدان ، وقالوا أن المصريين هم أصح شعوب العالم أجساماً .

### الطب الفرعوني والتحنيط

آمنوا بحياة أخرى — الجسم يتألف من ظاهر ، وباطن  
المصريون القدماء ، الذين آمنوا بالشمس ، آمنوا بحياة أخرى بعد الموت ، ولقد أعانهم على هذا الإيمان ما منحهم إياه الطبيعة من تربة جافة تحفظ لهم جثث موتاهم من البلى .

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

ومنذ الألف الخامسة قبل الميلاد، تقبع تحت الثرى المصري، قبور لا تحصى، على عمق أقدام، تضم موتى، طويت ركبهم، وشدت إلى أذقانهم، ومن حولهم ما كانوا يملكون في الحياة الدنيا، من متاع، أو أواني فخارية، وآلات، وأسلحة حجرية، وغيرها، ليستخدموها كلها في حياتهم الأخرى، بعد الموت.

ودللتنا وثائقهم المدونة على معتقدات لهم، كانت ثمرة تحضرهم في عهد الاتحاد الثاني قرياً من ٣٠٠٠ ق.م، إذ كانت هذه المعتقدات من العمق بمكان يعجز معه الإنسان القديم عن تعرف كنهه، فقد انتهوا إلى الاعتقاد بأن جسم الإنسان يتألف من ظاهر وباطن، فأما الظاهر فهو الجسد، وأما الباطن فهو القلب، أي العقل، والنفس، وبهما حركة وحياة الإنسان؛ ورمزوا للعقل والنفس، بطائر له رأس إنسان، وذراعان؛ وترى صورته على القبور، وفي توايت المومياء، ماداً بإحدى يديه شراعاً منشوراً وهو الرمز المصري القديم للهواء أو التنفس، وماداً بيده الأخرى شارة هيروغليفية، ترمز إلى الحياة.

### آمنوا بخلود الملوك — وبخلود الروح

وحين آمن المصريون بخلود ملوكهم، جعلوا لأنفسهم منه نصيباً، فغدوا يؤمنون ببقاء الروح خالدة تعيش قرياً من جثمانها.

قال هيرودوت، المؤرخ اليوناني الشهير، إن المصريين هم أول من اعتقد بخلود النفس؛ وورد في نصوص منقوشة على الأهرام، يرجع تاريخها إلى الأسر الأولى: «إن النفس خالدة لا تموت أبداً».

لهذا أخذوا يحنطون الأجساد، وقسموا القبر إلى قسمين: قسم للروح والجسد، وقسم للشعائر الجنائزية، تأوي إليه الروح لتستمتع بالقرابين.

### بعد ٤ آلاف سنة ستقوم القيامة

ويقول العالم «دومايه Domaillet»، في أحد أبحاثه، أن قدماء المصريين اتخذوا التحنيط بمقتضى عقائدهم الدينية؛ ولإيمان الأقدمين منهم بأنه بعد مضي ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين ستقوم القيامة وتعم العالم، وترجع الأرواح إلى أجسادها ثانية؛ لذلك لجؤوا إلى التحنيط لحفظ هيكل الإنسان بشكل يصلح معه لعودة الروح إليه يوم تقوم القيامة.

### التحنيط وأسراره

قلنا إن المصريين القدامى، كانوا يؤمنون بخلود ملوكهم، وأنهم جعلوا من هذا الخلود

نصبياً لهم ، فغدوا يؤمنون ببقاء الروح خالدة ، تعيش قريباً من جثثها . لذلك أخذوا يحنطون الأجساد ، لحفظ هيكل الإنسان بانتظار عودة الروح إليه ، يوم القيامة .  
لقد برع قدماء المصريين في فن التحنيط براءة أبقت على أجزاء من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . ولقد علّم التحنيط الكهنة ، الأطباء ، الشيء الكثير ، وأغنى معرفتهم بالجسم وأعضائه .

ولقد أعطت الموميات مصر القديمة ، طابعاً مميزاً ، ذلك لأنها حفظت لآلاف السنين ، إصابات وأمراضاً ، تمكن العلماء من معرفتها ، منها أنهم اكتشفوا جثة يرجع عهدها إلى ما قبل الأسر الفرعونية ، مصابة بالحصيات المرارية ، وأخرى مصابة بحصيات الكلية ، وثالثة فيها بويضات البلهرسية ، كما أنهم وجدوا أن كثيراً من الموميات تشير إلى أن أصحابها ماتوا بتصلب الشرايين .

ومن بين موميات كهنة معبد آمون ، للأسرة الحادية والعشرين ، عثروا على جثة مات صاحبها بداء سل الفقار ، وهو ما نسميه اليوم بداء « بوت Pott » نسبة للطبيب الإنكليزي الذي وصفه ؛ وكانت أسنان الموميات ، قبل الأسر الفرعونية ، سليمة ، ولكن بعض موميات الملوك ، فيما بعد ، وجدت أسنانها ، وقد نخرها التسوس ؛ وكان رعمسيس الخامس مصاباً بالجدري .

### هيرودوتوس يروي قصة التحنيط

ولنترك المؤرخ اليوناني الكبير «هيرودوتوس» يقص علينا قصة التحنيط ، ويصف لنا ، بدقة باللغة مراحل هذا الفن :

هنالك في مصر جماعة من الرجال ، يمارسون فن التحنيط ، ويجعلون من هذا الفن عملهم الخاص . وعندما يحمل إليهم جثمان ميت ، يعرضون على ذويه نماذج مختلفة ، من جثث مصنوعة من الخشب ومطلية بشكل تشبه معه الجسم الطبيعي ؛ والنموذج الأكثر كمالاً منها ، هو ما كان يشبه صورة وشكل الميت ؛ والنموذج الثاني هو ما كان يقل عن الأول دقة في الصنع ، وتكلفة ؛ وأما الثالث فهو الأرخص من كل النماذج . وهنا ، يقول حاملوا الجثمان لهؤلاء الرجال ؛ أي أنموذج من هذه النماذج يفضلون ، ويتابع هيرودوتوس قصته قائلاً : « وتم عملية التحنيط ، وفق أكثر الطرق كمالاً ، وأول ما يفعله المحنطون هو أن يخرجوا الدماغ عبر المنخرين ، بقطعة من الحديد ، معوجة الرأس ( خطاف ) ؛ فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة ، أخرجوا ما تبقى منه ، بإدخال بعض العقاقير إلى داخل الجمجمة ؛ ثم يقومون بشق

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

الخاصة شقاً طولانياً بالصوان الحبشي الحاد، ويخرجون الأحشاء كلها؛ ثم يغسلون البطن بنبيد النخيل، ويرشونه مرات ومرات بمسحوق النباتات العطرية؛ وبعد ذلك يملأون البطن، بأنقى مسحوق المر، وبالكاشيا (القثاء الهندي)، وبمختلف أنواع التوابل والبهارات، باستثناء البخور واللبان والعطر الراتنجي.

وأخيراً يغلقون فتحة الخاصة بخياطتها؛ ثم يطمرون الجسد، في مسحوق النطرون مدة سبعين يوماً.

وفي نهاية هذه الفترة، التي لا يسمح القانون بتجاوزها، يغسل الجسد، ويلف من رأسه إلى أخمص قدميه، بضمادات من قماش الكتان الناعم، والمبلل بالصبغ، الذي يستعمله المصريون عادةً بدل الغراء؛ ثم يعاد الجسد إلى ذويه، الذين يضعون له صندوقاً من الخشب على هيئة إنسان، يضعونه فيه، ويحكمون إغلاقه، ويودعونه لحداً، وهو واقف مستند إلى جداره؛ وهذه الطريقة من التحنيط تكلف ذوي الميت أهبط النفقات.

وكانت أشرطة الكتان تصل، في بعض الأحيان إلى ألف ياردة من الطول؛ وكانت تشبه إلى حد كبير قطع الشاش الطبي الحديث؛ ولم يجد العلماء، في طرق التضميد المبتكرة، والمتبعة في أيامنا هذه طريقة واحدة، لم يستعملها قدماء المصريين أثناء أدائهم لفن لف وتقميط موميائهم.

### يوسف يأمر بتحنيط أبيه

ولقد جاء في التوراة، في سفر التكوين في الأصحاح الخمسين، أنه بعد أن مات يعقوب، «أمر يوسف عبده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنطه الأطباء، وكمل له أربعون يوماً، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً، وبعدما مضت أيام بكائه... كلم يوسف فرعون قائلاً... «أي استحلقتني قائلاً، أنا أموت، في قبري الذي حفرت لنفسي في أرض كنعان هناك تدفني، فالآن أصعد لأدفن أبي وأرجع، فقال فرعون اصعد وادفن أباك كما استحلقتك...».

### مات يوسف في مصر فحنطوه

«فصعد يوسف ليدفن أباه، وصعد معه جميع عبيد فرعون، وشيوخ بيته، وجميع شيوخ أرض مصر... وصعد معه مركبات وفرسان». «وضع يوسف لأبيه منحة سبعة أيام وحمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة، التي اشتراها مع الحقل ملك قبر... له ولأمراته سارة.

ثم رجع يوسف إلى مصر هو وإخوته وجميع من صعد معه ... وسكن يوسف في مصر هو وبیت أبيه ... « ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ، ووضع في تابوت في مصر » .

## محكمة الروح

لقد قال المصريون إن النفس خالدة لا تموت أبداً ، وقالوا إنها سوف تعود إلى هيكلها يوم القيامة ؛ ولكن لا بد لعودة الروح إلى هيكلها ، من أن تكون طاهرة ، ونقية ، وأن يثبت بالمحاكمة أنها بريئة من الذنوب ، وتعد نصوص محاكمة الروح بعد الموت ، أمام محكمة « أوزوريس » من أقدم وأروغ وأنبيل ما عبر به الإنسان عن مبادئه وأخلاقه .

ولقد وردت هذه النصوص في « كتاب الموتى » ، وهو مؤلف من نحو ألفي ملف من ورق البردي ، يرجع بعضها إلى عهد الأهرام ، وبعضها الآخر ، إلى ما قبل ذلك العهد ؛ وأدع الكهنة فيها أدعية وصيغاً وصلوات وتعاويذ من شأنها أن تهدئ من غضب الإله « أوزوريس » . لذلك نرى ، أنه من المفيد أن نقص قصة هذه المحاكمة الممتعة ؛ وهي وإن كانت في نظر الباحثين سجلاً قيماً لمبادئ وأخلاق قدماء المصريين إلا أنها تعتبر أيضاً قطعة أدبية نادرة من آداب العصور القديمة .

## المحاكمة

ما أن ينتقل الإنسان من دنياه إلى الدار الآخرة ، حتى يمثل أمام محكمة « أوزوريس » ليحاسب على ما فعل من حسنات ، وعلى ما اقترف من سيئات .

يرأس « أوزوريس » الإله الصالح ، محكمة العدل الكبرى ؛ وهو جالس على منصة الحكم ، المرتفعة في ناوس قائم في صدر القاعة ، المكلل سقفاً بالقناديل ، ورموز الحق ؛ وأمامه أحفاده ، أبناء حوروس ، وآلهة أربعة أركان العالم ، ومعهم اثنان وأربعون قاضياً ، بعضهم برؤوس بشرية ، وبعضهم برؤوس حيوانية ، وعلى رأس كل منهم ريشة نعامة رمزاً للمعبودة « ماعت » ممثلة الحق والعدل ، وفي يد كل منهم سيف لقتل الخاطيء ؛ ووظيفتهم ملاحظة ما يظهر في كفتي الميزان ، الذي يزن الحسنات والسيئات ، ومراقبة ذلك بكل دقة ، وأمام « أوزوريس » الوحش « ست » إله العذاب ، وأعضاء جسمه على أشكال مختلفة ، بعضها من فرس البحر ، وبعضها من التمساح والأسد ، وهو متحفز لافتراس الميت إذا رجحت كفة ميزان خطاياهم .

- الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

تقف الروح عند باب قاعة العدل خائفة، مرتعدة، في هذه الساعة الرهيبة، التي يكون فيها الفصل النهائي لخلاصها أو هلاكها الأبدى، وتنفي عن نفسها ارتكاب المحرمات.

### دفاع الروح عن نفسها عند باب المحكمة

تقول الروح: «سلام عليكم أيها الإله العظيم، إله الحق والعدالة؛ إني جئت إليك يارب خاشعة وخاضعة أمامك لأعين مجدك؛ إني أعرفك وأعرف اسمك وأسماء الاثنين وأربعين قاضياً، الجالسين معك في قاعة الحق، والمتخذين من لحوم العصاة والشاربين دماءهم؛ في هذا اليوم العظيم، وفي هذه الساعة الرهيبة. لقد أتيت إليك يا إلهي متحلية بالحق متخفية عن كل خطيئة، فأنا لم أظلم أحداً، ولم أسلك طريق الشر، ولم أحنث في يمين، ولم أشته امرأة قريبي، ولا مال غيري، ولم أكذب أبداً، ولم أخالف الأوامر الإلهية، ولم أسع في ضرر عبد عند سيده، ولم أجوع أحداً، ولم أسبب البكاء لأحد، ولم أحرز مالا حراماً، ولم أنتهك حرمة ميت، ولم أرتكب الفحشاء، ولم أدنس المقدسات، ولم أبيع القمح بثمرن باهظ، ولم أطفف الكيل. ولم أغتصب اللبن من فم الرضيع، ولم أقتنص طيور الآلهة ولم أطارد حيواناتها، ولم أتصيد الأسماك المقدسة من بحيراتها، ولم أخالف نظام الري، ولم أقطع قناة في ممرها، ولم أتلغ الأراضي المزروعة، ولم أطفئ النار الموقدة في المعابد، وفي الطرق العامة، ولم أخالف تعاليم الكتب المنزلة، ولم أمنع احتفالات الآلهة، ولم أحل بين المواشي ومراعيتها، ولم أهزأ بالحق، ولم أخدع أحداً ولم أفعل سوءاً، ولم أحمّل عاملاً فوق طاقته، ولم أكن قوَّالاً ولا نماماً، ولم أهن الملك ولا كاهن قريتي المقدسة، ولم أرفع صوتي في وجه أحد، أنا طاهرة، أنا طاهرة، أنا طاهرة، وبما أني بريئة من كل الذنوب، وأعرف أسماء هؤلاء الآلهة، المقيمين هنا في قاعة الحق، فأرجو أن أكون من الفائزين».

وبعد هذا الدفاع الرائع، يأخذ المعبود «أنوبيس» بيد (الميت) الروح ويدخلها قاعة العدل، تقف أمام كل قاض على حدة، وتدعوه باسمه الذي تعرفه، وتخطبه متبرئة من كل جريمة أو خطيئة، ثم تحتتم كلامها فتقول:

«سلام عليكم أيها القضاة، المقيمين في قاعة الحق المبين، أنتم الذين لا تحملون بين جواحكم إلا الحق أمام المعبود «حوروس»، ولا تأخذكم رافة بالخاطيء عند الحساب الرهيب، نجوني في هذه اللحظة العصبية، من «تيفون» الجبار، الذي يتخذ لحوم الأشجار قوتاً، ودماءهم شراباً؛ إني جئت إليكم أيها القضاة دون أن تدنسني شائبة، وليس لأحد علي تبعة؛ ولقد عشت بالحق، وكنت أصالح في كل صوب، حتى حمد الناس سيرتي؛ إن

سريرتي لتسر الآلهة، وتستخلص رضوانهم، وتستمطر رحمتهم، وتتيح لي فردوس جنتهم؛ فلكم أطعمت الجوع، وسقيت العطاش، وكسوت المرأة، وآويت الأغراب، وقدمت القرابين للآلهة، والولائم لأرواح الأموات، وأوقفت سفني لأبناء السبيل؛ كنت أباً للأيتام، ويدا للأقطع، وقدماً للأعرج، وعصاً للشيخ، وملجأ للبائس، فلا داعي إذن لتقديم تقارير ضدي أمام الديان، لأن قلبي نقي، ويدي طاهرتان» .

### صدور الحكم

ثم تعرض على الميزان، والمعبودة «ماعت»، ممثلة الحق، جاثية في كفته اليمنى، وقلب هذا الإنسان في كفته اليسرى، وهو رمز أعماله، ومنوط بتأدية الشهادة بحقه. ذلك أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن القلب، رمز لأعمال الإنسان في الحياة الدنيا، وشاهد عليها أمام الآلهة في الحياة الآخرة.

وحينما تشاهد الروح قلبها، ترتعد، وترتجف، وتقول له «أيها القلب الذي خلقت لي وخلقت لك، في عالم التكوين، وأتيت معي إلى الدنيا، لا تنازعني ولا تناقضني الحساب بين يدي الآلهة ومجلس القضاء، في هذا الوقت الخطير، ولا تُسقط كفة الميزان أمام «أوزوريس» الإله العظيم والديان الرهيب. فإذا كانت الروح صادقة في دفاعها استقام لسان الميزان، وصدر الحكم بالبراءة.

### الحكم بالبراءة

فإذا اتضح أن الميت من الصالحين المبرئين من كل خطيئة، وأن قلبه وكل أعضائه طاهرة، نطق «أوزوريس» الإله الأبدي، بالحكم النهائي فيقول: «فلتخرج الروح فائزاً من قاعة العدل، ولتذهب حيثما تشاء، ولتفتح لها أبواب الجنة، ولتزفها كل الآلهة إليها، ولا تعترضها حراس السماء بسوء، ولتقدم لها المؤونة والقرابين والشراب، ولتعط ثياباً من الكتان الجيد، وليرد لها قلبها، ولتوهب لها حياة جديدة ولتجلس عن يميني في الفردوس السماوي.

### الحكم بالإدانة

وإذا تبين أن الميت من العصاة الأشرار يقول له أوزوريس: «اذهب عني أيها الشرير إلى الجحيم لتلاقي أشد العذاب، وأمر التكال؛ وأنتم أيها القضاة اقتلوه بسيوفكم وتغذوا من لحمه، واشربوا من دمه، وأنت أيها الوحش المفترس قطعهُ إرباً إرباً وتغذ من أحشائه. وليفنى جسدك أيها الخاطيء، ولتعدم نفسك، وليشطب اسمك من سفر الحياة» .

## تأثير الآداب المصرية القديمة في نصوص التوراة

لقد سبق لنا أن قلنا، إن المؤرخين وجدوا في نصوص محاكمة الروح، سجلاً قيماً لمبادئ وأخلاق قدماء المصريين؛ ولقد وجدوا أيضاً في آداب المصريين القدامى، وكتاباتهم، الكثير من العواطف الإنسانية النبيلة. كقول أحد شعرائهم:

— أطعم الخبز لمن لا حقل له.

— واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبداً الدهر.

وكقول «أمنحوتب» في برديته الشهيرة: «حكمة أمنحوتب» (٩٥٠ ق. م.):

— لا تطمع في ذراع من الأرض،

— ولا تعتد على حدود أرملة،

— وإحرق الحقل،

— وخذ خبزك من بيدرك.

ورأى المؤرخون أن هذه الأقوال قد تكون قد أثرت في نصوص «أمثال سليمان» الواردة في التوراة.

كما أنهم رأوا أن أقدم القصائد المصرية كانت «ترانيم نصوص الأهرام»، وأن الشعراء العبرانيين أخذوا عن المصريين، والبابليين، طريقة صياغتهم لتلك الترانيم، وخلدوها في «مزامير داود».

وهناك حدث هام في تاريخ مصر، وقع في عهد «أمنحوتب» الرابع عام ١٣٧٨ ق. م كان «أمنحوتب» مصمماً على توجيه مصر إلى عبادة إله واحد. فشيد عاصمة جديدة سماها أخناتون وغير اسمه ليصبح أخناتون. وكرس حياته وحياة ملكته الحسنة الذكية نفرتيتي لعبادة إلهه، الشمس. وكان أخناتون شاعراً أيضاً، فقد جاءتنا أناشيده للشمس في أحد النقوش المدونة، وهي تشبه بصورة تثير الدهشة نشيد الشمس لأحد أقطاب المسيحية في القرون الوسطى، القديس فرنسيس الأسيزي:

«تألق الأرض

عندما تشرق في الأفق

وتزدهر الأشجار جميعاً والزروع

وترفرف الطير فوق الغدران



وترفع أجنحتها  
ابتهالاً وإجلالاً لك » .

كما أن بعض السطور في نشيد أخناتون هي نفس ما جاء في المزمور ١١٤ من  
« التوراة » بالحرف تقريباً :

« ما أعظم أعمالك يا رب  
كلها بحكمة صنعت  
ملآنة الأرض من خليقتك » .

وقد تكون وقائع محاكمة الروح ، وما جاء في نصوصها من أمر بالمعروف ، ونهي عن  
المنكر ، قد أثرت هي أيضاً في أدب التوراة وأن العبرانيين القدماء ، قد اقتبسوا منها ، كما  
اقتبسوا من نصوص مصرية ، وبابلية ، وكنعانية ، أخرى ، الكثير من القصص والأساطير  
والوصايا ، والحكم والأمثال ، التي تزخر بها التوراة في أسفارها .

## الفصل الثامن



الطب الإغريقي

- الطب في أساطير الإغريق ، وفي الياذة هوميروس .
- أثر الفلسفة في تطور الطب الإغريقي .
- مبدأ « العناصر الأربعة » ، ومأساة أمبيدوكليس .
- أبقراط يطلق نظرية الأخلاط الأربعة .
- إسهام الفنانين الإغريق في إغناء المعرفة الطبية .
- أرسطو يضع أسس التشريح المقارن .
- الطب الإغريقي والدين .
- مدارس الطب الكبرى ، وأوائل أطباء اليونان .
- أبقراط سكن حمص ، وأقام في دمشق ، وعلم فيها صناعته .
- أبقراط أول من أسس مدرسة طبية ، وأول من قرر الوراثة المرضية .
- سجلات سريرية فريدة . السحنة الأبقراطية . الأصابع الأبقراطية .
- مؤلفات أبقراط . حكم وأقوال أبقراط .
- قسم أبقراط .
- ناموس الطب لأبقراط .

# الرب اله غربي

## الطب في أساطير الإغريق

### ابن الإله أبوللو

تقول الأسطورة إن «اسكولابيوس Aesculapius»، ابن الإله «أبوللو Apollo»، ولد من صبية عذراء، وهو الذي خلق «شIRON Chiron»، و«شIRON» هذا هو الذي علمه فيما بعد طرق وأساليب الشفاء.

وكان «شIRON» أول جراح، فعلم تلميذه «اسكولابيوس» جيداً، ثم مال به التلميذ أن سبق أستاذه في المعرفة.

ولقد قص علينا «بندار Pindar»، في أغنية معبد «أبوللو» الثالثة، كيف أصبح «اسكولابيوس» بارعاً، ومتفوقاً، لدرجة استطاع معها أن يخرج «بلوتون» إله الجحيم من عمله، وذلك بأن خفف من سكير النار في جهنم!! فتقدم «بلوتون»، بشكواه إلى «زيوس Zeus»، إله الآلهة، ورب الأرباب، والذي ينعم دوماً بسلاحه الماضي من الرعد والبرق الصاعق. فقتل «زيوس» «اسكولابيوس» بصاعقة، ثم رماه إلى جبل «أولمبوس Olympus» وجعل منه<sup>(١)</sup> إلهاً!! وكان قدماء الإغريق يعتقدون أن الصاعقة التي قتل بها (زيوس) «اسكولابيوس»، كانت مركبة من: ثلاثة أجزاء من البرد، وثلاثة من المطر، وثلاثة من النار، وثلاثة من الريح.

### هيكل اسكولابيوس

ولقد اكتشف العالم الدكتور رودولف، هيكل «اسكولابيوس» في جزيرة (كوس) اليونانية المكرسة لسلالته، وكشف فيها عن كتابات من العلاجات الطبية.

(١) جبل «أولمبوس»، في تساليا، في الجزء الشرقي من اليونان، وكان الإغريق يعتبرونه مقر الآلهة.

### تمثال اسكولايوس

ولقد وصف بعضهم تمثال (اسكولايوس)، إله الطب، والذي كان يقام في هياكلهم، فقال: إنه بهيئة رجل ملتج، ذي جمّة ذات ذوائب، وهو قائم، مشمر مجموع الثياب، ويده عصا معوجة، من نبات الخطمي، قد التف عليها تنين أو حية، ورأس الطبيب مكمل بالغار.

### رموز التمثال

وفي تصويره هكذا، رموز إلى صناعته الموحى إليه بها: فقيامه مشمراً، رمز لاجتهاد الطبيب، ووجوب استعداده لأداء عمله من أجل حفظ الحياة؛ وحمله للعصا رمز للتعمير، وهو غاية الطب؛ واعوجاج العصا، رمز للتفنن في ضروب العلاج؛ وكونها من الخطمي، رمز للعقاقير التي يتداوى بها ومنها هذا النبات؛ والتفاف التنين، أو الحية، عليها، رمز للحياة المديدة، فالتنين أو الحية، يعمران طويلاً.

ولأن التنين، حاد البصر، كثير الأرق، لا ينام كثيراً، فهو رمز تنبيه للطبيب لأن يكون بصيراً بصناعته، وساهراً على إتقان أدائها. وأما الحية، فلأنها تمثل الحكمة بيقظتها ودائها؛ ولأن منها يؤخذ ترياق السم، ولأنها رمز لتجدد الصحة، بالعلاج، كما يتجدد جلدها، عاماً بعد عام. وأما إكليل الغار على رأس الطبيب، فرمز إلى أن عليه أن يقصي الحزن عن المريض، وأذى الحشرات والهوام عنه، بالغار، لذلك كان هذا النبات يعتبر رمزاً للفرح، والظفر معاً.

### أسرة من الآلهة

وتبدو أسرة الآلهة هذه، أسرة هامة، لأن «أبوللو» الذي كان بطبيعة الحال، طبيباً له عمله المقرر، كان في نفس الوقت، الإله الذي كانت سهامه ترمى سريعة، لتنشر الكوارث والأوبئة هنا وهناك؛ وكان تلاميذ ابنه «اسكولايوس»، مكرسين، للحماية من هذه الكوارث وهذه الأوبئة.

وهكذا تختلط أساطير الإغريق بتاريخهم، وبذلك يتعذر علينا، التأكد من أن «اسكولايوس» كان بالفعل طبيباً دنيوياً مثل «أحموتب Emhotep» المصري، الذي كانت جماهير قدماء المصريين، تعظمه حتى العبادة، وتهلل له.

## • الطب الإغريقي

ونخيل إلينا، من أعمال «هوميروس Homerus»، أن «اسكولابيوس»، كان بلحمه، ودمه، طبيباً، وكان بكل تأكيد، وافر الإنتاج، ومبدعاً.

### بناتا اسكولابيوس

وكانت ابنته الأولى «باناسيا Panacea»، غارقة في بحث ومعرفة كافة أدوية الأرض. وكانت قادرة على مداواة كل شيء، ومن هنا أتى تعبير «باناسيا» ليشير إلى الدواء العام الذي يشفي كل الأمراض.

وكانت «هايگيا Hygea»، ابنته الثانية، مسؤولة عن الصحة العامة، وعن خير ورفاه المجتمع. ومن هنا أتى تعبير «هايجين Hygiene»، ليشير إلى الصحة العامة. وكان عمل «هايگيا» الرئيسي، إطعام الأفاعي المقدسة، التي كانت تصنع معجزات الشفاء.

### عبادة الأفاعي

ولم تكن عبادة الأفاعي هذه، مقتصرة على الإغريق وحدهم، إذ كانت تمارس في عالم الطب البدائي كله تقريباً. كما كانت الحال في «زيت الأفعى» الذي كان بائعوا الأدوية الزائفة، الأمريكيون، يروجون له من على منابرهم، في الأماكن، والساحات العامة. وكانت الأفعى رمزاً مرادفاً للحكمة، وكانت تعرف أكثر مما كان يناسبها أن تعرف (أو أن تعرف)!! كما جرى في جنة عدن، عرفت الخير، وعرفت الشر، عرفت السم، وعرفت الترياق؛ لذلك كان على الطبيب أن يُعنى بها بكل احترام وتبجيل، لتكون حليفة له ونصيرة.

ولقد ذهب قدماء الإغريق إلى أبعد من هذا فأكلوا لحم الأفاعي ليصبحوا أطباء أفضل.

### أبناء اسكولابيوس

وكان «تيلسפורوس Telesphorus»، من أسرة «اسكولابيوس»، وكانوا يمثلونه دائماً كطفل صغير، كان مسؤولاً عن تأمين النقاة من الأمراض.

وكان «بوداليوريوس Podalirius»، وهو ابن آخر لـ «اسكولابيوس»، مختصاً في الطب الباطني، وكذلك كان أباً للطب النفسي والعقلي. وكان قادراً على تشخيص (جنون آجاكس) بنظرة واحدة إلى عيني المريض. كما كان أيضاً، طبيباً بارعاً، بشكل لم يعرف له

مثيل فيما بعد . ففي طريق عودته من حصار طروادة ، تحطمت سفينته على شاطئ مدينة « كاريا Caria » ، فأخذ إلى القصر الملكي ، حيث كانت ابنة الملك مستلقية في فراشها ، تعاني من المرض الذي كاد أن يفتك بها ، فقصدها « بوداليريوس Podalirius » ، وأنقذ بذلك حياتها ، ثم تزوجها .

### في حصار طروادة — ماشاؤون الجراح

وكان « ماشاؤون Machaon » ، ابن « اسكولايوس » أيضاً ، جراحاً ، وكان الطبيب الخاص لـ « مينيلالوس Minelaus » ، في حصار طروادة ؛ وكان أحد أبطال « هوميروس » ، ولم يكن يسعف الجرحى بنبل فحسب ، بل كان واحداً من متطوعي الحصان الخشبي ؛ وفي منتصف المعركة ، عندما احترق سهم درع « مينيلالوس Minelaus » ، اندفع « ماشاؤون » ، بسرعة نحو الرجل الجريح ، وأخرج السهم من جسده ، تاركاً رأس السهم ليسد الجرح ، ثم مص الجرح ، ووضع عليه البلسم الشافي . وعندما جُرح « ماشاؤون » نفسه ، جرحه « باريس Paris » ، الذي هربت معه « هيلين Helen » وسبب ذلك حرب طروادة ، صرخ « إيدومينيوس Idomeneus » ، منادياً « نيسطور Nestor » وكان هذا الأخير ماراً بعربته ، ناداه قائلاً : « أسرع يا سيدي « نيسطور » ، وخذ « ماشاؤون » بعربتك ، وقدها بكل سرعة ، نحو السفن ، لأن الجراح القادر على كسر السهم ، وشفاء الجرح ، يساوي فوجاً من جنودك » .

### في إلياذة هوميروس

ومن يقرأ إلياذة « هوميروس » ، وهي ملحمة الطويلة ، التي يصف بها حرب طروادة الشهيرة ، يجد فيها وصفاً هاماً لبعض طرق المعالجة ، ولا سيما في مداواة الجروح ، كسبر الجرح بمسبار ليُعرف غوره ؛ وامتصاص الدم من الجرح بالفم ، وذر البلاسم عليه ، لشفائه . ولقد أتى « هوميروس » على ذكر بعض أعضاء الجسم ؛ ولم يأت على ذكر تسلط الدين على الطب .

### بوداليريوس الباطني

ذكر « هوميروس » في إلياذته أن الأخوين « ماشاؤون وبوداليريوس » ، ولدي « اسكولايوس » ، كانا رئيسي الأطباء ، اشتغل أحدهما « ماشاؤون » بالجراحة ، والثاني بمعالجة الأمراض الباطنية . ويتضح ذلك في قوله ، من تعريف العلامة البستاني :

سبر الجرح والدم امتص جرّا      وعليه شافى البلاسم ذرّا  
ذاك سِرُّ شِرون قبل أسرّا      لأبيه فكان من ثم ذخرا

### الهياكل مجامع للجراحة

وكانت الهياكل عندهم مجامع للجراحة . وكانوا يوزعون الأطباء على الجيش لمعالجة الجرحى كما يستفاد من قول اريفييل لفطرثل من نشيد آخر :

هيّ أغثنني واصحبني للخم      وأخرج السهم يزل عني الألم  
والجرح فاعسله بماء فاتر      واسكب عليه بلسم القناطر<sup>(١)</sup> ...

ولقد ذكر (هوميروس) في إلياذته، أشياء كثيرة من التشريح بوصف أنواع جراح الأبطال، وتميز البشرة والأدمة من الجسد، ووصف الأربطة والأعصاب والعظام، ووصف بعض الأمراض المتفشية في عهده، مثل الطاعون .

### تحليل إحصائي للإلياذة

ولقد تبين من تحليل إحصائي أجري للإلياذة، أن «هوميروس» وصف ١٤٧ جرحاً حربياً، منها ١٠٦ كانت جراحاً بطعنات الحراب، وكانت وفياتها ٨٠٪، و ١٧ منها كانت بطعنات السيوف، وكانت وفياتها ١٠٠٪، و ١٢ منها كانت جراحاً بالسهم، وكانت وفياتها ٤٢٪؛ وكان إجمالي الوفيات كلها ٦٧٧٪ من مجموع الجرحى . وبالطبع لم يُدخل القتال البطولي الهومييري، في الحساب، حالات الوفيات غير البطولية، بالزحار (الدوزنطيريا)، مثلاً، أو بالحميات، أو بغيرها من الأمراض المماثلة .

### معابد للأسكولايوسية

ومن قراءة الإلياذة، يتضح لنا بجلاء أن الطب أصبح في الألف الأول قبل الميلاد، مهنة تتمتع بأسمى درجات الاحترام . وكانت للأسكولايوسية، معابد تمارس فيها عقيدة الشفاء . وأشهر تلك المعابد، كانت في «كوس Cos»، و «إبيدوروس Epidaurus» و «كنيدوس Cnidus» و «برغاموس Pergamus» .

(١) يريد بها نبات القنطاريون .



## معابد ومصحات — العلاج بالإيحاء

والمعابد هذه، كانت في واقع الأمر، مصحات يمارس فيها القليل من الشعائر الكهنوتية. كانت تقع في جبال مشجرة، قريباً من ينابيع المياه المعدنية. وكان المرضى يستقبلون فيها، ويهيئون. وكانت التهيئة نفسية وذلك بتلاوة منجزات اسكولابيوس، وذكر النجاحات السالفة لتلك المعابد، ولعلاجاتها. ثم تقام الصلوات، وتقدم (الأضاحي)، ويحجم المريض في أحد ينابيع المياه المعدنية، ثم يطلى جسده بالزيت ويمسّد، وبعد إقامة بعض الشعائر الكهنوتية، يوضع المريض في ركن مقدس من المعبد لينام فيه. وفي ظلام الليل يقوم كاهن يلبس لباس الآلهة، يقوم بزيارة المريض ليسدي إليه النصائح الطبية، هذا إذا كان المريض صريحاً؛ أما إذا كان غارقاً في نومه يحلم، فإن أحلامه تفسّر له فيما بعد، أو يقصّ عليه كيف أن الأفاعي المقدسة تغلبت على المرض، ويعلمه أنه إذا ما اتبع بدقة طريقة نظام المعالجة أو الفصادة أو الحمية الغذائية، فإنه سوف يشفى. أما إذا تعذر شفاؤه، فيكون ذلك لضعف إيمانه، أو لتقصيره في إقامة أحد الشعائر الدينية، وليس لأن العلاج كان خاطئاً. لقد كان هذا، ولا يزال، عند المداوين بالإيمان. ومهما يكن من أمر، فإن جمع العلاج بالإيحاء، إلى العلاج الطبي، يمكنه أن يؤتي ثماره.

## الإغريق ورثوا عدة حضارات

وكان الإغريق ورثة لعدة حضارات؛ وكما كانت قوافل تجار التوابل تسير لتلقي أخيراً في البندقية، كذلك كانت قوافل الثقافات والمعرفة، تسير لتلقي في اليونان. لقد تأثر الإغريق بالبابليين والفرس والهنود المصريين، وبحضارة شرقية عظيمة، هي حضارة «مينوان» Minoan في آسية الصغرى، والتي اجتاحتها اليونان، وغزوا مدنها، ومنها مدينة طروادة، وأخذوا عنها، وتعلموا منها الكثير الكثير.

## أثر الفلسفة في تطور الطب الإغريقي

بين عهد اسكولابيوس وعهد «أبقراط Hippocrates»؛ أي بين عصر هوميروس، وعصر «بيريكليس Pericles»، ظهرت طبقة الفلاسفة. وهنا يحسن بنا أن نناقش أثر الفلسفة في تطور الحركة الطبية. فالفلسفة، عندما تستنتج نظاماً ما، فإنها لا تساعد كثيراً على دفع عجلة هذا التطور، إذ أنها تتوقع، من الحقائق (المشاهدة)، أن تطابق ذلك النظام؛ ولكنها تتجاهلها عندما تجدها غير مطابقة له.

وعندما يفرض الفلاسفة، بما يتمتعون به من نفوذ فكري، نصاً لنظرية أو مبدأً أو عقيدة، فإنهم قد يعيقون التقدم.

فالعالم «فيثاغورس Pythagoras»، من مدينة «ساموس Samos» (٥٨٠ — ٤٨٩ ق.م) الذي وضع نظريته الشهيرة: «إن مساحة مربع وتر المثلث ذي الزاوية القائمة، تساوي مجموع مساحة المربعات على الجانبين اللذين تحتويهما تلك الزاوية»، كان ولا شك عالماً في الرياضيات فذاً. إلا أن نظريته في «الطاقة الطبية الخفية» الكامنة في الأعداد، لم تكن لتساعد مريضاً يعاني من قرحة في المعدة، أو ألم في القلب.

وكل ما يمكن قوله في هذه النظرية هي أنها ربما جعلت الأطباء يعطون الأعداد أهميتها كما أنها تركت أثرها، في مفهوم أبقرات السريري المفيد، ل «الأيام الحرجة».

و «أناكساغوراس Anaxagoras»، من «كلازومينا Clazomenae»، (٥٠٠ — ٤٢٨ ق.م) اعتبر أن العناصر الأربعة: التراب والماء، والنار والهواء، ذات علاقة بكل شيء، وهي أصل كل ما في الوجود.

### مبدأ العناصر الأربعة — مأساة صاحبه

ولقد عرض «أمبيدوكليس Empedocles» (٥٠٤ — ٤٤٣ ق.م) هذا المبدأ، بشكل مأساوي مذهل، مخلداً إياه، ومخلداً نفسه أيضاً، عندما ألقى بنفسه في فوهة بركان «إيتنا Etna»، بعد أن أعدّ لذلك قصيدة عنوانها «إلى العناصر التي منها أتيت»:

«كل شيء سوف يعود  
أجسادنا إلى التراب،  
ودماؤنا إلى الماء،  
وحرارتنا إلى النار،  
وأنفاسنا إلى الهواء...»

### أبقراط يطلق نظرية الأخلاط الأربعة

ونهاية أمبيدوكليس هذه، وإن كانت مأساوية وشاعرية معاً، إلا أنها كانت على كل حال، منسجمة مع نظريته، ومع حياته أيضاً. إذ اعتقد هو، واعتقد من أتى بعده، أن: «الدم حارٌّ، وأن البلغم باردٌ، وأن مفرز المرارة الأسود، رطبٌ، وأن مفرزها الأصفر، جافٌ».

وأن المرض، إن هو إلا اضطراب في توازن هذه العناصر. وأن الطبيب، إذا ما أراد أن يعيد للمريض عافيته، عليه أن يسعى إلى إعادة التوازن فيما بين تلك العناصر. وهكذا فإن البرد، وهو رجحان البلغم، يتطلب علاجاً حاراً؛ والحمى، وهي رجحان الدم الحار، تتطلب علاجاً بارداً.

### أساس نظرية أبقرات

وكان هذا المبدأ أساساً لنظرية الأخلاط، التي أطلقها أبقرات، تلك النظرية التي بقيت سائدة، وآمن بها الأطباء، خلال ألفي عام فيما بعد.

### بارنوم الأمريكي في اليونان

كان أمبيدوكليس، النموذج الأولي (الكلاسيكي) للطبيب المشعوز، وأن عمله الاستعراضي، الذي به، ألقى بنفسه في حمام بركان أيتنا، أدخل البهجة في قلب خلف له، هو الأمريكي الأصل، «فينياس بارنوم Phineas Barnum» الذي سافر سائحاً إلى اليونان، وتنقل بين مدنها، وهو يرتدي ثوباً أرجوانياً ويتزر بزوار ذهبي، مرسلاً شعره الطويل على كتفيه، قد علا رأسه إكليل من الغار، وكان بارنوم هذا يدعو الناس إلى الإيمان بقدراته الطبيعية الخارقة. وأنه، وإن بدا لأول وهلة طبيباً مشعوزاً، إلا أنه استطاع السيطرة على وباء حمى الملاريا وذلك بتجفيف الأراضي المستنقعية؛ كما أنه بخر البيوت لمكافحة الإلتان؛ ورفع من المستوى الصحي، في قرينته، التي ولد فيها، «أغريغانتيم Agrigentum» في صقلية، وذلك بأن رأب صدعاً في سفح الجبل المجاور لتلك القرية.

### إسهام الفنانين الإغريق في إغناء المعرفة الطبية

وبينما كان الفلاسفة الأطباء، هؤلاء يشوشون أفكار الناس، و«يلخيطون» عقولهم، بإدعائهم القدرات الخارقة للطبيعة، كان الفنانون الإغريق يسهمون إسهاماً حقيقياً وأصيلاً في إغناء المعرفة الطبية.

كان هذا عصر الرياضيين الإغريق، عندما سعوا بالتدريب، لا إلى الإبداع والتفوق في الرياضة فحسب، بل إلى معالجة أية علة، في طرف من الأطراف، أو في أحد أعضاء الجسم.

## • الطب الإغريقي

ومع مئات الشبان العراة، الذين كانوا يتصارعون أو يقفزون، أو يركضون أو يرمون، كانت الفرصة متاحة لمُثالي ذلك العصر، ليلاحظوا بشكل مفصل التكوين التشريحي، لجسم الإنسان السوي. مثل هذه الروائع الفريدة، روائع المشاهدة والدراسة التشريحية لجسم الإنسان، كتمثال «دوريو فوروس» Doryophorus، للنحات «براكسيتيليس» Ptsxiteles. وتمثال «أبوكسيومينوس» Apoxyomenos، للنحات «ليزيبوس» Lysippus. وتمثال «لاووكون» Laocoon، لمدرسة النحت الروديسية.

بمثل هذه الأعمال الفنية الفريدة، والرائعة يمكننا اليوم تعليم طلاب الطب تشريح عضلات الإنسان.

## أعمال أرسطو وآراؤه

إلا أن الإغريق لم يمارسوا تشريح الإنسان، لذلك كانت معرفتهم بالتشريح الباطني لأعضاء الجسم، ضئيلة. صحيح أن «أرسطو Aristotle» (٣٨٤ — ٣٢٢ ق.م) قام بتشريح الحيوانات وبذلك وضع أسس التشريح المقارن، كما أنه وضع أسس علوم النبات، والحيوان، والجنين، والغريزة. لقد كان عالماً «عظيماً»، عمل في البحث والاختبار، بشكل يستحق معه مكانته المرموقة، كأكبر عالم في مجال العلوم الاحيائية، عبر كل العصور. ولقد اعتبر أرسطو، منزهاً عن كل خطأ، إلى حد لم يتمكن أحد معه من تحدي أحكامه أو مناهضتها. واستمر الخطأ ألفي عام، مما أعاق تطور العلوم الطبية خلال هذه السنين الطويلة. ومثلاً: كان أرسطو يعتقد أن القلب هو مقر الانفعالات، تماماً كما اعتقد الشعراء، وما يزالون يعتقدون، ومقر الأحاسيس، ومقر الفكر. أما الدماغ فكان أرسطو يرى فيه مجرد غدة تغذي أخلاط البدن الباردة، لتقي الجسم من فرط الحرارة، النابعة من موقد القلب.

## الطب الإغريقي

### رتباطه بالدين

كان الطب اليوناني، قبل عصر بيريكلس «القرن الخامس قبل الميلاد»<sup>(١)</sup>، مرتبطاً

(١) بيريكلس Pericles، رجل دولة أثيني، (حوالي ٤٩٥ — ٤٢٩ ق.م)، وصل عام ٤٥٩ ق.م إلى زعامة

بالدين ارتباطاً وثيقاً، وقائماً على الخرافة. وكان كهنة هيكل «اسكولايوس»، يقومون بعلاج المرضى. وكان علاجهم في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية، والطقوس المؤثرة الرهيبة، والرقى السحرية التي تفعل فعلها في خيال المريض، وتطلقه من عقالة. وليس بعيد أنهم كانوا يلجؤون أيضاً إلى التنويم المغنطيسي وإلى بعض المواد المخدرة.

### طب المعابد

ولقد شيد الإغريق، تكريماً لإله الطب «اسكولايوس»، معابد عديدة، في إبيدور، وأثينة، وكوس، وغيرها؛ واختاروا لهذه المعابد أجمل المواقع، وأكثرها ملاءمة للشروط الصحية، وسط الغابات وقرب الينابيع. وكان المرضى يقيمون في منشآت ملحقة بهذه المعابد، فيتمثل لهم «اسكولايوس»، في أحلامهم، ويرشدتهم إلى أفضل علاج. ومهما يكن من أمر، فإن طب المعابد، ازدهر فيها بالملاحظة والتجربة، والخبرة والممارسة؛ وكان الأطباء يعلمون أبناءهم، ويطلعونهم على ما ورثوه من معرفة طبية، وما اكتسبوه من خبرة عملية.

وكان المرضى يلجؤون إلى معبد «اسكولايوس» وينذرون النذور، حتى إذا ماتم لهم الشفاء، راحوا يحققون نذورهم، ويقدمونها بشكل تماثيل (اسكولايوس)، أو تماثيل الأفاعي التي تقترب منه. وفي الواقع، اكتشفت تماثيل (اسكولايوس) وأفاعيه، في مناطق عديدة من العالم، حفظت في مختلف المتاحف.

### هيكل لاسكولايوس في لبنان

وفي دراسة نشرها الأستاذ الباحث عيسى اسكندر المعلوف، عام ١٩٢٤، يذكر أنه: «شاهد في قرية دومة من أعمال البترون في لبنان، رمز «اسكولايوس»، حيث وجد ناووس حجري نقشته عليه صورة حية (اسكولايوس)، وقال أن هذا الناووس موجود أمام ينبوع القرية تستقي منه الماشية. وفي أعلى القرية، على رابية بديعة الموقع والمناخ، هيكل كان لإله الطب (اسكولايوس)، ثم حول إلى قلعة تسمى اليوم «قلعة الحصن».

---

الحزب الديمقراطي. انتخب أكثر من ١٥ مرة رئيساً للقضاة، وبقي رئيساً للدولة زمناً طويلاً، (٤٤٣ — ٤٢٩)، قوى أثناءه جذور الديمقراطية. شجع الفنون والآداب، وزين أثينة بالنصب التذكارية (البازينون)، وأكثر من أعمال تنظيم وإعمار المدن؛ ولقد أطلق اسمه على القرن الأكثر نجاحاً، أو الأكثر تفوقاً في تاريخ اليونان: فسمي عصر بيريكليس.

### تمثيل لأسكولايوس في سورية — المنحوتات النذرية

وفي سورية اليوم، أظهرت التنقيبات الأثرية الحديثة، في عدد كبير من المواقع، (في أوغاريت، ومسكنة، وماري، وأفاميا، وتدمر، واللاذقية، ودمشق وحمص وغيرها)، عدداً من الآثار التي تعتبر وثائق طبية، ومن بينها: تمثيل «اسكولايوس»، عثر عليها في كل من كفر الماء في الجولان، وشقا في جبل العرب، وأفاميا، وغيرها.

كما عثر من بين تلك الآثار، على لوحة من الموزايك تمثل «اسكولايوس» إله الطب. أضف إلى ذلك المنحوتات النذرية، التي تعتبر وثائق طبية، أبدع فيها الفنان في تجسيد رغبة المريض بالشفاء، نذكر منها:

- ١ — منحوتة، في المتحف الوطني بآثينة، تمثل رجلاً شيخاً، يمسك بذراعيه ساقاً متورمة منتفخة العروق.
- ٢ — منحوتة، (أرخينوس)، وتعود إلى القرن الرابع للميلاد، تجسد الآمال بالشفاء، ويبدو فيها المريض ممدداً على سرير المرض، وتعبان يلحق كتفه اليمنى؛ ويبدو أيضاً في مقدمة المنحوتة، واقفاً حالماً، وقد تحقق أمله بمعالجته من قبل الإله.
- ٣ — ومنحوتة أخرى، في متحف أثينة، تعود إلى نحو ٣٣٠ ق.م. مهداة إلى «اسكولايوس» وتمثل رجلاً وولداً، يقدمان أضحية إليه، وهو جالس على عرشه، يزين طرفه الأيمن ثعبان رافع الرأس، وقد وقفت ابنته «هايجيا» إلى يساره.
- ٤ — وفي متحف برلين منحوتة تمثل رجلاً وقوراً خلفه ابنه، وهما يقدمان الولاء إلى أفعى «اسكولايوس».

### بين الطب الديني، والطب الديني

وكان الطب الديني، القائم على العقل، ينافس الطب الديني، ويسعى إلى التغلب عليه. وكان أنصار هذا، وأنصار ذاك، يعززون منشأ علمهم إلى اسكولايوس، إلا أن أنصار الطب الديني كانوا يرفضون الاستعانة بالدين في عملهم، ولا يدعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات؛ ولقد أفلحوا، في عصر بيريكلس في إقامة الطب على قواعد العقل.

### مدارس الطب الكبرى

وفي القرن الخامس قبل الميلاد، تطور الطب الديني في بلاد اليونان، في أربع مدارس كبرى: في كوس ونيديس، من مدن آسية الصغرى، وفي كرتونا بإيطاليا، وفي جزيرة

صقلية . ولقد ذكرت أنباء مدونة، ترجع إلى عام ٥٢٠ ق.م، عن طبيب يدعى «ديموسيدس Demosedes»، ولد في كرتونا، ومارس مهنة الطب في إيجينا، وساموس، وسوسة، وعالج دارا والملكة «أتوسا Atosa»، ثم عاد ليقضي آخر أيامه، في مسقط رأسه .

### أوائل أطباء اليونان

وفي كرتونا أيضاً أخرجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرة، قبل أبقرات، هو «القَمَيون Alcmaeon»، الذي يلقبونه: «الأب الحق للطب اليوناني». ولقد نشر هذا الطبيب، في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، كتاباً في الطبيعة: «Peri Physeos»، وكان أول طبيب، من اليونان، حدّد موضع العصب البصري، وقناة أوستاخْيوس، وشرّح الحيوانات، وفسر فيزيولوجيا النوم، وقرر أن المخ هو العضو الرئيسي في عملية التفكير، وعرف الصحة تعريفاً فيثاغورياً، حين قال: إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة .

وكان أكبر رجال الطب في نيدس هو «يوريْفرون Euryphron»، الذي كتب في الطب خلاصة موجزة تعرف باسم «الجميل النيدية Cnidian Sentences»؛ وقال عن التهاب البلورا أنه مرض من أمراض الرئتين، وأن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض؛ ولقد ذاع صيته لنجاحه في عمليات التوليد .

وأما أبقرات، فكان، كما نراه في سيرته التي كتبها «سويداس Suidas»، أعظم أطباء زمانه بلا منازع .

### أبقرات

#### تعلم الطب من أبيه، ومن جده

ولد أبقرات سنة ٤٦٠ ق.م، في جزيرة كوس، وتلقى علومه في مدينة أثينة، وتعلم صناعة الطب من أبيه إيراقليدس، ومن جده أبوقراطيس، وهما أسراً إليه أصول هذه الصناعة، التي كانت قبل أبقرات كنزاً وذخيرة يكتزها الآباء ويدخرونها للأبناء، وكانت في أهل بيت واحد منسوب إلى اسكولايوس . وكان تعليمهم بالمخاطبة، ولم يكونوا يدونونه في الكتب . وما احتاجوا إلى تدوينه في الكتب دونوه بلغز حتى لا يفهمه أحد سواهم .

#### أوصافه

وكان أبقرات، كما قال المبشر بن فاتك في كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم»،

## • الطب الإغريقي

ربعة، أبيض، حسن الصورة، أشهل العينين، ضخيم العظام، معتدل اللحية أبيضها، منحني الظهر، عظيم الهامة، بطيء الحركة، إذا التفت التفت بكليته، كثير الاطراق، مصيب القول، متأنياً في كلامه، يكرر على السامع منه، ونعلاه أبداً بين يديه إذا جلس، وإن كلم أجاب، وإن سكت عنه سأل، وإن جلس كان نظره إلى الأرض؛ معه مداعبة، كثير الصوم، قليل الأكل، بيده دائماً إما مبضع (آلة المبضع، وهي سكين الجراح)، أو مرود (الميل يكحل به).

## نشأته — سكن حمص مدة — وأقام في دمشق

نشأ أبقرط، ومارس صناعته وعمل متنقلاً بين مدن تراسيا، وتساليا، ومكدونيا. ولقد روى ابن القفطي، في القرن السابع، في تاريخه: «أخبار العلماء بأخبار الحكماء»، أن أبقرط سكن مدة في مدينة (فيروها) أي حمص الشام؛ وأنه كثيراً ما كان يختلف إلى مدينة دمشق، وكان يقيم في بستان له فيها للرياضة والتعلم والتعليم، وكان موضع نزته يسمى (بصفة بقراط)؛ وقال ابن العبري في تاريخه: إن ذلك المكان يسمى النيرب، وهو من منتزهات دمشق، غربي الصالحية، تحت قبة السيار، وقرب (دير مران)، المعروف؛ وقد صادق شيوخ الصالحية، نقلاً عن السلف، على هذا الرأي. فإذا ثبت ذلك كانت دمشق قد استمتعت بزيارة أول طبيب في العالم، بل أبي الطب الذي علم فيها صناعته.

ولقد بنى أبقرط فنه بالاعتماد على نظام التغذية، وعلى الرياضة البدنية أكثر من اعتماده على الأدوية.

كان أول مؤسس لمدرسة طبية نظامية. وكان أول من قرر الوراثة المرضية بقوله: «الدموي مولود من دموي، والبلغمي مولود من بلغمي، والصفراوي مولود من صفراوي، والسوداوي مولود من سوداوي». وكان يداوي كل عليل بعقاقير أرضه لأن: «الطبيعة تتطلع بهوائها، وتنزع إلى غذائها». وذاعت شهرته حتى أنه كان من بين مرضاه حكام مثل «برديكلس»، ملك مكدونيا، و«أردشير الأول» ملك الفرس. وفي عام ٤٣٠ ق.م، استدعته أثينة ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها. ويقال إن الملك «أرتخششتا»، طلبه يوماً، لمكافحة وافدة من الأمراض السارية فتكت بجيشه، وعرض عليه هدايا ثمينة، فرفضها أبقرط، لأن الملك كان عدواً لبلاده.

## سجلات سريرية وحيدة من نوعها

وفي مجموعة الرسائل التي كانت تعزى قديماً إلى أبقرط: كتب مدرسية للأطباء،



ونصائح لغير الأطباء، ومحاضرات للطلبة، وتقارير، وبحوث، وملاحظات، ومشاهدات سريرية لحالات طريفة. وهناك اثنان وأربعون سجلاً سريرياً. وكانت هذه السجلات، الوحيدة من نوعها في السبعة عشر قرناً التي أعقبت ذلك العهد، وكانت أعلى الأمثلة في الأمانة، باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت في ستين بالمئة من الحالات.

### الأمانة في تسجيل مشاهداته

لقد توخى أبقراط الصدق والأمانة في الحالات غير الناجحة، وقال: «لقد كتبته بكل تأن وأنا مؤمن بأنني سوف أتعلم من الجهود الفاشلة، وسوف أعرف الأسباب التي أدت إلى الفشل.» وهكذا دُونت ٦٠٪ من الحالات على أنها حالات مفاجئة، دون أن يرافق ذلك أي اعتذار أو يصحبه أي لوم.

### وصف دقيق لحالة خناق

واليكم قصة أمثلة لمشاهدة تمت في القرن الرابع قبل الميلاد:  
«المريضة تعاني من التهاب صديدي في اللوزتين. بدأت شكايتها في اللسان الذي كان جافاً ومحمراً، وكان صوتها متهدجاً.  
في اليوم الأول: ارتعشت ارتعاش البرد، ثم أصبحت ساخنة.  
في اليوم الثالث: تيبست وأصابها حمى حادة، ولوحظ تورم في جانبي العنق، والصدر، احمراري وقاس. الأطراف باردة ومتصلبة، والنفس مسرع. السوائل ترد من الأنف، ولم تستطع البلع، وأصاب الشلل حركة المثانة وحركة الإمعاء.  
في اليوم الرابع: ازدادت الأعراض سوءاً.  
في اليوم الخامس: قضت المريضة نحبها.»

ولقد أصبح الطبيب، عبر القرون التالية لعصر أبقراط، قادراً على التعرف على أعراض هذا الداء بكل وضوح وكأنه يجلس مع أبقراط، إلى جانب سرير مريضته.  
إنه الخناق (الديفتيريا)، وعلاماته: التهاب الحلق الصديدي، وشلل شراع الحنك المسبب لعودة الطعام من الأنف، وصعوبة النطق، وانتشار الإنتان إلى العنق والصدر، كل هذه الأعراض تتماشى مع تشخيص الإصابة بالخناق.

### وصف حالة أخرى

وكان أبقراط يصف أعراض وعلامات كل حالة من الحالات المرضية بدقة وجلاء.

## • الطب الإغريقي

مثال ذلك وصفه لحالة « المريض الذي يعيش إلى جانب الحائط » ، والذي كان تنفسه المرافق للحمى المصاب بها ، « يشبه تنفس إنسان يسترجع ذاته » ، وهذا ما يسمى في علم الطب الحديث « تنفس شاين — ستوكس » ، ( باسم العالمين اللذين وصفاه عام ١٨٤٦ ) ، ويتميز بتبدل إيقاعي في شدة التنفس ، ثم بتوقف النفس لمدة ثوان عديدة إل أن « يسترجع المريض ذاته » ، ويعود إلى التنفس من جديد .

وكان أبقراط يركز على أهمية تقدير الإنذار ، أي المعرفة المسبقة لسير الداء .

## السحنة الأبقراطية

ومن العلامات الدراسية المعروفة باسمه : « السحنة الأبقراطية » ، التي تشاهد في الحالات الشديدة الخطر ؛ « والأصابع الأبقراطية » ، المحدبة الأظافر ، المشاهدة في الأمراض الصدرية المزمنة ، الرئوية والقلبية ؛ وعلامات وأعراض أخرى ، تدل على قوة ملاحظته ، ودقة نظره ، وسعة اختباره .

## ولعه بمعرفة العواقب

وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب ، في طبه ، ويرى أن الطبيب الماهر ، يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى . ويقول في كتابه الإنذار : « إن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضي فيها إما على المرض وإما على المريض » . وإن تقدير أبقراط الحسائي ، الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيثاغوري ، الذي يصل فيه المرض إلى أشد حالاته ، لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية . وهو يقول في هذا السياق ، أنه إذا استطاعت حرارة البدن في هذه الأزمات ، أن تتغلب على سبب الداء ، وتطرده من الجسم ، شفى المريض .

## حرر الطب من الدين والفلسفة — المرض المقدس

وأكبر فضل لأبقراط وخلفائه ، أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة . نعم إنهم يشيرون في بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك في كتاب « التنظيم » ، إلا أن النغمة السارية في صفحات المجموعة كلها ، هي وجوب الاعتماد الكلي على العلاج الطبي . وتهاجم رسالة « المرض المقدس » صراحةً ، النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الآلهة ؛ ويقول مؤلفها أن للأمراض كلها عللاً طبيعية بما في ذلك مرض الصرع

نفسه ، الذي يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض : « وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الآلهة ، وذلك لعجزهم عن فهمه ... ويتوارى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ، ويلجؤون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجعاً لهذا الداء ، ومن أجل هذا ، يطلقون عليه اسم « المرض المقدس » ، كي لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح » .

### الصراع بين العلم والفلسفة

وكانت روح العصر البركليزي تتمثل أوضح تمثيل في عقلية أبقراط . فقد كان واسع الخيال ولكنه كان واقعياً ، يكره الخفاء ، ولا يطبق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ، ولكنه يناضل من أجل فهم العالم على أساس العقل والمنطق . ولقد أثرت الفلسفة في طرق العلاج اليونانية تأثيراً بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة ، كما قام النزاع بين العلم وبين العقبات التي كان يضعها الدين في طريقه . ويقول أبقراط ، ويصر في قوله : « إن النظريات الفلسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وإن العلاج ينبغي أن يقوم على قوة العناية بالملاحظة ، وعلى تسجيل كل حالة من الحالات ، وكل حقيقة من الحقائق تسجيلاً دقيقاً » .

### نظرية الأخلاط الأربعة

على أن الطب الأبقراطي ، لم ينج في منشأه من تأثير الفلسفة فيه ؛ ففي نظرية « الأخلاط الأربعة » الشهيرة ، يقول أبقراط : « إن البدن يتكون من الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ؛ وإن « الدم مؤلف من الحار والرطب ؛ والبلغم ، من البارد والرطب ؛ والصفراء ، من الحار واليابس ؛ والسوداء ، من البارد واليابس » . وذلك بالنسبة للعناصر الأربعة ( كراسس اليونانية ) ، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وإن الإنسان يستمتع بالصحة التامة ، إذا امتزجت فيه هذه العناصر ، بنسبها الصحيحة ، وإن الألم ينشأ من نقص في بعض هذه « الأخلاط » ، أو من زيادة فيها ، أو من انفصالها عن الأخلاط الأخرى » .

### كتاب « الأهوية » والمياه

ولقد بقيت نظرية أبقراط هذه ، وعاشت بعد زوال كل الفرضيات الطبية القديمة ، ولم يتخلى عنها الأطباء إلا في القرن الماضي . ولعلها لا تزال باقية في صورة أخرى ، هي نظرية « الهرمونات » ، أو إفرازات الغدد ، التي يقول بها الأطباء في هذه الأيام ؛ إذ كان أطباء اليونان يعتقدون أن سير هذه الأخلاط يتأثر بالجو ، وبالطعام . ولما كانت أكثر الأمراض انتشاراً في

بلاد اليونان هي أمراض البرد، وذات الرئة، والملاريا، فقد كتب أبقرات رسالة موجزة في «الأهوية، والمياه، والأماكن»، وعلاقتها بالصحة، وفيها يقول: «في وسع الإنسان أن يعرض نفسه للبرد، وهو واثق من أنه لن يصبه منه سوء، إلا إذا فعل ذلك بعد الأكل أو بعد الرياضة... وليس من الخير للجسم ألا يتعرض لبرد الشتاء».

### كتاب «الجسم» وكتاب «التنظيم»

وفي كتاب أبقرات في «الجسم Corpus»، مشاهدات سريرية كثيرة للصرع، والتهاب الغدة النكفية، وحُمى النفاس، والحُمى اليومية، وحُمى الثلث وحُمى الربيع. ولم يرد في هذه المشاهدات ذكر للجذري أو الحصبة، أو الحُمى القرمزية أو الزهري. وينزع كتاب «التنظيم» نحو الطب الوقائي، بدعوته إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره، وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض، والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره.

### الطبيعة خير دواء

ويقول أبقرات إن الطبيعة — أي قوى الجسم وبنائه — هي أهم دواء لكل داء، أيًّا كان نوعه. وأن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو أن يزيل العقبات القائمة في طريق الدفاع والشفاء الطبيعيين. لذلك نجد أن الطريقة الأبقراتية، لا تستخدم العقاقير في المداواة إلا نادراً، وأكثر ما تعتمد عليه هو: الهواء النقي، والمقنعات، والأقماع، والحقن الشرجية، والحجامة، والأدواء أو الفصادة، والكمادات أو اللبخات، والمراهم، والتدليك، والمياه المعدنية. وكانت أمراض الجلد تعالج بالحمامات الكبريتية، وبالتدليك بدهن الدلفين. ويسدي أبقرات للناس هذه النصيحة: «عش عيشة صحية تنج من الأمراض، إلا إذا انتشر في البلد وباء أو أصابتك حادثة. وإذا مرضت، ثم اتبعت نظاماً صالحاً في الأكل والحياة، أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء».

وكثيراً ما كان يوصي بالصوم إذا سمحت قوة المريض بذلك: «لأننا، كما يقول، إن أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا في تعريضها للأذى». ولم يكن أبقرات يمارس الطب كعلم، بل كان يمارسه كفن، معتمداً في ذلك على الخبرة أكثر من اعتياده على الاختبار.

### عنايته الفائقة بالمرضى

قال جالينوس، في المقالة الثالثة من كتابه في «أخلاق النفس»: كانت معالجة

أبقرات، ومداواته للمرضى، تقوم على العناية البالغة بهم»، ويقال إنه أول من أوجد البيمارستان، ذلك أنه عمل بالقرب من داره في موقع من بستان كان له، مكاناً منفرداً للمرضى، وجعل فيه خدماً يقومون بتطبيق المداواة لهم. وسماه «أخسندوكين»، أي مجمع المرضى» وكذلك أيضاً، معنى لفظة البيمارستان، الفارسية، إذ أن بيمار يعني المرضى، وستان الموضع، أي موضع المرضى.

### يرفض طلب ملك الفرس

ولم يكن لأبقرات رغبة في خدمة أحد من الملوك، لطلب الغنى، وفي ذلك قال جالينوس: «إن أبقرات لم يجب أحد ملوك الفرس العظيم الشأن، وهو ازدشير جد دارا، إذ حدث في أيامه أن أصاب الفرس وباء، فوجه إلى عامله بدينة «فاوان» أن يحمل إلى أبقرات مائة قنطار ذهباً وأن يفعل ذلك بكرامة عظيمة وإجلال، وأن يقدم هذا المال له، ويضمن له إقطاعاً بمثلها. وكتب إلى ملك اليونان يستعين به على إخراجه إليه، وضمن له مهادة سبع سنين إذا ما أخرج أبقرات إليه. فلم يجب أبقرات. فلما ألح عليه ملك اليونانيين في الخروج، قال له أبقرات: «لن أبدل الفضيلة بالمال». وبقي منصرفاً إلى علاج المساكين والفقراء، في بلده، وفي جميع مدن اليونان.

وتذكر بعض التواريخ القديمة أن أبقرات كان في زمن «بهمن بن ازدشير»، وكان بهمن قد أصابه داء، فأرسل إلى أهل أبقرات يستدعيه فامتنعوا من ذلك، وقالوا إن أخرج أبقرات من مدينتنا، خرجنا جميعاً وقتلنا دونه، فرق لهم بهمن وأقره عندهم.

### يجب الزنا، ولكنه يملك نفسه

وهناك حكاية طريفة ذكرها سليمان بن حسان المعروف بابن جليجل، تدل على فضل أبقرات وملكه لنفسه، ورياضته لها بالفضيلة، قال: «كان أفليمون صاحب الفراسة (علم إدراك الباطن من النظر إلى الظاهر) يزعم أنه يدرك الباطن من النظر إلى الظاهر. ويستدل بتركيب الإنسان على أخلاق نفسه. فاجتمع تلاميذ أبقرات وقال بعضهم لبعض، تعالوا نمتحن أفليمون فيما يدعيه. فرسموا صورة لأبقرات، ثم قاموا بها إلى أفليمون، فقالوا له: أيها الفاضل، انظر إلى هذا الشخص واحكم على أخلاق نفسه من تركيبه. فنظر إليه، وقرن أعضائه بعضها ببعض ثم حكم، فقال: رجل يجب الزنا! فقالوا له كذبت، إنها صورة أبقرات الحكيم، ولسنا نعلم في دهرنا أفضل منه. فقال لهم: لا بد لعلمي أن يصدق،

## • الطب الإغريقي

فاسأله فإنه لا يرضى بالكذب . فرجعوا إلى أبقرات وأخبروه بالأمر ، فقال أبقرات : صدق أفليمون أنا أحب الزنا ، ولكني أملك نفسي . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة أبقرات ، وملكه لنفسه ، ورياضته لها بالفضيلة .

ولقد درّس أبقرات فن الطب لتلاميذه ، فكان بذلك أول مؤسس لمدرسة طبية نظامية .

وكان تقدم علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، في بلاد اليونان بطيئاً ، وكان العامل الأكبر ، فيما أحرزه هذان العلمان من تقدم ، هو فحص أحشاء الحيوانات ، في عمليات العرافة .

## بالدماغ نفكر ونسمع ونبصر

ونجد في المجموعة الأبقراتية كراسة صغيرة « في القلب » ، تصف البطنيين ، والأوعية الكبرى ، وصماماتها . وكتب « سيينيزس Syennesis » القبرصي ، و« ديوجين » الكريتي ، يصفان الجهاز الدموي ، وعرف ديوجين أهمية النبض ، وكذلك عرف « أنبادوقليس » أن القلب هو مركز الجهاز الدموي ، ووصفه بأنه العضو الذي يحمل « البنيوما Pneuma » أو الهواء الحيوي (الأوكسجين ؟) ، من الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم . وفي كتاب « الجسم Corpus » ، يحدوا أبقرات حدو ألقميون ، فيجعل الدماغ مركز الشعور والتفكير ، ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ، ونسمع ، ونميز القبيح من الجميل ، والغث من الثمين » .

## يصف عملية التريئة

أما الجراحة فكانت في معظم الأحوال عملاً يشتغل به كبار الأطباء ، ولا يتخصص فيه الطلاب ، وإن كان من بين الموظفين في الجيوش جراحون . وتصف مؤلفات أبقرات عملية « التريئة Trepanation » ، كما تصف طريقة معالجة انخلاع الكف أو الفك .

ولقد وجدت في هيكل اسكولابوس بأثينة ، لوحة نذور نقشت عليها علبة تحتوي مباحض ذات أشكال مختلفة . ويحتفظ متحف أثينة الصغير بعدد من الملاقط ، والمسابر ، والمباحض ، والقثاطر ، والنظارات الطبية القديمة ، لا تختلف في جوهرها عن مثيلاتها المستحدثة في هذه الأيام .

## رسالته في « الطب »

وفي رسالة أبقرات « في الطب » ، تعليمات مفصلة ، لتحضير غرفة العمليات

الجراحية ، وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعي وصناعي ، وتنظيف اليدين ، والعناية بآلات الجراحة وطريقة استخدامها ووضع المريض ، وتضميد الجروح ، وما إلى ذلك ...

### تقدم الطب في عهد أبقرات

يتضح من كل ذلك ، أن الطب اليوناني في عهد أبقرات قد تقدم تقدماً عظيماً من الناحيتين الفنية والاجتماعية . لقد كان الأطباء اليونان ، قبل أيام أبقرات ، ينتقلون من مدينة إلى أخرى ، كلما دعيتهم الحاجة إلى هذا الانتقال . أما في عهد أبقرات فقد استقروا في مدنها ، واقتتحو « أماكن للعلاج Iatreia » يعالجون فيها المرضى تارة ، ويعالجونهم في منازلهم تارة أخرى . وكثرت عندهم الطبيبات ، وكن يستخدمن عادة في علاج أمراض النساء . وقد كتبت بعضهن رسائل في العناية بالجلد والشعر ، تعد حجة في موضوعاتها .

### دور الأخلاق في ممارسة الطب

ولم تكن الدولة تحتم على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحاناً عاماً ، ولكنها كانت تطلب إليه أن يقدم لها الأدلة المقنعة على أنه قد تمرن وتعلم على طبيب معترف به . ووقفت حكومات المدن بين الطب المؤتم ، والطب الخاص ، باستخدام أطباء للعناية بالصحة العامة ، ولعلاج الفقراء . وكان أكبر أطباء الدولة هؤلاء ، أمثال « ديموسيدس Democedes » ، يتقاضون وزنيتين ( أي ١٢٠٠٠ ريال أمريكي ) ، في العام . وكان عندهم بطبيعة الحال دجالون كثيرون ، كما كان عندهم عدد لا يحصى من الهواة الذين يدعون العلم بكل شيء في الطب ، وهؤلاء موجودون في كل زمان وفي كل مكان . ولقد ثار اليونان لأنفسهم ، لعدم وثوقهم بأطبائهم ، بما كالوه لهم من السخرية والفكاهة اللاذعة . ولكن أبقرات رفع من شأن هذه المهنة ، بتأكيد على دور الأخلاق في ممارسة الطب ، ذلك لأنه لم يكن طبيباً فحسب ، بل كان طبيباً ومعلماً معاً . وقد يكون قسمه الشهير ، الذي يعزى إليه ، قد وضع لضمان ولاء طالب الطب لأستاذه .

### مؤلفات أبقرات

كان أبقرات أول من دون صناعة الطب وشهرها . ولقد وضع كتباً كثيرة ، عربها العرب ، ثم نقلها الفرنج ، فكانت مستندهم في أبحاثهم الطبية . ففي العصر العباسي ، نقل الكثير من كتب أبقرات ، إلى العربية . نقل الصحيح منها ،

ونقل الزائف . ولقد ذكر منها ابن النديم ، في كتابه الشهير : « الفهرست » ، جملة صالحة ، مع أسماء ناقلها ، منها :

- ١ — كتاب ، **الفصول** ، بتفسير جالينوس ، ترجمه حنين بن اسحق إلى العربية . وتنظم هذه الفصول ، جملاً وجوامع مما أودعه في سائر كتبه ، ليقف بها الطبيب على ما يتلقاه من أعمال الطب .
- ٢ — كتاب ، **تقدمة المعرفة** ، بتفسير جالينوس ، ترجمه حنين بن اسحق إلى العربية ، ثم ترجم عيسى بن يحيى التفسير . وهنالك ، كما يقال ، نسخة نفيسة منه في دمشق .
- ٣ — كتاب ، **الأمراض الحادة** ، بتفسير جالينوس ، ترجم منها حنين بن اسحق خمس مقالات وترجم منها عيسى بن يحيى ، ثلاث مقالات . ويتضمن الكتاب ، القول في تدبير الغذاء ، والاستفراغ ، وفي المداواة بالتكميد ، والفصد ، وبالأدوية المسهلة ، وفي التدبير بالخمرة ، وماء العسل ، والسكنجين ، ( وهو شراب يتخذ من الخل والعسل ) ، وفي التدبير بالماء البارد والاستحمام .
- ٤ — كتاب ، **الكسر والجبر** ، بتفسير جالينوس ، ترجمه حنين إلى العربية . ويتضمن كل ما يحتاجه الطبيب من هذا الفن .
- ٥ — كتاب ، **الأخلاق** ( الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ) ، بتفسير جالينوس ، نقله عيسى بن يحيى إلى العربية . ويصف أبقرات فيه : حالها ، وأعراضها ، وسبل علاج كل واحد منها .
- ٦ — كتاب ، **ايبديما** ، أي الأمراض الوافدة ، نقله إلى العربية ، عيسى بن يحيى وضمنه أبقرات تعريف هذه الأمراض ، وتدبيرها ، وعلاجها .
- ٧ — كتاب **الأهوية والمياه والبلدان** ، بتفسير جالينوس ، ترجم حنين النص ، والتفسير حيش بن الحسن . ويبحث الكتاب في أمزجة البلدان وما تولده من الأمراض ، وفي مياه الشرب ، وفصول الستة ، وما تولده من أمراض .
- ٨ — كتاب ، **طبيعة الإنسان** ، بتفسير جالينوس ، ترجم النص حنين ، والتفسير عيسى بن يحيى . ويبحث في طبائع الأبدان وما تركبت .

ويقول ابن أبي أصيبعة ، في كتابه : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، أن الذي انتهى إلينا ذكره من كتب أبقرات الصحيحة ، يكون نحواً من ثلاثين كتاباً ، منها اثنا عشر كتاباً ، هي المشهورة من سائر كتبه ، ( ذكرنا منها ثمانية كتب ، والباقي هي ) :



- ٩ — كتاب، الأجنة، ويبحث في الحيوانات المنوية، وتكوّن الجنين، وتكوّن الأعضاء .
- ١٠ — كتاب، الغذاء، وفيه يذكر علل الأغذية، وأسبابها .
- ١١ — كتاب، أوجاع النساء، ويتضمن ما يعرض للمرأة من العلل، وما يعرض لها من أسقام أثناء الحمل وبعده .
- ١٢ — كتاب، حانوت الطبيب، ويسمى : « قاطر طريون »، أي الحانوت الذي يجلس فيه الطبيب لعلاج مرضاه، ويستفاد من الكتاب، فيما يحتاج إليه الطبيب من الأعمال التي تختص بها البدان، في الربط، والشد، والجبر، والخياطة، ورد الخلع، والتكميد وغير ذلك .
- ولأبقراط أيضاً، الكثير من الكتب ؛ ( بعضها منحول إليه )، منها : كتاب، الجسد « Corpus »، الذي سبق لنا أن ذكرناه، وفيه يحذو أبقراط حذو ألقميون فيقول : « إن المخ، هو مركز الشعور والتفكير، به نفكر، وبه نبصر، وبه نسمع، ونميز القبيح من الجميل، والغث من الثمين » .
- وله كتاب، « في القلب »، يصف فيه البطنين، والأوعية الكبرى، وصماماتها .
- وكتاب في أوجاع العذاري؛ وكتاب في العين؛ وكتاب في الحمى المحرقة؛ وكتاب في الغدد؛ وكتاب يعرف بالمقال الشافي، وهو عبارة عن رسالة إلى الملك ديميتريوس؛ وكتاب الوصايا؛ وكتاب الوصية المعروفة بترتيب الطب؛ وكتاب جراحات الرأس؛ وكتاب في المدخل إلى الطب؛ وكتاب الحكم؛ وكتاب في المولودين لسبعة أشهر؛ وكتاب الأدلة؛ وكتاب في الفصد والحجامة؛ وكتاب في حفظ الصحة، وهو رسالة إلى الملك أفطيقن؛ وكتاب إلى القيصر أنطيفيودس، ملك الروم، في قسمة الإنسان على مزاج السنة؛ ورسالة إلى أرتسخشت الكبير ملك فارس، لما عرض في أيامه للفرس من مرض قتال يسمى الموتان، أي الفناء، يصيب الإنسان، والحيوان؛ وكتاب العهد، ويعرف أيضاً بكتاب القسم، « قسم أبقراط »، ترجمه حنين بن اسحق إلى السريانية، وترجمه عيسى بن يحيى إلى العربية؛ وكتاب ناموس الطب؛ وغير ذلك من كتب، في مواضيع مختلفة .

### حكم وأقوال أبقراط

اشتهر أبقراط بحكمه وبأقواله الماثورة، ومنها :

- يداوى كل عليل بعقاقير أرضه لأن الطبيعة تتطلع إلى هوائها، وتنزع إلى غذائها .
- العلم كثير والعمر قصير — الفن عزيز ولكن الزمن يمر مر السحاب .

- التجربة محفوفة بالمخاطرة .
  - ليس الطبيب وحده مسؤولاً عن القيام بواجبه ، إنما المرضى أيضاً ومن يلازمونهم ومن يلودون بهم ، كلهم مسؤولون ، وعليهم أن يساعدوا في عملية الشفاء .
  - إذا انتهى الهذيان بالنوم ، فإن ذلك يعتبر دلالة حسنة .
  - إذا بدت علة من العلل المؤلة في أي جزء من أجزاء البدن ، ولم تترافق بالشكوى أو المعاناة ، فإن ذلك يدل على وجود اضطراب عقلي عند المريض .
  - المصابون بالبدانة المفرطة ، أكثر عرضة للموت فجأة من النحيلين .
  - الهزال يصيب في الغالب ، أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر والخامسة والثلاثين .
  - كل داء عرف سببه عرف دواؤه .
  - إنما نأكل لنعيش ، ولا نعيش لنأكل .
  - أمهات لذات الدنيا أربع : لذة الطعام ، ولذة الشراب ، ولذة الجماع ، ولذة السماع : فاللذات الثلاث لا يتوصل إليها إلا بالتعب والمشقة ، ولها مضارها إذا استكثر منها ، أما لذة السماع ، قلت أو كثرت ، فإنها خالية من التعب ، خالصة من النصب .
  - إن المجامع يقتدح من ماء الحياة .
  - وسُئِلَ في كم ينبغي للإنسان أن يجامع ؟ فقال : في كل سنة مرة ! قيل له : فإن لم يقدر ؟ قال : في كل شهرة مرة . قيل له : فإن لم يقدر ؟ قال : في كل أسبوع مرة . قيل له : فإن لم يقدر ؟ قال : هي روحه يخرجها أي وقت يشاء .
  - وقال من أحب لنفسه الحياة أماتها .
  - ودخل على مريض فقال : أنا والعلة وأنت ثلاثة : فإن أعنتني عليها بالقبول مني لما تسمع صرنا اثنين ، وانفردت العلة فقويتنا عليها ، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه .
  - الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع .
  - لست أحمل من فضيلة العلم إلا علمي بأني لست عالماً .
  - استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه .
  - الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف .
  - الحيطان والبروج لا تحفظ المدن وإنما تحفظها آراء الرجال وحكمة الحكماء .
- من كلامه في العشق قوله :

« العشق طمع يتولد في القلب ، فكلمنا قوي ازداد صاحبه في الاحتياج واللجاج وشدة

القلق وكثرة السهر ، وعند ذلك يكون احتراق الدم ، واستحالتة إلى السوداء ، (من أخلاط البدن الأربعة) ؛ ومن طغيان السوداء فساد الفكر فالقدامة (العي عن الحجة) ، فنقصان العقل ، ورجاء مالم يكن ، وتمني مالم يحقق ، حتى يؤدي ذلك إلى الجنون . فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غماً . وربما وصل إلى معشوقه فيموت فرحاً . وربما شهق شهقة فتختفي منها روحه أربعاً وعشرين ساعة ، فيظن أنه قد مات فيقبر وهو حي . وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تأمور قلبه ؛ وربما ارتاح وتشوق للنظر ، ورأى من يحب فجأة فتخرج نفسه فجأة دفعة واحدة .

ولما حضرت الوفاة أبقرات ، قال لتلاميذه : « خذوا جامع العلم مني : من كثر نومه ، ولانت طبيعته ، ونديت جلده ، طال عمره » .

ولأبقرات أقوال أخرى كثيرة ، لا تزال راسخة وصحيحة حتى يومنا هذا .

ولقد اشتهر أبقرات أيضاً بقسمه ، الذي يعد بحق ، أساس علم الآداب الطبية ، وهذا

نصه :

### قَسَمُ أَبْقَرَات

أقسم بأبوللو الطبيب ، وبأسكولايوس ، و« بهاجيايا Hygiaea » ، وبجميع الآلهة والآلهات ، وأشهدها جميعاً على ، أن أنفذ هذا القسم وأوفي بهذا العهد بقدر ماتسع له قدرتي وحكمتي ؛ وأن أضع معلمي في هذا الفن في منزلة مساوية لأبوي ، وأن أشركه في مالي الذي أعيش منه ، فإذا احتاج إلى المال اقتسمت مالي معه ؛ وأقسم أن أعد أسرته إخوة لي ، وأن أعلمهم هذا الفن ، إذا رغبوا في تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجراً أو ألزمهم باتفاق ؛ وأن ألحق الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائي ، ولأبناء أستاذي ، وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ، ولا ألحقها لأحد سواهم . وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتي وحكمتي ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر . ولن أسقي أحداً السم إذا طلب إلي أن أفعل ذلك ، أو أشير بسلوك هذه السبيل ؛ كذلك لن أعطي امرأة صوفة (فرزجة) ، لإسقاط جنينها ، ولكني سأحتفظ بحياتي وفني كليهما طاهرين مقدسين ، ولن أستعمل الموضع ولو كنت محقاً في استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أترك ذلك لمن يحذقون هذا الفن . وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى متعمد ؛ وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم

أي رجل أو أي امرأة، سواء كانا من الأحرار أم من العبيد. ومهما سمعت أو رأيت في أثناء قيامي بفروض مهنتي، وفي خارج مهنتي، من خلال حديثي مع الناس، إذا كان مما لا تجب إذاعته، فلن أفشيهِ، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة. فإذا ما ألزمت نفسي بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه، فإني أرجو أن أشتهر، مدى الدهر، بين الناس جميعاً، بحياتي وبفني. أما إذا نقضت العهد، وحنثت بالقسم، فليحل بي عكس هذا.

## ناموس الطب لأبقراط

قال أبقراط: «إن الطب أشرف الصنائع كلها، إلا أن نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لثلب الناس إياها؛ لأنه لم يوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها، إذ كانوا يشبهون الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكاية ليلهو الناس بها. فكما أنها صور لا حقيقة لها، كذلك هؤلاء الأطباء، بالاسم، كثير، وبالفعل، قليل جداً. وينبغي لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية، وحرص شديد، ورغبة تامة. وأفضل ذلك كله الطبيعة، لأنها إذا كانت مؤاتية فينبغي أن يقبل على التعلم ولا يضجر، لينطبع العلم في فكره ويثمر ثماراً حسنة مثل ما يرى في نبات الأرض. أما الطبيعة فمثل التربة، وأما منفعة التعليم فمثل الزرع، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة. فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا، ثم صاروا إلى المدن، لم يكونوا أطباء بالاسم، بل بالفعل. والعلم بالطب كنز جيد، وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوء سروراً سراً وجهرًا؛ والجهل به لمن انتحله، صناعة سوء وذخيرة ردية، عديم السرور، دائم الجزع والتهور. والجزع دليل على الضعف، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة».

ويضيف أبقراط إلى هذا قائلاً: إن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجي، وأن ينظف جسمه، ويتأنق في ملبسه؛ ويجب عليه أن يكون هادئاً على الدوام؛ وأن يكون سلوكه مبعثاً للثقة والاطمئنان في نفس المريض. ويجب عليه أن يعنى بمراقبة نفسه، وألا يتكلم إلا بما هو ضروري...

«وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك، وكن متحفظاً في كلامك، صريحاً حاسماً في أقوالك، موجزاً في حديثك، وهادئاً... ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض... واضبط أعصابك، وازجر من يقلقلك؛ وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يفعل... وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض، وأن تراعي بعناية

حال مريضك المالية ؛ وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر ؛ وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدي خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ، ذلك أنه حيث يوجد حب الناس ، يوجد أيضاً حب الفن » .

« وإذا أضاف الطبيب إلى هذا دراسة الفلسفة والعمل بها ، كان هو المثل الأعلى لأبناء مهنته لأن الطبيب الذي يحب الحكمة لا يقل عن الآلهة » .

ومجمل القول : إن أبقرراط كان أول من أسس علم الطب القائم على العقل والمنطق ، وأول من أرسى قواعد المشاهدة السريرية للمريض ،

وأول من أوجد البيمارستان ،

وأول من أسس مدرسة طبية نظامية ،

وأول من قرر وجود الوراثة المرضية ،

وأول من أعطى الطب مثله الأخلاقية العليا ،

خلده فنه ، وخلدته حكمته ، وخلده قسمه ، وكان الطبيب الصالح ، والحكيم

الناصح ، والعالم الإنسان .



١ - الطب الروماني

- امبراطور الرومان يطلب جالينوس الإغريقي .
- من هو جالينوس ؟
- أعظم تشخيص وضعه ودواء وصفه .
- جالينوس طبيب الامبراطور .
- منجزات الرومان الرائعة .
- الطب عند الرومان .
- انتشار الأوثنة ، واللجوء إلى الآلهة ، والسحر ، والمعابد .
- الطب في عهد فيسباسيان .
- نهاية الامبراطوريات القديمة ، هجمات البرابرة ، ووباء الطاعون .
- بانثيا ، فاتنة أنطاكية .
- سيرة جالينوس ، وأخلاقه ، وأقواله ، وحكمه ، ونوادره ، وأسفاره .
- كتب جالينوس .
- الدخول في مرحلة ألف عام من الظلام .

# ١- الطب الروماني

## امبراطور نصف العالم

كان امبراطور الرومان ، ماركوس أوريليوس<sup>(١)</sup> ، امبراطور نصف العالم ، يعاني من ألم في معدته . وكانت امبراطوريته تمتد من سور هادريان أو (أديان) في بريتانية البربرية ، إلى بحر قزوين ( بحر الخزر ) ، متلقفة بذلك ثقافات اليونان ومصر وطروادة وسومر وبابل وآشور . وكانت خلف جبال البامير ، في آسية الوسطى ، امبراطورية أخرى أكثر اتساعاً ، وأحسن إدارة ، وصاحبة أفضل نظام سياسي في العالم ، هي الصين ، في عهد سلالة هان .

## التوافد على روما

ولقد توافد على روما ، من كل أنحاء الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، الدجالون أو الأطباء الهاذرون الثرثارون ، وقاطعو الأعشاب ، وبائعو الأدوية المتجولون ، وتجار الرقيق وجراحو الجيش الذين سبق لهم أن عملوا في فرق وفيالق القوات المسلحة ، والنساء الحكيمات ، والحجاب ، وخدم الحمامات ، إلى جانب أطباء البلاط .

ولكن الامبراطور كان يعاني من ألم المعدة ، ذلك الألم الذي لم تنفع في علاجه فلسفته الرواقية ، ( فلسفة زينون ) ، ولا أدوية أطباء البلاط . فأرسل في طلب جالينوس ، الطبيب الإغريقي ، مثيراً بذلك غيظ وغضب أطبائه الرومان .

## من هو جالينوس ؟

أدبه أبوه وكانت أمه تعض الخدم !

ولد جالينوس ، عام ١٣١م ، في بلدة يونانية جميلة تسمى «برجاموم» ، وهي من

(١) ماركوس أوريليوس : ولد في روما عام ١٢١م . وتوفي عام ١٨٠م .



أعمال آسية الصغرى ، وتقع شمال أزمير . وكان أبوه مهندساً ، ولقد تولى تربيته وتجهيزته لدراسة الفلسفة . ويقول جالينوس عن نفسه وعن أسرته :  
« إن أبي أدبني بما يحسنه من علم الهندسة ، والحساب ، والرياضيات ، حتى انتهى بي العمر إلى خمس عشرة سنة ، وبعدها قصد بي إلى تعلم المنطق ، ثم إلى تعلم الفلسفة وحدها . ولكنه رأى في منامه رؤيا دفعته إلى تعليمي الطب ، فدفعني إليه ، حتى أتممت سن السابعة عشرة » . وفي موضع آخر يقول : « كان أبي هادئاً ومحباً وشريفاً ، بينما كانت أمي سيئة الخلق ، تعض الخدم !! » .

مضى جالينوس في تعلم الطب في أزمير على يد طبيب اشتهر في ذلك الزمان يدعى « بيلوبس » ، ثم توجه بعدها إلى بلاد اليونان ، ثم إلى جزيرة كريت وقبرص وفينيقياء وفلسطين ، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة الاسكندرية .

### درس التشريح في الاسكندرية — طبيب الامبراطور

وفي الاسكندرية درس جالينوس التشريح في جامعتها ، حيث كان الأطباء يشرحون أجسام القردة ، وكانوا يعتقدون أن كل ما ينطبق على أجسام القردة ، ينطبق أيضاً على أجسام البشر . ولقد مكث جالينوس مدة خمس سنوات في مدينة الاسكندرية ، عاد بعدها إلى بلده برجاموم ، ليمارس مهمة جراح المصارعين الرسمي ، فنجح نجاحاً منقطع النظير ؛ فذهب بعدها إلى روما حيث انتشر صيته ، وطبقت شهرته الآفاق ، لدرجة أن الامبراطور ماركوس أوريليوس عينه طبيباً خاصاً له . وكان الطبيب الإغريقي ، الجراح الخاص لمحتري المصارعة ، قد سبق له أن أقام في روما مقراً حديثاً لممارسة فنه ، فحسده زملاؤه ، وسعوا إلى نفيه إلى مدينة برغامون ، مسقط رأسه ، ولكنه عاد الآن إلى روما للاجتماع بزملائه أمام الامبراطور .

### أعظم تشخيص وضعه

وهكذا يلتقي ، وجهاً لوجه ، جالينوس آخر عظماء الإغريق ، بماركوس آخر عظماء الرومان . ولم يكن أحد يستطيع أن يصف جالينوس بالمنازع . لقد كان على أهبة أن يحقق شفاءً وصفه هو نفسه بقوله : « إنه في الحقيقة رائع ، إنه أعظم تشخيص وضعته في حياتي » .

كان الامبراطور معسكراً مع فيالقه ، وفرق جيشه ، عند حدود نهر الدانوب . ولدى عودته إلى روما ، أصابه مرض سماه أطباء البلاط : « الاشتداد الحروري » — جهل في الطب ،

مقنع بتعبير جديد براق ، فعالجوه بالمسهلات . وكان أطباء ثلاثة مجتمعين في غرفة الامبراطور المريض عندما وصل المتطفل ، وكانوا قد جسوا النبض الامبراطوري ، وقرروا أن الحالة هي بداية نوبة اشتداد في الحرارة . وكان جالينوس واقفاً بعيداً ، متحدياً إياهم بازدراء ، حين سأله الامبراطور المريض قائلاً : « لماذا لا تفحص نبضنا يا جالينوس ؟ » .

فأجاب جالينوس ، وقد تحول الاجتماع لصالحه : « اثنان من هؤلاء السادة ، قاما للتو بفحص جلاتكم ، وبما أنهما كانا مرافقين لكم في أسفاركم ، فإنهما أكثر اطلاعاً على طبيعة نبضكم ، وأقدر في الحكم على حالته الراهنة » .

وهنا فرغ صبر الامبراطور ، فأمر جالينوس بأن يحس نبضه ، ففعل . ويقول جالينوس : « بعد أن أخذت بالاعتبار سن المريض ، وبنيته ، لاح لي أن عدد النبض لا يتماشى مع تشخيص نوبة حمى ، وأكدت أن لا شيء في الأمر يدعو إلى القلق . وقلت إن المعدة محشوة ومثقلة بالغذاء الذي غلفه البلغم » .

وهنا ، بالطبع ، يذكر جالينوس بنظرية « الأخلاط » الإغريقية ، والبلغم ، كان يعني ، الخلط « البارد منها » .

### إيمانه بنظريات أبقرات

لقد تبني جالينوس نظريات أبقرات الطبية ، وأسهب في شرحها ؛ وكان أهم ما آمن به منها ، نظرية الأخلاط الأربعة ، وهي ( كما سبق لنا أن ذكرنا في بحث الطب الإغريقي ) ، تقول بأن الإنسان مكون من أربعة عناصر هي : الماء والهواء والتراب والنار ، وعليه فالناس ينقسمون إلى أربعة أمزجة هي : « الدموي والبلغمي ، والصفراوي والسوداوي » ، ولهذا كانت هنالك أربع صفات هي : الحار ، والبارد ، والجاف ، والرطب » ، ومن هنا كانت الأمراض تعزى إلى اختلاف الأخلاط ، وغلبة أحدها على الآخر .

ويورد ابن سينا ، في مطلع أرجوزته الرابعة : « في صحة الأجساد » ، نظرية الأخلاط والأمزجة الأربعة ، بإيجازٍ محكم كعادته ، فيقول :

إن استقصات الوجود أربعة	أودع فيها الله سرّاً أبدعه
عناصر محكمة الفنون	مخلوقة من كافها والنون
أسكن فيها حكمة التدبير	كانت بكون الفلك المنير
حار ورطب يابس وبارد	كل بسيط ليس فيه زائد
وبعضها مركب من بعض	قام بها ما في السما والأرض

وما بها في العالم العلوي  
النار والماء والتراب والهوا  
أمزجة مختلفات الجنس  
منها تمر سائر الأجساد  
من صامت وغيره وناطق  
من معدن ومن نبات في الورى  
تلك هي الأركان في الحياة  
والداء منه ضده دواه

وكائن في العالم السفلي  
يناط منها الداء أيضاً والدوا  
من كل جنى وكل أنسى  
على صلاح كان أو فساد  
من كل ما يخلق في الخلائق  
والحيوان ما خفا وما يرى  
وكل داء منه فهو آت  
حكم حكيم ما لنا سواه

ولقد أعجب الامبراطور كثيراً بما قاله جالينوس، وكرر ثلاث مرات القول: « هذا صحيح إنه كذلك، تماماً كما تقول، وإنني لأشعر بأن الطعام البارد لا يلائمني »، ثم سأل جالينوس: « ما الذي يجب فعله؟ ».

### الخمرة والفلفل

ويتابع جالينوس سرد القصة فيقول: « أجبته صراحة وقلت: لو أن شخصاً آخر، غير الامبراطور، كان المريض، لكنت، حسبما هي عادتي، وصفت له الخمرة والفلفل، ولكن عندما يتعلق الأمر بعاهل مثل جلالكم فلقد درج الأطباء على وصف أقل العلاجات عنفاً وأقلها قساوة، لذلك سوف أكتفي يا صاحب الجلالة وأنا كلي أسف، بتطبيق الصوف الأرجواني، المشيع برهم الناردین<sup>(١)</sup>، على جدار البطن ».

### الصوف الأرجواني

ولقد وافق الامبراطور، وبتلطف منه ملكي، على أن الدواء المحترم « لمعدة امبراطورية » ينبغي أن يكون الصوف الأرجواني، المشيع برهم الناردین الدافئ، وأرسل في طلب تابع ليقوم بتطبيق العلاج، ثم صرف جالينوس من مجلسه.

وما أن غادر جالينوس مجلس الامبراطور، حتى طلب هذا الأخير إبريقاً من الخمرة، وتبلها بشدة بمسحوق الفلفل، ثم أسرع في شربها، دفعة واحدة، كما يفعل العامة من حاشيته.

(١) الناردین: ويسمى أيضاً: نبات السنبل الهندي، وسنبلة الطبيب.

### إعجاب الامبراطور به

ولقد أثارت مهارة جالينوس، ولباقته في ممارسته لفنه، إعجاب الامبراطور، الذي بادر إلى القول، كما يفيد جالينوس نفسه: «وأخيراً وجدنا طبيباً، وطبيباً شجاعاً». وقال: «لقد اخترنا العديد من الأطباء، النهمين منهم والجشعين، من ذوي الشهرة، وحاملي ألقاب الشرف، كما اخترنا أولئك الذين يغمر الحسد والخبث قلوبهم، ولكن جالينوس يبقى في رأينا رأس هؤلاء الأطباء، وفيلسوفهم الأوحد».

ومن بعد ذلك دأب الامبراطور، وكذلك الامبراطورة فوستينا، على الاستماع إلى المحاضرات والدروس التي كان جالينوس يعطيها للجماهير؛ وكان الامبراطور يقول: «إن رأي وحكم عامة الناس، كثيراً ما يكونا أسلم وأصح من رأي الأطباء». ولقد وصف بعض مؤرخي الطب، جالينوس، على أنه كان متبجحاً، وكان على عكس ما فعل أبقرط، يذكر فقط الحالات المرضية التي نجح في معالجتها، ساعياً إلى الشهرة والمجد.

### مفاهيم علمية خاطئة

لقد شاعت في القرون الوسطى أخطاء ومفاهيم علمية، أدت إلى تخلف علم الطب قرونًا عديدة. ولقد كان لتعاليم جالينوس من تلك الأخطاء نصيب! فلقد كان جالينوس يقول: إن الأعصاب ماهي إلا أنابيب جوفاء تنقل الروح، ولكنها بعد الموت تتصلب وتفسد. وقال أيضاً: لرحم المرأة قرنان، أيمن تتكون منه الذكور، وأيسر، تتكون منه الإناث. وقال: إن الأوردة تنشأ في الكبد، ثم تتوزع على الأطراف. وقال: إن وظيفة الرأس إنما هي حمل العينين فقط، وأما باقي الأعضاء، فيمكن لها أن تكون في أي موضع آخر من الجسد.

### كان طبيباً لامعاً

ولكن، مما لا شك فيه، أن جالينوس كان طبيباً لامعاً، كتب أكثر من ٣٠٠ مؤلف، نجح منها ١١٨ كتاباً، بعد حريق حدث في زمنه.

### لجالينوس كتب ومقالات كثيرة

ويقول ابن أبي أصيبعة، في كتابه، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: «ولجالينوس

من المصنفات ، كتب ومقالات كثيرة جداً ، وجدت منها ما هو منتشر في أيدي الناس ، مما قد نقله حنين بن اسحق العبادي ، وغيره ، إلى اللغة العربية » ؛ ويعددها في كتابه .  
كما أن جالينوس فسر العديد العديد من كتب أبقرط ، التي سبق أن ذكرناها في بحثنا للطب الإغريقي . ويقول حنين بن اسحق : « ولقد وجدنا أيضاً كتباً أخرى ، قد سمت باسم جالينوس وليست له » . ويعدد حنين المقالات التي وجدها موسومة باسم جالينوس ، من غير أن تكون فصاحة كلامها شبيهة بمذهب جالينوس في الفصاحة ، ولا قوة معانيها شبيهة بقوة معانيه .

فعلى من كانت له رغبة في النظر إلى أسمائها ، وفي أغراض جالينوس في كل واحد منها ، النظر في كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » .

### من أنصار التشريح المقارن

وكان جالينوس يحتفظ باثني عشرة كاتباً ، وناسخاً ، منهمكين بتدوين مشاهداته في التشريح ، ومختارات من مشاهداته لمرضاه ، والأدوية التي يصفها . وكان رأيه يتفق مع نظرية « الأخلاط » الإغريقية التي ذكرناها ؛ وكانت دراسته لتشريح الإنسان مضللة ، ذلك لأنه ، برغم خبرته التي اكتسبها من العناية بمحترفي المصارعة ومعالجتهم ، كان من أنصار تحريم تشريح الإنسان ، ذلك التحريم الذي كان سائداً في عصره . لذا ، وجه دراسته للإنسان ، بالتقابل والتطابق مع دراسته لتشريح الحيوان .

### أفسد فنه ليتلاءم مع عصره

إن أعمال جالينوس وإن كانت مليئة بالخرافة ، إلا أن دقة مشاهدته ، وحسن فهمه ، وعمق إدراكه ، توحى بالتأني والرزانة وتبصر العواقب ؛ نعم ، لقد أفسد فنه ليتلاءم مع أفكار ومعتقدات عصره . ولكنه كان بكل تأكيد يتحلى بالروح العلمية ، ويعتمد على المشاهدة ، وعلى التجربة . الأمر الذي كفل له التفوق على سائر زملائه ، في التشخيص ، والمعالجة .

### تجارب اشتهر بها

ومن تجاربه العلمية التي اشتهر بها : تلك التي أجراها على الحيوان ، وأثبت بها أن وظيفة الكلى هي صنع البول ... فقد ربط جالينوس الحالبين فانتفخت الكليتان وتورمتا .  
وفي تجربة ثانية ، قطع أحد أعصاب العنق ، فأصاب الشلل الكتف ، تماماً كما كان يؤكد قبل أن يقوم بالتجربة .

وفي تجربة ثالثة عبث جالينوس فيها بالعصب الحنجري الراجع، فخفت الصوت ثم تلاشى، فانعدم.

وفي تجربة رابعة، عمد إلى قطع بعض أعصاب القلب فتوقف القلب. ولقد أثبت جالينوس أن الأعصاب إنما تأتي من الدماغ، لا من القلب، كما كان يعتقد أطباء وعلماء ذلك الزمان.

### عالم بالنفس

ولقد تميز جالينوس بالفكر الثاقب، والذكاء الحاد الخارق، وقوة الملاحظة، وطلاقة اللسان الجذابة، وكان داهية أيضاً، وعالماً بالنفس البشرية... واستطاع فهم ما نسميه اليوم بالطب النفسي — الجسماني، أي تفاعل الحالات النفسية، وتأثيرها في الأمراض العضوية.

### قصته مع زوجة باولوس

مثال ذلك الحالة النموذجية التي ذكرها جالينوس من معالجته لزوجة سيفريوس باولوس: كانت السيدة تعاني من مرض شديد، وكان طبيبها، يدوي مرضها على أنه عضوي جسماني، ولكن جالينوس شفاها بأن جعلها تضحك. وحقيقة الأمر أنه سمع الناس، في أنحاء المدينة، يذكرون اسمها مقروناً باسم أحد الممثلين؛ وعند جسده لنبضها، حدثها عن المسرح، وأبدى إعجابه برقص الممثل، وما أن ذكر اسمه حتى أخذ نبضها يقفز مسرعاً. — وهذا تنبؤ مبكر لجهاز كشف الكذب — ثم همس في أذنها بشيء، فأخذت في الضحك. وكان جالينوس أذكى وأدهى من أن ييوح بسر، أو بسرها. وإننا وإن كنا نجهل ما الذي همس به جالينوس، إلا أن ضحك المريضة كان بدون شك، مبشراً ببدء شفائها. وذكر جالينوس أيضاً، حالة مرضية تقاضى من أجلها أجراً باهظاً مقداره ٤٠٠ ليرة ذهبية، حين شفى زوجة القنصل بويتوس من إصابتها بداء السويداء (الماليخوليا).

### أعظم طبيب في تاريخ روما

لقد ناضل جالينوس، الإغريقي، حتى أصبح أعظم طبيب في تاريخ روما. إلا أن الطب السريري هناك، بقي في حالة محزنة. ذلك لأن الرومان كانوا ورثة ثقافات عظيمة، تلقفوها وتمثلوها، بما في ذلك المنجزات الطبية التي حققتها مدرسة الاسكندرية، والتي كانت امتداداً لأعمال الإغريق بعد عصر أبقرات، إلا أن إسهاماتهم كانت ضئيلة في مجال معرفة جسم الإنسان وإصاباته، وكذلك كانت ضعيفة في مجال مداواة المرضى الخاصين.

### أسباب ضعف طبهم السريري

ويرجع ذلك إلى تضافر عاملين اثنين : الأول : الحالة الفكرية المحدودة للرومان القدامى ، والثاني : إيمانهم بالخرافة .

كان الرومان يفضلون الاعتماد على آلهتهم الخاصة بهم ، أو على كتب التنبؤات المحفوظة في معبد جوبيتر ، وكانوا يستشيرونها في الحالات التي تتعرض فيها بلادهم لخطر مدهم . وعندما أخفقت آلهتهم ، وكذلك كتبهم ، في إنقاذهم من وباء الطاعون ، الذي انتشر في مدنها عام ٢٩٢ م . رأوا اللجوء إلى آلهة الإغريق ، فأرسلوا بعثة إلى مدينة (إبيدوروس)<sup>(١)</sup> ، وفيها معبد اسكولايوس . وعند عودة البعثة إلى روما ، هربت أفعى اسكولائية من السفينة ، التي كانت تبخر فوق مياه (التيبر Tiber) ، فرست السفينة عند شاطئ جزيرة في النهر ، ووضعت بأعجوبة نهاية لوباء الطاعون . ومنذ ذلك الحين أصبحت الجزيرة مستشفى ، ونحتت صخورها على شكل سفينة ، تزين مقدمتها شعارات اسكولايوس . ولقد سميت هذه الجزيرة ، فيما بعد ، جزيرة القديس « بارتولوميو » . وعندما أسس راهير ، مهرج الملك هنري الأول ، مستشفى في مدينة لندن ، سماه باسم تلك الجزيرة .

### من منجزات الرومان الرائعة

ومن منجزات الرومان الرائعة ، نظام أقيية التصريف التي أنشأت ، في الأيام الأولى لروما والتي لا تزال باقية كجزء من نظام المدينة الحديثة . وحتى مخافر الحدود عند جدار آدران ، كانت لها أنظمتها الصحية الفعالة .

وما هو أروع من ذلك ، نظام تزويد المدينة بالماء العذب ، للشرب وللأستحمام ؛ ففي عام ١١٠ م . كانت عشر أقيية مياه تروي العاصمة بـ ٤٠ مليون غالون من ماء الشرب ، يومياً . وكانت البيوت الخاصة ، مجهزة بأنابيب خدمة ، وصهاريج ، وصنابير ؛ وكانت عربات نقل الرواسب ، وحمل وسائل التنقية الأخرى ، شائعة الاستعمال . وبلغت شبكات أنابيب المياه في المنازل ، درجة عالية من الفعالية .

### الحمامات — التدفئة المركزية

وكانوا يؤمنون بمنافع الحمامات من الناحيتين ، الطبية والاجتماعية . وكان لبعض

(١) مدينة في مقاطعة آرغوليد ، على بحر إيجه ، معبدها (معبد اسكولايوس) ، إله الطب ، كان يؤم المرضى من كل أنحاء اليونان ، الذين كانوا يأتون لاستشارة الآلهة .

## • الطب الروماني

الحمامات المبنية من الرخام والمرمر، من وسائل الراحة والتسلية، ما يكفي ويتسع لثلاثة آلاف شخص.

وكانوا يؤمنون أيضاً بفضائل النيايح الطبيعية، وكانوا يستعملون نظام التدفئة المركزية بواسطة غرف خاصة، وأنابيب ممددة تحت الأرض.

وعرفوا فوائد تخطيط المدن، والبيوت الموهوة، والشوارع المرصوفة، وحرق جثث الموتى. وكانت لديهم تشريعات تتحكم في جودة ونقاء المواد الغذائية.

## الطب عند الرومان

### العناية بالصحة العامة

لقد أخذ الرومان علم الطب عن اليونان، وأحسنوا صياغته وتنظيمه، وطبقوه على الصحة العامة والخاصة. وكانت روما محاطة من جميع جهاتها تقريباً بالمستنقعات الواسعة، وكانت عرضة للفيضانات والأوبئة، لذلك كانت في أمس الحاجة إلى العناية بالصحة العامة.

### انتشار الملاريا والنقرس والزهري

كانت الملاريا منتشرة في روما في القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت بعوضة الأنوفيل وقتل مستقرة في المستنقعات المجاورة. وانتشر داء النقرس بانتشار الترف. وتشير كتابات الهجائين الرومان إلى ظهور الزهري في القرن الأول بعد الميلاد.

وكان الناس، في قديم الزمان، يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات، وكانوا يحملون مرضاهم وقرايبتهم إلى هيكل اسكولابيوس، ومنيرفا، وكانوا يتركون فيهما الهدايا والهبات شكراً على نعمة الشفاء. وما أن حل القرن الأول قبل الميلاد، حتى أخذت عنايتهم بالطب الديني تزداد شيئاً فشيئاً.

### الحلاقون والحذاؤون يمارسون الطب !

ولم تكن الدولة في ذلك الوقت قد وضعت نظاماً لممارسة مهنة الطب، إذ كان الحلاقون والحذاؤون والنجارون يمارسونها إلى جانب مهنتهم الأصلية، إذا ما أرادوا ذلك؛ وكانوا يستعينون بالسحر أيضاً، ويمزجون عقاقيرهم بأنفسهم، ويبيعونها للناس. وقد ندد الكثيرون



بعجز من يمارسون مهنة الطب ، والذين يخفون عجزهم بجمال أجهزتهم وأدواتهم ؛ كما ندد البعض بأطباء اليونان الذين « يغوون زوجاتنا ، ويجمعون الثروات الطائلة بتسميمنا ، ويتعلمون بتعذيبنا ويتدربون بقتلنا » .

### الطب في عهد فيسباسيان

وفي عهد فيسباسيان افتتحت المستمعات ، (أوديتوريا) ، لتعليم الطب ، ويتولى التدريس فيها أساتذة تعترف الدولة بهم ، وتؤدي لهم الرواتب . وكانت اللغة اليونانية لغة التدريس في هذه المعاهد ، وكانت اللغة اللاتينية اللغة التي تكتب بها تذاكر العلاج ، كما هي الحال في هذه الأيام . وكان خريجوا هذه المعاهد يحملون لقب « أطباء الجمهورية » ، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة صناعة الطب بصفة قانونية في روما ، بعد عهد فيسباسيان .

### الدولة تشرف على الأطباء

ونصت القوانين على أن تشرف الدولة على الأطباء ، كما نصت على وجوب تحميلهم تبعة أعمالهم . وكانت قوانين « كورنيليا » تفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم أو بسبب أخطاء ناجمة عن جهلهم بأعمالهم ؛ ومع ذلك ، بقي الدجالون يمارسون دجلهم ، ولكن عدد المتعلمين من الأطباء ، ظل يزداد شيئاً فشيئاً . وكانت القابلات ، وهن اللواتي أخرجن الكثرة الساحقة من الرومان إلى هذا العالم ، مدربات على أعمال التوليد أحسن تدريب .

### رقي الطب العسكري

أما الطب العسكري ، فقد وصل في عام ١٠٠م إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم ، فكان لكل فيلق أربعة وعشرون جراحاً ، وهيئة إسعاف أولي ، ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم . وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكري .

### مستشفيات خاصة ، وعامة — وأطباء اختصاصيون وطبيبات

ولقد افتتح الأطباء مستشفيات خاصة ، تطورت منها فيما بعد ، المستشفيات العامة

## • الطب الروماني

في العصور الوسطى . وكانت الدولة تقدم المعونة للأطباء ، لمعالجة الفقراء مجاناً ، وتؤدي لهم أجورهم ؛ أما الأغنياء من الناس فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون . وكان « رؤساء المداوين » يعنون بالامبراطور وبأسرته ، وأعوانه وحاشيته ، وتؤدي لهم لقاء ذلك ، أجور سخية .

ولقد بلغت مهنة الطب ، في تلك الحقبة ، درجة عظيمة من التخصص ، فكان في البلاد اختصاصيون في المجاري البولية ، وفي أمراض النساء ؛ وكان فيها اختصاصيون في التوليد ، وفي أمراض العين والأذن ، وأطباء بيطريون ، وجراحو الأسنان ، وكان بوسع الرومان أن يحفظوا بأسنان صناعية ، من الذهب ، وأسنان مرتبطة بأسلاك ، وجسور وأسنان ملبسة بالذهب أيضاً .

وكان لدى الرومان عدد كبير من الطبيبات ؛ وقد كتبت الكثيرات منهن كتباً في الإجهاض ، كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات .

### شراب المندراغورا للتخدير

وأما الجراحون فكانوا يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة . وكانوا يستعملون عصير اللقاح<sup>(١)</sup> ( المندراغورا ) ، في تخدير مرضاهم ، وقد وجدت في خرائب بومبيي أكثر من مائتين من الأدوات الجراحية المختلفة .

### المداواة بمياه الينابيع

وكانت المداواة بمياه الينابيع واسعة الانتشار ، وكانت الينابيع الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء . وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو إلى إحدى بلدان شمالي إفريقيا الأخرى . وكان الكبريت يستعمل لعلاج الأمراض الجلدية ، ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية . وكان الأطباء يصنعون العقاقير بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها دون أن يطلعوا أحداً عليها ، وكانوا يبيعونها بأعلى الأثمان .

### هجرة أطباء اليونان إلى روما

وإنه لمن المفيد أن نذكر هنا أنه عقب استيلاء الرومان على بلاد اليونان ، هاجر العديد من أطباء اليونان إلى روما ، واشتهروا فيها ، ومنهم :

(١) اللقاح ، أو تفاح الجن ، أو البيروج ، أحد فصائل النباتات الباذنجانية في العالم القديم .

اسقليبيادس، صديق الخطيب شيشرون، (القرن الأول قبل الميلاد)، وهو سورانوس (القرن الثاني ميلادي)، ومن أشهر مصنفاته كتاب «طب النساء»، وفيه يشرح طريقة استعمال المنظار النسائي، (سبيكولوم)، شرحاً يتفق وطريقة استعماله في العصر الحاضر. ثم ظهر هليودوروس، وروفس، وأنتيليوس، (في القرنين الأول والثاني ميلادي). فأغنوا الجراحة بآراء جديدة، وأغنوا المداواة في مختلف فروعها. وكانت تصانيفهم تكتب باللغة اليونانية.

### دائرة معارف فريدة

أما ما كتب باللغة اللاتينية، فأفضله مؤلفات كورنيليوس سيلسوس<sup>(١)</sup>، الكاتب الوحيد، من أصل روماني، والذي جمع، حوالي منتصف القرن الأول الميلادي، في دائرة معارف فريدة، كل ما درسه من علوم في الزراعة، والخطابة، والحرب، والقانون، والفلسفة، والطب. وقد ضاع كل ما كتبه إلا القسم الخاص بالطب. ويُعد كتابه في هذا العلم، أعظم مؤلف وصل إلينا من القرون الستة من عهد أبقرات إلى عهد جالينوس. ويمتاز أيضاً بأنه كتب بلغة لاتينية فصحة، نقية، لقب مؤلفها من أجلها بـ «شيشرون الطب». ولقد بقيت الأسماء اللاتينية التي ترجمت بها المصطلحات الطبية اليونانية، مسيطرة على علم الطب حتى أيامنا هذه. ويدل هذا الكتاب على علم بالأمراض السرية واسع، ويصف الجراحات بجلاء ووضوح، وفيه أقدم وصف معروف للأربطة؛ كما يصف عملية قطع اللوزتين، وعملية استخراج حصاة المثانة بشق الجنب، ويصف جراحة الترقيع (التجميل)، وعمليات إظلام عدسية العين (الكاتاركتا). وهو في مجموعته خير ما ألف في الآداب العلمية الرومانية. ولقد فقد هذا الكتاب في العصور الوسطى، ثم عثر عليه في القرن الخامس عشر، فأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقرات أو جالينوس، وكان له شأن عظيم في إحياء علم الطب في العصر الحديث.

### نهاية الامبراطوريات القديمة

إن كل اهتمامات الرومان بالصحة العامة، وكل تدابيرهم المتخذة لمكافحة الأمراض، لم تستطع، في غياب المعرفة العلمية لهذه الأمراض، أن تدرأ خطر الكوارث الطبية التي هدمت الامبراطورية. ولقد بدأ الانهيار واستمر بالفعل، عندما شفى جالينوس الألم الذي ألمَّ بمعدة الامبراطور.

## هجمات البرابرة ووباء الطاعون

وكانت روما، كما كانت الصين آنذاك، عرضة لهجوم البرابرة الأشداء على حدود امبراطوريتها المترامية الأطراف .

وفي القرن الثاني للميلاد، في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس، حدثت محنة كبرى أصابت الامبراطوريتين، الرومانية، والصينية، في آنٍ واحد، وأضعفتها أمام هجمات البرابرة . وكانت هذه المحنة وباء الطاعون الخبيث، والشديد الحمأة، والذي تفشى في أرجاء الصين لمدة اثنتي عشرة سنة، مزق خلالها بنية البلاد الاجتماعية، وسقطت سلالة هان الحاكمة، وعمت الفوضى، ولم تستطع البلاد أن تنجو مما هي فيه، قبل حلول القرن السابع الميلادي، حين أعادت سلالة تانج، الحاكمة، البلاد إلى توازنها .

## الوباء آتى من آسية

أما في أوربة، فقد انتشر الوباء فيها، آتياً عبر آسية، وتفشى في أرجاء الامبراطورية الرومانية، من عام ١٦٤ وحتى عام ١٨٠ م. وقضى على عُشر رجال المواقع والحاميات العسكرية وسكان الأقاليم؛ ابتلي به الحكام، وابتلي به المحكومون على حدٍ سواء، وأصيب به الإدارات والمديرون، وانهار الجميع . لقد كان هذا الوباء داءً من أدواء العالم المتحضر، ويبدو أن القبائل البربرية كانت تحمل المناعة ضده . لذلك أصبحت حدود الامبراطوريتين غير حصينة، وباتت عرضة للسقوط بأيدي القبائل الغازية الآتية إليها من السهوب الآسيوية، من الجنوب ومن الغرب معاً .

فالقوط، الآتون أصلاً من السويد، ارتحلوا إلى مناطق الفولكا الروسية، وإلى شواطئ البحر الأسود، ومنها، استقلوا السفن وأبحروا في المياه الدافئة ليغيروا، فيما بعد، على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . ولقد كانوا هم أنفسهم، هدفاً لهجمات قبائل (الهون) المنطلقة من آسية . وهكذا أخذ القوط، والقوط الغربيون، في الاندفاع بقوة نحو الغرب لتمزيق الامبراطورية الرومانية . وكانت كتائبهم وكان عتادها بمثابة حملة للوباء الخبيث أيضاً .

## كيف انتشر هذا الوباء؟

كيف انتشر هذا الوباء؟ من أين آتى، وكيف؟

كان ماركوس، امبراطور الرومان، قد عهد إلى لوسيوس، (لوكيوس فيروس) أحد كبار قادته العسكريين، بمحاربة مملكة بارثيا، ولكن لوسيوس، لم يتجاوز في زحفه مدينة

أنطاكية، لأن هذه المدينة كانت مسكن فانتها (بانثيا Panthea)، فانتة أنطاكية، التي بلغت من الجمال والأدب والثقافة حداً ظن معه لوسيوس أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخيماً وعذباً يسلب لب من سمعه، وأناملاً تجيد العزف، وعقلاً ملماً بروائع الأدب والفلسفة. فلما رآها لوسيوس نسي متى ولد !!! وأطلق العنان للذاته، للصيد أولاً ثم للدعارة بعدئذٍ، وفي هذه الأثناء كان البارثيون يزحفون على بلدان سورية التي استولى عليها الرعب.

### الانتصار على البارثيين

ولم يعلق الامبراطور ماركوس بكلمة على أعمال القائد لوسيوس، ولكنه أرسل إلى أفيدوس كاسيوس، الذي يلي لوسيوس في قيادة الجيش، خطة للحملة كانت من الإنقاذ بحيث أعانت القائد القدير على صد البارثيين إلى بلاد ما بين النهرين، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطشقونة، وأحرقت المدينتان عن آخرهما، وعاد لوسيوس من أنطاكية إلى روما حيث أقيم له احتفال بالنصر، أصّر، كرمًا منه، على أن يشاركه فيه الامبراطور ماركوس !!

### عودة لوسيوس إلى روما ومعه الوباء

وحمل لوسيوس (لوكيوس فيروس)، معه العدو الخفي في هذه الحرب: وهو الوباء، وكان قد ظهر في بادئ الأمر بين جنود أفيدوس كاسيوس، حينما استولى على سلوقية، ثم انتشر بسرعة اضطرت به إلى الانسحاب بجنده إلى بلاد ما بين النهرين، بينما كان البارثيون يطربون لأن الآلهة قد تأرت لهم من أعدائهم. ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سورية، وأخذ لوسيوس معه جنوداً من هذه الفيالق لتشارك في موكب النصر، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها، وإلى كل صقع من أصقاع الامبراطورية اجتازوه فيما بعد.

### ضحايا الوباء في روما ألفان في اليوم

ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء، أكثر مما يحدثونا عن طبيعته؛ ولكن ما قالوه عنه يوحي بأنه قد يكون التيفوس الطفحي أو الطاعون الدملي. ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذي فتك بالاثنيين في عهد بيركليز. وسواء أكان الداء التيفوس أم الطاعون، فقد كانت علامته بثرات سوداء منتشرة في الجسم، وسعالًا جافًا ومبحوحًا، ونفساً «ذا

## • الطب الروماني

رائحة خبيثة». ولقد انتشر الوباء بسرعة في آسيا الصغرى، ومصر، واليونان، وبلاد الغال، فأهلك خلال عام واحد (١٦٦ — ١٦٧)، أكثر من أهلكتهم الحرب نفسها. وكان عدد الموتى في روما يبلغ ألفين في اليوم الواحد، وكانت الجثث تخرج منها أكوماً.

## آثار الوباء

ولقد عجز الامبراطور ماركوس عن مقاومة هذا العدو الخفي، ولكنه بذل كل ما في وسعه ليخفف من شره، دون أن يجد أية معونة من علم الطب في ذلك الزمان، فعجز الوباء في مجراه، فأحدث عند بعض الناس مناعة ضده، وأهلك كل الآخرين ممن حملوا جراثيمه. وكانت له في البلاد آثار يصعب حصرها. فقد أقفرت معظم الأصقاع من سكانها حتى أصبحت صحارى أو غابات، ونقص إنتاج الغذاء، واضطربت وسائل النقل، وأتلفت الفيضانات مقادير كبيرة من الحبوب. ثم جاء القحط في أعقاب الوباء، واختفت مظاهر البهجة التي امتازت بها بداية حكم ماركوس، واستسلم الناس للقلق والتشاؤم، وهرعوا إلى العرافين والمتنبئين، وغمروا مذابح الهياكل بالبخور والأضاحي.

## هل أعاق جالينوس تطور البحث الطبي؟

ولقد أعرب بعض الباحثين عن الأسف، لأن جالينوس الذي كان ماهراً في ممارسته لفنه، مُجَدِّداً في كتاباته، مصيباً في العديد من أعماله، شديد الثقة بنفسه، جازماً وجريئاً في الإفصاح عن رأيه وعلمه، هو الذي كان قادراً على أن يطور البحث الطبي، عوضاً عن أن يسهم في إعاقته تطوره، شأنه في ذلك شأن علماء الدين وأساقفة عصور الظلام، الذين «قالوا كل شيء، ولم يكن من مزيد على ما قالوه».

## زعامة جالينوس سارت ١٣ قرناً

لقد سادت زعامة جالينوس، طيلة ثلاثة عشر قرناً من الزمان، بحيث لم يجز معها أحد على مناقضته أو الاعتراض على نظرياته. قال «ريولان»، أحد علماء القرن السادس عشر: «إذا لوحظ اختلاف بين وصف لجالينوس، وبين واقع الطبيعة، فإنه لا مفر من التسليم بحدوث خطأ في (قانون) الطبيعة نفسها، لا في آراء جالينوس!» ولقد حدث ما يذكرنا بهذا، في عهد متأخر، وبالتحديد في عام ١٥٥٩م. حين أدانت هيئة كلية الطب بلندن، أحد أعضائها، وهو الدكتور جون جينيز، وأجبرته على

الاعتراف علناً بالخطأ الذي اقترفه حين أقدم، بلا وجل، على القول بوجود أخطاء في أعمال جالينوس!

### إيمان جالينوس بوجود إله واحد

ويرجع سلطان جالينوس وسمعته هذه، خلال الألف سنة التالية لعصره، إلى حقيقة أنه كان في فلسفته موحداً، يؤمن بوجود إله واحد، خالق لهذا الكون، كما أنه كان يؤمن بأن كل شيء خلقه الله، إنما خلقه لغاية أو لحكمة معينة. وهذا ما لقي هوى ورضى لدى الفكر الديني المتعصب، الذي ساد الكنيسة في العصور الوسطى، فتبنت آراءه واعتبرت أي مخالفة لها، كفراً وإلحاداً! كما أن تعاليمه تلك لقيت القبول من العقيدة الإسلامية أيضاً.

### مقتطفات من سيرة جالينوس، وصفته، وأخلاقه، وأقواله، وحكمه، ونوادره

#### • شيء من سيرته ...

ذكر جالينوس في كتابه «محنة الطبيب الفاضل» حيث قال: «إني منذ صباي تعلمت طريق البرهان. ثم إني لما ابتدأت بعلم الطب رفضت اللذات، واستخففت بما فيه من عرض الدنيا ورفضته. ولم أفنْ دهري وأشق نفسي في هذا التطواف على الناس الذي يسمونه تسليمًا. لكن أشغلت نفسي دهري كله بأعمال الطب والروية والفكر فيه. وسهرت عامة ليلي في تقليب الكنوز التي خلفها القدماء لنا. فمن قدر أن يقول أنه فعل مثل هذا الفعل الذي فعلت، ثم كانت معه طبيعة ذكاء، وفهم سريع، يمكن معها قبول هذا العلم العظيم.

#### • صفته وأخلاقه ...

قال المبشر بن فاتك: «إن جالينوس كان أسمى اللون، حسن التخاطيط، عريض الأكتاف، واسع الراحتين، طويل الأصابع، حسن الشعر، محباً للأغاني والألحان وقراءة الكتب، معتدل المشية، ضاحك السن، كثير الهذر، قليل الصمت، كثير الوقوع في أصحابه، كثير الأسفار، طيب الرائحة، نقي الثياب. وكان يحب الركوب والتنزه. مداخلاً للملوك والرؤساء من غير أن يتقيد في خدمة أحد من الملوك، بل إنهم كانوا يكرمونه. وإذا

## • الطب الروماني

احتاجوا إليه في مداواة شيء من الأمراض الصعبة دفعوا له العطايا الكثيرة من الذهب وغيره في برئها. « وذكر ذلك في كثير من كتبه ». وإنه كان إذا تطلبه أحد من الملوك أن يستمر في خدمته سافر من تلك المدينة إلى غيرها لئلا يشتغل بخدمة الملك عما هو بسبيله .

## • أبو العلاء المعري، يمدح كتبه ...

وقد مدح أبو العلاء المعري في كتاب « الاستغفار » كتب جالينوس ومدوني الطب فقال :

سقياً ورعياً لجالينوس من رجل	ورھط بقراط غاضوا بعد أو زادوا
فكل ما أصلوه غير منتقض	به استغاث أولو سقم وعود
كُتب لطاف عليهم خف محملها	لكنها في شفاء الداء أطواد

## • من أقوال جالينوس وحكمه

ومن ألفاظ جالينوس وآدابه ونوادره الحكيمة ، مما ذكره حنين بن اسحق في كتاب « نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء » ، قال جالينوس :

« الهمُّ فناء القلب والغمُّ مرض القلب » . ثم بين ذلك فقال : « الغم بما كان والهم بما يكون » . وفي موضع آخر : « الغم بما فات والهم بما هو آت » ، فإياك والغم فإن الغم ذهاب الحياة » .

## • وصفه للقلب ...

قال في صورة القلب : « إن في القلب تجويفين أيمن وأيسر . وفي التجويف الأيمن من الدم أكثر من الأيسر . وفيهما عرقان يأخذان إلى الدماغ ، فإذا عرض للقلب ما لا يوافق مزاجه انقبض ، فانقبض لانقباضه العرقان ، فتشنج لذلك الوجه وألم له الجسد . وإذا عرض له ما يوافق مزاجه انبسط ، وانبسط العرقان لانبساطه » . قال : « وفي القلب عرق صغير كالأنبوبة مطل على شغاف القلب وسويدائه ( غلافه وحبته ) ، فإذا عرض للقلب غم انقبض ذلك العرق فقطر منه دم على سويداء القلب وشغافه ، فيعصر عند ذلك من العرقين دم يتغشاه ، فيكون ذلك عصراً على القلب ، حتى يحس ذلك في القلب والروح والنفس والجسم ، كما يتغشى بخار الشراب الدماغ فيكون منه السكر » .



### • قوله في العلم ... والعقل ...

قال جالينوس لتلاميذه : « لا ينفع علمٌ من لا يعقله ، ولا عقل من لا يستعمله » .

### • قوله في العشق

ومن كلامه في العشق قال : « العشق استحسان ينضاف إليه طمع » . وقال : « العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد . وفي الدماغ ثلاث قوى : التخيل ، وهو في مقدم الرأس ، والفكر ، وهو في وسطه ، والذكر ، وهو في مؤخره . وليس يكمل أحد اسم عاشق حتى يكون إذا فارق من يعشقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره ، وقلبه وكبد . فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد ، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل ، والذكر له والفكر فيه ، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به . فمتى لم تشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقاً . فإذا لقيه خلت هذه المساكن » .

وقال : « العليل الذي يشتهي ، أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي » . وقال : « كان الأطباء يقيمون أنفسهم مقام الأمراء ، والمرضى مقام المأمورين الذين لا يتعدون ما حد لهم ، فكان الطب في أيامهم أنجع ؛ فلما حال الأمر من زماننا فصار العليل بمنزلة الأمير ، والطبيب بمنزلة المأمور ، وخدم الأطباء رضا الأعداء ، وتركوا خدمة أبدانهم ، فقل الانتفاع بهم » .

ومن كلام جالينوس أيضاً : « أن العليل يتروح بنسيم أرضه ، كما تتروح الأرض الجذبة ببل المطر » .

### • جالينوس ، في مجالس الطرب ...

وقيل له : « لِمَ تحضرُ مجالس الطرب والملاهي ، قال : « لأعرف القوى والطبائع في كل حال من منظر ومسمع » .

### • ومن تمثيلاته الطريفة قال :

« الطبيعة كالمُدعي ، والعلة كالخصم ، والعلامات كالشهود ، والقارورة والنبيذ كالبيّنة ، ويوم البهران كيوم القضاء والفصل ، والمريض كالمتوكل ، والطبيب كالقاضي » .

### • رجل من أهل حلب ، وكتاب في أصحاب الحيل ...

وروى جالينوس في كتابه « في الأمراض العسرة البرء : أنه كان ماراً بمدينة رومية إذ هو

## • الطب الروماني

برجل خلق حوله جماعة من السفهاء، وهو يقول: أنا رجل من أهل حلب لقيت جالينوس، وعلمني علومه أجمع، وهذا دواء ينفع من الدود في الأضراس»، وكان الخبيث قد أعد بندقاً من قار وقطران، وكان يضعها على الجمر ويبخر بها صاحب الأضراس المدودة بزعمه، فلا يجد بدأ من غلق عينيه، فإذا أغلقهما دس في فمه دوداً قد أعدها في وعاء، ثم يخرجها من فم صاحب الضرس. فلما فعل ذلك ألقى إليه السفهاء بما معهم، ثم تجاوز ذلك حتى قطع العروق على غير مفاصل.

قال: «فلما رأيت ذلك أبرزت وجهي للناس وقلت أنا جالينوس! وهذا سفیه. ثم حذرت منه، واستعدت عليه السلطان فلطمه». ولذلك ألف كتاباً في أصحاب الحيل.

## • أسفاره

قال الميثر بن فاتك: «وسافر جالينوس إلى أثينية ورومية والاسكندرية، وغيرها من البلاد في طلب العلم... ودرس الطب أيضاً على امرأة اسمها قلاوطر، وأخذ عنها أدوية كثيرة، ولا سيما ما تعلق بعلاجات النساء. وشخص إلى قبرص... وكذلك شخص إلى مصر وأقام بها مدة فنظر عقاقيرها ولا سيما الأفيون، في بلد أسويط من أعمال صعيدها. ثم خرج متوجهاً منها نحو بلاد الشام راجعاً إلى بلده، فمرض في طريقه ومات بالفرما، وهي مدينة على البحر الأخضر في آخر أعمال مصر.

وقال المسعودي في كتاب «المسالك والممالك» إن الفرما مدينة قديمة عند مدخل مصر شرقاً على شط بحيرة تنيس، وهي مدينة حصينة وبها قبر جالينوس اليوناني.

## • جالينوس لا يعرف علاج علته!

وحكي عنه أنه لما طال به العلة عاجلها بكل شيء فلم ينجع، فقال لتلاميذه إن الحكيم ليس يعرف علاج علته، وقصروا في خدمته، فأحس بذلك منهم... فقال لتلاميذه لا تظنوا أنني قد عجزت عن علاج نفسي، فهذه علة تسمى داء مدد يعني الداء الذي لا دواء له وهو الموت.

وهذا يذكر بقول المتنبي:

«يموت راعي الضأن في جهله      موة جالينوس في طبه»

وقد شرح أبو البقاء العكبري معنى البيت فقال :  
« يريد أن الموت لم يسلم منه الشريف ولا الوضيع ، ولا الطبيب ولا المطبوع ، ولا العاقل ولا الجاهل ، فالجاهل يموت كما يموت اللبيب الحاذق » . وهذا من أحسن الكلام وألطفه وأبينه .

وعاش جالينوس ، على ما ذكره اسحق بن حنين ، ونسبه إلى يحيى النحوي ، عاش سبعةً وثمانين سنة ، منها صبي ومتعلم : سبع عشرة سنة ، وعالم ومعلم سبعين سنة .

### مصنفات جالينوس

ولجالينوس من المصنفات كتب كثيرة جداً ، مما قد نقله حنين بن اسحق العبادي وغيره إلى العربي ، وأغراض جالينوس في كل كتاب ، منها :  
كتاب فينكس : وهو الفهرست ، وغرضه في هذا الكتاب : يصف الكتب التي وضعها .

كتاب الفرق : وقال جالينوس : « إنه أول كتاب يقرأه من أراد تعلم صناعة الطب » .  
كتاب النبض الصغير : مقالة واحدة ، وغرضه فيها : أن يصف ما يحتاج المتعلمون إلى علمه من أمر النبض .  
كتاب في العضل : وغرض جالينوس في كتابه هذا ، أن يصف أمر جميع العضل في كل واحد من الأعضاء .

كتاب في العصب : مقالة كتبها إلى المتعلمين وغرضه فيها : أن يصف كم زوجاً من العصب تنبث من الدماغ والنخاع ، وأي الأعصاب هي ، وكيف وأين تنقسم كل واحدة منها ، وما فعلها .

كتاب في العروق : يصف فيها أمر العروق التي تنبض والتي لا تنبض .  
كتاب العلل والأعراض : في أصناف الأمراض ، وفي أسباب الأمراض ، وفي أصناف الأعراض ، وفي أسباب الأعراض .  
كتاب أصناف الحميات : وغرضه فيه : أن يصف أجناس الحميات وأنواعها ودلائلها .

كتاب حيلة البرء : وغرضه فيه : أن يصف كيف يداوى كل واحد من الأمراض بطريق القياس .

**كتاب علاج التشريح :** وهو الذي يعرف بالتشريح الكبير ، وذكر أنه قد جمع فيه كل ما يحتاج إليه من أمر التشريح ...

**كتاب منافع الأعضاء :** سبع عشرة مقالة بين في المقالة الأولى والثانية منه حكمة الباري ، تبارك وتعالى ، في إتقان خلقه اليد ، وبين في القول الثالث حكمته في إتقان الرجل . وفي الرابع والخامس حكمته في آلات الغذاء ، وفي السادس والسابع أمر آلات التنفس ... وأمر ما في الرأس ، وسائر ما في الوجه ... والحكمة في أعضاء التوليد ... وأمر الآلات المشتركة للبدن كله وهي العروق الضواري وغير الضواري والأعصاب .

**كتاب الأدوية المفردة :** أصل فيه أصلاً صحيحاً لجميع العلم بالحكم على القوى الأولى من الأدوية . ثم أمر القوى الثواني ، وهي الطعوم والروائح ، ووصف القوى الثواب من الأدوية ، وهي أفاعيلها في البدن من الأسخان والتبريد والتجفيف والترطيب . ثم وصف قوة كل دواء من الأدوية التي هي أجزاء من النبات . ثم قوى الأدوية التي هي أجزاء من الأرض ، أعني أصناف التراب والطين والحجارة والمعادن . ثم قوى الأدوية التي هي مما يتولد في أبدان الحيوان . ثم قوى الأدوية التي هي مما يتولد في البحر والماء المالح .

قال حنين بن اسحق : وقد وجدنا أيضاً كتباً أخرى قد سمت باسم جالينوس وليست له ، لكن بعضها تنف اختراعها قوم آخرون من كلامه فآلفوا منها كتباً ، وبعضها قد كان وضعها من كان قبل جالينوس فوسمت بآخره باسم جالينوس .  
والخلاصة : إن لجالينوس أيضاً كتباً أخر كثيرة وكثيرة جداً مما لم يجده الناقلون ، منها ، ومما قد اندرس على طول الزمان ، مما قد ذكره جالينوس في فهرست كتبه المسمى فينكس .

### العبور إلى غياهب الظلام

وأخيراً ، يمكننا القول إنه عندما استدعي جالينوس إلى القصر ، لمعالجة ألم المعدة «الامبراطوري» ، لم يستدع إلى فراش مرض الامبراطور فحسب ، بل إلى فراش مرض الامبراطورية أيضاً .

وكانت الحضارة الغربية في ذلك الحين ، على وشك الدخول في مرحلة ألف عام من الظلام ! ... وكان على جالينوس ، قمر الطب اليوناني المضيء ، أن يعبر هو نفسه إلى غياهب ذلك الظلام .



## الفصل التاسع



٢ - المرض والشياطين والقوى الخارقة للطبيعة

- الكهنة يرون أن المرض « لعنة من السماء » .
- الطبيب العربي ثابت وفن العلاج العجائبي عند الفرنجية .
- تزواج الطب والدين .
- أساليب الرهبان في المداواة .
- تحريم قطع الجسم البشري . تحريم كتب الطب المصورة .
- قناديل تضيء عوالم الظلام .
- العرب يدخلون النور على تراث القدماء .
- عودة « الوباء الأسود » .
- الرقص الجنوني . الضاربون بالسياط .

## ٢ - المرض والشياطين ولقوى النخارقة للطبيعة

### انتقال المعارف إلى سواحل المتوسط

بعد انهيار الامبراطورية الرومانية، أصبحت الكنيسة مكان تجمع سبل المعرفة، لا في مضمار الطب فحسب، بل وفي مجال المعارف الأخرى، التي انتقلت، شيئاً فشيئاً، وعبر آلاف السنين، إلى سواحل المتوسط. أتت من الهند القديمة، ومن بلاد فارس، ومن سومر وبابل وآشور، ونيوى، ومن مصر، واليونان، وكذلك من الصين، وأقصى الشرق، عبر طريق التوابل.

### ازدهارها في الاسكندرية

ولقد بلغت تلك المعارف أوج ازدهارها، في عهد الاسكندر الكبير، وأصبحت الاسكندرية أهم مركز لها؛ فيها درس بتولمي الجغرافي، وأوكليد، وأرخميدس، ديسكوريدس وسورانوس، وجالينوس، وهيبورفيلوس، وإيراسيستراسوس (الذي استخدم الساعة المائية لتوقيت النبض)، كما درس فيها كثيرون غيرهم، وقد زودت بمكتباتها الكبرى، ومتاحفها. وكان من نتائج القلاقل وحوادث الشعب التي أثارها المسيحية، في الاسكندرية سنة ٣٩١ م، أن هدمت المعابد، بما فيها معبد جوبيتير سيرابيس، وهدم ما تبقى من مكتبة كانت تضم ذات يوم ٧٠٠.٠٠٠ درج من المخطوطات.

### أبقراط: المرض ليس عقاباً إلهياً

### الكنيسة: المرض «لعنة من السماء»

وما سلم من هذه المعارف الطبية، كان مبعثراً في الأديرة، ومتفرقاً هنا وهناك، لدى الهيئات الكنسية المتعددة. لقد قال أبقراط: «إن المرض ليس عقاباً إلهياً، ولكنه شيء ينبغي أن يدرس، كما تدرس الظواهر الطبيعية الأخرى». ولكن بعد أن سيطرت الكنيسة، عادت إلى



الوجود، النظريات القديمة التي تعزوا المرض إلى قوى خارقة للطبيعة، وأخذ أطباء أوربة وكهنتها، يرون في المرض: «لعنة من السماء»، تحل بصاحبها، عقاباً له على إثم ارتكبه، أو أنه ناجم عن دخول الشيطان في نفس المريض، فحلل عذابه!! ولذلك أصبح العلاج عندهم يعتمد على طرد الشيطان من الأجسام العلية. ولم كانت هنالك حالات «خطية»، استبد فيها الشيطان بالمريض، واستوجب الأمر إخراجه بأية وسيلة كانت، حتى ولو اقتضت الحال، فتح جمجمته!!

### حديث الطبيب العربي «ثابت» عن «فن العلاج العجائبي عند الفرنجة»

وذلك ما حدث بالفعل للمرأة من الفرنجة، تلك البائسة التي روى لنا قصتها الطبيب العربي «ثابت» في كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ!! ابن أخت حاكم قلعة شيزر؛ روى الأمير قصة ممزوجة بالسخرية المرة، ضارباً بها المثل، عن «فن العلاج العجائبي عند الفرنجة»، قال: «ومن عجيب طبهم أن صاحب النيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: «ما أسرع ما داويت المرضى!» قال: «أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمْلَة، وامرأة قد لحقها نشاف». فعملت للفارس لُبِيحَةً ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: «هذا ما يعرف شيئاً يداويهم»، وقال للفارس: أيهما أحب إليك، «تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال: «أعيش برجل واحدة». قال: «أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة»، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها». فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ثانية فسال مخ الساق، ومات الرجل من ساعته. وأبصر المرأة فقال: «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها». فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: «الشيطان قد دخل في رأسها». فأخذ الموسى وشق رأسها صلياً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: «بقي لكم إلي حاجة؟» قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!.

### وقصة محزنة أخرى

ولقد روى أحد المؤرخين الأوربيين الثقات، بعد مرور مائتي سنة من وقوع نادرنا

السابقة، قصة النبيل الصغير الأمير «ديدو الثاني» فون روشيلتز وغويز، الذي كان يشكو قصراً في نفسه وسمنة في بدنه. لقد أراد هذا الأمير أن يستشير طبيباً ليعرف إذا كانت سمته هذه ستزعجه وتتعبه في الرحلة التي ينوي القيام بها بصحبة الامبراطور هاينريش السادس إلى «أبولين Apulien» الإيطالية. وما عثم الطبيب أن تناول موسى حادة شقّ بها بطن الأمير الصغير المسكين ببساطة، فنزع الشحم الزائد منه، وانتزع روحه معه كذلك. أجل لقد كان ما حدث طريقة أساسية «جذرية» في المعالجة تذكرنا بفن الطبابة الغربي في الأراضي المقدسة.

### وقصة يرويه الأمير أسامة

وهناك القصة التي سمعها الأمير أسامة بأذنيه من فم السيد «فيلهلم فون بورن Wilhelm Von Born»، في رحلته من عكا إلى بحيرة طبرية برفقة معين الدين حاكم دمشق وصديق الأمير أسامة بن منقذ؟ لقد قص فيلهلم على رفاق سفره الدهشين مايلي: «كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت. فجننا إلى قس كبير من قسوسنا وقلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم. ومشي معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطّ يده عليه عوفي. فلما رآه قال: أعطوني شمعاً. فأحضرنا له قليل شمع، فليّنه وعمله مثل عقد الإصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. فقلنا له: قد مات، قال: نعم، كان يتعذب، سددت أنفه حتى يموت ويستريح».

أيد توضع، وشيطان يطرد، وصلاة تقام... تلك الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول بها أطباء أوربة — عن طريق مسح الكهنوت والرهبان، إنقاذ الإنسانية المريضة وتخليصها من براثن الداء والألم.

### ضعاف العقول يودعون السجون — ويعذبون

كما أن المرضى الذين يعانون من ضعف في قواهم العقلية، كانوا يسلمون إلى ذوبهم ليحبسون عن الناس، أو يودعون السجن. وكانوا يحجزون أحياناً في سجون مظلمة، وقد كبلت أيديهم، وقيدت أرجلهم، أو يعزلون عن العالم الخارجي، بوصفهم في «المستشفى السجن» أو في «البيت العجيب» كما كانوا يسمون تلك البيوت آنذاك!

وكثيراً ما كان هؤلاء المرضى يهانون، ويعذبون حتى أن المحاكم لم تكن لتتورع عن المشاركة في الظلم، بل في الإثم. ففي عام ١٤٥١م. حكمت محكمة مدينة فرانكفورت

بألمانيا، على مجنون بالتعذيب، لأنه شتم الثالوث القدوس. وفي عام ١٤٩٠، حكمت على مجنون بالتعذيب أيضاً، لأنه جدف بالتعاليم الكنسية.

أما العرب، فكانوا في تلك الحقبة بالذات، يبنون المستشفيات (البيمارستانات)، الخاصة، ويجهزون العيادات لاستقبال أمثال هؤلاء المرضى، ومراقبتهم وإعطائهم العلاج. وفي اسبانيا وحدها، في عهد الوجود العربي فيها، كانت هنالك مستشفيات هؤلاء الأبرياء «Innocentes» كما كانوا يسمونهم.

### مرض تسلط الشيطان

والعجيب في الأمر، أن الاعتقاد بحلول «لعنة السماء» على المريض، أو بدخول الشيطان في نفسه، ذلك الاعتماد الخاطيء، الذي كان سائداً في القرون الوسطى، قرون الظلام، استمر في أوربة حتى فجر القرن التاسع عشر، قرن الشاعر الكبير غوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢)، وغيره من العظماء؛ إذ كان هنالك أناس يؤمنون بوجود مرض «تسلط الشيطان»، وآخرون يؤمنون بوجود «الأرواح الشريرة». حتى أن العالم «جوستينوس كيرز»، الألماني، وقف يوماً في جامعة ميونيخ، يحث أساتذة كلية الطب على شحذ الفكر للكتابة في «مرض تسلط الشيطان»، وفي «إثم المريض»، وفي «طرق الشفاء لطرد الشيطان بالقوة»! أو بالصلاة، والدعاء للقديسين!

### تزاوج بين الطب والدين

وهنا، نشأ نوع من التزاوج بين علم الطب وعلم الدين المسيحي، قدم له، عام ١٨٢٤، العالم «فيندشمان» في مدينة لايزغ بما يلي: «إن الأساس الحقيقي للمرض يقبع في النفس، التي غرها الطمع، وأفسدتها الشهوة، فأصبحت بلا وازع، ولا ضمير. وإن الطبيب الذي يجهل هذه الحقيقة، ويجهل طرق طرد الشيطان، وإخراج الأرواح الشريرة، يجهل أهم وسائل العلاج!!...»

في القرن الخامس للميلاد، قال القديس أوجستين؛ إن سبب كل أمراض المسيحيين، الشياطين الذين لا همّ لهم، في الأساس، إلا تعذيب الأطفال المعمدين حديثاً، نعم، وحتى الأطفال حديثي الولادة، الأبرياء!.

## أساليب الرهبان في المداواة

ولما ساد الاعتقاد بأن المرض من عمل الشيطان ! أخذ الرهبان في العناية بالمرضى ، ومداواتهم بالصلوات حيناً ، وباللمس بالأيدي ، حيناً آخر ، أو بعملية إخراج الشيطان ، أو بتكفيرهم ، وعرضهم أمام أثر مقدس باق ، لقديس أو شهيد . ومما لا ريب فيه أن هذه الأساليب كانت تلاقي نجاحاً في بعض الأحيان : ذلك لأن الأمراض ذات المنشأ النفسي ، أو الهستيرائي ، تستجيب للمداواة بالإيحاء ، وترسيخ الإيمان ؛ وأما الأمراض الأخرى ، فإنها إما أن تنتهي بالموت ، أو تشفى تلقائياً ، بمرور الزمن . وكان كل شفاء من أي داء ، يعزى إلى دور الكنيسة ، ومجدها ، واعتزازها .

## المداواة الدينية تجارة رابحة

وكان بعض الرهبان ، أكثر إقداماً ، فسعوا إلى المغامرة بعد أن تبين لهم ، أن المداواة الدينية تجارة رابحة ، فيها من الخير ، أكثر مما في المعالجة الدينية — فأخذ الأساقفة ، ورؤساء ورئيسات الأديرة ، يتعاطون مهنة الطب . وكان سلاحهم في ذلك : معرفة سطحية جداً ، بأعمال وآراء جالينوس في الطب ، واستعارة فلسفة دينية سرية ، لأخبار اليهود ، ولبعض مسيحيي العصر الوسيط ، وآراء مختلفة ، في الكيمياء ، للعلماء العرب والمسلمين . وكانوا أيضاً يعالجون المرضى باستعمال بعض التعاويذ ، والحجب ، والسحر .

## الابا يهدد الرهبان

لقد انتشرت هذه الأساليب انتشاراً واسعاً ، مما دفع البابا إينوسنت الثالث ، إلى أن يهدد رجال الكنيسة ، الذين يستمعون إلى المحاضرات الطبية بالحرمان من الكنيسة ؛ والقديس برنارد ، مؤسس الرهبنة المسيحية ، لم يكتف بمنع رهبانه من دراسة أو ممارسة الطب فحسب ، بل حرم عليهم تعاطي أي عقار لمداواة أمراضهم وآلامهم . وكانت وصيته تقول : « إن شراء العقاقير ، واستشارة الأطباء ، وتناول الأدوية كلها أمور تتعارض والدين ! » .

## إعلان تورز

وفي عام ١١٦٣ م ، صدر « إعلان تورز The Edict of Tours » ، الذي يقول : « إن الكنيسة تمقت بشدة ، وتشمئز من إراقة الدماء » ( وهذا ، بالطبع ، لا ينطبق على الحروب ) ، ويجعل من الجراحة ، وهي الطريق الأمثل لمعرفة الجسم البشري ، يجعل منها ممارسة مقبولة ومرفوضة .

### تحريم قطع الجسم البشري

وفي عام ١٣٠٠م أصدر البابا «بونيفاس السابع Boniface VII»، مرسوماً بابوياً، شل أكثر فأكثر، كل الأبحاث التشريحية، وينص على «أن كل من تجرأ على قطع الجسم البشري، أو غليه، يقع تحت طائلة الحرمان من الكنيسة». وحقيقة الأمر أن هذا المرسوم لم يكن موجهاً ضد علماء التشريح، أبداً، بل كان يقصد الصليبيين، الذين كانوا يقطعون جثث موتاهم قطعاً، ثم يغلقونها كي يحصلوا على هياكلها العظمية، فيسهل بذلك نقل رفاتهما إلى بلادهم، لتدفن في مقابر العائلة، مع هياكل الأجداد. إلا أن هذا المرسوم طبّق، كحرمان، على كل أنواع التشريح، والفحص عقب الموت.

### تحريم الكتب الطبية المصورة

كما أن الكتب المصورة، والمزدانة برسوم بيانية تشير إلى الصلة الخاصة، بين أعضاء الجسم البشري المختلفة، وبين إشارات دائرة البروج؛ هذه الكتب، ينبغي أن تطهر من دنس هذه الرسوم الوثنية. ولقد استبدلت إشارات دائرة البروج، بأسماء قديسين: فالقديس برنارد، يماثل الرثتين، والقديسة أبولونيا، تماثل الأسنان، والقديس لورنس، يماثل الظهر؛ والقديسة أغاتا، تماثل الصدر؛ والقديس أراسموس يماثل البطن؛ والقديس جوست، الرأس. كما أن الأمراض، أيضاً، وضعت تحت سلطان القديسين: فالمرقصُ «Chorea»، ما زال يدعى حتى اليوم، «رقص القديس فيتوس St. Vitus Dance»؛ والتسمم الأرغوتي، فهو: «نار القديس أنتوني St. Antony Fire»؛ وأما الصرع فهو من نصيب القديس «فالتاين St. Valentine».

### قناديل تضيء عوالم الظلام

وهكذا نرى، أن العصر في الغرب، كان عصر ظلام: هذا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية المعرفة، والطب.

وأما في الشرق: فلقد كان العصر، عصر «سوسروتا» و «فاكباتا» (جاء ذكر ذلك مفصلاً في بحث الطب الهندي)، إذ حقق الهندوس تقدماً في الجراحة وفي الطب الباطني. وكتب الصينيون المجلدات الضخمة في طبهم التقليدي، الطب الصيني. ونشر «كيه هونج Keh Hung» (٢٨١ — ٣٦٠م)، في عهد أسرة «تسن Tsin» كتاباً في «الحالات

الطارئة». أما أسرة «تانج» (Tang) (٦١٨ — ٩٠٦ م)، فلقد رعت دوائر المعارف العظيمة. (جاء ذكر ذلك مفصلاً في بحث الطب الصيني)؛ وفي عهد أسرة «سونج» (Song)، نشرت الكتب المصنوعة من الورق، نشرت المعرفة في حقل بعض الأمراض الخاصة.

أما الطب العربي، فلقد كانت هنالك، أدمغة منفتحة ومتطورة، في مضماره؛ وقامت مؤسسات كان يعمل فيها علماء متميزون، قدموا للإنسانية عامة، ولأوربة خاصة، معارف مبتكرة وتحقيقات رائعة، بشكل لم يكن يحلم به أكبر مؤلفيها طموحاً، وأكثرهم تطلعاً.

وكانت كتبهم التي كتبت بادئ ذي بدء، للأطباء الحديثي العهد بفن الطب، في بغداد وقرطبة قد صنعت التاريخ، حين أمدت أجيالاً، من أطباء أوربة بمعارفها الغنية والمتطورة.

### العرب أدخلوا النور على تراث القدماء

يقول مؤرخ الطب «نوبرجر Neuburger»: «إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء الذي طالما اكتنفه الغموض ونقصه التسلسل. ومكان النقل الآلي للفقرات وتجميع المعلومات واضطراب المخطوطات الكثيرة لدى البيزنطيين، مكان كل هذا، صنّف العرب كتباً مختصرة جامعة عظيمة التماسك صبو فيها كل المواد الدراسية الخاصة، وعرفوا كيف يقدمون العلوم في أشكال سهلة، وصاغوا في لغتهم الحية التي لم تمت فيها كلمة، تعابير علمية مثالية.

لقد كانت هنالك بضع ومضات من التقدم، تضيء أيضاً في الغرب: مثل تأسيس كلية ساليرنو في إيطاليا، ساليرنو التي كانت في القرن الرابع منتجاً صحياً، ومكاناً هادئاً، اختير ليكون موقعاً لأول مدرسة طبية في العالم المسيحي. ولم يكن للكنيسة دور في تأسيسها. ويقال إن الذين أسسوا هذه الكلية أربعة أساتذة: بونتوس اليوناني و«أداله Adale» (عبد الله؟) العربي، وسالرنوس اللاتيني، وإيلينوس اليهودي.

كان الموقع قريباً من دير «مونتي كاسينو Monte Cassino»، الذي أسسه القديس بينيديكت Benedict، عام ٥٢٩ م. وقد قامت علاقة صداقة طبية بين الدير، ومدرسة الطب. وكانت هذه المدرسة، بحد ذاتها، مدرسة علمانية، متحررة، فتحت أبوابها للطلاب من مختلف اللغات والجنسيات. وقد علّم فيها أطباء عرب، وأطباء إغريق، وأطباء يهود؛ وقبلت النساء، كعضوات في هيئتها التدريسية.

وفي الحروب الصليبية استخدمت مونتي كاسينو، كمشفى قاعدة، يستقبل الجرحى والمرضى الصليبيين، الآتين من الأراضي المقدسة. ولما استولى النورمان على جزيرة صقلية، شجعوا تبادل العلم والمعرفة. وفي عام ١١٤٠م، أنشأ روجر الثاني، حاكم صقلية، أول شهادة في الطب، بإصداره الأمر التالي: «على كل من يرغب في ممارسة مهنة الطب، أن يتقدم إلى موظفينا الرسميين، وقضائنا ليمتحنوه». ولقد هدد بتطبيق العقوبات الشديدة، بحق الدجالين الذين يمارسون المهنة، دون أن يكونوا من المؤهلين.

### قانون ساليرنو لأخلاقيات الطب

كما وضعت ساليرنو قانوناً لأخلاقيات المهنة، وسلوكياتها. مثل: «لا تنظر بشهوة إلى زوجة الرجل، أو إلى ابنته، أو إلى خادمتها، لأن ذلك يعمي بصر الطبيب عن الرؤية الصحيحة، ويجرده من العون الإلهي، كما أن ذلك يشوش فكر المريض». ومثل آخر «تذكر، عندما تحبس نبض المريض، بأنه قد يكون متأثراً، ومنفعلاً، لمجرد وصولك لفحصه، أو أنه قد يكون بخيلاً يفكر بقلق في الأجر الذي عليه أن يدفعه لك!». .

كان لساليرنو تأثير صحي، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وأنه على الرغم من أن تفوقها قد كان فيما بعد، موضع شك من قبل مدارس مونبيلييه، وبولونيا، وباريس، وبادو، فإنها بقيت مركزاً لتعليم الطب، إلى أن أتى نابليون، فأغلقها.

كانت المدينة السائدة في أوربة، في تلك العصور المظلمة، مدنية تفتقر إلى الكفاءات وإلى القدرة على الصمود أمام الرعب الذي أثاره في القلوب، الموت الأسود. ولم يستطع أطباء ذلك الزمان، أن يفعلوا شيئاً يواجهون به مرض الطاعون. وأما الناس، الذين نشأوا على الإيمان بالخرافات، فإنهم غرقوا في عملية إحراق المصابين، الذين تخلى عنهم الله، وجميع قديسيه!

وهكذا نرى تظاهرات غريبة وبشعة، ومضحكة حيناً ورهيبة ومروعة حيناً آخر، ابتدعتها هيستيريا جماعية مثل: الرقص الجنوني، والضرب بالسياط...

### الرقص الجنوني

وكانت أعنف «رقصة جنون»، تلك التي اندلعت، أول ما اندلعت في «إيكس لاشابيل Aix — La — Chapelle»، «مدينة آخن Aachen بألمانيا»، بعد عودة وباء «الموت الأسود». ثم انتشرت في هولندا، وغربي ألمانيا، إذ أخذ الرجال والنساء، والأطفال، يفقدون

- المرض والشياطين والقوى الخارقة للطبيعة

كل سيطرة على أنفسهم، فيمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويرقصون في الشوارع، رقصاً جنونياً ويستمرّون في الرقص هذا، ساعات وساعات، حتى يقعوا أرضاً، وهم يصرخون، ويتخيلون، ويشوهون ويجذعون، بعضهم البعض. وكانت عدوى الهستيريا هذه تسري بين الناس، حتى أن المتفرجين، كانوا، هم أيضاً، يفقدون السيطرة على عقولهم، وعواطفهم، فينضمّون إلى الراقصين.

### الضاريون بالسياط

أما الضاريون بالسياط، فهم طائفة دينية، نشأت في أواخر القرن الثالث عشر. ولقد شكلوا أحوّة غريبة إذ كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد، وهم يضربون بعضهم البعض بالسياط، حتى تسيل الدماء من ظهورهم العارية. وعند عودة «الموت الأسود»، التحق العامة من الناس، بهذه الطائفة، ليضربوا بالسياط، بشكل جنوني، لإخراج شياطين الداء، الذي لم يستطع طبهم الخرافي أن يجد له الدواء.

إنها قصة كئيبة ومحزنة، يحسن بنا أن نهرب منها لنُنْقِلَ إلى «عصر النور»، عصر الشعلة التي حملها العرب إلى الغرب فأضاءت عالمه الذي كان يعيش في الظلام.





## الفصل التاسع



٣ - الطب الأوروبي في العصور الوسطى (عصور الظلام)

- الموت الأسود ( ١٣٥٠ م ) ، وضحاياه .
- الشاعر الإنكليزي تشوسر ( ١٣٤٠ — ١٤٠٠ م ) . والحج إلى كنتربري .
- حال الطب في العصور الوسطى .
- قصيدة تشوسر الشهيرة ، وأهميتها التاريخية .
- الأطباء العرب والمسلمون ، السبعة ، الذين ذكرهم تشوسر .
- انتشار كتب اليونان في العالمين العربي والإسلامي .
- بدء انتشار الجامعات في أوربة .
- أهم كليات الطب وأشهرها .

### ٣ - إطبّ الأوربي في لعصور الوسطى (عصور الظلام)

طاعون ١٣٥٠م والحج إلى كنتبري

في أحد أيام نيسان، من عام ١٣٨٥م، جمع الشاعر الإنكليزي «جوفري تشوسر» Geoffrey Chaucer<sup>(١)</sup> حجاجه في حانة «ثابارد»، في «ساوثورك»، الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر (ال Thames)، وكان عددهم ثلاثين حاجاً، بمن فيهم تشوسر نفسه، وكانوا يستعدون للتوجه إلى (كنتبري Canterbury).

ولقد أصبح هذا التمثط من الحج، تقليداً يتبعه الإنكليز، منذ أن أصيبت إنكلترة بداء «الموت الأسود»، أي الطاعون، عام ١٣٥٠م، حين أخذ الناجون منه يحجون كل عام إلى «كنتبري»، لزيارة ضريح القديس «توماس»، وتقديم الشكر له، لأنه أنقذهم من ذلك الداء الويل.

#### أتى من آسية

وكما كانت الحال، في أمر «الطاعون الأكبر»، الذي قوض، في عهد جالينوس، صرح الامبراطورية الرومانية، فإن «الموت الأسود»، الذي اجتاح إنكلترة يومئذ، أتى هو الآخر، من آسية، فلقد نقلته إلى مرفأ «مسينا Messina» الإيطالي عام ١٣٤٧م، سفينة إيطالية جنوبية، آتية من الشرق الأدنى، ففر الناس من هول هذا الداء، حاملينه معهم، فانتشر أول ما انتشر، في كافة أرجاء صقلية، ثم في (توسكانا)، ومنها امتد إلى كافة أنحاء أوربة، حتى أن (غرينلاند) لم تنج منه. وكان «أريك الأحمر Eric The Red» أول من هاجر من إيسلندة إلى غرينلاند في القرن العاشر. وظل الاتصال السكاني قائماً بين الجانبين، إلا

(١) «جوفري تشوسر»: شاعر إنكليزي ولد في لندن (١٣٤٠ - ١٤٠٠م)، مؤلف «أقاصيص كنتبري»، ترجم «قصة الوردة»، وقلد الشعراء الإيطاليين. أسهمت أعماله، في ترسيخ دعائم النحو واللغة الإنكليزيين، ويعتبره الإنكليز أباً للشعر الإنكليزي. ويشبه إلى حد ما امرؤ القيس في أدبنا العربي.

أنه كان اتصالاً مميّناً . فلقد هزم الوباء جميع سكان (إيسلندة) ، وتغير بذلك وجه التاريخ ، ذلك لأن سكان (غرينلاند) ، وهم قدماء السكاندنافيين ، كانوا ، كما نعلم اليوم ، يعرفون شاطئ القارة الأمريكية ، ويعرفون الطريق المؤدية إليه ، قبل كريستوفر كولومبس ، بمائة وخمسين عاماً . وعندما جاء الطاعون الأسود ، قطع هذا الجسر ، بين العالم القديم ، والعالم الجديد .

### ضحاياه نصف سكان أوربة

أما الدمار الذي خلفه « الموت الأسود » وراءه ، فلقد كان مرعباً ومريعاً ! وتقدر بعض الدراسات ، عدد الضحايا الذين قضوا نحبهم به ، بين عام ١٣٤٨ وعام ١٣٥٩ ، بنصف سكان أوربة . ويقدر الطبيب والمؤرخ الفرنسي « جي دو شوليك Guy de Chauliac » عدد ضحايا الوباء هذا ، في فرنسا ، بثلاثة أرباع سكانها . ولقد قيل إن عدد الذين نجوا منه ، في لندن ، لا يزيد على شخص واحد ، من كل عشرة أشخاص ! وفي كتابه « Decameron » ، عن الهارين من الوباء ، يقول المؤرخ الإيطالي « بوكاسيو » ، أن ١٠٠.٠٠٠ شخص ، قضوا نحبهم بهذا الداء ، من أصل ١٣٠.٠٠٠ نسمة ، من سكان فلورنسا . ولم يكن أطباء ذلك العهد ، ولا الذين كانوا يدعون أنهم أطباء ، قادرين على عمل شيء يحول دون انتشار الوباء .

### طب العصور الوسطى

#### تطبيق العلاج عند ظهور النجم الملائم

ولكن هذا ليس صحيحاً ، تماماً ، ذلك لأنهم استطاعوا جمع المال الوفير ، كما فعل « الطبيب » ، الذي ذكره « تشوسر » في قصيدة له ، « والذي كسب ماله ، من وباء الطاعون » . لقد كان وصف الشاعر « تشوسر » لهذا الطبيب المحترم ، صورة أدبية مصغرة ، توضح لنا الحال التي كان عليها الطب في العصور الوسطى . يقول تشوسر : « لقد كان طبيبنا » تحفة زمانه « لأنه كان ، إلى جانب معرفته بالطب والجراحة ، ضليعاً في « علم الفلك Astronomy » ، ويريد بذلك ، « علم التنجيم Astrology » ، ولقد قيل لنا أنه كان يسهر على صحة مريضه ، بكل عناية ، في أوقات اقتران الكواكب في بروجها ، وذلك لتطبيق العلاج في اللحظة المناسبة . وكان يرقب ظهور النجم الملائم ، أو صدور إشارة من البروج تحمل الحظ لمريضه . وكان يعرف سبب كل مرض ، سواء أكان هذا المرض حاراً أم بارداً ، رطباً أم جافاً ، وكان يعرف متى يظهر الداء ، ومن أي خلط من الأخلاط يأتي .

- الطب الأوربي في العصور الوسطى (عصور الظلام)

وهكذا، نجد هنا الطبيب الذي يصف العلاج، بحسب المعتقد الخرافي لأسباب المرض: فالمرض مرتبط بالأخلاق وخاضع لها، أو متصل بطبيعة المريض ومزاجه. ومريض هذا الطبيب، مركب من عناصر أربعة:

- ١ - الدم (النار).
- ٢ - البلغم (التراب).
- ٣ - الصفراء الصفراء (الهواء).
- ٤ - الصفراء السوداء (الماء).

### طبيعة ومزاج المريض

ويعتقد طبيبنا أن يعرف، بنظرة واحدة، طبيعة ومزاج مريضه: فالدموي، يميل إلى السمنة، وينزع للضحك، ولديه من الدم الحار والرطب، أكثر من حاجته. والبلغمي، يكون قصير القامة بدين البنية، بطيء الحركة، وكسولاً، وذلك لأن لديه من البلغم البارد، ما يزيد عن حاجته. والصفراوي، غضوب، سريع الانفعال لأتفه الأسباب، لديه فرط في الصفراء الصفراء، الحارة. والسوداوي، كئيب، لديه الكثير من الصفراء السوداء، الجافة والباردة. وهو نكد، وعنيد، ومتذمر، ويميل إلى العزلة والتفكير.

ولقد بقيت هذه النظرية، نظرية أخلاط البدن وسوائله، سائدة ومهيمنة على الفكر الطبي، كما سبق لنا أن ذكرنا، حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين نشر العالم «فيرشوف Virchow» دراسته حول باثولوجيا الخلية، وفيها يبين، كيف أن الخلايا، يتحد بعضها ببعض، لتشكل أنسجة البدن، وكيف أنها في بعض مراحل اتحادها، تولد عناصر كيميائية، تؤثر في أمزجتنا.

### قصيدة تشوسر الشهيرة

في قصيدته الشهيرة، التي نشرها في كتابه: «أقاصيص كنتري» ، يصف تشوسر، كل حاج من الحجاج، الذين كانوا يؤمنون مقاطعة (كنتري)، لزيارة ضريح القديس «توماس» فيها. وكان على كل زائر لهذا الضريح، أن يقص على الناس، قصتين من أحداث مرت به في حياته. وهنا يروي الحاج الشاعر «تشوسر» قصته، المستقاة من قراءته لكتاب «الوردة الإنكليزية Rosa Anglica» لمؤلفه «جون أوف غادسدن John of Gaddesden»، المعاصر «لتشوسر»، فيصف «الدكتور في الطب Doctour Of Phisik»، العالم الواسع

الاطلاع ، والقادر على عمل كل شيء ، فيقول :  
 « كان بصحبتنا رجل عارف بالطب ،  
 ولم يكن له ، في العالم كله ، من مثيل ، ولا من ند في الحكمة ( الطب ) ، والجراحة ؛  
 ولأنه كان ضليعاً بعلم الفلك ( ويريد القول : بعلم التنجيم ) ،  
 فلقد كان يلازم مريضه ، ملازمة تامة الساعات الطوال ، ليطبق عليه سحره الطبيعي ،  
 كان ناجحاً في الهيمنة بصوره ، على مريضه .  
 وكان يعرف أسباب كل الأدواء ، سواء أتت من الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو  
 الجفاف ،

وكان يعلم من أين تنشأ ، وفي أي خلط تتكون ،

ويتابع تشوشر قصته فيقول :

وكان الرجل مطلعاً اطلاعاً حسناً على أعمال اسكلابيوس ،

وديسكوريدس ، وروفوس ،

والشيخ أبقرات ، وعلي ، وجالينوس ،

وسيرايون ، والرازي ، وابن سينا ،

وابن رشد ، والدمشقي ، وقسطنطين ،

وبرنار ، وغادسدن ، وجيلبرت « .

وهذا نص القصيدة بالإنكليزية القديمة :

Withe us ther was a Doctour of Phisik

In all this world ne was ther noon hym lik

To speke of phisik and of surgerye;

For he was grounded in astronomye.

He kepte his pacient a ful greet deel

In houres by his magyk natureel;

Wel koude he fortunen the ascendent

of his ymages for his pacient.

He knew the cause of everich maladye,

Were it of hoot, or cold, or moyste or drye,

- الطب الأوربي في العصور الوسطى (عصور الظلام)

And where they engendred and of what humour.

Wel knew he the olde Esculapius

And Deyscorides and eek Rufus,

Olde Ypocras, Haly and Galyen,

Serapion, Raziz and Avycen,

Avverois, Damascien and Constantyn,

Bernard and Gatesden and Gilbertyn.

Chaucer: Prologue, Canterbury Tales

### الأهمية التاريخية لهذه القصيدة

وإنه بالنظر للأهمية التاريخية لهذه القصيدة، التي يعدد فيها تشوسر، مشاهير أطباء وفلاسفة ذلك الزمان، ونصفهم من العرب والمسلمين، نرى من المفيد سرد بعض وقائع ذلك العصر، التي سوف تساعدنا في فهم ما جاء في تلك القصيدة، ومدلولاتها:

في القرن السابع الميلادي، ارتفعت راية العرب المسلمين، وعمت بلاد الشرق الأوسط. وفي تلك الحقبة، انتقلت كنوز العلوم الطبية اليونانية إلى أيدي النساطرة المسيحيين، الذين كانوا يتكلمون اللغة السريانية. وعندما اتهمهم البيزنطيون بالهرطقة، وأجلوهم عن بلادهم، قدموا إلى الأصفق التي فتحها العرب المسلمون، واستقروا فيها، وأخذوا يعملون في مجالات العلوم المختلفة، بالتأليف، والترجمة، والتعليم.

وفي القرن التاسع الميلادي، في عصر الدولة العباسية، اتسعت رقعة الامبراطورية العربية، واتخذ الخلفاء بغداد عاصمة للخلافة، ووجدوا أن الحاجة ماسة لترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة السريانية، ومن ثم إلى اللغة العربية، فانتشرت بذلك كتب اليونان في العالم العربي والإسلامي، ومن ثم انتقلت إلى الغرب المسيحي عبر اسبانيا.

وكان العرب، في بادئ الأمر، يعتمدون على ما اقتبسوه من علوم اليونان والهند وبلاد الشرق الأخرى، ولكنهم كانوا أكثر اعتماداً من غيرهم على التجارب، والاختبار. واستعملوا العقاقير والنباتات ثم أخذوا في تأليف الكتب الطبية. ولم تلبث هذه الكتب أن أصبحت المصدر المعتمد في تدريس ودراسة الطب في الجامعات الأوربية. وبقي ذلك سائداً حتى نهاية العصور الوسطى وبدء عصر النهضة.



**وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي**، بدأ تسرب المعارف الطبية العربية، ومناهجها، إلى الغرب مع قسطنطين الإفريقي. وكانت مواضع الاتصال في اسبانيا، وصقلية، وجنوب إيطاليا، وفي سورية زمن الحروب الصليبية. ولقد أخذ تسرب المعارف هذه، في التسارع في القرون اللاحقة. واستمر تأثير الثقافة العربية، على الرغم من تلاشيه في عصر النهضة، يمارس في ميدان الطب، لأن كثيراً من الجامعات كانت لاتزال تحتفظ «بالحاوي» للرازي، و«بالقانون» لابن سينا، على أنهما كتابان أساسيان في تعليم الطب.

**وفي القرن الثاني عشر الميلادي**، أخذت الجامعات تنتشر في أوربة، وكانت كليات الطب أهم فروع تلك الجامعات، التي اشتهرت منها اثنتان:

الأولى، جامعة بولونيا بإيطاليا، وأنشئت فيها كلية للطب حوالي العام ١١٥٠ م. والثانية، جامعة مونبيلييه في فرنسا، وأنشئت فيها كلية الطب، في القرن الثاني عشر ميلادي، وما زالت هذه الكلية، حتى يومنا هذا، أحد المراكز الهامة لدراسة الطب في العالم. ولقد اشتهر من طلاب كلية الطب هذه، ثلاثة من نوابغ أطباء أوربة، في ذلك الزمان:

**الأول، بطرس الاسباني Petrus Hispanus**، الذي أصبح فيما بعد، البابا يوحنا الحادي والعشرين، وكان قبل ذلك طبيباً لسلفه، البابا غريغوري العاشر.

**الثاني، غي دو شولياك Guy de Chauliac**، الفرنسي، ويعتبر من أكبر جراح أوربة في أواخر العصور الوسطى، وأول عصر النهضة. مارس دو شولياك الطب في مدينة ليون، ثم عمل في أفينيون، حيث التحق بالبلاط البابوي، وكان الطبيب الخاص لثلاثة من الباباوات. وفي أفينيون، ألف عام ١٣٤٣ م. كتابه الشهير في «التشريح الكبير»، الذي بقي يدرس في كليات الطب في أوربة حتى مطلع القرن السادس عشر.

**وأما الطبيب الثالث، وهو ما يهمننا أمره هنا، فهو «جون أوف غادسدن John of Gaddesden»**، (١٢٨٠ — ١٣٦١)، وكان من أشهر طلاب كلية طب مونبيلييه في تلك العصور. تخرج من الكلية، ثم درس الطب في كلية «ميرتون Merton»، في جامعة أوكسفورد، وأصبح فيما بعد واحداً من أشهر أطباء إنكلترا، والطبيب الخاص للملك إدوارد الثاني.

ألف غادسدن كتاباً في الطب سماه «الوردة الإنكليزية Rosa Anglica»، وقال عنه: «كما أن الوردة تمتاز على بقية الأزهار، كذلك كتابي هذا يمتاز على سواه من الكتب».

- الطب الأوربي في العصور الوسطى (عصور الظلام)

ولقد ساعد كتاب «الوردة الإنكليزية»، والذي كان يضم بين صفحاته، الكثير من المعلومات الطبية المستقاة من المصادر اليونانية والعربية، ساعد كثيراً في انتشار الطب العربي في إنكلترة، في ذلك الزمان. وغادسدن هذا، الذي ورد اسمه بين أسماء مشاهير الأطباء — الفلاسفة، في قصيدة الشاعر تشوسر، هو خير مثال على الطبيب الخاذق والمطلع على آثار العرب الطبية.



## الفصل العاشر



الأطباء العرب الذين اشتهروا في أوربة، في  
القرون الوسطى

- دسكوريدس (من الأطباء اليونان) .
- روفوس (من الأطباء اليونان) .
- علي بن العباس ، المجوسي .
- سيرابيون الابن .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي .
- الشيخ الرئيس ابن سينا .
- القاضي ابن رشد .
- الحكم الدمشقي .
- قسطنطين الإفريقي .
- برنار الاسكتلندي (من الأطباء الأوربيين) .
- جون أوف غادسدن (من الأطباء الأوربيين) .
- جيلبيرت الإنكليزي (من الأطباء الأوربيين) .

# الأطباء العرب

## الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

لقد نشر تشوسر ، في مقدمة كتابه : « أقاصيص كنتبري » ، القصيدة التي قرأناها ، والتي أورد فيها أسماء مشاهير الأطباء والفلاسفة الذين عرفهم الأوربيون في العصور الوسطى ، ونصف هؤلاء الأطباء والفلاسفة ، كما قلنا ، من العرب والمسلمين .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن اسكولاييوس ، وأبقراط ، في بحثنا للطب الإغريقي ، وتحدثنا عن جالينوس ، في بحثنا للطب الروماني ، وأما غادسدن ، فلقد جئنا على ذكره قبل قليل .

فمن هم هؤلاء الأطباء والفلاسفة الآخرون ؟

### ديسكوريدس Discorides

طبيب يوناني مشهور ، نبغ في القرن الثاني للميلاد ، ولد في عين زربة ، في بلاد الأناضول ، في الشمال السوري ، بالقرب من مدينة أضنة ( في تركيا اليوم ) ، وكان من أشهر الأطباء في العالم القديم . وكان لمؤلفه في « الأدوية والعقاقير الطبية » ، أو المادة الطبية « Materia Medica » ، ( الأقربازين ) ، « Pharmacopoeia » ، أكبر الأثر في علم الصيدلة .

كان ديسكوريدس طبيباً جراحاً في الجيش الروماني ، خدم بلاده تحت إمرة الإمبراطور نيرون ؛ وكتابه « المادة الطبية » ، ضخمة ورائع ، ويزيده بهاء أنه مزين بالصور والرسوم الكثيرة ، للنباتات وغيرها ، ويبحث في الأدوية المفردة والعقاقير ، والأعشاب الطبية .

يقول حنين بن اسحق : « إن ديسكوريدس كان اسمه عند قومه « أزدشنياديش » ، ومعناه بلغتهم : الخارج عنا ، وذلك لأنه كان معتزلاً عن قومه متعلقاً بالجبال وبمواضع النبات ، مقيماً بها في كل الأزمنة ، لا يدخل إلى قومه في طاعة ولا مشورة ولا حكم . لذلك سماه قومه

بهذا الاسم. ومعنى ديسكوري باليونانية: أشجار، ومعنى دوس، الله، ومعنى ديسكوريدس: ملهمه الله للشجر والحشائش.

ومما يؤيد أن ديسكوريدس كان متنقلاً في البلدان لمعرفة الحشائش والنظر إليها في منابها، قوله في صدر كتابه يخاطب الذي ألف الكتاب له: «وأما نحن فإنه كانت لنا، كما علمت، في الصغر شهوة لا تقدر في معرفة هيولى العلاج، وتجولنا في ذلك بلداناً كثيرة، وكان دهرنا، كما قد علمت، دهر من ليس له مقام في موضع واحد».

وكتاب ديسكوريدس هذا، خمس مقالات، هذا ذكر أغراضها:

المقالة الأولى، وفيها ذكر أدوية عطرة الرائحة وأفاويه وأدهان وصبوغ وأشجار كبار. المقالة الثانية، وفيها ذكر الحيوانات ورطوبات الحيوان والحبوب والقطاني والبقول المأكولة والبقول الحريفة وأدوية حريفة.

المقالة الثالثة، وفيها ذكر أصول النبات وعلى نبات شوكي وعلى بذور وصبوغ وعلى حشائش باهرية.

المقالة الرابعة، وفيها ذكر أدوية أكثرها حشائش باردة، وعلى حشائش حارة مسهلة ومقيئة، وعلى حشائش نافعة من المسموم.

المقالة الخامسة، وفيها ذكر الكرم، وأنواع الأشربة، والأدوية المعدنية.

ويقول جالينوس عن هذا الكتاب: «إني تصفحت أربعة عشر مصحفاً في الأدوية المفردة لأقوام شتى، فما رأيت فيها أتم من كتاب ديسكوريدس الذي هو من أهل عين زربة».

ولقد كان اهتمام العرب بكتاب ديسكوريدس، هذا، أكبر منه بأي كتاب من كتب النباتات اليونانية. عكفوا على دراسته وتمحيصه، فصدرت له ترجمات أشهرها اثنتان: الأولى في بغداد، والثانية في قرطبة.

يقول ابن جلجل في كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسكوريدس»، إن كتاب ديسكوريدس ترجم بمدينة السلام، في الدولة العباسية، في أيام جعفر المتوكل. قام بترجمته من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، اصططن بن باسيل، الترجمان. وتصفح الترجمة حنين بن اسحق العبادي المترجم، فصححها وأجازها، وكان ذلك في أواسط القرن التاسع ميلادي.

ويقول ابن جلجل: «إن كتاب ديسكوريدس ورد من بغداد إلى الأندلس، وهو على ترجمة اصططن، فانتفع الناس بالمعروف منه، حتى أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث، الناصر،

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

صاحب الأندلس . وكان قسطنطين السابع ، (أرمانوس) ، امبراطور بيزنطة (٩٠٥ — ٩٥٥م) قد هاداً الخليفة الناصر بهدايا لها قدر عظيم ، وكان من جملة هداياه كتاب ديسكوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب . وكان مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني القديم . ولم يكن يومئذٍ بقرطبة ، من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي القديم . فبقي الكتاب في خزنة الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ولم يترجم إلى اللسان العربي .

ولقد سأل الخليفة الناصر ، الامبراطور أرمانوس ، أن يعث إليه برجل يتكلم الإغريقية واللاتينية ، فعث إليه براهب كان يسمى نيقولا ، والذي وصل إلى قرطبة سنة ٩٥١م ، وكان في ذلك الوقت ، بقرطبة ، من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء العقاقير الواردة في الكتاب أو تعيين تركيبها ، حسداي بن بشروط الإسرائيلي ، وزير الخليفة ، وطبيبه ، وكان ذلك في أواسط القرن العاشر ، وبمساعدة الراهب نيقولا ، تمت ترجمة كتاب ديسكوريدس ، ثم أصلح هذه الترجمة وعلق عليها ، الطبيب والعالم القرطبي المعروف : حسان بن جليجل .

### روفوس Rufus

« روفوس Rufus » صاحب اللحية الحمراء ، من أهل مدينة « أفسس Ephesus » .

كان يعرف بصاحب اللحية الحمراء ، وهو من مدينة أفسس ، عاش في عهد امبراطور الرومان « تراجان Trajan » ، الذي ولد في مدينة إيتاليكا عام ٥٣م ، وبقي امبراطوراً من عام ٩٨ وحتى عام ١١٧م ، عام وفاته . ولقد أسهم روفوس إسهاماً كبيراً في علم الطب ، إذ قام بدراسة العين ، فوصف الجسم البلوري ( عدسة العين ) ، كما درس أغشية العين ، ومركز تجويفها ، وقام بمراقبة النبض ، ودقات القلب ، مراقبة دقيقة . ودرس أمراض الجلد ، ثم كتب رسالة في الطاعون الدبلي . وكانت وصفاته الطبية معقولة ، ومداخلاته الجراحية ناجحة . عرف كيف يرقئ نزع الدم ، وذلك بتقليص الشرايين ، وربط الأوعية الدموية ، وبالكفي ، وباستعمال المواد القابضة ( كتلك التي يستعملها الحلاقون في إيقاف نزف جرح الوجه بالموس ) .

ولروفوس كتاب قيم ، ورد ذكره في كتاب : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ، الذي يقول : « قال جالينوس ... في كتابه « في نفي الغم » ، أنه احترق له في الخزائن العظمى التي كانت للامبراطور بمدينة رومية ، كتب كثيرة ... » .



وقال المبشر بن فاتك: «إن من جملة ما احترق لجالينوس في هذا الحريق كتاب لـ «روفوس» في الترياقات والسموم، وعلاج المسمومين، وتركيب الأدوية بحسب العلة والزمان، وإن من عزته عنده، كتبه في ديباج أبيض، بقز أسود، وأنفق عليه جملة كثيرة». ولروفوس أيضاً رسالة كتبها في وصف «النقرس»، أو داء الملوك، ترجمت إلى اللاتينية، في القرن السادس عشر. وأغلب الظن، أن «الدكتور في الطب» الذي ذكره الشاعر تشوسر في قصيدته الشهيرة، والذي كان مجدداً في طبه، وفي معرفته، أغلب الظن أنه عرف روفوس، من خلال قراءته لرسالته في «النقرس» هذه.

### علي بن العباس، المجوسي

كان علي بن العباس، الذي توفي عام ٩٩٤ م. مجوسياً فارسياً، قرأ مخطوطات قدامى الأطباء، كما قرأ كتب معاصريه. وقال إنه لم يجد بينها كتاباً واحداً كاملاً يحتوي كل ما هو ضروري لتعلم فن الطب: فأبقرط، يكتب بإيجاز، وأكثر تعابيره غامضة تحتاج إلى تعليق...

وجالينوس، وضع كتباً لا تحتوي إلا قسماً من فن الشفاء... ثم يذكر الرازي، ويقول «إن كتاب «المنصوري»، لا يدع حاجة إلا وتكلم عنها، ولكن «الحاوي»، كامل كما ينبغي أن يكون الكتاب، فكل الكتب «موجودة في الحاوي»، ويكاد أن يكون مثالياً، لولا أن محتوياته مرتبة ترتيباً يفتقر إلى الترابط. ومن المرجح أن الرازي كتب هذه الملاحظات كي تساعده في وضع كتاب كامل ومثالي، واضح التقسيم والمنهج، إلا أن الموت عاجله، وحال بينه، وبين تحقيق ذلك».

ولكن كل ماتمناه الرازي، وحال المرض، و«الساد» الذي أصيب به فأضعف بصره، دون إخراجهم إلى حيز الوجود. حققه علي بن العباس، في أكمل صورة، في كتابه: «الملكي»، وهو تحفة علمية رائعة جمعت بين عمق كتاب «الحاوي» وتماسك كتاب «المنصوري». ولقد رفع علي بن العباس «كتابه الملكي The Royal Book» إلى السلطان عضد الدولة، مؤسس المستشفى الكبير في بغداد. وكتابه «كامل الصناعة في الطب»، هذا، والذي اشتهر باسم الكتاب الملكي أصبح، وكأنه كتاب مقدس، عند الأطباء العرب، والأطباء المسلمين. وترجمه اصطفن الأنطاكي، من العربية إلى اللاتينية عام ١٢٧١ م، وأما القسم الذي له علاقة بالجراحة، فقد ترجمه في القرن الحادي عشر قسطنطين الإفريقي،

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوروبا في القرون الوسطى .

وأصبح يدرس في كلية طب ساليرنو Salerno بإيطاليا ، وهو يعطي وصفاً دقيقاً لمرض الجذري ، ولداء « النار الفارسية » ، (أي الجمرة الخبيثة) ، كما وصف تشريح الجسم ، وصفاً بسيطاً ، وغير متقن .

ولقد عرّف ابن العباس ، في كتابه « كامل الصناعة » هذا ، الاتصال الكائن بين الأوعية الشعرية الوريدية ، والأوعية الشعرية الشريانية ، إذ قال : « هناك في الأوعية غير النابضة « الأوردة » فتحات صغيرة للاتصال بالأوعية النابضة « الشرايين » ، وللههان على هذا الاتصال ، نجد أن قطع شريان يخرج الدم كله حتى الذي في الأوردة » .

وابن العباس أول من قال أن انقباض الرحم هو سبب الطلق وخروج الجنين . خلاف ما سطره أطباء اليونان في كتبهم في هذا الخصوص من أن خروج الجنين من رحم أمه يتم بحركة ذاتية في الجنين ذاته .

وكان علي بن العباس ، شأنه في ذلك شأن أطباء العرب ، في القرون الوسطى ، يؤمن بأهمية المحافظة على الصحة ، واتقاء المرض . ولقد قال : « إن المحافظة على الموجود ، أجل من طلب المفقود » . لذلك خصص في كتابه « الملكي » واحداً وثلاثين فصلاً في علم الصحة ، تحدث فيها عن تدبير الصحة بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع . وعرض لحالات الهواء في كل فصل من فصول السنة ، وتدبير من ناله إعياء ، ومن في أعضائه آفة ، ومن أصيب بهزال ... وحذر من الأمراض الوبائية ونبه إلى الأعراض المنذرة بها ، وتحدث عن الأمراض النفسية وغيرها مما يدخل في علم الصحة .

وكان يقول « إن الأجسام من شأنها أن تتغير ، وأن تستحيل ، لأن مصيرها إما الفساد وإما الفناء . ويعرض الفساد بسبب الجفاف الذي يصير به النبات إلى الذبول ، والحيوان إلى الهرم ، ثم إلى الموت ... وقد يعرض الفساد بسبب الفضلات التي تتولد عن الأطعمة والأشربة ، أو بسبب ما يلحق بالإنسان من خارج ، كالهواء المحيط به ، أو كصدمة حجر أو قطع سيف ، أو لدغ هوام ... وإن الأجسام تتغير على الدوام ، ولا تثبت على الحال . ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تدبير يصلح ذلك التغيير ، ويمنع الأجسام من الفساد ويحفظها على حال صحتها إلى وقت الهرم فالمت الطبعي . وهذا التدبير هو حفظ الصحة على الأصحاء ، وردّها إلى المرضى . وهو الغاية التي تسعى إليها صناعة الطب » .

وفي كتابه : كامل الصناعة ، أو « الملكي » ، قسم يبحث في الجراحة . وكان التعاون أثناء إجراء العمليات الجراحية ، وخاصة الكبرى منها ، مبدأ معمولاً به : فكان هنالك

الطبيب المشرف على التخدير بواسطة الأفيون، وست الحسن (الهيوسيامين)، والخشيش. وكان هنالك طبيب يراقب النبض، ومساعد يمسك الجرح بآلة ذات شقين، وهناك الطبيب الذي يقوم بالعمل الجراحي، يعتمد إلى الشق بعناية فائقة، ويحرص كل الحرص على أن لا يكون الجرح كبيراً أو عميقاً. ولنستمع إلى علي بن العباس، وهو يعلم أحد تلامذته أثناء الجراحة، فيقول: «وعليك الآن أن تقص بهدوء وترو، فتفصل الورم عما حواليه، واحرص على ألا تجرح أي شريان أو أن تقطع أي عصب، فإن فعلت، فينبغي لك أن تسرع وتلحم الشريان حتى لا يحدث أي نزيف مكان العملية فيضايقك في عملك ويعيقك عن الرؤية. فإذا ما انتزعت الورم، أدخل إصبعك في التجويف وتحسس لعل هناك بقايا منه فافصله بترو وحرص. وإذا ما انتزعت الورم كله وتأكد لك زوال بقايا المترسبة، اجمع الجلد واقطع منه الزائد واستعمل في التخييط نسيلاً من الأمعاء».

وفي موضع آخر يقول: «وأما السرطان فأمره عجب وشفائه صعب وهو حقل لم يفلح فيه الطب والتطبيب إلا نادراً، لذلك عليك أن تقلع الورم من جذوره حتى لا تبقى منه أية بقايا أو. رواسب ثم تضع في التجويف خرقة مبللة بالخمير لئلا يحصل أي تعفن أو التهاب».

هكذا علم علي بن العباس تلامذته، تماماً كما يفعل كبار الجراحين في عصرنا الحاضر، وليس عندهم من مزيد في هذا المضمار على ما قاله ابن العباس منذ ألف عام. وفي كتابها الشهير، شمس العرب تسطع على الغرب، تروي لنا، المستشرق «سيغريد هونكة Sigrid Hunke» أن الكتاب «الملكي»، لمؤلفه علي بن العباس، كان يوماً، سبباً في إقامة أواصر القرابة بين عالمين من علماء «نورنبرغ» فتقول:

«في يوم عيد الميلاد من عام ١٤٩٣ تسلم علامة نورنبرغ الكبير وطبيبها الدكتور «هارتمان شيدل Schedel» رسالة من صديقه الشاب «هيرونيموس هولز شوهر Hieronymus Holzsa Chuher» من مدينة بادوا حيث كان يدرس، أخبره فيها أنه قد وفق إلى شراء كتاب الطب العربي الشهير «الملكي»، الذي كان قد ظهر في ترجمته اللاتينية وطبع في البندقية، بواسطة إسطفان البيزاوي. وعندما قرأ شيدل هذه الرسالة سرّ بها كثيراً وأطلع عليها زميله الدكتور «ه. مونتر H. Munzer» طبيب مدينة نورنبرغ الرسمي. وكان هذان الطبيبان، شيدل ومونتر، من عشاق الكتب وهواة جمعها، وكان «مونتر Munzer» سعيدياً للغاية إذ حصل على هذا الكتاب، فرحاً به كل الفرح ومقدراً للفتى الشاب اهتمامه،

• الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

فقرر : أن يعطيه يد ابنته الوحيدة الحبيبة « دوروثيا Dorothea » زوجة له ومعها مهر وافر . وهكذا ترى أن كتاب علي بن العباس كان سبباً في زواج الشاب شوهر الذي أصبح فيما بعد عمدة مدينة نورنبرغ والذي خلده الرسام Durer في لوحة له .

## سيرايون الابن

كان هنالك ثلاثة يحملون اسم سيرايون ، وكانوا أطباء عرباً . وأغلب الظن أن هذا هو أحد الأبناء .

يقول ابن أبي أصيبعة ، في كتابه عيون الأنباء ، في طبقات الأطباء (ص : ١٥٨) : إن يوحنا بن سيرايون ، من الأطباء النصاري الذين كانوا معاصرين للأطباء الاسكندرانيين ، وقريباً من أزمنتهم ، وكل ما ألف سرياني . وكان والده طبيباً من أهل « باجرمي » . وخرج ولداه طبيبين فاضلين ، وهما : يوحنا وداوود . وليوحنا بن سيرايون من الكتب : كناشه الكبير ، اثنتا عشرة مقالة ، وكناشه الصغير ، وهو المشهور ؟ سبع مقالات . ولقد نقله الحديشي الكاتب ، لأبي الحسن بن نفيس المتطبب ، في سنة ثمان عشرة وثلاثمائة هجرية ، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأواني الطبرهاني . كما نقله أيضاً أبو البشر متى .

ولقد برع سيرايون الابن في تركيب الأدوية ووضع لائحة كبيرة منها . ومما لا ريب فيه أن الطبيب الحاج الذي ذكره تشوسر في قصيدته ، قد عرف هذه اللائحة ، واستخدمها ، وإنه لم يتعرف على المصدر الأفضل في علم العقاقير ، أبي منصور الفارسي ( ٩٧٠م ) ، الذي وضع لائحة لـ ٥٨٥ دواء . منها ٤٦٦ علاجاً نباتياً ، و ٧٥ معدنياً ، و ٤٤ علاجاً حيوانياً .

## أبو بكر محمد بن زكريا الرازي

أمير الأطباء ، أبقراط العرب ، جالينوس العرب ، منقذ المؤمنين .

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، أحد أشهر وأعظم أطباء الإنسانية قاطبة . ذكره « جوفري تشوسر » ، كبير شعراء الإنكليز القدامى ، في إحدى قصائده المشهورة : في كتابه : « أقاصيص كنتربري Tales of Canterbury » .

كما أن أحد ملوك فرنسا ، وهو لويس الحادي عشر ( ١٤٢٣ — ١٤٨٨م ) الشهير ، سعى إلى استعارة مؤلف الرازي العظيم « الحاوي في الطب » ، لقاء مال كثير ، من الذهب ،

والفضة دفعه رغبة منه في أن ينسخ له أطباؤه، نسخة خاصة به، يرجعون إليها إذا ما أصابه مرض أو ألم به داء.

وكان هذا المؤلف، قبل ٦٥٠ عاماً تقريباً السفر الوحيد في مكتبة كلية الطب في باريس، ولذلك سماه بعض المؤرخين، «بأصغر مكتبة في العالم».

ولقد بقي هذا الأثر العلمي الضخم الذي يقع في ثلاثين جزءاً، والذي كان يضم كل المعارف الطبية، منذ أيام الإغريق، وحتى عام ٩٣٢ ميلادية، تاريخ وفاة الرازي، بقي المرجع الأساسي في معاهد أوربة، لمدة تزيد على الأربعمائة عام.

ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز الثمين، وبفضل صاحبه عليهم، وعلى الطب عامة، فأقاموا له نصباً تذكاريّاً في باحة القاعة الكبيرة في كلية الطب، وعلقوا صورته، وصورة عالم عربي آخر، في قاعة أخرى كبيرة، في شارع سان جرمان، حيث يتجمع في أرجائه الواسعة، طلاب الطب اليوم.

ولقد يكون من المفيد أن نذكر هنا القول القديم المأثور: «كان الطب معروفاً فأوجده أبقرات، وكان ميتاً فأحياه جالينوس، وكان مشتتاً فجمعه الرازي، وكان ناقصاً فأتمه ابن سينا».

### مولده ونشأته

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ويسمونه باللاتينية «Rhazes»، ولد عام ٨٥٠ م. (وقيل عام ٨٥٤ م، وقيل عام ٨٥٦ م، وقيل ٨٦٠ م)، ولد في مدينة الري<sup>(١)</sup>، بخراسان، شرقي مدينة طهران الحالية، وتوفي عام ٩٣٢ م. وهناك، في تلك المقاطعة الجبلية، كان يعيش قوم أشداء، فارعو الطول، شقر الشعر، سماهم العرب: «الثعالب الحمر»، وكان الرازي منهم، طويل القامة، أشقر الشعر، قوي البنيان.

ويقال إنه كان وهو صبي، جليساً، وعازف عود، ومغنياً، وراوي قصص في مجالس النساء إلى أن أدرك سن البلوغ، فأخذ يهتم بدراسة الفلسفة والأدب والفلك والرياضيات. وكان يقول الشعر، ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها، وأصاب بين قومه شهرة كعازف، وكمغن.

وفي سن متقدمة اكتشف في نفسه ميلاً إلى الطب، فحمل عوده، وألواحاً يكتب

(١) فتحها العرب في عهد الخليفة عمر عام ٦٣٩ م. وفيها ولد هارون الرشيد.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوروپة في القرون الوسطى

عليها حكماً كان يأخذها من أفواه النساء الحكيمات ، ومعرفة كان يتلقاها من النسوة المتخصصات بالأعشاب ، وسافر إلى القدس ، واتجه منها إلى القاهرة ، وتجول في الشمال الإفريقي ، حتى وصل الأندلس ، حيث كان الطب العربي قد أسس ، في ظل النهضة العربية — الإسلامية ، مستشفيات وجامعات في مدينة قرطبة . وكان عدد سكان قرطبة آنئذٍ ، مليون نسمة . ويقال إنه كان فيها ألف حمام ، وشوارع تنيرها المصابيح ، وكانت هنالك مدارس ابتدائية للأطفال .

ولقد أخذ العلم من الكيميائيين ، كما فعل ، حين أخذ الحكمة من النساء الحكيمات ، فأصبح طبيباً مقيماً في المستشفى ، حيث درس حالات عديدة ، لمرضى في أسرهم ، تماماً كما كان أبقراط يفعل . وأصبح واحداً من أعظم الأطباء السريريين .

ثم عاد الرازي إلى بغداد مدينة الشفاء ومدينة السلام ، وذلك سعيّاً وراء تحقيق آماله ، وطموحاته . وكانت بغداد يومئذٍ ، عاصمة الدنيا قاطبة ، وكعبة كل طموح يبغى الرفعة والسمو . واندفع بكل قوة وبكل تصميم في دراسة صناعة الطب . وكان أستاذه علي بن رين الطبري<sup>(١)</sup> ، أحد تلامذة حنين بن اسحق العبادي<sup>(٢)</sup> ، رئيس مترجمي ابن موسى . تعلم الرازي منه العلاج الإغريقي ، والفارسي والهندي والعربي الحديث العهد آنئذٍ .

ويقال ، إن عضد الدولة ، عندما أمر ببناء البيمارستان ، عهد إلى الرازي باختيار الموضوع الذي ينبغي أن يبنى فيه . فأمر الرازي بعض الغلمان بأن يعلق في أربع نواح من بغداد شقة من لحم خروف في كل ناحية ، ثم عاد إليها بعد زمن ، واعتبر الناحية التي لم تتغير فيها رائحة اللحم بسرعة ولم تتن ، فأشار ببناء البيمارستان فيها . وقد حدث هذا قبل باستور بأكثر من ألف عام !

ويقال إن عضد الدولة أراد أن يكون في هذا البيمارستان ، جماعة من أفاضل الأطباء وأعيانهم ، فأمر أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذٍ ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة ، فاختر منهم نحو خمسين ، بحسب ما علم من جودة أحوالهم ومهارتهم في صناعة الطب ، فكان الرازي منهم ، ثم إنه اقتصر من هؤلاء على عشرة ، فكان الرازي منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة ، فكان الرازي أحدهم ، ثم إنه ميز فيما بينهم فبين له أن الرازي أفضلهم ،

(١) شيخ ترجمة الإسلام ، ورئيس الترجمة في دار الحكمة في عهد المأمون .

(٢) طبيب نصراني (سرياني ، نسطوري) ، كان يتقن اليونانية والسريانية والعربية . رئيس مترجمي العديد من الخلفاء .

فجعله رئيساً لأطباء البيمارستان . وبذلك انفتحت أمامه أبواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص .

ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها ، وطبقت الآفاق ، فزحف طلاب العلم من كل أطراف الامبراطورية ، قاصدين بغداد ، لتلقي المعرفة على أيدي الرازي العظيم ، وتعلم فنون الكشف الطبي والمعالجة ؛ وهو يجول بين مرضاه ، في مستشفاه الكبير ؛ فكان أن ازدحمت قاعات التدريس : « بالأطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم » ، وكان هذا حدثاً علمياً جديداً وعظيماً . وأصبح الرازي حجة في علم الطب ، ومرجعاً في كل الحالات المستعصية ، وفاحصاً لا يعرف الخطأ ، حتى لقبوه « بجالينوس العرب » .

كان الرازي كريماً متفضلاً ، باراً بالناس ، ورؤوفاً بالمرضى والفقراء . وكثيراً ما كان يجري على هؤلاء الجرايات الواسعة . وكان يجتهد في علاجهم ، ويدعى لشفايتهم ، بكل ما أوتي من قوة . وكان يمعن النظر في غوامض صناعة الطب ، ويسعى إلى كشف أسرارها .

ولقد تميز الرازي بمعارفه الطبية الواسعة التي لم يعرفها أحد من قبل ، منذ أيام جالينوس . بحث عن المعرفة في الكتب ، وفي أسيرة المرضى ، وفي التجارب الكيميائية ، قاطعاً الآفاق في سبيلها ، وموثقاً عرى المعرفة بينه وبين علماء عصره . استوعب كل معارف من سبقه في الطب ، وقدمها للإنسانية أحسن تقديم . وكان شمولياً في علمه ومنهجياً في عمله . أعطى الدراسة السريرية أهميتها ، وراقب بفكر متقد ، وبحث بعقل مستقل ، واختبر ، ونجح في الاختبار ، مما أضفى على فن الطب في عصره منهجية ووضوحاً رائعين . وهكذا أصبح الفتى اليافع الذي طالما شنّف الأذان بصوته الرخيم ، وعزفه الجميل ، طبيباً عظيم الشأن ، وصديقاً للملوك والأمراء ، وحبیباً للشعب والفقراء .

كان الرازي يزرع في نفوس تلاميذه بذور الفضيلة وحسن الأخلاق ، وكان يقدر رسالة الطب ، ويرى في الشعوذة فيه ، والمتاجرة به ، تدنيساً للرسالة المقدسة . فحذر تلامذته من المبالغة في أمر المعالجة ، كما حذرهم من عملية « استعراض البول » الموروثة عن الإغريق ، والتي كانت متبعة بكثرة في ذلك الزمان .

حارب الشعوذة بكافة أشكالها ، وكافح بعزم وحزم ضد المشعوذين الذين كانوا يدعون قراءة ماضي المريض ، وحاضره ، والتنبؤ بمستقبله أيضاً ! بمجرد « استعراض أنبوبة بوله » ! فكانوا يرسلون الجواسيس ليتسقطوا أخبار البسطاء من المرضى ، وليعرفوا ما خفي من حياتهم ، وأسرار هذه الحياة ، حتى إذا ما جاء هؤلاء إليهم ، أسروا لهم بما عرفوه عنهم ، مدعين أن « البول كاشف للأسرار » ! وبأنهم علماء بارعون في صناعة الطب ! فلقد كانوا يقولون

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

مثلاً: «إن صاحب هذا البول قد نام أول أمس مع امرأة عجوز»! ... أو يفضون بغير ذلك من القول الهراء ... وكان عامة الناس يرون في الطبيب ساحراً ، وكانت أعماله تقع في روعهم فيصدقون!

لقد قال الرازي مرة: «عندما بدأت أتعالى صناعة الطب، قررت أن لأسأل المريض شيئاً بعد أن استلم أنبوبة بوله، فأظهر الناس لي من ضروب الاحترام الشيء الكثير. ولكن ما أن عدلت عن هذه الطريقة وأخذت أمعن في طرح الأسئلة على المريض، صارفاً النظر عن استعراض أنبوبة البول حتى قل شأنى بينهم».

كان الرازي إنساناً كبير القلب، طيب النفس، وسباقاً في إنسانيته، كما كان سباقاً في الكثير من اكتشافاته العلمية. ولقد تخطى الآفاق الخلقية التي وصل إليها الطب عند الإغريق، وسمت إليها رسالة الطبيب في قسَم أبقرات الشهير، ذلك القسم الذي دأب كل طبيب أداه، إلى «أن يذهب إلى كل البيوت لفائدة مرضاها»، وعرف أبقرات الطب بأنه «الفن الذي ينقذ المرضى من آلامهم، ويخفف من وطأة نوبهم، ويتعد عن معالجة المرضى الذين لا أمل في شفائهم! إذ إن هذا الفن — فن الطب — لا نفع منه يرتجى في هذا الميدان»!

ولكن الرازي، عندما ظهر، نادى بمعالجة المرضى الذين لا أمل في شفائهم، ونادى بوجوب الاهتمام بهم إلى أقصى درجات الاهتمام. وعلم الطبيب أن يث في نفس مريضه روح الأمل، وقوة الحياة، ويرجيه بالصحة، وإن لم يكن هو على ثقة من ذلك، إذ إن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس. في حين كان أطباء الغرب، في القرون الوسطى، يرون في مرض هؤلاء، الذين لا أمل في شفائهم، وفي غيرهم أيضاً، «لعنة السماء»، وعقاباً على إثم زعموا أنهم ارتكبه، وأن الشيطان قد دخل في نفوسهم، فحلل عذابهم! ... حتى أن الأطباء هؤلاء كانوا لا يتورعون عن قتل مرضاهم، رغبة منهم في تخليصهم من الآلام!!

ولقد أصبح الرازي وصحبه من أطباء العرب العظام، أصبحوا فيما بعد، مثلاً يحتذى وقدوة حسنة لأطباء الغرب، الذين أخذوا يعالجون مرضاهم الذين لا رجاء في شفائهم، بإنسانية ونبيل رائعين.

كان ذكياً، وفطناً، وله أخبار كثيرة فيما اكتسب من مهارة في علم الطب، وفيما تفرد به في مداواة المرضى، وفي الاستدلال على أحوالهم، وفيما خير من صفات الأدوية التي لم يصل إلى علمها كثير من أطباء عصره. وما حكى عنه، من بدائع وصفه، وبراعة استدلاله، حكاية تداولها الناس فيما بينهم بعد حوالي ٢٠٠ سنة من وفاته:



تقول الحكاية، إن غلاماً من بغداد، يافعاً، قدم الري، وأتى الرازي، يشكو له «نفث الدم»، الذي أصابه وهو في الطريق؛ وكان الصبي في اضطراب كبير، وخوف عظيم، إذ ساءت حاله خلال رحلته. فعينه الرازي بهدوء كبير، ولكنه لم يعثر على سبب، إذ لم يكن هناك أي دليل على وجود سرطان أو سل أو تقرح أو التهاب. فطلب من الفتى التريث ريثما يتمكن من إعادة درس حالته ثانية لعله يوفق إلى الكشف عن سبب علته. وهنا أخذ الفتى بالصراخ، وانهمرت دموعه وقال: «إذا كان أمهر أطباء العالم، عاجزاً عن معرفة ما بي من داء، فسلام علي، ولتولول الناحبات من ورائي، حزناً علي».

فكر الرازي في الأمر، وقلب القضية من جوانبها، وأعاد السؤال على مريضه: «أي ماء شربت في سفرك؟»، فأجاب الفتى: «لقد شربت هنا وهناك، من ماء الأحواض، ومن ماء المستنقعات». وهنا قال الرازي، بقوة ذكائه، وجودة فطنته، وحدة خاطره: «لا بد أنك ابتلعت علقه كانت في الماء الآسن، وأن نفثك الدم من فعلها. فارجع إلي غدأ، خاوي الأمعاء، لأعالجك وثق بأنني لن أتركك حتى تشفى، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك بأن يطيعوني فيما أمرهم به، وانصرف الرازي.

وفي اليوم الثاني أتى خدم الفتى بكمية كبيرة من الطحلب الأخضر<sup>(١)</sup>، فأشار الرازي على مريضه بأن يبدأ بأكلها، وظل الفتى يمزج منها حتى ضاق ذرعاً بها، فأقبل الرازي وأخذ يدس له الطحلب في حلقه ويكبسه كبساً شديداً، ويطلب إليه بلعه، حتى شعر بها في حلقه، فدعاه إلى القيء، فخرجت من فمه علقه مفزعة ممتلئة دماً كانت تثبت بأمعائه، وما أن وصل إليها الطحلب حتى اشتدت شهوتها إليه، فتركت موضعها من الأمعاء، وتعلقت بالطحلب...

ولقد سُرَّ الفتى سروراً بالغاً، وغمر الفرح قلبه فانطلق يذيع في الآفاق نبأ معجزة: «أمير الأطباء». و «أبقرات العرب» و «منقذ المؤمنين».

ولقد ضاقت نفوس زملائه به وبشهرته وكرمه، وغلت الغيرة في قلوبهم، وغمرها الحسد، فأخذوا يلققون التهم السياسية ضده، وربما زوروا بعض الكتب ونسبوها إليه. مثال ذلك كتاب «نقد في الأديان»، وكتاب آخر يشر فيه بأخلاق لا دينية، يدعو فيه الإنسان إلى أن يعيش حياته بشجاعة ورجولة، دون أن تؤثر فيه وعود بجنة، أو وعيد بجهنم، في العالم الآخر. وإن العلم والعقل يشهدان على انعدام الحياة بعد الموت.

(١) ويقال له: شبيه العجوز، وهي نباتات تنمو على شواطئ البحار، وفي المياه الحلوة.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوروبا في القرون الوسطى

يقول ابن أبي أصيبعة (طبقات الأطباء، صفحة ٤٢٦ ) ، إن من جملة كتب الرازي ، « كتاب فيما يرومه من إظهار ما يدعي من عيوب الأولياء » . أقول : إن كان هذا الكتاب قد ألف ، والله أعلم ، فربما إن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألفه ونسبه إليه ، ليسيء من يرى الكتاب أو يسمع به ، الظن بالرازي . وإلا فالرازي أجل من أن يحاول هذا الأمر ، أو أن يصنف في هذا المعنى » .

ومن سخرية القدر ، أن هذه الترم الملفقة ، وهذه الكتب المزورة ، فعلت فعلها الخبيث فأوغرت صدر الخليفة الذي أمر بإبعاده من بغداد ، ومن ثم ، من مدينته الأم « الري » ، وبحرمانه من كافة مناصبه التي تقلدها بكفاءة نادرة وإخلاص كبير .

ولقد أصيب الرازي في آخر عمره ، بالساد في العينين ، وفقد بذلك نورهما . وكان يوم أسود في حياته ، حين جاءه طبيب ليجري له جراحة تنقذ بصره . وقبل أن يشرع الطبيب في إجراء العملية ، سأله الرازي : « كم عدد طبقات أنسجة العين ؟ » ، فاضطرب الطبيب هذا ، ولاذ بالصمت . عندئذ قال الرازي : « إن من يجهل الجواب على سؤالٍ هذا ، لا يحق له أن يمسك بأية آلة ، ويعبث بها في عيني » . ورفض العملية ، وقال : « لقد رأيت من هذه الدنيا الشيء الكثير ، حتى مللت » .

ولم يبق له من بعد ذلك ، معيناً في هذه الدنيا ، إلا شقيقته خديجة التي أخذته إلى بيتها . وهناك ، عانى الرازي العظيم ، الفقر والحرمان ، وهو الذي ضحى بأمواله في سبيل الفقراء ، وضحى بمجده لإحياء الأمل في قلوب الكثيرين .

كانت حياة الرازي حافلة بعبء علمي عظيم . فهناك ما يقارب الـ ٢٣٠ عملاً ضخماً ، وترجمات ، ومخطوطات صغيرة ، تبحث لا في الطب فحسب ، بل تبحث أيضاً في الفلسفة والعلوم الدينية والفلك ، والفيزياء ، والرياضيات . وإلى جانب كل هذه الأعمال تكدست مجموعة من الأوراق ، أخذت أخته خديجة واحدة منها وقرأت ما فيها :

« كان عبد الله بن سودة فريسة حمى قوية كانت تعاوده كل سنة وأحياناً كل يومين وأحياناً أخرى كل أربعة أيام ... وكان يصحبها دوماً ارتجاف قليل ويكثر فيها ماؤه . فقلت له إن حالته هذه ناتجة عن حمى الملايا أو عن دمل في كلوته . وبعد وقت قليل وجدت قيحاً في بول المريض ، فأخبرته بأن عهد الحمى قد ولى ، وهكذا كان . والذي منعني في البدء عن الكشف بشكل نهائي أكيد على هذا الدمل في الكلوة ، يرجع إلى كون المريض مصاباً بالحمى المتغيرة . وكان اعتقادي بأن سبب هذه الحمى يعود إلى التهابات داخلية ، وأن العليل

لم يشك لي أوجاعاً في حوضه كلما همّ بالقيام، ونسيت أن أسأله ذلك، فالإكثار من التبول أكد ظني بوجود دمل في كلوته ولو أني علمت بأن أباه قد عانى الكثير من ضعف في المثانة، وبأنه قد عاجلها في صباه، لما ترددت لحظة في معاينتي. لذلك فإنه من واجبنا عدم إهمال أي شيء، وبذل العناية القصوى في البحث، كما أراد الله! ولما أخذ المريض في إنزال قيح من بوله وصفت له مدرراً للببول حتى صفا الببول من القيح. وبعدها وصفت له دواءً ناجعاً...».

وتناولت خديجة ورقة أخرى وقرأت: «كان أبو بكر بن هلال يشكو وجعاً في موضع أمعائه... وتناولت ورقة ثالثة وقرأت: «وصلني محمد بن عبس وعنده التهاب في مفصل الساق.... وتناولت غيرها من الوريقات، فحكمت عليها بالتفاهة وأبقيتها لديها في صندوق، دون أن يراها أحد أو ينظمها».

## آثاره

ترك الرازي آثاراً ضخمة، وأعمالاً عظيمة وترجمات ومخطوطات، بلغت ٢٣٠ أثراً، تبحث في الطب، والفلسفة، والفلك، والفيزياء، والرياضيات، والعلوم الدينية. وكتاب «الحاوي» في علم الطب، يعتبر أعظم هذه الآثار، وأجلها شأنًا. جمع الرازي فيه، كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق وحتى عام ٩٢٥م. عام وفاته. قرأ الرازي الطب، في كتب الإغريق، والهنود، والفرس، والعرب، ونقل من هذه الكتب، وزاد على ما نقل، مستعيناً بالتجارب الشخصية التي قام بها، لدعم تلك النظريات أو دحضها، ونسب كل شيء نقله إلى قائله.

وكان هدف الرازي، الأسمى، وضع كتاب محكم التصنيف، يفند فيه تلك النظريات، ويوضح فيه تجاربه. إلا أن المنية عاجلته إثر داء عضال ألم به، وبقيت الوريقات التي سطرها بيده، متراكمة، ومنسية، لسنواتٍ طوال في صندوق مغلق عند أخته خديجة، في مدينة «الري»، حيث توفي.

وعندما حضر ابن العميد، وزير السلطان، وركن الدولة البويهية، إلى «الري»، زار خديجة في دارها، وطلب الصندوق منها، وبذل لها دنائير كثيرة، وأخذ الصندوق. ثم جمع أطباء المدينة، من تلامذة الرازي، وغيرهم، وطلب إليهم، أن يصفوا من هذه الوريقات كتاباً يستفاد منه في القراءة وفي التدريس. وهكذا خرج إلى النور أحد أعظم كتب الطب في تاريخ الإنسانية.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

ولقد سمي تلاميذ الرازي ، الكتاب « بالحاوي » ، ويعرفه الأوربيون باسم « Continens » وهو أكبر موسوعة في علم الطب ، كتبت باللغة العربية ، تقع في ثلاثين جزءاً ، جمعت كل المعارف التي وصل إليها العقل البشري منذ أبقرط . اقتطفها الرازي من طب اليونان ، والسرّيان ، والطب العربي المبكر ، وبعض الطب الهندي ، وأفرد فصلاً خاصاً ، لوصف عدد من الحالات السريرية المختلفة ، التي تابعتها ، والتي تميزت بأهمية خاصة . ولقد نشر « ماير هوف » دراسة لها بعنوان « ٢٣ حالة سريرية للرازي » ، وفيها تظهر ملاحظات الرازي السريرية بوضوح .

لقد كان كتاب « الحاوي » كاملاً ، كما يجب أن يكون الكتاب ، حتى قيل : « كل الكتب موجودة في الحاوي » . إلا أن تلامذة الرازي ، لم يتمكنوا من تصنيف الكتاب تصنيفاً محكماً ، ومن ترتيب محتوياته ترتيباً مترابطاً . كما كانت الحال في أعمال الرازي السابقة . ومع ذلك ، بقي هذا الكتاب ، العظيم ، « الحاوي » ، المرجع الأساسي لأطباء أوربة طيلة أربعمئة سنة .

كتاب « المنصوري » : في الطب ، ويعتبر أحد أشهر كتب الطب في العصر الوسيط ، ألفه للأمر منصور بن اسحق ، صاحب خراسان ، وتوخى فيه الاختصار والإيجاز . لذلك رغب المترجمون والناشرون في أوربة في ترجمته ونشره ، أكثر من رغبتهم في ترجمة ونشر موسوعته الضخمة : « الحاوي » . ولقد ترجمه « جيرار الكريمني » إلى اللاتينية حوالي القرن الثاني عشر ميلادي .

جمع الرازي في كتابه هذا ، جمل ، وعيون ما قيل في علم الطب ، وعمله ، فلم يترك شيئاً إلا وتكلم عنه ، واصفاً الأمراض كلها من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ومفنداً أعراض هذه الأمراض ، وتطورها ، ومداواتها .

ويقع كتاب « المنصوري » في عشر مقالات :

المقالة الأولى : في المدخل إلى الطب ، وفي شكل الأعضاء وخلقها ،

المقالة الثانية : في تعرف مزاج الأبدان وهيئتها والأخلاط الغالبة عليها ،

المقالة الثالثة : في قوى الأغذية والأدوية ،

المقالة الرابعة : في حفظ الصحة ،

المقالة الخامسة : في الزينة ،

المقالة السادسة : في تدبير المسافرين ،

المقالة السابعة : جوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح ،  
المقالة الثامنة : في السموم والهوام ،  
المقالة التاسعة : في الأمراض الحادثة من القمة إلى القدم ،  
المقالة العاشرة : في الحميات ، ومداواتها .

**كتاب في الجدري والحصبة :** ويقع في أربعة عشر باباً . ولقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة ، ويقول «نيوبرجر» «إنه من أثنى الكتب» ، لما بدا فيه من نظرة حكيمة إلى ظواهر الطبيعة ، وبراعة لم يعرفها العالم من قبل . ويتضمن الكتاب هذا ، صورة دقيقة وأمنية ، للمرض وطرق علاجه . والرازي هو أول من فرّق بين الجدري والحصبة ، فكان كتابه هذا تحفة فريدة في نوعها ، ولقد نشر في أوربة أكثر من أربعين مرة .  
ترجم « كتاب في الجدري والحصبة » هذا ، إلى اللاتينية سنة ١٤٩٨ م ، سنة ١٥٤٨ ، وترجم إلى الإنكليزية ، وطبع في لندن سنة ١٨٤٧ ، وترجم إلى الفرنسية ، وطبع في باريس سنة ١٧٦٣ ، وسنة ١٨٦٩ ، وترجم إلى الألمانية ، وطبع في لايبزغ سنة ١٩١١ .

**كتاب «برء ساعة» :** ألفه للوزير أبي القاسم بن عبد الله . وجاء في مقدمة الكتاب أن جمعاً من الأطباء زعموا في حضرة الوزير ، أن علاج الأمراض يستمر وقتاً طويلاً ، فرد عليهم الرازي بأنه يستطيع علاج الكثير من الأمراض في ساعة واحدة . وإن ما قالوه ليس إلا رغبة في الربح المادي واستنزاف مال المرضى . فأبدى الوزير إعجابه بهذا القول ، ودعاه إلى وضع كتاب بهذا المعنى يكون مرجعاً للأطباء . وهكذا ولد الكتاب .

**كتاب طب الفقراء :** واسمه في الأصل « كتاب إلى من لا يحضره طبيب » ، وهو عبارة عن كتاب طبي شعبي ، يسهب في وصف العلل ، ويعدها علة علة ، ويصنف ظواهرها ، وطرق معالجتها بالأدوية المتوفرة في كل منزل ، وفي كل مكان .  
وللرازي الكثير الكثير ، من المخطوطات الأخرى ، كتباً ، ومقالات ، ورسائل ، يذكرها بإسهاب المؤرخ الكبير ابن أبي أصيبعة ، في كتابه الشهير : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، ونورد هنا أسماء بعضها :

- ١ — كتاب التقسيم والتشجير ، ويذكر فيه الأمراض وأسبابها وعلاجها .
- ٢ — كتاب في منافع الأغذية ودفع مضارها .

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

- ٣ — كتاب في الرياضة .
- ٤ — كتاب في كيفية الإبصار ، يبين فيه أن الإبصار لا يكون بشعاع يخرج من العين . وينقض الرازي في هذا الكتاب أشكالا من كتاب إقليدس في المناظر .
- ٥ — كتاب في أدوية العين .
- ٦ — مقالة في العلة التي من أجلها يعرض الزكام للبعض ، في فصل الصيف ، عند شمه للورد (الرشح التحسسي) .
- ٧ — كتاب في علل المفاصل والنقرس وعرق النسا .
- ٨ — كتاب في الفالج .
- ٩ — كتاب في اللقوة .
- ١٠ — مقالة في الحصى في الكلى ، والمثانة .
- ١١ — كتاب في العلم الإلهي .
- ١٢ — كتاب في هيئة العالم ، يبين فيه أن الأرض كروية ، وأنها في وسط الفلك ، وأن الفلك ذو قطبين يدور عليهما ، وأن الشمس أعظم من الأرض ، وأن القمر أصغر منها .
- ١٣ — كتاب في أن للعالم خالقاً متقناً ، حكيماً ، وفيه أدلة من التشريح ، ووظائف الأعضاء تبين أن خلق الإنسان لا يمكن أن يقع بالاتفاق ...
- ١٤ — رسالة في محنة الطبيب ، وكيف ينبغي أن تكون حاله ، في نفسه ، وبدنه ، وسيرته ، وأدبه .
- ١٥ — كتاب صيدلة الطب .
- ١٦ — اختصار كتاب « حيلة البرء » لجالينوس .
- ١٧ — كتاب في « من قل جماعه ، طال عمره » ، ألفه للأمير أبي العباس ، أحمد بن علي .
- ١٨ — كتاب الفاخر في الطب .

### أقواله

ومن أقواله : الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه ، خطر .

وقال : من لم يعن بالأمر الطبيعى ، والعلوم الفلسفية ، والقوانين المنطقية ، وعدل إلى اللذات الدنيوية ، فاتهمه في علمه ، لا سيما في صناعة الطب .

وقال : الأطباء الأميون والمقلدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلَّت عنايته وكثرت شهواته ، قتالون .

وقال : ينبغي للطبيب أن لا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج ، ثم يقضي بالأقوى .

وقال : ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء ، فخطؤه في جنب صوابه يسير جداً .

وقال : من تطلب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم .

وقال : متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب ، خزل .

وقال : ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة ، لا مقبلاً على الدنيا كلية ، ولا معرضاً عن الآخرة كلية ، فيكون بين الرغبة والرغبة .

وقال : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض ، فعليك بالأشهر ، مما أجمع عليه ، ودع الشاذ ، واقتصر على ما جربت .

وقال : إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة .

وقال : ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق منها ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس .  
ومن شعره :

لعمري ما أدري وقد آذن البلى      بعاجل ترحال إلى أين ترحالي  
وأين محل الروح بعد خروجه      من الهيكल المنحل والجسد البالي

### كشوفاته

من كشوفات الرازي العلمية أنه كان السباق إلى استخدام أمعاء الحيوان في التقطيب والإكثار من استعمال الفتائل وخيوط الجراحة ، ووصف جراحة استخراج الماء الأبيض ( الكتاركتا ) ، واستخدام المحاجم في علاج داء السكتة ، ووصف الطاعون وما نسميه اليوم بحمى الدريس Hey Fever . وكان أول من ميز في دقة بالغة بين الجدري والحصبة ، وكانت رسالته في ذلك أول دراسة علمية في الأمراض المعدية . وكان أول من أدخل في الصيدلة المليينات . وطبق في الطب المركبات الكيماوية ، واستخدم الزئبق في علاج الأمراض الجلدية . وسبق إلى الاهتمام بالأحوال النفسية في تشخيص الأمراض الباطنية وعلاجها . وكان من رواد الكتابة في أمراض الأطفال . وكان أول من فطن إلى الإصابة بدودة Guinea Worm ، واستخدم الحزام ، وعدّ الحمى عرضاً لا مرضاً ، وأدخل في المداواة أساليب جديدة — كاستخدام الماء

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

البارد في الحميات ، وكان أول من كشف « البول السكري » ، إذ كان يطلب إلى المريض الذي يشته به أن يبول على رمل ، وينتظر قليلاً ، فإذا اجتمع التمل فوق الرمل دل هذا على أن البول سكري !

وقد أعاد الحياة إلى شخص فقد حسه في شارع في قرطبة . وذلك بأن جلد جسمه ، ولا سيما قدميه ، ومع ذلك قال في رده على الخليفة الذي امتدح براعته أنه تعلم هذه الطريقة من أعراب البادية ، وأن فضله لا يعدو تشخيص المرض ، الذي يرجح أنه كان ضربة شمس ! وكان فيما سجله في مشاهداته السريرية (الإكلينيكية) والطرق التي واجه بها صعوبات عمله ، أعظم — عند بعض مؤرخيه — من جميع سابقه ، لا يستثنون من ذلك أبقرات وجالينوس !

كان الرازي أعظم أطباء العصور الوسطى غير منازع ، برع في الكيمياء العلمية حتى عده بعض مؤرخيها منشئها علماً تجريبياً . وفيها استحضر حوامض لا تزال مستعملة حتى يومنا الحاضر (كحامض الكبريتيك) ، كما استخرج الكحول باستقطار مواد نشوية وسكرية مخمرة ، واستخدمه في تحضير الأدوية .

هذه بعض آثار الرازي ، وبعض أقواله ،  
وهنا لا بد لنا من أن نجمل القول ، وأن نتذكر دوماً أن الرازي هو الذي :

قدّس رسالة الطب ، ورفع من شأنها ،  
وأسهّم في تحقيق الفتوحات العلمية الباهرة ،  
ورعى برأفة ومحبة ، آلاف المرضى والفقراء ،  
وأغنى الإنسانية بمعارفه الطبية الشاملة ، ونشر نورها في الشرق ، والغرب ،  
أمير الأطباء ، وأبقراط العرب ، وجالينوس العرب ، ومنقذ المؤمنين .

هذا الطبيب العظيم ، عاش في نهاية المطاف في فقر مدقع ، وحرمان مفرج ، وفقد نور عينيه ، بعد أن أحيا النور ، نور الأمل ، في قلوب الملايين من بني البشر . ولكن شهرته بقيت قوية ، تجوب الآفاق ، وبقي اسمه لامعاً ، وثابتاً في سجل الخالدين .

### ابن سينا الشيخ الرئيس حكيم الشرق والغرب

في المهرجان العالمي الذي أُقيم بمدينة بغداد ، عام ١٩٥٢ ، بمناسبة الذكرى الألفية لمولد الشيخ الرئيس ابن سينا ، أفضى « جب » ، المستشرق البريطاني الكبير ، لزميله العالم



المصري الدكتور ابراهيم مذكور، رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة، آنذاك، بأن كشفاً تاريخياً هاماً قد تم مؤخراً في مدينة أوكسفورد، وذلك أثناء ترميم مكتبة «بودلين» الأثرية. فلقد تبين للمهندسين والمرممين، عندما أزالوا طلاءً قديماً عن جدار إحدى القاعات، وجود ثلاث صور مجتمعة كانت تزين ذلك الجدار: الأولى لأرسطو، والثانية لأفلاطون، وأما الثالثة، فلقد ثبت، بعد تردد، وبعد دراسة، أنها لابن سينا. وما لا شك فيه أن لهذا الحدث التاريخي، كما يقول الدكتور مذكور، دلالاته البالغة الأهمية.

### ألقابه، ومكانته

حجة الحق، شرف الملك، الشيخ الرئيس، الحكيم الوزير، الدستور، حكيم الشرق والغرب، أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا. فيلسوف، وعالم، وطبيب، وحكيم. قمة عالية من قمم العصر الذهبي للفكر الإسلامي، وواحد من أشهر فلاسفة الشرق، وأطبائه، وحكمائه، وعلم خفاق في تاريخ العلم العالمي.

ولد ابن سينا في قرية «أفشنة»، من قرى قضاء خرمين، على مقربة من بخارى، في شهر صفر سنة ٣٧٠ هـ (آب ٩٨٠ م)، وتوفي في أوائل شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ (أيار ١٠٣٧ م).

ألقابه العديدة دليل على علو مكانته، وكذلك تقدير معاصريه له، وتقدير مترجمي حياته.

### عناية العلماء بكتبه، وتخليد ذكره

ولقد عُني العلماء المعاصرون، في الشرق والغرب، بتحقيق كتبه، ونشرها، وأقبلوا على وضع دراسات عنه، وأقاموا المهرجانات، والندوات، في البلدان العربية، وإيران، وتركيا، وأوزبكستان، وغيرها، إحياءً لذكراه.

### المهرجانات والندوات

لقد كان الأتراك أول من فكر وعني بابن سينا، وحذا حذوهم العرب، والإيرانيون، فأقاموا مهرجانيين متعاقبين: الأول في بغداد عام ١٩٥٢، والثاني في طهران عام ١٩٥٤، وذلك بمناسبة مرور ألف عام، على مولد الشيخ الرئيس. وحرص العرب، كما حرص الإيرانيون، على أن يعدوا لهذين المهرجانيين، الإعداد

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

اللائق . فأرسلت الدعوات إلى الهيئات والجماعات ، فلباها عدد من كبار المفكرين والباحثين ، في الشرق والغرب ، وأسهموا جميعاً في توضيح الكثير من جوانب الفكر السينوي .

ولقد حرصت اليونيسكو على أن تنوه بالشيخ الرئيس ، وأن تشارك في تخليد ذكره . ولم يقف هذا التخليد عند العالمين العربي والإسلامي فحسب ، بل تجاوزهما إلى العالم الغربي في عدد من بلدان أوربة وأمريكا ... وشاء الفاتيكان نفسه ، أن يسهم في هذا الإحياء والتخليد ، فاستضاف الفيلسوف المصري محمود الخضيرى ، لمدة عام كامل ، ومكنه من الاطلاع على مكتباته ، وما اشتملت عليه من آثار ابن سينا ، سواء أكانت بالعربية أو باللاتينية .

### تدعيه أمم كثيرة

وإنه ليكفي ابن سينا شرفاً ورفعة ، أن تدعيه أمم كثيرة . ومن لا يفخر في أن يكون ابن سينا من بين قومه ؟ فلقد قال الأتراك أنه تركي لأنه ولد في تركستان ، وقال الفرس أنه فارسي لأنه إيراني الأصل والمقام ، والعرب ، والعديد من علماء الغرب ، يقولون أنه عربي لأن ثقافته عربية .

ويذهب الباحث العربي ، الدكتور عبد الكريم اليافي (ويؤيده في ذلك زميله الباحث الدكتور خضر زكريا) ، إلى القول باحتمال نسب ابن سينا العربي ، إذ أن أباه كان من مدينة بلخ ، وهي مدينة مشهورة في خراسان ، أعاد فتحها الأحنف بن قيس في أيام الخليفة عثمان بن عفان ، سنة إحدى وثلاثين للهجرة ، وكانت القبائل العربية تنزل في كل مدينة من مدن خراسان وما وراء النهر حيث كانت المساكن متوافرة للنازلين ، فاحتمال أن يكون أبوه من أصل عربي وارد .

كما أن أمه ، كانت من أفشنة ، إحدى قرى بخارى ، التي أعاد فتحها قتيبة بن مسلم ، عدة مرات ، بعد أن انتفضت عليه ، فرأى أن يوطن فيها قبائل عربية بعدد سكانها الأصليين ، وذلك سنة أربع وتسعين للهجرة . فاحتمال أن تكون أمه من سلالة عربية وارد أيضاً ، سيما وأن اسمها ستارة هو اسم عربي .

ويقول المؤرخ التركي الشهير ، كبرى زادة ، في كتابه «مفتاح السعادة» ، أن النساء العربيات اشتهرن منذ القديم بالجمال ، وحسن الغنج ، ولطف الدلال ، والرقّة ، والعفة ، والوفاء ، لذلك كن أثيرات لدى الرجال ، يفضلوهن على سواهن من نساء الأقوام الأخرى .

إلا أن الأستاذ ف. مينورسكي يقول: «إن الباحثين لم يجدوا بعد، شرحاً مقبولاً لاسم «ابن سينا»، إذ ليس في الفارسية ولا العربية ولا التركية جذر لغوي يصلح مصدراً لاشتقاق «سينا». ولكن أدلة غير مباشرة تشير إلى أن أباه وأمه كانا ينتميان إلى تلك الأثر الوطنية، في البلد الذي ولد فيه. وكان من الطبيعي أن يتجه أبوه جهة الأمراء السامانيين، الذين لا يشك أحد في أصلهم الفارسي.

كما أن مهمة والد ابن سينا، في جباية الضرائب، كانت مهمة مدنية خالصة، تفرض في من أوكلت إليه، معرفة تامة بشؤون الحياة المحلية، وأحوال المنطقة، فلا يمكن أن توكل إلى عابر غريب. وكذلك انتأؤه إلى مذهب الفاطميين بمصر، يؤيد أصله الفارسي، فبعد وصول الدعوة الإسماعيلية المصرية إلى خراسان، «كان أبوه ممن أجاب داعي المصريين، ويعد من الإسماعيلية».

ولكن الباحث العربي يعود فيقول، وله الحق في ذلك: «مالنا ولهذا الاتجاه العنصري والعربي الذي قضى عليه الإسلام، حين ساوى بين الناس والشعوب؟ فابن سينا، سواء أكان تركياً أم فارسياً أم عربياً، فهو على كل حال، رمز للقيم الفكرية السامية، ومثال رائع للروح الإنسانية التواقة إلى الارتقاء، وواحد من أبناء الحضارة العربية الإسلامية الكبار، الذين أغنوا رآئها العلمي والفلسفي، وتألقوا في آفاقها الرحبة الواسعة. «وإن النسب الفكري والروحي لأسمى من أي نسب آخر».

### صفاته

كان ابن سينا ثاقب الفكر، موهوباً، ذكياً، غزير العلم، واسع المعرفة، ذو ذاكرة قوية، وعقل خصب اتسم بنزعة علمية متقدمة تجلت بقوة الملاحظة، والميل إلى الاستقراء والتجربة، والتخلي عن الأحكام المسبقة، والنظر إلى الواقع... فاق ابن سينا من سبقه، وأعجز من لحقه، وشغل الناس بعبقريته الفذة، واطلاعه الواسع، الذي شمل كل آفاق المعرفة.

وكان يتصف بشخصية محبة، ويتنقل بين قصور أمراء المشرق، ويستقبل بترحاب في مجالس الرجال، كما كان يستقبل أيضاً في مجالس النساء كجليس مرح، ولأنه كان يحمل لقب أمير الأطباء. ولقد استدعته مرة، الأميرة زبيدة، أميرة مدينة الري، لمعالجة ابنها، الذي كان يعاني من داء عضال! إذ كان يعيش جارية من جوارى أمه. فاكتشف ابن سينا الأمر، حين ذكر للأمير اسم الجارية، في الوقت الذي كان يراقب فيه نبضه. فاضطرب النبض، وأدرك الطبيب سر مريضه، فعالجه، فشفي.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

وهذه القصة ، تذكرنا بقصة جالينوس ، مع إحدى مريضاته ، التي وقعت في حب ممثل مسرحي ... وهي القصة التي سبق لنا أن سردناها عند بحثنا لحياة جالينوس .

### ثقافته ، وسعة اطلاعه

نبغ في الفقه ، والفلسفة ، والمنطق ، والطب ، والرياضيات ، والفلك ، والكيمياء ، كما نبغ في اللغة ، والأدب ، والشعر ، والموسيقى ، حتى أصبح في نظر علماء العالم ، أحد كبار الموسوعيين في التاريخ .

تفتحت مواهبه وهو صغير ، وظهرت أمارات نبوغه في سن مبكرة ، مما حَمَلَ أباه على بذل العناية الفائقة في تربيته بأتم ما يمكن من فنون الثقافة . وكان أبوه من المهتمين إلى الإسماعيلية والمتحمسين لها ، وكان يناقش ابنه الآخر في قضايا الإسماعيلية ، على مسمع من الصغير . وكان هذا يدرك تلك القضايا ، على صغر سنه ، ولا يقبلها .

أما بلخ ، بلد أبيه ، فهو بلد إيراني قديم ، تعرض للكثير من هجمات الغزاة ، الذين تركوا فيه آثارهم : غزاه اليونان وأنشأوا فيه مملكة لهم ، وأتته البوذية فانتشرت فيه قبل وصول العرب إليه ، وإلى هذا البلد كان ينتمي جدود البرامكة ، وزراء الدولة العباسية ، وكانوا هناك من كهنة المعبد المشهور نوبهار ، وبذلك تأثرت بلخ بالكثير من الأحداث ، وأفادت منها شتى أنماط المعرفة .

وعندما انتقل الأب إلى بخارى ، وكانت مركز البلاط ، عاش الصبي جواً فكرياً وأديباً غنياً ومثقلاً بالمناقشات والمباحثات المنطقية ، كان يحيط بأسرته ، فأرهدف ذلك حسه الجدلي ، وسائر مواهبه .

حفظ القرآن ، عن ظهر قلبه ، وهو في العاشرة من عمره ، وأتى على كثير من كتب الأدب .

أحكم علم المنطق ، وهو في السادسة عشر ؛ وتعلم الطب ، ثم علمه ، ثم أخذ يتعهد المرضى .

وكان إذا تحير في مسألة ، تردد إلى الجامع ليصلي ، مبتهلاً إلى مبدع الكل ، حتى يفتح له المنغلق .

وكان يقرأ ويكتب في الليل ، حتى إذا غلبه النوم ، أو شعر بضعف ، عدل إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إليه قوته . وهنا يلاحظ التساهل الذي كان سائداً في أسرته . وكان إذا وجد كتاباً كان يبتغيه ، يفرح ، ويتصدق على الفقراء ، شكراً لله .

درس العلم الطبيعي، والعلم الرياضي، قبل الثامنة عشر، وفقه علم ما وراء الطبيعة. ولقد خرج في ثقافته، عن الأسلوب التقليدي الذي كان يتبعه أترابه، فاختار فلاسفة اليونان، ودرس آثارهم في الترجمات العربية، في سن مبكرة، كان فيها أمثاله لا يتجاوزون دراسة الكتب التقليدية المقررة لهم.

وفي سن الثامنة عشر، فرغ من دراسة العلوم كلها. وفي الحادي والعشرين من عمره، صنف كتابه الأول: «المجموع»، وأتى فيه على سائر العلوم. ثم أخذ، من بعد، يصنف الكتاب تلو الكتاب، والرسالة تلو الرسالة، في الفقه والمنطق والأخلاق والطب.

داوى مجد الدولة، ثم عالج شمس الدولة، وصار من ندمائه، فقلده الوزارة. وكان طلبة العلم يجتمعون في داره كل ليلة، يقرأون، فإذا فرغوا حضر المغنون، وهيء مجلس الشراب بآلاته.

كان قوى القوى كلها، وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية الأقوى والأغلب. اختص بالأمر علاء الدولة، وأصبح من ندمائه، ورصد له الكواكب، واتخذ من أجل ذلك الآلات واستخدم صناعاتها، وكانت المرحلة الأخيرة من حياته تبعث على الأمل في الطمأنينة والسعادة، وكان على وشك أن ينشئ مرصداً في أصفهان، لولا أن داهمت البلاد فجأة غزوة الغزنويين. فقلبت الأوضاع رأساً على عقب، ونهبت كنوز علاء الدولة، وأخذت مكتبة ابن سينا إلى غزنة، حيث التهمت النيران في القرن التالي، إثر غزوة أمير جور لها سنة ٥٥٠هـ — ١١٥٥م.

كانت حياة ابن سينا زاخرة بالدرس والبحث والعطاء، وانتهت بسلسلة من الأمراض والرحلات المضنية، والتنقلات القسرية. إلا أن ذلك لم يكن ليفت من عضده أو يضعف من عزيمته في متابعة نشاطه العلمي.

كان ابن سينا، يتقن من اللغات اثنتين: العربية والفارسية. وكانت اللغة العربية في أيامه، لغة العلم والدين والدولة. ولقد فاقت معرفته لها، معرفة الكثيرين من أبناء الأرومة العربية الخالصة.

يقول الباحث نجماتوف، من طاجكستان، «إن ابن سينا، الذي كتب معظم أعماله باللغة العربية، العالمية آنذاك، درس، وأدخل في نشاطه العلمي، الأعمال والمؤلفات

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

التي كتبها بالعربية علماء من النساطرة ، واليهود والصابئة والزرادشتيين . وكان يعرف طرق العلاج الدوائية الهندية والصينية والتبتية ، ويشير إليها في مؤلفاته .

لقد ألف ابن سينا كتبه ورسائله ، بالعربية خاصة ، وكانت لغة الديوان ، كما ذكرنا ؛ كما ألف بالفارسية ، لغته الأصلية ، وكثيراً ما كان علماء الفرس يكتبون بهاتين اللغتين . وعن العربية والفارسية ، عرف ابن سينا في اللغتين التركية والكردية ، وكان له شأن خاص في اللغة العبرية ، وله فيها أنصار وأتباع .

يقول الباحث المصري الدكتور ابراهيم مذكور : « إن اليهود أمعنوا في دراسة آثار ابن سينا وترجمتها ، ترجموها لأنفسهم ، ثم أسهموا بصدق في نقلها إلى اللاتينية . وإن ابن ميمون ( ١٢٠٤م ) ، فيلسوفهم الكبير ، مدين في علمه لابن سينا ، بقدر ما هو مدين لابن رشد ( ١١٩٨م ) .

ولقد استطاعت فلسفة ابن سينا أن تجد طريقها أيضاً إلى اللغة السريانية ، فترجم إليها بعض كتبه ، ككتاب الإشارات ، ورسالة الطير . ويعد ابن العربي ( ١٢٨٦م ) ، أحد كبار مفكري السريان في القرن الثالث عشر ميلادي ، واحداً من تلامذة ابن سينا المخلصين . كان ابن سينا فيلسوفاً أصيلاً ، وطبيباً متمكناً ، وكان إلى جانب ذلك أديباً ولغوياً وشاعراً وموسيقياً ، يحسن الضرب على العود ، وقد « ألف المدخل إلى صناعة الموسيقى » ، كما أورده في كتاب الشفاء ، وفي رسائل لاتزال مخطوطة . كما ألف كتاب الشعراء ، وشرح مشكلات شعر ابن الرومي ، وله كتاب في اللغة العربية سماه لسان العرب ، ويقع في عشر مجلدات ، وهو غير « لسان العرب » المعروف .

ويقول الباحث السوري الأستاذ الدكتور عزة مريدن : « إن من يقلب النظر في مؤلفاته وأراجيزه وقصائده ، لا يشك مطلقاً في أن صاحبها عربي النجار ، ضادي اللسان ، وأن أراجيزه وإن كانت تعتبر نظماً ، وليست بالشعر ، إلا أنها صحيحة الوزن والإيقاع . على أنه حلق في سماء الشعر في قصيدته العينية في النفس » ، التي يقول فيها :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
ألفت وما سكنت ، فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهداً بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها  
 علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت  
 تبكي وقد ذكرت عهداً بالحمى  
 وتظل ساجدة على الدمن التي  
 إذ عاقها الشوك الكثيف وصدها  
 حتى إذا قرب المسير من الحمى  
 سبغت وقد كشف الغطاء فأبصرت  
 وغدت مفارقة لكل مخلف  
 وبدت تغرد فوق ذروة شاهق  
 فلا شيء أهبطت من شاهق  
 إن كان أهبطها الآلة لحكمة  
 وهبوطها إن كان ضربة لازب  
 وتعود عالمة بكل خفية  
 وهي التي قطع الزمان طريقها  
 فكأنها برق تألق بالحمى

عن ميم مركزها بذات الأجرع  
 بين المعالم والطلول الخضع  
 بمدامع تهمي ولما تقلع  
 درست بتكرار الرياح الأربع  
 قفص عن الأوج الفسيح المربع  
 ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع  
 مالميس يدرك بالعيون الهجع  
 عنها حليف الترب غير مشيع  
 والعلم يرفع كل من لم يرفع  
 عال إلى قعر الحضيض الأوضع؟  
 طويت على الفذ اللبيب الأروع  
 لتكون سامعة بما لم تسمع  
 في العالمين، فخرقها لم يرقع  
 حتى لقد غربت بغير المطلع  
 ثم انطوى فكأنه لم يلمع

لقد كثر حساد ابن سينا وأعداؤه، الذين اتهموه بالكفر والزندقة وكرهوا منه تعاطفه واستعلاءه، فأوغروا صدر الملوك والخلفاء عليه، حتى أدى ذلك إلى سجنه وإحراق مؤلفاته، على أن ذلك لم يمنع ولعه بالخمرة والتغني بمحامدها ولا الانغماس في الشهوات، فهو قد حضّ في تعاليمه على ترك الخمرة وعدم تعاطيها إلا تداوياً، ولكنه أمعن في شربها، وقال يصفها: إن المدامة حقاً غذاء الروح فقد فاقت بلونها ورائحتها، لون الورد ورائحته، أحلت بفتوى العقل على اللبيب، وحرمت بحكم الشرع على الأحق، فإن أنت شربت الخمرة كما يشربها أبو علي، أقسم بالله أنك تتصل بالحق!». ومن خمرياته في الشعر العربي قوله:

قم فاسقنيها قهوة كدم الطُّلا  
 خمرًا تظل لها النصارى سجداً  
 ولو أنها يوماً وقد ولعوا بها  
 قالت أأست بربكم قالوا بلى  
 يا صاح بالقدح الإملا بين المَلا  
 ولها بنو عمران أخلصت الولا

أما نظرت للمرأة، فنظر الموله العاشق، الذي يكن لها الود ويصدقها الحب ولا يصغي فيها إلى عدل عاذل أو لوم لائم، بل يذرف في حبها الدموع، ولنستمع إليه يقول:

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

وقفت دموع عيني دون سُعدى      على الأطلال ما وجدت سبيلا  
على جفني لسُعدى فرض دمع      أقمت له به قلبي دليلا  
عقدت لها الوفاء وإن عقدي      هو العقد الذي لن يستحيلا

يقول تلميذه الجوزجاني : لقد كان ابن سينا كثير التخليط في الطعام والشراب ، وكان قوى القوى كلها وكانت قوته الشهوانية أشد وأغلب ، فأثر جميع ذلك في مزاجه ، وأصابه القولنج الذي كان سبب موته فكان من شدة حرصه على الشفاء ، أن جعل يحقن نفسه ثمانى مرات في اليوم الواحد ، فتقرحت أعضاؤه وانحطت قواه ولكنه استمر في المعالجة ، حتى استطاع المشي ، غير أنه لم يتحفظ ، بل عاد للانهماك في الشراب والشهوات ، حتى سقطت قوته ؛ وإنه لمن الحزن حقاً ، أن يكون هذا العالم الفيلسوف ، والطبيب الأريب ، قد دعا في تعاليمه إلى اتباع الوسط الذهبي في كل الأفعال ، ثم هو يخطيء في تدبير نفسه حتى أجهز عليها ، فهو لم يعرف في حياته شيئاً من الاعتدال ، إذ كان مفرطاً في مواصلة النساء ، مخلطاً في الطعام ، مكثراً من الشراب ، لا يتبع في ذلك أي شيء مما كان يبشر به فهو ، القائل :

ثلاث هن من شرَّك الحمام      وداعية الصحيح إلى السَّقام  
دوام مدامة ودوام وطءٍ      وإدخال الطعام على الطعام

هذا هو ابن سينا الذي يحار الباحث في التوفيق بين فلسفته وإلهياته ، وبين تصوفه وخمرياته ، وبين أقواله وأفعاله .

### العبور إلى الغرب

لم يتأخر عبور ابن سينا إلى أوربة طويلاً ، فلم يكد يمضي على وفاته قرن واحد حتى بدئ في ترجمته إلى اللاتينية . وسعى رجال القرون الوسطى المسيحيون إلى الحصول على مؤلفاته ، وخاصة منها كتاب الشفاء . أما طبه فقد ترجموا منه كتاب القانون في عهد مبكر . وما أن ترجمت هذه المؤلفات ، حتى نسخت منها عشرات وعشرات ، وتسابق الباحثون للحصول عليها ، وانتشرت في كثير من مدن أوربة . وعلى هذا عرف الغرب ، في عهد مبكر ، ابن سينا العالم ، والفيلسوف والطبيب .

لقد ترك فكر ابن سينا في فلسفة القرون الوسطى المسيحية أثراً عظيماً . ولقي كتابه في النفس نجاحاً كبيراً ، وفيه يعرف النفس ، ويثبت وجودها ويبرهن على خلودها ، وهذا ما يعني المؤمنين في الحساب والعقاب في اليوم الآخر . ولم يقف أثر ابن سينا في الفكر الغربي عند القرون الوسطى ، بل امتد إلى عصر النهضة ، والتاريخ الحديث .



## تصنيف آثاره

يقول الباحث السوري الدكتور جميل صليبا: «لعل أفضل طريقة للتعريف بمجهود ابن سينا، هي في تصنيف آثاره، بحسب موضوعاتها». ولقد فعل ذلك على الوجه التالي:

- ١ — كتب المنطق واللغة والشعر .
  - ٢ — كتب الفلسفة والالهيات .
  - ٣ — كتب الأخلاق والتصوف .
  - ٤ — كتب الرياضيات والفلك والموسيقى .
  - ٥ — كتب الطبيعيات .
  - ٦ — كتب النفس .
  - ٧ — كتب الطب .
- وما يهمننا هنا، طب ابن سينا، وكتبه الطبية .

## طب ابن سينا

كان ابن سينا تابعاً في الطب للمدرسة اليونانية . وقد اقتبس هذا العلم، كما اقتبسه الطبري، والرازي والأهوازي (علي بن عباس المجوسي)، اقتبسه من العلماء اليونانيين . إلا أنه أضاف إليه الكثير وأخرجه من صورته الأولى، وأخضع بمصنفاته، المؤلفات التي سبقته، للدرس، والنقد .

ولقد كانت هنالك، مما أُلّف قبله في الطب، كتب هامة، كانت متداولة بين أيدي الناس، ككتاب «فردوس الحكمة»، لعلي بن ربن الطبري؛ و«الحاوي»، و«المنصوري» و«المرشد»، و«الطب الملوكي»، وكتاب «الجدري»، و«الخصبة»، وكتاب «برء الساعة»، وكتاب «التقسيم والتشجير» للرازي؛ وكتاب «كامل الصناعة في الطب» لعلي بن العباس المجوسي الأرجاني الأهوازي؛ وغيرها من الكتب، إلا أن قانون ابن سينا كان مرجحاً عليها كلها .

## آثاره

ترك ابن سينا ثروة فكرية بالغة، وتراثاً علمياً ضخماً: كتباً، ورسائل، ومقالات، وأراجيز، بلغت (٢٧٦) أثراً، حسبما جاء في لائحة الأب قنواي . وأعظم آثاره: كتاب

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

الإشارات في المنطق، وكتاب الشفاء في الحكمة، وكتاب لسان العرب في اللغة، وكتاب القانون في الطب، وهو أعظم وأشهر كتبه .

## القانون في الطب

يعتبر أكبر موسوعة طبية وصلت إلينا من القرون الوسطى . ولم تكن شهرته عظيمة في الشرق فحسب ، بل تجاوزته إلى الغرب فترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر وظل أثره في أوربة دون منافس حتى القرن السابع عشر . وفُسِّرَ مراراً وعلق عليه ، فاعتمد كتاباً مدرسياً « Text-Book » مدة قرون مما جعل الدكتور « أوسلر Osler » يقول بحق : « لقد عاش كتاب القانون مدة أطول من أي كتاب آخر ككتاب مقدس أوحده في الطب » .

«The Canon has remained a medical Bible for a longer period than any other book.»

ويشتمل القانون على خمسة أجزاء أو كتب . أما الكتاب الأول ، فهو مخصص للأمور الكلية من علم الطب : في حد الطب وموضوعاته وفي الأركان والأمزجة والأخلاط . وفي ماهية العضو وأقسامه والعظام والعضلات . وفي تصنيف الأمراض وأسبابها بصفة عامة من جهة النبض والهضم وتدبير الصحة وقوانين المعالجات : المسهلات ، الحمامات ... إلخ .

والكتاب الثاني ، خاص بالمفردات الطبية أو الأدوية غير المركبة . وهو قسمان : القسم الأول ، درس دقيق في ماهية الدواء وصفاته ومفعوله وطريقة حفظه . وتسهيلاً للإفادة من البيانات العديدة الموجودة فيه يعطي ابن سينا مجموعة من الألواح مبينة أثر كل دواء في كل عضو . والقسم الثاني ، يحتوي على المفردات نفسها مرتبة ترتيباً أبجدياً .

وفي الكتاب الثالث ، يدرس ابن سينا الأمراض الجزئية الواقعة بكل عضو على حدة . مبتدئاً من الرأس إلى القدم .

وفي الكتاب الرابع ، دراسة للأمراض الجزئية التي إذا وقعت لم تختص بعضو مثل الحميات ويعالج مسائل مثل الأورام والثرور والجذام والكسر والجبر ويخصص باباً للزينة . وأخيراً يدرس ابن سينا في الكتاب الخامس الأدوية المركبة ، أو الأقرباذين : وهذا في مقالتين : مقالة عملية ، يشير فيها إلى أصول علم التركيب ؛ وإلى جملتين : جملة في المركبات الراتبة في الأقرباذينات ، وجملة في الأدوية المركبة المحرقة في مرض .

ولقد لخص ابن سينا قانونه في قالب شعري فألف « الأرجوزة في الطب » وهي تشتمل على ١٣٢٩ بيتاً . وقد كانت بمثابة دستور للطب في مختلف أقسامه ، ويشغل القسم الخاص

بالأدوية الأليات من رقم ٩٩٧ إلى ١١١٩ . وقد ترجمت هذه الأرجوزة إلى اللاتينية في العصر الوسيط وأحرزت شهرة متفوقة مدة قرون . وقد نشرت أخيراً مع ترجمة فرنسية وتعليقات .  
وللقانون شروح كثيرة، ومختصرات كثيرة، وشروح على المختصرات، وحواش . طبع في روما سنة ١٥٩٣ ، وفي القاهرة سنة ١٢٩٠ هـ، وفي لكنو سنة ١٣٠٧ و ١٣٢٤ .  
وترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، ترجمه جيرار القرموني . وترجم كذلك إلى العبرية سنة ١٢٧٩ في روما . إلا أنه لم يترجم منه إلى اللغات الحديثة إلا أجزاء متفرقة . من هذه الترجمات ترجمة الكتاب الأول إلى الإنكليزية : ( لندن ، ١٩٣٠ ) . وترجمة ثلاثة مباحث في تشريح الأعضاء، ومبحث في الكلية والمثانة إلى اللغة الفرنسية : ( ليدن ، ١٨٩٦ ) . وترجمة البحث الثالث من الكتاب الثالث الخاص بالعين إلى الألمانية : ( لايبزغ ، ١٩٠٢ ) . وترجمة الكتاب الخامس إلى الألمانية : ( فرايبورغ ، ١٨٤٤ ) .

ومما يدل على سعة انتشار القانون أنه طبع باللاتينية في القرن الخامس عشر ست عشرة مرة، وأعيد طبعه في القرن السادس عشر عشرين مرة . وظل يدرس في جامعات أوربة حتى القرن الثامن عشر، وفي الشرق الإسلامي حتى القرن التاسع عشر .  
ويرى العلماء أن طب ابن سينا في القانون مختلف عن طب الرازي وابن زهر، وأنه اتبع مذهب أبقرط المعدل بطريقة أرسطو، فأدخل على علم الطب نظرية الأسباب الأربعة، وانكشف له من أسباب المعالجات وتركيب الأدوية ما لم ينكشف لغيره . إلا أنه أهمل الجراحة لاعتقاده أنها تدل على نقص في وسائل المعالجة، وأنها أعمال يدوية لا تتفق وشرف المهنة الطبية .

وفي بحثه القيم، الذي نشر في دائرة المعارف العربية، بإشراف فؤاد أفرام البستاني، والذي خصصه الباحث الدكتور نجم آبادي، لتقييم منزلة ابن سينا الطبية، من خلال كتاب القانون، يقول :

يصف ابن سينا في كتاب « القانون » تشريح جميع أعضاء البدن وصفاً صحيحاً جداً، ومع أن من الجائز أن تشريح الإنسان لم يكن معمولاً به في عهد ابن سينا، فإنه يذكر أقسام العظام والعضلات واحداً واحداً تماماً كما هو معروف اليوم . وإن لم يكن تشريح الإنسان ميسوراً في ذلك العهد، إلا أن من المظنون أن تشريح القرد كان معمولاً به، كما أن الرازي، قبل ابن سينا، أورد في كتبه عدة مطالب في هذا الباب .

ومعلومات ابن سينا في علم الأمراض جد واسعة وكاملة . يتحدث الكتاب الثالث، والكتاب الرابع من القانون عن الأمراض، وقد فصل كل الأمراض من الرأس حتى القدم،

• الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى .

وكذلك الأمراض العامة ، تفصيلاً وافياً . وابن سينا يعدد ، ويشرح ، في هذين الكتابين ، جميع الأمراض حتى عهده ، وكذلك ما اكتشفه وأضافه هو نفسه شرحاً يدل على دقة ومقدرة كاملة .

ويشرح جيداً أمراض الرأس ، والجمجمة ، والنخاع ، والعين ، والأذن ، والأسنان ، وقفص الصدر ، والقلب ، والرئتين ، والأحشاء ، والأعضاء الداخلية ، والأعضاء التناسلية للرجل والمرأة ، وأمراض الجلد ، واليد ، والرجل ، وذات الرئة ، وذات الجنب ، والقولنج ، والانسدادات ، وزيج العظام ، والكسر ، والسرطان ، والغدد ، وغيرها ، حتى أنه يتحدث في « القانون » عن السل بدقة تصل إلى مرتبة الإعجاز . فهو يفصل الكلام في السل الرئوي وفي مراحل الثلاث في بدن الإنسان ، قبل ألف سنة ، وبدون أن تتوافر له معدات التصوير والأشعة السينية . ولا خلاف قط بين ما ذكره وبين معلومات اليوم . ويوصي لعلاجها بمواد مأخوذة من التريبتين ، والعفص ، والجوز ، لأن هذه الأدوية اثلاثة مضادة للسل ، وقد كانت لفترة قريبة — بل وحتى اليوم — متداولة بين الناس .

وهو يرى أن للنبض توازناً موسيقياً . يقول « وإن للنبض حركة موسيقارية » . وقد كان ماهراً جداً في تشخيص المرض من النبض ، وتشخيص نوع النبض في المرض ، وقصة ابن أخت قابوس ومعالجة مرضه على يد ابن سينا لإحدى القصص الرائعة التي نعرفها جميعاً . وكان ابن سينا يعتقد أن لبن الأم أفضل غذاء للطفل . فإذا لم يكن بثديي الأم لبن وجب أن يعهد بالطفل إلى مرضع ، وهو يوصي للرضاعة في القانون بالقواعد التي يوصي بها طب اليوم .

وابن سينا أول من ذكر ألم العصب ذي الثلاث شعب .

وطريقته في المعالجات النفسانية توصي بالتلقين والإيحاء . وقد كان يعتمد عليها في معالجاته النفسانية . وينقل عنه كثير من القصص في أمثال هذا النوع من المعالجات . ولابن سينا رأي خاص في حالة الطبيب أمام المريض أثناء تأديته لمهمته ، فهو يرى أن لوضع الطبيب وحالته المعنوية أثراً كبيراً في شفاء الأمراض . فإذا كان الطبيب بشوشاً أثر كثيراً في المريض . يقول : « وينبغي للطبيب أن يكون دائماً مبشراً بالصحة ، فإن للعوارض النفسانية تأثيرات عظيمة » .

أما في باب الصحة والرياضة فقد كان ابن سينا يرى أن الرياضة أحد الأركان الهامة في السلامة . والغريب أنه يوضح مختلف أنواع الرياضة للإنسان في مراحل العمر المتباينة ، كما يوضح جيداً أثر الرياضة في الوضع النفساني والحياة الروحية . وهو يرى أن أفضل مياه الشرب مياه العيون والينابيع .

ومن كتب ابن سينا الطبية كتاب الأدوية القلبية، طبع في الاستانة، وكتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، وكتاب القولنج، ورسالة في السكنجين، ورسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب، وكتاب الفصول الطيبات، ورسالة في تشريح الأعضاء، ومختصر في النفس (فارسي)، ورسالة في الفصد، ورسالة في الأغذية والأدوية، ورسالة في الأقرباذين، ومنها: مسائل حنين في الطب، والمسائل الطبية، ورسالة في الهنءباء، نشرها سهيل أنور في الآستانة. ولابن سينا أراجيز طبية كثيرة منها: أرجوزة في التشريح، وأرجوزة الجربات في الطب، والألفية الطبية المشهورة، طبعت في لكنو سنة ١٢٦١هـ، مع شرح ابن رشد، وفي كلكتا سنة ١٨٢٩، وترجمت إلى اللاتينية، وطبعت مراراً في البندقية، وأرجوزة في الباه، وأرجوزة في الفصول الأربعة، وأرجوزة في الطب، وأرجوزة في وصايا أبقرط، وأرجوزة في الوصايا الطبية وغيرها.

لقد هيمن ابن سينا، كما هيمن جالينوس على الفكر الطبي، الأوربي، طوال القرون الوسطى، حتى جاء «باراسيلسوس Paracelsus» عام ١٥٢٧م، فأحرق على ملاء، أعمال هذين العالمين العظمين.

ومهما يكن من أمر، فإن ابن سينا، الذي تخاطفته الأمم، وتسابقت في نسبته إليها، كان صنيع عصره وبيئته، وكان قمة من قمم الثقافة العربية — الإسلامية، والعالمية. أدى رسالته في الشرق، كما أداها في الغرب، وشغل الأذهان في العصور الوسطى والعصور الحديثة، ولسوف يذكر دائماً وأبداً، في طليعة علماء العالم، الذين مهدوا الطريق أمام مسيرة العلم والمعرفة، وهو بلا ريب حلقة هامة من حلقات تاريخ الفكر الإنساني.

### ابن رشد Averroes

ولد القاضي ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨م)، في مدينة قرطبة. وكان ينتمي إلى أسرة من أعرق الأسر الأندلسية. كان جده أبو الوليد، قاضي قرطبة، من كبار الفقهاء. وجريا على سنة والده وجده، درس الكلام، والفقه، والأدب، فحضر بقسط وافر منها جميعاً. إلا أن الميدان الذي كتب له أن يبرز فيه، وبرز معاصريه، هو ميدان الفلسفة والطب.

وكان بين ابن رشد، وبين أستاذه، الطبيب الإشبيلي ابن زهر (١٠٩٤ — ١١٦٨م)، مودة. وكان ابن زهر المتحدر من عائلة عريقة في الطب تمتد فروعها حتى تصل إلى جذورها العربية الأصيلة، قد وضع كتابه الأساسي «التيسير في

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوروبا في القرون الوسطى

المداداة والتدبير» ، وهو موسوعة طبية هامة ، ترجمت إلى اللاتينية مرتين ، وتركت أثراً كبيراً في الطب الأوربي ، وفيها يبدو مدى تمكن ابن زهر من علم الطب ، وموهبته فيه .

ولقد أهدى ابن زهر مؤلفه الضخم ، إلى تلميذه ، وصديقه ابن رشد ( ١١٢٦ — ١١٩٨ م ) ، الذي فاقه شهرة حتى قال فيه : « إن ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس » . فرد ابن رشد على هدية أستاذه بكتاب طبي في غاية التنظيم والترتيب ، وهو كتاب « الكليات في الطب » . ومن مدينة « بادوا » جاءت ترجمة كتاب « الكليات » إلى اللاتينية ، وأصبح اسمه « Averroes Colliget » .

كان ابن رشد يتمتع بمكانة رفيعة بين الأطباء . وقامت شهرته على نتاجه الفلسفي الخصب ، وعلى الدور الذي لعبه في تطور الفكر العربي من جهة ، والفكر اللاتيني من جهة أخرى .

ولقد قسم العالم الأمريكي ، سارتون ، الأطباء العرب إلى فئتين : فئة الأطباء الفلاسفة ، وفئة الفلاسفة الأطباء . ذلك لأن معظم أطباء ذلك الزمان كانوا يهتمون بالطب والفلسفة معاً . فمنهم من غلب عليه الطب ، رغم اشتغاله بالفلسفة ، كالرازي . ومنهم من غلبت عليهم الفلسفة ، كابن سينا وابن رشد . وكان ابن زهر ، لا يهتم بالفلسفة ، وكان يعيب على الأطباء اهتمامهم بها ، ويفضل التجربة على النقاش النظري . ولكن ابن رشد ، رغم أنه كان تلميذ ابن زهر ، إلا أنه كان فيلسوفاً ، طبيباً ، خلافاً لما كان عليه أستاذه .

ويعود الفضل إلى ابن طفيل ( المتوفي ١١٨٥ م ) ، الذي قدمه إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف الذي طلب إليه ، أن يفسر له آثار أرسطو . وكان من نتائج هذا اللقاء بين ابن رشد ، والخليفة ، حوالي سنة ١١٦٩ ، وإعجاب الخليفة به ، أن ولي منصب القضاء في إشبيلية .

ولما تولى المنصور أبو يوسف يعقوب الخلافة ، إثر وفاة والده أبي يعقوب يوسف ، سنة ١١٨٤ م . لقي الفيلسوف ابن رشد الحظوة والإكرام . إلا أن الوشاة ، مازالوا بالمنصور ، حتى أثاروا غضبه عليه ، فأمره أن يقيم بمدينة « أليسانة » على مقربة من قرطبة ، مع عدد من المشتغلين بالعلوم والحكمة . وأمر بإحراق كتبه وسائر كتب الفلسفة . وحظر عليه الاشتغال بالفلسفة والعلوم جملة ، ما عدا علم الطب وعلم النجوم . ولعل نقمة المنصور على ابن رشد ، كانت إرضاءً للفقهاء الذين كانوا يضمرون لأصحاب الفلسفة ، شراً .

نال ابن رشد في الغرب ، شهرة واسعة . وأثرت آراؤه في فكر عدد من فلاسفة الغرب ، وعلى رأسهم توما الاكوينى . وكان جريئاً في الدفاع عن آرائه ، فنُد ما نشر الإمام

الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة»، ورد عليه بكتابه «تهافت التهافت»؛ اشتهر بنظرياته في خلود المادة، والحركة، والفكر.

ولقد لخص ابن رشد العديد من كتب أرسطو في الطبيعيات والالهيات، والأخلاق، وما وراء الطبيعة... كما لخص العديد من كتب جالينوس...

ومن أقواله: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله».

ومن الغريب حقاً، أن تذكر قصصه، في قصائد الشاعر «تشوسر»، إذ أن أعماله كانت محرمة، من قبل الكنيسة، في القرون الوسطى.

كان ابن رشد يقرض الشعر، وترك عدة دواوين له. كما أنه كان يهتم بعلم الفلك. أما في الطب فإن كتابه «الكليات»، المؤلف من سبعة مجلدات، قد ترجم إلى اللاتينية، وفيه وصف رائع لشبكية العين. وطبع الكتاب أول مرة باللاتينية سنة ١٤٨٢ م. ثم طبع ثانية سنة ١٥٥٢ م.

له في الطب أيضاً:

شرح الأرجوزة المنسوبة إلى ابن سينا في الطب.

تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس.

تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس.

تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.

تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس.

وغير ذلك من الكتب والمقالات والمسائل...

توفي ابن رشد في مدينة مراكش بالمغرب، عن عمر يناهز الثامنة والسبعين، ثم نقل

جثمانه إلى قرطبة، مسقط رأسه، حيث ووري فيها الثرى. وله فيها تمثال لا يزال حتى الآن.

## الدمشقي

هنالك طيبان يحمل كل واحد منهما لقب الدمشقي:

١ — الحكم الدمشقي.

٢ — عيسى بن الحكم الدمشقي.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

## الحكم الدمشقي

يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» :  
 «إن الحكم الدمشقي ، كان أبوه ، واسمه أبو الحكم ، طبيباً نصرانياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية ، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة . وكان معاوية بن أبي سفيان يستطبه ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه .  
 وعمر أبو الحكم هذا عمراً طويلاً حتى تجاوز المائة سنة .  
 وفي تاريخ الطبري أن الحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، مات مسموماً في أيام معاوية وكان عند معاوية كما قيل دهاء ، فدس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وكانت زوجة الحسن ، رضي الله عنه ، شربة وقال لها : إن قتلت الحسن زوجتك بيزيد . فلما توفي الحسن بعثت إلى معاوية تطلب قوله ، فقال لها في الجواب : أنا أضن بيزيد .  
 وكان الحكم يلحق بأبيه في معرفته بالمداداة والأعمال الطبية والصفات البديعة . وكان مقيماً بدمشق . وعمر أيضاً مثل أبيه عمراً طويلاً .

قال يوسف بن ابراهيم : حدثني عيسى بن الحكم أنه ركب مع أبيه بمدينة دمشق ، إذ اجتازوا بحانوت حجام قد وقف عليه بشر كثير ، فلما بصر بنا بعض الوقوف قال : أفرجوا هذا الحكم المتطبب وعيسى ابنه . فأفرج القوم ، فإذا رجل قد فصده الحجام في العرق الباسليق ، وقد فصده فصداً واسعاً ، وكان الباسليق على الشريان ، فلم يحسن الحجام تعليق العرق فأصاب الشريان . ولم يكن عند الحجام حيلة في قطع الدم . واستعلمنا الحيلة في قطعه بالرفائد ونسج العنكبوت والوبر ، فلم ينقطع بذلك . فسألني والدي عن حيلة ، فأعلمته أنه لا حيلة عندي . فدعا بفستقة فشققها وطرح ما فيها ، وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد ، ثم أخذ حاشية من ثوب كتاب غليظ فلف بها موضع الفصد على قشر الفستقة لفاً شديداً ، حتى كان يستغيث المفتصد من شدته ، ثم شد ذلك بعد اللف شداً شديداً ، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى ، وأدخل يده في الماء ووطأ له على شاطئ النهر ونومه عليه ، وأمر فحسى محات بيض نيمرشت ، ووكل به تلميذاً من تلامذته ، وأمره بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلا عند وقت الصلاة أو يتخوف عليه الموت من شدة البرد . فإن تخوف ذلك أذن له في إخراج يده هنيهة ثم أمره بردها ، ففعل ذلك إلى الليل . ثم أمر بحمله إلى منزله ونهاه عن تغطية موضع الفصد ، وعن حل الشد قبل استتمام خمسة أيام ، ففعل ذلك . إلا أنه صار إليه في اليوم الثالث وقد ورم عضده وذراعه ورماً شديداً ، فنفس من الشد شيئاً يسيراً ، وقال للرجل : «الورم أسهل من الموت» . فلما كان في اليوم الخامس حل



الشداد فوجدنا قشر الفستقة بلحم الرجل . فقال والذي للرجل : « بهذا القشر نجوت من الموت ، فإن خلعت هذا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل منك تلفت نفسك » .  
قال عيسى : فسقط القشر في اليوم السابع وبقي في مكانه دم يابس في حلقة الفستقة . فنهاه والذي عن العبث به ، أو حك ما حوله ، أو فتّ شيء من ذلك الدم . فلم يزل الدم يتحات حتى انكشف موضع الفصد في أكثر من أربعين ليلة وبرأ الرجل .

### عيسى بن الحكم الدمشقي

هو صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به وينسب إليه .  
قال يوسف بن ابراهيم : ( وقد نزل على عيسى بن الحكم في منزله بدمشق سنة خمس وعشرون ومائتين ) . قال : « حدثني عيسى بن الحكم أنه عرض لغضيبض أم ولد الرشيد قولنج فأحضرتة وأحضرت الأبح والطبري الحاسبين ، وسألت عيسى عما يرى معالجتها به . قال عيسى : فأعلمتها أن القولنج قد استحکم بها استحکاماً إن لم تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف .

فقال ، للأبح والطبري : « اختاراً لي وقتاً أتعالج فيه » . فقال لها الأبح : « علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج إلى وقت يحمد المنجمون ، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعلمي عملاً ، وكذلك يرى عيسى بن الحكم » . فسألتني ، فأعلمتها أن الأبح قد صدقها . فسألت الطبري عن رأيه فقال : « إن القمر اليوم مع زحل ، وهو في غد مع المشتري ، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج إلى مقارنة القمر المشتري » . فقال الأبح : « أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري وقد عمل القولنج عملاً لا يحتاج معه إلى علاج » . فتطيرت من ذلك غضيبض وابنتها أم محمد وأمرتا بإخراجه من الدار وقبلت قول الطبري . فماتت غضيبض قبل موافاة القمر المشتري . فلما وافى القمر المشتري قال الأبح لأم محمد : هذا وقت اختيار الطبري للعلاج فأين العليل حتى نعالجه ؟ فزادتها رسالته غيظاً عليه . ولم تزل سيئة الرأي فيه حتى توفيت . وهذا يذكرنا بما جاء في قصيدة تشوسر في الحديث عن الطبيب العارف كل شيء ، الذي كان يرقب الكواكب ، منتظراً اقترانها ... ليبدأ في تطبيق علاجه ... في اللحظة المناسبة !

كان الدمشقي ، طبيباً عربياً . وهو من أبناء دمشق ، التي كانت في القرن التاسع تعد واحداً من أهم المراكز الطبية في العالم العربي كله . كما كان مستشفىها الكبير ، ذي المباني

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

المخصصة لكل الفروع ، والذي كان يديره الطبيب الدمشقي الشهير أبو الحكم ، ( كما تذكر ذلك المستشفة زيفريد هونكه ) ، واحداً من أقدم الأمثلة على « الطب المؤم » . إذ في الوقت الذي كان القرآن الكريم ، يأمر بالزكاة ، أو الصدقة ، تعطي للفقير ، كان هذا المستشفى ، يقدم العناية الطبية مجاناً للفقراء والأغنياء على حد سواء . فالمرضى ، كانوا يحصلون مجاناً على : الدواء ، والمأوى ، والغذاء ، والحمام الساخن ، واللباس الأبيض النظيف ، إضافة إلى مبلغ من المال ، يعطونه ، هبة لهم ، عندما يتأثلون في الشفاء وقبل أن يعودوا إلى بيوتهم .

ويروى أن رجلاً نبيلاً ، من نبلاء الفرس ، جاء مرة لزيارة هذا المستشفى ، « بيمارستان النوري » ، في دمشق ، وكان نهماً ، وشهيته للطعام قوية دوماً ومتجددة ، وأثناء زيارته هذه ، فاحت رائحة الشواء فملأت منخريه ! ... فسأل لعابه ، وود ، في ذات نفسه ، لو أنه أصبح مريضاً عليلاً . فأخذ يئن ، وملاً أنينه المكان ، فعائنه الطبيب طويلاً دون أن يجد فيه علة ، فطرح عليه بعض الأسئلة ، فأيقن أنه أمام رجل جشع نهم ، علته في معدته ! ... فلم يقل له أية كلمة ، وإنما حوله إلى قسم الأمراض الداخلية ، وهناك ، وصف له الطبيب شيئاً من العسل ، وكبد الطير ، والكمىء المقلي ، وقليلاً من « المريات » ، والليمون ، وأنواعاً من الحلوى المسيلة للعاب ، وذلك مرتين يومياً ! ... ولم تكد تمضي ثلاثة أيام ، على هذا المنوال ، حتى ضعفت مقاومة « النبيل المريض » ، وأصبحت معدته مهددة بالخطر ! ... عند ذلك قال الطبيب : « لقد تمتعت يا صاحبي بحسن الضيافة العربية أياماً ثلاثة ، فاذهب الآن في سلام وأمان الله ، وليكن الشفاء حليفك ! » .

ويروي ابن الحير ، قصة مرضه ، وهو في رحلته من القدس ، فيقول : « قصدت دمشق باحثاً عن طبيب ، فأخذوني إلى مستشفى عظيم ، فاستقبلني المدير ، وحياني ، وسألني بكل لطف ورقة ، عن طبيعة مرضي . فأخبرته ، ففحصني ، ثم كتب لي وصفة طبية ، وقال : « سيأتيك المساعد ، بالأدوية التي وصفت ، فاعترضت وقلت له إني بحمد الله غني ، وقادر على دفع ثمن أدويتي ، دون أن أسبب للفقير ، الحرمان مما خصص له . فأجابني الطبيب قائلاً : « يا صاحب السعادة ، قد ترفض أنت أدويتنا ، ولكن لا تستخف بما نفعل » . وقال مؤكداً لي : « إن السلطان ، وأبناءه ، وجميع أفراد أسرهم ، يأتون إلى هنا لتلقي العلاج ، ولا يدفعون شيئاً » . فكررت اعتراضي ، وقلت إنني لا أوافق على ذلك . فقال : « ليكن ما تريد » ، إلا أن واجبنا يحتم علينا ، أن نسعف كل المؤمنين ، سواء أكانوا فقراء ، أم أغنياء ، دونما تمييز . وهنالك روايات أخرى تقول : إن عدداً من عابري السبيل كانوا يأتون إلى مستشفى دمشق الكبير ، يشكون فقط ، من التعب الجسماني أو الإعياء النفسي ، فيستضيفهم المستشفى

مدة ثلاثة أيام، يقدم لهم أثناءها، كل وسائل الراحة المتوفرة لديه، لحم الدجاج، ولحم الخروف، ولحوماً أخرى، وشرابات ... ولكن، ما أن تنتضي أيام ثلاثة، حتى يقدمون لهم علاجاً طعمه غير مستساغ، إيداناً بانتهاء مدة الاستضافة .

### قسطنطين الإفريقي Constantine The African

عندما قرر الطبيب اللومباردي، « ستيفان Stephan »، وكان مع الفرسان الصليبيين في مدينة أنطاكية، عندما قرر نقل كنوز العرب في علم الطب، وحفظها للمسيحية الأوربية، دخلت شهرة قسطنطين الإفريقي، مرحلة الخطر .

ذلك لأن الطبيب « ستيفان »، عندما ابتداء عام ١١٢٧م . في نقل « الكتاب الملكي »، لعلي بن العباس، من العربية إلى اللاتينية، أخذه العجب ! وتبين له أنه أمام معلومات عرفها من قبل ! فلقد أمضى من عمره ثلاث سنوات في ساليرنو، يقرأ أعمال قسطنطين، وسهر الليالي الطوال في دراسة ما جاء فيها، وها هو الآن يجد ذلك أمامه، في الكتاب الملكي كاملاً، ومنسقاً ! ... إذن، فإن ما نسبته قسطنطين لنفسه، لم يكن من بنات أفكاره، بل كان نقلاً عن كتاب وضعه عالم عربي، وأيقن ستيفن، أن قسطنطين، سارق كبير ! ... فشن هجوماً عنيفاً ومفرعاً على مؤلف « Liber Pantegni »، المزعوم، وإليكُم القصة من أولها، أخذت من رواية صحيحة في أصلها، وإن تكن مزدانة بالمغامرات، ومحاطة بصور من البطولة والإعجاب .

في إحدى مدن إفريقيا الشمالية، الممتدة جذورها في أعماق التاريخ، في قرطاجة، أبصر النور عام ١٠٢٠م طفل، يقول المؤرخون أنه دخل المسيحية، فيما بعد، وسمى نفسه قسطنطين . ولقد ترعرع هذا الطفل، في قرطاجة، البلد الذي التقت فيه طرق العالم، وتدفقت عليه أفواج من البشر، آتية من كل حذب وصوب .

نما الطفل حتى أصبح يافعاً، تحت سماء الشرق، الذي زرع في نفسه حب العلم، والأسفار، ف قضى نصف عمره بترحال في أرجاء الأرض دائم، وتطواف بحواضر العالم مستمر ... عمل بالتجارة، وتاجر بالعقاقير، فكان اتصاله بالطب العربي اتصالاً مباشراً، وسمع عن أساطينه الشيء الكثير : فهذا اسم ابن سينا، تردده شفاه الناس، كلما ألمَّ بإنسان ألم، أو كلما احتلى طالب علم إلى سراجيه يستضيء به، وإلى كتبه يستنير بها . وهذا اسم ابن الهيثم، خالد الذكر، يعيش في معظم البيوت العربية . وها هو ابن بطلان، يلتقي

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

قسطنطين به ، في بغداد أولاً ، ثم في حلب ، وأنطاكية . وها هو ابن رضوان يلتقي به في القاهرة .

لقد كان قسطنطين دائم الترحال ، وعندما بلغ الأربعين من عمره زار لأول مرة صقلية العربية ، وكانت هذه الزيارة أول اتصال له بأرض الفرنجة . اتصل بالقصر ، وجرى بينه وبين شقيق أمير ساليرنو ، الذي كان طبيباً ، حديث طويل ، تحدثا خلاله عن أمور كثيرة ، وكان من بين الأمور التي تحدثا عنها موضوع الطب ، والعقاقير . ولقد حدث قسطنطين جليسه عما سمعه عن معجزات الطب العربي ، وعن عقاقيره . وكان أن وعد محدثه ، ومن كان معه من جلسائه ، بأن يزودهم في أسفاره المقبلة ، بكنوز من الطب العربي .

عاد قسطنطين إلى مصر ، ودخل مدارس الطب فيها ، يمضي السنوات الطوال دارساً ، وهو في مرحلة النضج الكامل . وبعد كفاح متواصل عاد إلى ساليرنو ثانية ، وهو يحمل رزمة من الكتب . وكان أول شيء قام به ، هو أنه تعلم لغة البلاد ودرس معارف علمائها . ثم انصرف بكليته إلى العمل ، وحقق بدأب متواصل ، المخطوطة تلو المخطوطة ، فأحدث بذلك ضجة عظيمة بين الناس ، الذين تلقفت أيديهم تلك المخطوطات بإعجاب كبير . فعلا مقامه في البلاد وأصبح يشار إليه بالبنان ، واعتبر العالم العظيم الذي لم تعرف ساليرنو ، وهي المدرسة الطبية الأولى في العالم المسيحي ، مثيلاً له من قبل في غزارة إنتاجه وروعة كتبه .

انقطع قسطنطين كراهب في دير « مونت كاسينو Monte Cassino » ، ينعم بسكينة الجبال ، ويكتب في ظل هدوئها ، ما شاء له القدر أن يكتب . فحقق مؤلفاته الطبية الرائعة التي كانت تنزل كالوحي على أطباء ساليرنو . لقد كان قسطنطين متخصصاً باللغات والترجمة ، أكثر من تخصصه بالطب ؛ كان يعرف العربية ، والعبرية ، واليونانية ، ثم درس اللغة اللاتينية ، عندما استقر في ساليرنو . ولقد صاغ مؤلفاته بلغة لاتينية ركيكة ومبهمة ، في البدء ثم ساعده في تنقيحها وتوضيح غوامضها فيما بعد تلميذه : الراهبان « آتو وجوهانيس Atto & Johannes » أما آتو فلقد أصبح فيما بعد طبيب الامبراطورة الرومانية « أغنيس Agnes » ، الخاص ، ونقل لها ترجمات أستاذه شعراً ، إلى الرومانية .

وأما ، جوهانس ، الفتى العربي يحى بن عقلة ، فهو تلميذه الحبيب إلى قلبه ، والذي أنقذه من الفقر ، وقربه إلى نفسه ، فاعتنق المسيحية ، وسمى نفسه يوحنا ، وأصبح بعد وفاة أستاذه ، طبيباً مشهوراً في ساليرنو .

توفي قسطنطين عام ١٠٨٧ م ، وبقيت شهرته ، مطبقة الآفاق طيلة أربعين عاماً ،

حتى تبين بعدها، فجأة، أن ذلك الرجل الذي أتى من قرطاجة، لم يكن عبقرياً بقدر ما كان تاجراً أو غشاشاً، عرف كيف يغلف بضاعة قديمة بغلاف جديد بهر الأنظار . ولم يكن كشف الطبيب اللومباردي استيفان، عام ١١٢٧م، لهذه الحقيقة، إلا البداية .

ففي صقلية، وجد المترجم ديمتريوس، في كتاب قسطنطين عن البصریات « De Oculis »، وجد كتاب حنين بن اسحق في علم أمراض العيون . وفي مخطوطة قسطنطين الهامة « Viaticum »، وجد كتاب « زاد المسافر » لابن الجزار . وفي كتبه عن الحمية، والبول، والحمى، وجد ترجمات لمخطوطات الإسرائيلى . وأما جراحته، فهي بلا ريب، من صنع علي بن العباس !! وأما كيميائه، فهي من عمل الرازي !! وأما مخطوطات أبقرات، وجالينوس، القليلة، التي حملها قسطنطين معه إلى ساليرنو والتي ترجمها إلى العربية، حنين بن اسحق، وابن أخته حبش بن الحسن، فلم يعث بها، ولم يغير أسماء مؤلفيها اليونانيين، إلا أنه محا كل اسم عربي، في كل المخطوطات، ونسبها إلى نفسه، خوفاً من أن يقطع ثمار عمله سارق آخر غريب ! ولقد أرى مؤرخ الطب الفرنسي « دارميرغ Darem berg »، إلا أن يقول كلمة قاسية بحق قسطنطين، وعادلة، في آن واحد: وجه انتقاداً لاذعاً إليه لسرقته، ولكنه قال أن قسطنطين هذا يستحق التكريم، لفضله العظيم، حين نقل آثار العرب إلى أوربة، فأيقظ الطب الأوربي من سباته العميق، الذي كاد أن يشبه الموت . واقترح دارميرغ إقامة نصب تذكاري له على قمة الجبال المشرفة على ساليرنو، تخليداً لذكراه !

## من الأطباء الأوربيين

### برنارد الاسكتلندي

كان « برنارد دو غوردون Bernard de Gorden »، اسكتلندياً، وكان أستاذاً في الطب، في مدرسة الطب، في مدينة مونبيلييه، من عام ١٢٨٥، إلى ١٣٠٧، والتي أسست عام ٧٣٨م . وكان كتابه: « زنبقة الطب »، معبراً عن الممارسة الأنموذجية، المتبعة في ذلك

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

العصر ، عصر الانحسار الفكري وضآلته . وكان هذا الكتاب مليئاً بأفكار لا معنى لها ، وبخرافات وعقائد ، أخذت من ممارسات سابقة . ولكن من الجدير بالذكر أن برنارد ، كان أول من ذكر استعمال النظارات في كتابه هذا . ويسمىها : « العين المصنوعة من الحجر الدخاني Oculus Berellinus » . وهنا لا بد أن نتوقف قليلاً ، ذلك لأن « البيريلليوم Beryllium » يعتبر اليوم ، من أهم معادن عصر الذرة . وهو شبيه بالزمرد ، ولقد أشار إليه « بليني Pliny » ، حين وصف نيرون وهو يراقب العبيد المتقاتلين ، في حلبة « الكوليزيوم Coliseum » ، من خلال عدسة من الزمرد . وبالطبع ، فإن « روجيه بيكون Roger Bacon » ، كان اقترح في كتاب بعث به إلى البابا عام ١٢٦٧ ، أن قطعة مأخوذة من جسم بلوري كروي ، يمكن للمسنين أن يستعملوها ، كبلورة للقراءة .

## جون غادسدن John of Gaddesden

( ١٢٨٠ — ١٣٦١م )

درس غادسدن الطب ، في كلية الطب ، في مونبيلييه . وكان من أشهر طلابها . كان كاهناً ، وبعد تخرجه من الكلية ، أرسلته الكنيسة ، ليكون الطبيب الخاص للملك إدوار الثاني وليكون أيضاً أستاذاً يدرس الطب في كلية « مورتون Merton » في أوكسفورد . ألف كتاباً في الطب سماه : « الوردة الإنكليزية Rosa Anglica » ، وقال عنه : « كما أن الوردة تمتاز على بقية الأزهار ، كذلك كتابي هذا يمتاز على سواه من الكتب » . وحين أصيب ابن الملك إدوار الثاني بالجذري ، خفف غادسدن من بثور المرض ، وما تركه من آثار في الجلد بأن لف الطفل المصاب بالقماش الأحمر . وتديبه هذا ، ينبع من معتقدات وأفكار تقليدية ، وخرافية ، استمدها من الآراء الجالينوسية ، ومن نظرية الأخلاط . لقد كان اللون الأحمر ، لوناً سحرياً ، تكرهه الشياطين ، تماماً كما تكرهه ثيران اسبانيا ، وهو ينسجم ، مع الطفح الاحمراري ، الذي يظهر على جلد المصاب ، فكان العلاج يتم وفق مبدأ « معالجة الداء بالداء » .

أضف على ذلك أن غادسدن كان يعتقد بأن الضوء الأحمر يمتص حدة الحمى ، يجذبه الدم إلى سطح الجلد ، حيث يريد فيخفف من شدتها . وأغلب الظن أن طبيب الملك هذا ، قد تأثر بكل هذه المعتقدات ، ولكنه ، حين طبق القماش الأحمر اللون لمداداة الجذري ، لم يكن يعلم أنه إنما يطبق ما نسميه اليوم « بالمداداة بالضوء Phototherapy » ، إذ

بعد ٥٠٠ سنة، أي في عام ١٨٩٣م، بين العالم «فنسن Finsen»، وهو رائد المعالجة بالضوء، أنه بالإمكان التخفيف من بثور الجدري، ومن آثارها، بإبعاد المريض عن الأشعة فوق البنفسجية، وقد تنفع الستائر الحمر، في تحقيق الغاية ذاتها.

يقول تشوسر، وكان معاصراً لغادسدن، يقول في قصيدته: «كان جون كفوءاً جداً. وكان قادراً على معالجة نوب الصرع، بواسطة عقد يطوق به عنق المريض، كما كان قادراً على معالجة الشلل، بشراب كحولي يحضره بنفسه. ويرى المؤرخ «Freind» الذي كتب «تاريخ الطب»، أن جون كان فناناً في رمي الطعام للسيدات الثيات، إذ كان يتنازل، فيصف لهن العطور، والغسول، ويشرح لهن بوجه خاص، كيفية تحضير أصباغ الشعر! وكان يقوم بدراسات تهدف إلى اختراع دواء نادر وثمين خاص بهن. وكان يحرص على المحافظة على علاقات حسنة مع الأغنياء، الذين كان يتقاضى منهم نفع ما كان يأخذ من الفقراء.

### جيلبرت الإنكليزي Gilbert, The Englishman

توفي جيلبرت عام ١٢٥٠م. وكان من أبرز قادة الطب الإنكليزي — النورماني. كان إنساناً عاقلاً، يؤمن بالمعالجات البسيطة، ويطرق أبقرات في تطبيقها. ولكنه اعترف بكل براءة، أنه سيبدو غريب الأطوار، وسيرفضه الجميع، فيما لو حاول تطبيق تلك الطرق. ولذلك أيد كثيراً من الخرافات والسخافات التي كانت منتشرة في عهده. وهذا مثال على ذلك: مرهم جيلبرت لمعالجة النقرس، أو ما سمي بداء الملوك:

«خذ جرواً مفرط السمنة، واسلخ جلده، ثم خذ عصير الخيار البري، والسذاب، وعشبة الزجاج، وتوت اللبلاب، وتوت العرعر، والخروع، ودهن النسر، ودهن الأوز، ودهن الثعلب، ودهن الدب، بمقادير متساوية، ثم يحشى الجرو بها، وترفع على النار، وتغلى جيداً، إلى أن يطفوا الدهن كله على سطح الماء، فيؤخذ، ويضاف إليه الشمع، فيصبح مرهماً يطبق على موضع «الأم»!

أو خذ ضفدعاً، حين لا تكون الشمس مشرقة ولا القمر، واقطع ساقيهما الخلفيتين، ولفهما بجلد غزال، ثم ضع ساق الضفدع اليمنى، على الساق اليسرى للمريض، وساق الضفدع اليسرى، على الساق اليمنى للمريض، ولسوف يكون شفاء المريض أمراً مؤكداً!

ولقد أصدر دليلاً صحياً سحرياً، ومدهشاً، لكبار اللوردات، ولزوجاتهم، ليكون لهم معيناً في أسفارهم البرية والبحرية.

- الأطباء العرب ، الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى

وكان أهم إسهام جدي ، قام به جيلبيرت ، في حقل الطب ، هو الوصف الدقيق لمرض الجذام ، والذي أصبح أساساً للقوانين في القرون الوسطى ، كما أن جيلبيرت اكتشف أن الجدري داءٌ مُعيد .







## الفصل الحادي عشر



العلم والطب العربيان ودورالعرب في إحياء  
الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

- رينان ينكر دور العرب . رد بعض المؤرخين عليه .
- هجمات البرابرة وانحيار الامبراطورية الرومانية في الغرب .
- الحقبة الهيلينستية والحركة العلمية والفكرية في مصر وسورية .
- الاسكندرية زعيمة العالم الهيلينستي في العلوم .
- ازدهار الحياة الفكرية في الأطراف الشرقية من الامبراطورية الرومانية .
- الحركة الفكرية في الامبراطورية الفارسية — الساسانية .
- الفتح العربي ، وتطور العلوم .
- معاهد العلم في العصر العباسي . المدارس ، والمكتبات .
- مسيرة الترجمة إلى العربية . حنين بن اسحق .
- الطب العربي .

# العلم والطب العربيان

## دور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

في القرون الوسطى العشرة، والتي وصفها بعض مؤرخي الغرب بأنها «ألف عام من الظلام»، لعب العرب دوراً أساسياً في إحياء النشاط العلمي في أوربة، ذلك الدور الذي أنكر وطمس لزمن طويل.

وكان على رأس من أنكر دور العرب هذا، العالم الفرنسي إرنست رينان، الذي ألقى في السوربون، في التاسع والعشرين من شهر آذار، من عام ١٨٨٣، محاضرة في موضوع: «الإسلام والعلم»، قال فيها: «هذا القدر الكبير من علم الفلسفة، الذي اعتاد البعض على تسميته بالعلم العربي، لأنه كتب باللغة العربية، هو، في الواقع، علم إغريقي — ساساني، بل بتعبير أدق، علم إغريقي فحسب، ذلك لأن العنصر المثمر حقاً فيه، أتى من اليونان... ثم أردف قائلاً: لقد كانت اليونان الينبوع الوحيد للمعرفة وللфكر القويم...»! لقد أراد رينان أن يؤكد، في طرحه هذا، على أن كل شيء أتى من الإغريق، وأن العرب كانوا مجرد وسيط، عندما نقلوا علم الإغريق إلى الغرب!

ولقد عقت السيدة فرانسواز ميشو، وهي اليوم أستاذة تاريخ الطب، في السوربون، بباريس، عقت على ذلك بقولها: «إن هذا الطرح القاسي، الذي طرحه رينان، منذ أكثر من مائة عام، كان من الممكن أن يعتبر ضرباً من السلوك المعادي للسامية، لولا أن بعض مؤرخي العلوم، طرحوه، هم أيضاً، في محاضراتهم، ولكن بأساليب مقنعة، وكانوا في الوقت ذاته من المفكرين المجاهرين بآرائهم المعادية للتمييز العنصري.

ولقد سبق أن ذكرنا أن ديورانت قال في قصة الحضارة: «إن الآريين... أخذوا صرح الحضارة عن بابل ومصر...». ونجده في موضع آخر يقول: «إن هالة القدسية التي كلل بها الغرب اليونان وروما، بدأت تزول من العقول، وأخذت منطقة الشرق الأدنى، تستعيد حقوقها الحضارية على يد بعض قادة الفكر الإنساني العادلين. ويقول أيضاً: «إذا ما درسنا

الشرق الأدنى وعظمتنا شأنه، فإننا إنما نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الغربية، دين كان يجب أن يُؤدَّى من زمن بعيد» .

ومهما يكن من أمر فإنه لا بد لنا هنا من ذكر السبل التي سلكها علم الإغريق، حتى وصل الغرب بواسطة علماء العرب، الذين ما أن تلقفوه، حتى ترجموه، وفسروه، وصنفوه، ونقدوه أحياناً، وأضافوا إليه الكثير من نتاج فكرهم النير، ثم حملوه إلى العالم الغربي، هدية ثمينة، أخرجته من الظلام الذي كان يعيش فيه .

في القرن الخامس للميلاد، أخذ البرابرة بشن هجماتهم على أوربة، وأخذت الامبراطورية الرومانية فيها بالانهيار . ومع ضعف سلطان الدولة، ونقص المدن، وتحول السكان نحو القرى، أغلقت المدارس أبوابها، وتقهقرت بذلك المعارف العلمية، وتضاءلت الثقافة، واضمحل استعمال اللغة اليونانية، لغة العلم آنذاك .

وإنه بسبب هجمات البرابرة تلك، لم يبق من الحياة العلمية في أوربة، إلا النذر اليسير . وكان مصير التراث القديم : النسيان، إذ خرج من ذاكرة الجماهير، التي لم تكن قادرة على فهمه . وبقيت الترجمات السابقة تنسخ، ويعاد نسخها، طوال القرون الوسطى كلها . ولقد سار تقهقر العلم، جنباً إلى جنب، مع تراجع المدينة، وطراً على الغرب، في تلك الحقبة من الزمن، تحول كبير، إذ برز آنئذ مجتمع قروي، استقرت في أديريته، ثقافة أدبية، ودينية، ولم يكن للثقافة العلمية مكان فيها . وكأن القرون الوسطى، الأولى، لم تكن بحاجة إلى علماء !

وعندما استولى البرابرة على روما عام ٤٧٦ م، انهارت الامبراطورية الرومانية . انهارت في الغرب، ولكنها بقيت صامدة في الشرق، حيث كانت المدن منظمة ومزينة، خططها مهندسون مهرة، وكان القانون سائداً فيها، وأصبحت اليونانية، اللغة الرسمية، تتكلمها النخبة من أبناء المدن؛ وكانت المدارس مستمرة في أدائها لرسالتها، كل شيء كان في الشرق على نقیض ما هي عليه الحال في الغرب .

ولكن، إلى جانب اللغة اليونانية، كانت هنالك لغات أخرى، وخاصة منها : السريانية . ومع ذلك، بقيت اليونانية لغة كل العلماء، وأنه على الرغم من نقص منابع المعرفة، وعدم كفاية البحث العلمي، ظهر بعض النشاط في الحركة العلمية ... ففي القرن الرابع للميلاد، كتب «بابوس» في الاسكندرية، التي أسسها الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ ق.م. «مجموعة في الرياضيات»، وهي جملة مختارات واسعة، استقت منها القرون الوسطى، قدراً هاماً من التراث الإغريقي .

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

يقول الباحث البريطاني دونالد هيل ، أن الحقبة الهيلينستية شهدت نشاطاً عظيماً في المجال الفكري في كل من مصر وسورية ترك أثراً عميقاً ومديداً . ومن المتفق عليه أن العصر الهيلينستي بدأ باجتياح الاسكندرية وانتهى بموت كليوباترا ، وبالتحديد من ٣٣٠ ق.م إلى ٣٠ ق.م .

إلا أن هناك ما يدعو لتمديد الفترة حتى عام ٤٥٠ بعد الميلاد ، لأن اللاتينية لم تستعمل على نطاق واسع في المناطق الشرقية من الامبراطورية . وهناك خطأ شائع بين المؤرخين الأوربيين ، ينسبون فيه إنجازات العصر الهيلينستي إلى الإغريق والرومان ، مجرد كون أولئك الناس حكموا الشرق الأدنى طيلة تلك القرون . ولقد قلنا إن لغة الثقافة كانت بصورة رئيسية هي اليونانية طيلة تلك الحقبة ، إلا أن الدارسين الذين كتبوا باليونانية كانوا من مختلف الأمصار ، كسورية ومصر ، واليونان ، وصقلية وشمال إفريقيا . وقلنا إن اليونانية لم تكن لغة الثقافة الوحيدة ، فلقد كانت السريانية أيضاً واسطة هامة في تطوير وانتقال النشاط الفكري .

ففي عام ٤٩٠ بعد الميلاد ، قام اتحاد عربي — عربي غساني ، أسهم بقسط وافر فعال في حياة البلد . وكان الغسانيون ومعظم بقية سكان سورية ، يمارسون نوعاً من المسيحية يختلف في جوهره عن عقيدة قوى الاحتلال من البيزنطيين . وحينما فتح العرب سورية عام ٦٣٤/١٢ ، رحب بهم السكان كمحررين وقدموا لهم مساعدات فعالة كانت عاملاً مهماً في سرعة اجتياح القطر بأكمله .

لقد كان الفتح العربي أعظم حدث في تاريخ سورية : فللمرة الأولى كانت هنالك لغة واحدة يشترك الجميع في استعمالها وفهمها ، ودين تؤمن به قطاعات كبيرة من المجتمع تعاضم باستمرار . أما أولئك الذين احتفظوا بعقائدهم القديمة ، فقد استمتعوا بدرجة من التسامح أعلى بكثير مما كان متاح لهم في زمن الحكم البيزنطي . هذا الاندماج بين لغة وعقيدة الفاتحين من جهة ، وتقاليدهم السكان الأصليين من جهة ثانية ، كان السبب في انطلاقة فكرية ليس لها مثيل . وظهر المجتمع الجديد مجتمعاً عربياً — إسلامياً متميزاً ، احتفظ في مضمونه ببعض الخصائص القيمة للحضارات السابقة .

لقد كانت الاسكندرية ، زعيمة العالم الهيلينستي<sup>(١)</sup> في العلوم ، لا يناعها في هذه

(١) الحقبة الهيلينستية Hellenistique : هي الحقبة التاريخية ، الممتدة في اليونان من اجتياح الاسكندر الكبير ، إلى الاجتياح الروماني . — احتل الرومان مصر عام ٣٠ ق.م ، عام وفاة كليوباترة .

المكانة منازع؛ وكان من أكبر علمائها في ذلك العصر: كلوديوس بطليموس<sup>(١)</sup>، الذي يعد من أعظم علماء الفلك الأقدمين. وإن العالم لا يزال، على الرغم من كشف كوبرنيك، يتكلم في الفلك بلغة بطليموس. وإن نظريته القائلة بأن الأرض مركز الكون، قد يسرت تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم. ولقد دونت فلسفته الخالدة، في كتابه المعروف باسم «النظام الرياضي للنجوم»، وكان العرب إذا تحدثوا عن هذا الكتاب نعتوه باسم التفضيل اليوناني: «المجسطي Al-Megiste» الأعظم.

وكانت الاسكندرية، منذ زمن بعيد، أهم مركز لدراسة الطب. وأنه وإن كانت في مرسيليا، وليون، وسرقسطة، وأثينة، وأنطاكية، وكوس، وأفسوس، وإزمير، وبرجموم، مدارس للطب شهيرة، إلا أن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الاسكندرية من جميع ولايات الامبراطورية، بل إننا لنجد «أميانُس مرسيلينوس Ammianus Marcellinus»، في القرن الرابع الميلادي، يتحدث عن الاسكندرية بقوله: «حسب الطبيب تنوباً ببراعته أن يقول إنه قد تعلم في الاسكندرية». ولنذكر هنا، أن جالينوس<sup>(٢)</sup>، الذي درس الطب في إزمير، درس التشريح في جامعة الاسكندرية.

وفي القرن الخامس، شهدت الاسكندرية، توافد الطلبة من بلدان الشرق الأدنى، أتوا إليها ليدرسوا الحقوق، والطب، والفلسفة، والرياضيات. ومن علماء تلك الحقبة، «هيباسيا» عالمة الرياضيات، والتي قتلت في حوادث الشغب التي وقعت في الاسكندرية عام ٤١٥م. وكذلك العالم «يوحنا فيلوبونوس»، الذي ألف كتاباً يطعن فيه بعبدية الأصنام، وكتب تعليقات على فلسفة أرسطو، كما أنه ألف كتباً في علم البصريات، وفي الرياضيات. وكذلك العالم بولص ديجين الذي كتب تحت عنوان «كتب الطب السبعة».... مختارات واسعة أخذها من كتابات جالينوس.

وفي الأطراف الشرقية من الامبراطورية، في مدينة «الرُّها Edesse»، ونصيبين وحران ورأس العين، الواقعة على طرق المواصلات بين الخليج العربي، وآسية الصغرى، نمت

(١) ولد في بلدة بطليموس، على شاطئ النيل، ومنها اشتق اسمه، ولكنه عاش معظم حياته في الاسكندرية، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧م، إلى عام ١٥١م.

(٢) جالينوس: ولد في «برجاموم» عام ١٣١م.

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

وازدهرت حياة فكرية في تلك المدن ذات الثقافة السامية ، ونشطت حركة الترجمة . فالطبيب والراهب اليعاقبي ، « سيرجيوس Sergius » ، الذي درس في الاسكندرية ، كان يعمل في رأس العين ، حيث ترجم عن اليونانية إلى السريانية ، عدداً كبيراً من المؤلفات ، قبل أن تنتهي أيامه في القسطنطينية ، عام ٥٣٦ م .

وفي الرُّها ، ظهرت في القرن الخامس للميلاد ، مدرسة سميت « مدرسة الفرس » ، وفيها ترجمت أعمال أرسطو ، وأعمال من دروسها ، من اليونانية إلى السريانية ، ترجمها كل من « بروبوس Probus » ، و « كوماس Cumas » والراهب « إيباس Ibas » . إلا أن امبراطور القسطنطينية ، الذي أثارت اتجاهات النساطرة في تلك المدرسة ، أمر بتدميرها !

وقبالة هذا الجزء من الامبراطورية ، ذي الثقافة اليونانية — الرومانية ، كانت هنالك الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التي تضم أراضٍ لثقافات قديمة ، وسهول إيران ، وسهول ما بين النهرين خاصة<sup>(١)</sup> . ولقد حولت فتوحات الاسكندر ، تلك الأراضي ، وتلك السهول ، لحقبة من الزمن ، إلى أراضٍ ذات ثقافة إغريقية . وكان هنالك وسط علمي ، فالنساطرة الذين أخرجوا من مدينة الرُّها ، بعد أن أغلقت مدرستها ، عام ٤٨٩ م . والفلاسفة الذين طردوا من أثينة ، عام ٥٢٩ م ، وجدوا في الامبراطورية الساسانية ملجأ لهم .

وفي عهد أنوشروان ( ٥٣١ — ٥٧٨ م ) عرفت « طيسفون Ctesiphon ( المدائن ) ، عاصمة ملكه ، الواقعة على نهر دجلة ، حياة فكرية باهرة ؛ وكان الأدباء ، والعلماء ، والفلكيون ، يتوافدون على البلاط . ولقد أفادت نصيبين ، الواقعة في أعالي بلاد ما بين النهرين ، من ترحيل أساتذة وطلاب الرها . وفي مطلع القرن السادس ، عشية الفتح العربي ، كان عدد الطلاب في الرها ، ينوف على ثلاثمائة طالب .

وأما « جنديسابور » الواقعة في الجنوب الشرقي من إيران ، والتي أسسها سابور الأول ، وسميت باسمه ، فلقد أصبحت فيما بعد مركزاً علمياً كبيراً بفضل العلماء النساطرة ، الذين حملوا معهم إليها ، ترجمات باللغة السريانية ، ومن بينها ترجمات سيرجيوس ، الرأس عيني ، وأسسوا فيها ، في عهد كسرى أنوشروان ، مدرسة للطب ، على غرار مدرستي الاسكندرية ، وأنطاكية ، وأقاموا فيها مستشفى ، وأصبحت المدينة مركزاً كبير الأهمية ، ظل يعمل بنشاط حتى القرن العاشر ؛ ولقد كان هذا المركز ملتقى للتراث الإغريقي ، والتقاليد العلمية الهندية ،

(١) موئل حضارات سومر وبابل وآشور .



والثقافة السامية . ولقد لعبت فتوحات الاسكندر ، التي بلغت الهند ، دوراً في تعزيز الروابط العلمية الإغريقية ، والفارسية ، مع الثقافة الهندية .

## الفتح العربي وتطور العلوم

في خضم هذه الأحداث كلها ، وجد العرب أنفسهم في ظروف تمكنهم من تحقيق أهدافهم وطموحاتهم : فجاء الفتح العربي قوياً ومفاجئاً معاً . واستطاع أن يقوض ، في غضون بضعة عقود من الزمن ، أركان الامبراطوريات العظمى التي كانت تحكم الشرق الأوسط ، وأن ينشر ديناً جديداً ، وصل به إلى حدود الهند . وإنه لأمر هام هنا ، أن ندرك المتغيرات الأساسية التي خلقها هذا الفتح ، وأن نعرف مدى ما أحدثته من تأثير في الحياة العلمية .

عقب وفاة النبي<sup>(١)</sup> محمد ﷺ ، وحد المسلمون صفوفهم ، في غربي شبه الجزيرة العربية . وشهدت السنوات التالية انتصارات ساطعة وسريعة : ففي عام ٦٣٥م ، تم فتح مدينة دمشق ، ثم في عام ٦٣٧م . فتحت القدس ، وأصبح العرب سادة سورية وفلسطين . وفي نفس الوقت اتجهوا إلى الشمال الشرقي ، واستولوا عام ٦٣٧م . على المدائن عاصمة الامبراطورية الفارسية ، وتم الاستيلاء على بلاد ما بين النهرين كلها . وامتدت رقعة الفتح العربي من أرمينيا إلى سهول العراق وإيران .

وكانت هنالك جبهة قتال ثالثة ، تم فيها فتح مصر ، ما بين عامي ٦٣٩م و٦٤٦م . وفي أقل من خمسة عشرة عاماً ، زالت الامبراطورية الساسانية من الوجود ، وتقلصت الامبراطورية البيزنطية كثيراً . ومنذ هذه الحقبة أصبحت كل المراكز الفكرية في الشرق الأوسط بأيدي العرب .

وبعد توقف لفترة من الزمن ، عادت الفتوحات إلى توسعها ، وذلك في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن ميلادي ، تحت حكم الخلفاء الأمويين . فالحملة التي اتجهت غرباً ، قادت العرب إلى إفريقيا الشمالية حيث أسسوا عام ٦٧٠م . القيروان ، التي أصبحت فيما بعد المركز الفكري للإسلام . وعندما استتببت سيطرتهم على المغرب ، اجتازوا مضيق جبل طارق عام ٧١١م ، وفتحوا اسبانيا .

كما اتجهت حملاتهم إلى الشرق أيضاً ، فاستولوا على بخارى عام ٧٠٩م ، ثم على سمرقند

(١) ولد عام ٥٧٠م ، وتوفي عام ٦٣٢م .

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

عام ٧١٢م . وامتدت سيطرتهم إلى أقاصي آسية الوسطى . وصلوا إلى الهند ، ولكنهم توقفوا عند أبوابها ، وبذلك أصبحت الاتصالات المباشرة بالعلوم الهندية أمراً ممكناً .

لقد احترم العرب الفاتحون الأوضاع السابقة ، في البلدان التي دخلوها . ولا بد هنا من دحض الأسطورة المختلقة ، التي تدعي بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية ، ذلك لأن الفتح العربي ، في أول عهده ، لم يبدل شيئاً من ظروف الحياة العلمية لتلك البلاد ، ولكنه مهد الطريق أمام العرب للوصول إلى مؤلفات الإغريق ، إذ أصبحت المكتبات الرئيسية للعالمين الإغريقي والروماني في أيديهم . واستمرت حركة الترجمة ، واتسع نطاقها . أضف إلى ذلك أن تيوفيل الرُّهوي ترجم في نهاية القرن السابع ، العديد من مؤلفات أرسطو من اليونانية ، إلى السريانية ، تماماً كما فعل معاصره يحيى بن البطريق .

وفي مطلع القرن الثامن ، اشتهر « جُب » الرُّهوي ، الذي كان طبيباً ملحقاً ببلاد المأمون ، اشتهر بترجماته لأعمال جالينوس إلى السريانية ، ولموسوعته الكبيرة في العلوم الطبيعية . كل هؤلاء العلماء كانوا من النصارى .

مرت عقود من الزمن . ثم في مطلع القرن الثامن طرأت تحولات هامة وجذرية ، حين أصبحت اللغة العربية ، لغة الثقافة ، ولغة الدواوين ، وحين أمر الخليفة عبد الملك بن مروان ( ٦٨٥ — ٧٠٥م ) ، بأن تحل اللغة العربية ، محل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، في إدارة الأعمال الرسمية . وهكذا انتشرت العربية ، وقد سميت فيما بعد باللغة العربية الفصحى ، انتشرت في كل البلدان الواقعة تحت الحكم العربي ، وأخذ العلماء ، من مسلمين ونصارى ويهود ، من عرب أو فرس ، أخذوا جميعهم يتكلمون ، ويكتبون ، باللغة العربية . فالبيروني وابن سينا ، وهما فارسانيان ، ومن أشهر علماء العالم الإسلامي ، كتباً أعمالهما باللغة العربية . وهكذا نشأت طائفة من العلماء والمفكرين ، يشجعها مجتمع يسعى بحرارة إلى المعرفة ، ويدعمها حكام ، أخذوا على عاتقهم رعاية الآداب والفنون .

بعد وفاة النبي محمد ﷺ ، انتقلت العاصمة من « المدينة » إلى « الكوفة » ، ومن ثم إلى « دمشق » .

وعندما استولى العباسيون ، على الحكم عام ٧٥٠م . وكانوا يريدون للامبراطورية ، ألا تكون عربية فقط ، بل إسلامية ، تفتح أبوابها لكل المؤمنين ، من مختلف الأجناس ؛ لذا أمر الخليفة المنصور ، عام ٧٦٢م ، بإنشاء عاصمة جديدة ، هي « بغداد » ، جذبت إليها العلماء الذين وجدوا فيها ضمناً يساعدهم على تأدية خدماتهم ، والذين أسهموا ، في الوقت ذاته ، في دعم سمعة النظام الجديد .

وعندما أصيب الخليفة بعسر الهضم، أرسل في طلب جورجوس بن جبرائيل بن بختيشوع، أحد مشاهير أطباء جنديسابور، فعالجه، فشفي، فأبقاه في بلاطه. وهكذا استقر في بغداد، علماء نقلوا إليها الكتب، والمعارف، والخبرات. ولقد استمر كبار خلفاء بني العباس، الذين أتوا من بعد المنصور، استمروا في انتهاج هذه السياسة. وفي مطلع القرن الثامن للميلاد، قام واحد من أحفاد الطبيب جورجوس بتأسيس أول مستشفى في مدينة بغداد، حمل اسم الخليفة، وكان على غرار مستشفى مدينة جنديسابور.

وكان الخليفة المأمون، الذي حكم من عام ٨١٣م، إلى عام ٨٣٣م، مثلاً رائعاً لهؤلاء الأمراء المستنيرين، محبي الآداب والعلوم. وأنه وإن لم يكن هو الذي أنشأ بيت الحكمة، إلا أنه، أعطاه دفعاً قوياً وجعل منه مركزاً للإشعاع فعلاً.

يقول الكاتب المصري الكبير أحمد أمين، في كتابه ضحى الإسلام، وفي معرض حديثه عن معاهد العلم في العصر العباسي: «أنه لم تكن في العصر العباسي الأول مدارس، وإنما كانت هنالك معاهد أخرى، كان هنالك الكتاب، وكان المسجد، وكانت مجالس المناظرة، وكانت المكتبات، وأكبرها: «خزانة الحكمة»، أو «بيت الحكمة».

١ — **الكتاب**: والجمع الكتابيب — والكتاب هذا موضع تعليم الصبيان. وكان فيه ضرب وحيس كما روى الأغاني عن إبراهيم الموصلي، وقد صور أبو نواس الضرب فيه، تصويراً لطيفاً كعادته، فقال:

أنني أبصرت شخصاً	قد بدا منه صدودٌ
جالساً فوق مصلى	وحواليه عبيدٌ
فرمى بالطرف نحوي	وهو بالطرف يصيدُ
ذاك في مكتب حفص	إن حفصاً لسعيدُ
قال حفص اجلدوه	أنه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر	س عن الدرس يحيي
كُشفت عنه خُزوز	وعن الخُزَّ برودُ
ثم هالوه بسيير	لين ما فيه عودُ
عندها صاح حبيبي	يا معلم لا أعودُ
قلت يا حفص اعف عنه	إنه سوف يُجيدُ

٢ — **المسجد**: وقد كان المسجد أهم معهد للثقافة في الإسلام، فلم تكن المساجد

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

للعادة فحسب ، إنما كانت معاهد للدراسة . فمن مبدأ الإسلام اتخذ رسول الله ﷺ ، المسجد للدراسة . واستمر المسجد كذلك مكاناً لتعليم القرآن والحديث ، وللفقهاء يعلمون الفقه ، طيلة العصر الأموي .

وفي العصر العباسي ، عندما تنوعت العلوم ، تنوعت كذلك حلقات الدروس : فهناك حلقات يدرس فيها النحو ، وهناك حلقات ، كان المعتزلة يعلمون فيها الكلام ، وهناك حلقات للشعر والأدب . ولم ينكر الناس إنشاد الشعر في المسجد حتى ما كان فيه غزل ، فإن كعب بن زهير دخل على النبي ﷺ قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » .

٣ — **مجالس المناظرة** : كانت مجالس المناظرة سبباً كبيراً من أسباب الرقي العلمي . كانت تعقد في الدور ، والمساجد ، والقصور ، وبين العلماء ، وفي حضرة الخلفاء . وكان للخلفاء مجالس مناظرة كثيرة ، ولا سيما الخليفة المأمون ، في النحو واللغة ، والفقه ، والمسائل الدينية .

٤ — **المكتبات** : هي من أهم معاهد العلم . فلقد كان في مصر ، وفي بلاد ما بين النهرين ، قبيل الفتح ، مكتبات كثيرة ، فكان في الاسكندرية مكتبتها المشهورة التي اتهم العرب زوراً بإحراقها عند الفتح .

وكان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم السريانية واليونانية ، أشهرها مدرسة الرُّها وقُسَيرين ونصيبين ، وكانت هذه المدارس يتبعها مكتبات . وقد روينا قبل أن كسرى أنوشروان أنشأ مدرسة بجنديسابور ، وكان يدرس فيها الطب وما يتصل به من فلسفة ويقول « بروكلمن » : « إن الجزيرة والعراق كانا منذ أيام الاسكندر متأثرين بالحضارة اليونانية ، وكان في الأديار السريانية كثير من الكتب المترجمة ، لا في الآداب النصرانية وحدها ، بل كان من ذلك أيضاً تراجم لمؤلفات أرسطو وجالينوس وأبقراط ، إذ كان هؤلاء محور الدائرة العلمية في ذلك العصر ، وكان السريان نقلة للثقافة اليونانية إلى الامبراطورية الفارسية أيام الساسانيين ... وأخذت هذه البذرة اليونانية في الازدهار حتى أيام العباسيين » وقد ذكروا أن الفرس في حملتهم على مصر واليونان كانوا يحملون معهم بعض الكتب وهم عائدون من الغزو .

وكان بمرور خزانة من الكتب الفارسية أتى بها يَزْدَجَرْد . هذه الكتب كانت أساساً لكتب تنقل إلى العربية منذ العهد الأموي ، فقد رأينا خالد بن يزيد بن معاوية يأمر بنقل بعض الكتب ، وعمر بن عبد العزيز يأمر ببعض آخر .

وكانت أكبر مكتبة نقل إلينا خبرها في ذلك العصر «خزانة الحكمة»، أو «بيت الحكمة».

أما مؤسسها فيظهر أنه الرشيد — أولاً — وضع نواتها ثم غناها المأمون وقواها فقد روي أن الرشيد «ولّى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سببها ووضع أميناً على الترجمة، ورتب له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه». وأوضح من هذا ما ذكره ابن النديم أن أبا سهل الفضل بن نوح «كان في بيت الحكمة لهارون الرشيد». وفي موضع آخر «كان علان الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة».

نستطيع أن نستنتج من هذا أن بيت الحكمة كان في عهد الرشيد، وأنه كان يعمل فيه علماء مختلفو الثقافة، فيوحنا بن ماسويه نصراني سرياني، له قدرة على ترجمة الكتب اليونانية، وابن نوح فارسي كان — كما قال القفطي: «ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية، ومعولّه في علمه وكتبه على كتب الفرس»، وعلان الشعوبي راوية نسابة فارسي الأصل. وأنه في عهد الرشيد كان بيت الحكمة مكاناً فيه كتب وله رئيس وأعوان، وفيه كانت تنسخ الكتب اليونانية والفارسية وترجم.

فإذا انتقلنا بعد إلى عصر المأمون، رأينا أن رغبته في الفلسفة والعلوم العقلية أشد، وميله أقوى، وتبع ذلك اتساع العمل في بيت الحكمة. روى ابن النديم: «أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك بعثة إلى القسطنطينية، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلما صاحب بيت الحكمة، وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل؛ وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم».

ومعروف أنه كان في القسطنطينية مكتبة كبيرة أنشئت سنة ٣٣٦م، وعُني بعض الملوك بتوسيعها حتى بلغ ما فيها نحو مائة ألف مجلد، وأحرق بعضهم بعض ما فيها من الكتب الدينية انتصاراً لمذهبه الديني، ولكنها جددت بعده، واتسع نطاقها، وكانت في عصر المأمون زاخرة بالكتب.

وهذه المكتبة (بيت الحكمة)، كانت تقوم بنسخ الكتب كما كان يفعل علان الشعوبي، وترجمتها إلى العربية كما كان يفعل يوحنا بن ماسويه وابن نوح، وكان فيها رئيس للمترجمين ومساعدون، كما كان لها مدير وأعوان، وكما كان فيها مجلدون.

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

ففي هذه المكتبة ، التي كانت مكتبة واسعة ، كان يعمل الفلكيون ، وعلماء الرياضيات والمفكرون والمثقفون ، والتراجمة ، وفيها كانوا يجتمعون . وكانت أعمالهم تلقى التشجيع والدعم المالي من الخليفة . ولقد غص بيت الحكمة بالمؤلفات العلمية والفلسفية الإغريقية التي وجدوها في مكتبات الامبراطورية البيزنطية ، وخاصة منها مكتبات الشرق الأدنى . وكانت ترجمات هذه المؤلفات ، ونسخها ، توضع تحت تصرف النخبة المثقفة . وفي نهاية القرن الثامن للميلاد أدخل الورق الصيني إلى بغداد ، وكان أمتن من ورق البردى ، وأرخص من ورق الرق ( البارشومان ) ، مما ساعد على نشر سوق للكتاب حقيقية .

وكان الخليفة المأمون يرعى أيضاً ، الأبحاث الكبيرة الأولى في مجال المشاهدات الفلكية . ولقد أوكل إلى عدد من العلماء مهمة وضع منهاج ، لتدقيق المعطيات الواردة في « المجسطي » لمؤلفه « بطليموس » ، وتوصيل المنهاج إلى وضع جداول جديدة . لقد كانت سياسة المأمون هذه مثالية ، اتبعتها من بعده ، العديد من الخلفاء والوزراء والأمراء .

منذ القرن الثامن ميلادي ، بدأت علامات تفكك الامبراطورية العربية بالظهور : فولاة الأقاليم وأمراؤها أصبحوا أسياد السلطة السياسية ؛ وفرض الخلفاء ، في القاهرة ، وفي قرطبة ، سلطانهم في مواجهة العباسيين ؛ وسعت العاصمتان إلى منافسة بغداد ، التي استطاعت ، لحقبة من الزمن ، أن تحتكر النهضة الفكرية والثقافية . وإنما ، إذا ما استعرضنا تواجد العلماء في أرجاء الامبراطورية العربية ، عرفنا الأدوار الكبرى التي مر بها تاريخ هذه الامبراطورية .

في الحقبة التي بلغت فيها الخلافة العباسية أوج سلطاتها ، ( القرن الثامن — القرن العاشر للميلاد ) ، كانت بغداد المركز الأول الذي استقطب العدد الأكبر من العلماء .

ثم قامت فيما بعد ، مدن أخرى لتأخذ المبادرة : ففي الغرب ، القاهرة ، وقرطبة ، عاصمتا الخلفاء المنافسين للعباسيين ، وفي الشرق ، عواصم أقاليم فارس ، حيث تأسست في القرنين العاشر والحادي عشر قبل الميلاد ، إمارات فارسية أو تركية .

ومع الفتح التركي السلجوقي ، احتلت بغداد عام ١٠٥٨ م . وانحى دور العراق .

وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر ميلادي ، أنشئت مملكة كبرى ، للأيوبيين ، أسسها صلاح الدين ، ومملكة أخرى للمالكي ، وتشكلت في سورية ومصر ، قوة تصدت للصليبيين في البدء ، ثم للمغول فيما بعد .

وشكلت الأندلس ، التي كانت تنعم بحياة اقتصادية وثقافية متميزة ، ونشطة ،

شكلت رأس جسر نحو العالم المسيحي . واستمرت الحركة العلمية في نشاطها فيها ، حتى تفوقت على بغداد .

وكان من جراء تفكك الامبراطورية ، وظهور عواصم الأقاليم ، أن انتشرت الثقافة انتشاراً جغرافياً واسعاً . وكان الفلكيون ، والأطباء ، وعلماء الرياضيات ، والفلاسفة ، يعيشون في أغلب الأحيان ، في بلاط أمير محب للعلوم والآداب . ولقد قضى ابن سينا معظم حياته العلمية متنقلاً بين قصور فارس ، ( القرن العاشر — القرن الحادي عشر ميلادي ) ، في بخارى وأصفهان ، وسمرقند ، والري . وكان هذا العالم الفذ ، موضع إعجاب وتقدير ، لسداد نصحه وآرائه في الطب والسياسة .

وكان يكرم حيناً ، ويلاحق من قبل أعدائه ، حيناً آخر . وكثيراً ما أقحم في دسائس ومكائد السياسة وتعرض للكثير من المصائب والحن ، ولكنه نعم أيضاً بالهدوء والأمان ، لزمّن طويل عندما عمل إلى جانب الأمراء ، المستنيرين ، في الري ، وفي همدان ، حيث وافته المنية ، عام ١٠٣٧ م .

لقد كانت الحركة الفكرية ترتبط ، مباشرة أو بشكل غير مباشر ، برعاية الأمير : فإنشاء مكتبة ، أو بناء مستشفى ، أو تأسيس مركز للترجمة ، أو تحقيق برامج للرصد الفلكي ، كل هذه المشاريع ، لم تكن لتنجز ، لولا الدعم المالي من قبل ملك أو وزير ، أو أمير . وباعتبار آخر ، كان حب العلم والعلماء ، عند أصحاب السلطان هؤلاء يشكل بحد ذاته المؤسسة العلمية الرئيسية ، في العالم العربي ، في العصر الوسيط . وإن حب الأمراء هذا ، للعلم والعلماء ، لم يكن ولعاً عابراً تغذيه دوافع غامضة ، بل كان يندرج في إطار مخطط سياسي حقيقي : يزيد من نفوذهم ، ويدعم سلطانهم ، ويعطي الحضارة العربية الإسلامية الوسائل التي ترتقي بها إلى مستوى الحضارات التي غلبت عسكرياً ، بل وتتجاوزها وتتفوق عليها ، مما يسمح بولادة ثقافة علمية ، تتساوى مع الثقافات الإغريقية ، والسرانية والهندية .

وهكذا نشأ ونما علم ، سمي بـ « العلم العربي » . وقد يكون في هذا التعبير بعض التجاوز ! لأن عدداً كبيراً من العلماء الذين عملوا في رحابه . لم يكونوا عرباً . وإذا ما سمي هذا العلم بالعلم الإسلامي ، فقد يكون في ذلك بعض الإبهام ، ذلك لأن هذا التعبير ، قد يعطي الحركة العلمية ، معنى دينياً عاماً ، ليس لها . أضف إلى ذلك أن العلماء كانوا مسلمين ، ونصارى ، وبعضهم كانوا من اليهود . فالسمة المشتركة ، التي تحقق لهذه النشاطات العلمية ، وحدتها الخارجية ، هي بلا ريب ، اللغة . فاللغة العربية ، وهي العامل الرئيسي للوحدة ، تستطيع أن تميز علم العالم الإسلامي في القرون الوسطى ، فهي الوسيلة التي حملت

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

الأفكار والمفاهيم والمعارف كلها . وكما سبق لنا أن قلنا : « عندما انتشرت العربية الفصحى في كل الأصقاع الواقعة تحت الحكم العربي ، أخذ العلماء ، من مسلمين ونصارى ويهود ، من عرب أو فرس أو غيرهم ، أخذوا جميعهم يتكلمون ، ويكتبون باللغة العربية » .

لقد كانت النصوص العلمية العربية الأولى ، ترجمات عن اليونانية ، والسريانية والسنسكريتية ، والبهلوية ، وكانت تتناول بإسهاب نتائج المراكز الإغريقية والفارسية ، وأبحاثها . ولقد ساعدت هذه الترجمات على وضع مصطلحات علمية لم تعرفها اللغة العربية من قبل . وفي مسيرة الترجمة من اليونانية إلى العربية ، تشكل اللغة السريانية حلقة الوصل الأساسية . والواقع ، إن معظم الترجمة كانوا من النصارى ، وكانوا يتقنون اللغتين اليونانية والسريانية ، لغتي علماء ومثقفين ذلك العصر . وكان حنين بن إسحق واحداً من هؤلاء الترجمة .

### حنين بن اسحق

هو أبو زيد ، حنين بن اسحق العبادي (بفتح العين وتخفيف الباء) ، والعباد (بالتفتح) قبائل شتى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية بالحيرة ، والنسبة إليهم عبادي . قال الشاعر :

« يسقيكها من بني العباد رشا      منتسب عيده إلى الأحد »

ولد حنين عام ٨٠٨ م (١٩٤ هـ) ، في مدينة الحيرة الواقعة على ضفاف نهر الفرات السفلي ، وكان أبوه اسحق عربياً ، نصرانياً ، نسطورياً ، فنشأ ابنه كذلك . وكان اسحق صيدلانياً ، فأعد ابنه لدراسة الطب . بدأ حنين يدرس على يوحنا بن ماسويه . وكان حنين يكثر السؤال على أستاذه ، ويلج في الأسئلة ، فأخرج صدر يوحنا فطرده ، وقال : « ما لأهل الحيرة والطب ، عليك ببيع القلوب <sup>(١)</sup> في الطريق ! » .

وكان ابن ماسويه يباعده أيضاً من قلبه ، ذلك لأن حنين كان من أبناء الصيارفة ، من أهل الحيرة ، وكان في يوحنا وأهله عصبية لأهل جنديسابور ومدرستها ، ومتطبيها ، ينحرفون . عن أهل الحيرة ، ويكرهون أن يدخل في صناعتهم ، أبناء التجار . خرج حنين من دار ابن ماسويه باكياً مكروباً ؛ ثم ذهب إلى بلاد الروم ، حيث بقي

(١) واحدها قلنس وهو جبل ضخيم للسفينة .



سنتين، وأجاد تعلم اليونانية؛ ثم عاد إلى البصرة، ولازم فيها الخليل بن أحمد<sup>(١)</sup> يأخذ عنه العربية. ويروى أنه حمل كتاب العين المنسوب للخليل إلى بغداد.

كان حنين، يجيد العربية، لغة أهل المدينة التي ولد فيها، والسريانية، لغة آبائه وأجداده، كما أنه كان يجيد الفارسية، واليونانية. ولقد جذبتة شهرة بغداد، عاصمة العباسيين، فقصدها، ليدرس الطب فيها، ثم أخذ يعمل كطبيب وكترجمان.

وأهم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية، بدأ ذلك وهو في السابعة عشرة من عمره، ولكن كانت ترجمته ضعيفة لم ترضه لَمَّا أن نضج، فأعاد بعدُ بعض ما تُرجمَ وصحح بعضاً.

اتصل أول أمره بالمأمون وعين في بيت الحكمة الذي كان يزخر بالكتب اليونانية التي نقلت من آسية الصغرى، ومن القسطنطينية. فأخذ حنين يترجم منها إلى السريانية أولاً، ثم إلى العربية، ثم ترجم للمعتصم والواثق والمتوكل.

ولم يكتفِ بما جُمع في بيت الحكمة، بل رحل في نواحي العراق، وسافر إلى الشام والاسكندرية وبلاد الروم، يجمع الكتب النادرة. ومات سنة ٢٦٤ هـ بعد أن عمر نحو سبعين عاماً، بذل فيها من الجهد العلمي ما لا يستطيع غيره أن ينهض به في مئات السنين.

كان يترجم بنفسه، وكان يشرف على جماعات تعمل بإرشاده، فقد «جعل له المتوكل كُتّاباً نحارير، عالِمين بالترجمة؛ كانوا يترجمون، ويتصفح ما ترجموا، كاصطفن بن بسيل، وموسى بن خالد الثرجماني، ويحيى بن هارون». كان يترجم كثيراً، ويؤلف كثيراً، وكان أحياناً يضع الشرح لما ترجم، ويلخص المطولات، ويصحح تراجم السابقين. وعلى الجملة كان حركة علمية دائمة، قلَّ أن تُبارى، بل ظلت حركته التي أنشأها تعمل عمله بعد وفاته، على يد ولديه وتلاميذه.

أكثر ما ترجمه حنين كتب طبية، وخاصة كتب جالينوس. فقد ذكروا: «أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين؛ وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة إلى السريانية، ونحو من سبعين إلى العربية، وأصلح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها إلى السريانية سرجس الرأس عيني، وأيوب الرهاوي، وسواهما من الأطباء المتقدمين».

(١) الخليل بن أحمد: نحوي ولغوي أصله من عُمان، تعلم علم أيوب السخيتاني وعلم سيويه والأصمعي وغيرهما من أئمة اللغة واكتشف علم العروض وتوفي في البصرة عام ٧٨٨ م. أشهر كتبه: كتاب العين.

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

وإذا نحن أدركنا أنه أخذ يترجم عن اليونانية ، وقد اعترضته مئات الكلمات اليونانية التي لم يُعرف لها نظير في اللغة السريانية والعربية ، من مصطلحات طبية وفلسفية ، وأسماء للنبات والحيوان والهيئة وغيرها . وأنه كان مضطراً أن يوجد لها ألفاظاً عربية تقابلها إن أمكن ، وأن يصقل الكلمات الأجنبية صقلاً عربياً إن لم يمكن ، علمنا أنه اضطلع بعناء ينوء بالعصبة أولى القوة ، أدركنا قدر عَنائه . ومبلغ نجاحه .

يقول يوسف بن ابراهيم ، مولى ابراهيم بن المهدي : « دخلت يوماً على جبرائيل بن بختيشوع ، وقد انحدر من معسكر المأمون قبل وفاته بمدة يسيرة ، فوجدت عنده حيناً وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس في التشريح ، وهو يخاطبه بالتبجيل ويقول له يارب حنين وتفسيره ربن المعلم . فأعظمت ما رأيت ، وتبين ذلك جبرائيل فيّ فقال لي : لا تستكثرن ما ترى من تبجيلي هذا الفتى ، فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن سرجس ، وسرجس هذا الذي ذكره جبرائيل هو الرأس عيني ، وهو أول من نقل شيئاً من علوم الروم إلى اللسان السرياني ، ويفضحن غيره من المترجمين .

« وخرج من عنده حنين وأقامت طويلاً ، ثم خرجت فوجدت حيناً ببابه ينتظر خروجي ، فسلم علي وقال لي : « قد كنت سألتك ستر خبري ، والآن فأنا أسألك إظهاره وإظهار ما سمعت من أبي عيسى وقوله في . » فقلت له : أنا مسود وجه يوحنا بما سمعت من مدح أبي عيسى لك ، فأخرج من كفه نسخة ما كان دفعه إلى جبرائيل وقال لي : تمام سواد وجه يوحنا يكون بدفعك إليه هذه النسخة ، وسترك عنه علم من نقلها ، فإذا رأيته قد اشتد عجبه بها أعلمه أنه إخراجي . ففعلت ذلك من يومي ، وقبل انتهائي إلى منزلي .

« فلما قرأ يوحنا تلك الفصول ، وهي التي يسميها اليونانيون الفاعلات ، كثر تعجبه وقال : « أترى المسيح أوحى في دهرنا هذا إلى أحد ؟ فقلت له في جواب قوله : ما أوحى في هذا الدهر ولا في غيره إلى أحد ، ولا كان المسيح إلا أحد من يُوحى إليه . فقال لي : دعني من هذا القول ، ليس هذا الإخراج إلا إخراج مؤيد بروح القدس . فقلت له : هذا إخراج حنين بن اسحق الذي طرده من منزلك وأمرته أن يشتري قلوساً . فحلف بأن ما قلت له محال . ثم صدق القول بعد ذلك وأفضل عليه إفضالاً كثيراً . وأحسن إليه ولم يزل مبعجلاً له حتى فارقت العراق ، في سنة خمس وعشرين ومائتين .

هذا جملة ما ذكره يوسف بن ابراهيم .

أقول : « ثم إن حيناً لازم يوحنا بن ماسويه منذ ذلك الوقت وتعلمد له واشتغل عليه

بصناعة الطب، ونقل حنين لابن ماسويه كتباً كثيرة وخصوصاً من كتب جالينوس، بعضها إلى اللغة السريانية، وبعضها إلى العربية» .

وإلى حنين بن اسحق، يعود الفضل في تحقيق العديد من المؤلفات الطبية، والعديد من ترجماته لأعمال أفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وبتولمي، وروفوس الأفسسي، وبولص الاليجيني، وجالينوس . ولقد كتب، عندما أدخل مرة السجن، عام ٨٥٦ م . رسالة، ذكر فيها كيف قام بترجمة مئة وتسعة وعشرين مؤلفاً لجالينوس . وكان يحب اللغة السريانية، ولم يكن يترجم منها مباشرة إلى العربية، وغالباً ما كان يوكل إلى أحد تلامذته، أمر نقل النص من السريانية إلى العربية . ولقد مهدت أعمال حنين هذه، وكذلك أعمال منافسيه، السبيل أمام العرب، للوصول إلى المعارف القديمة : «المؤلفات الفلسفية اليونانية، وعلوم : المنطق، والطب، والفلك، والرياضيات، والنبات، والميكانيك» ، والتي أصبحت منذئذ سهلة المنال . ومما يحكى عنه : أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية، مثلاً بمثل .

أما قصة سجنه فيرويه ابن أبي أصيبعة، في كتابه : «عيون الأنباء، في طبقات الأطباء» (ص : ٢٦١) ، فيقول : «قال عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع، في مناقب الأطباء : «إن حنيناً لما قوى أمره، وانتشر ذكره بين الأطباء، واتصل خبره بالخليفة أمر بإحضاره . فلما حضر أقطع إقطاعات حسنة، وقرر له جارجيد، وكان يشعره بزبور الروم . وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بقوله دواءً يصفه حتى يشاور فيه غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظناً منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة به . فاستدعاه يوماً وأمر بأن يخلع عليه، وأحضر توقيعاً فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم . فشكر له حنين هذا الفعل، ثم قال، بعد أشياء جرت : أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله، ولم يمكن إشهاره، ونريده سراً . فقال حنين : يا أمير المؤمنين إني لم أتعلم إلا الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت ذلك . فقال : هذا شيء يطول، ورغبه وهدده وهو لا يزيد على ما قاله إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع، ووكل به من يوصل خبره إليه، وقتاً بوقت ويوماً بيوم . فمكث سنة في حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره، وإحضار أموال يرغبه فيها، وأحضر سيفاً ونظماً وسائر آلات العقوبات . فلما حضر قال : هذا شيء قد كان، ولا بد مما قلت لك . فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال وكان لك عندي أضعافه . وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة . فقال حنين :

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

قد قلت لأمر المؤمنين أني لم أحسن إلا الشيء النافع، ولم أتعلم غيره . فقال الخليفة : فإنني أقتلك . قال حنين : « لي رب يأخذ بحقي غداً في الموقف الأعظم . فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل » . فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين ، طب نفسك ، وثق إلينا . فهذا الفعل كان منا لامتحانك ، لأننا حذرنا من كيد الملوك ، وإعجابنا لنتفجع بعلمك » . فقبل حنين الأرض وشكر له فقال له الخليفة : يا حنين ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحالين ؟ فقال حنين : شيئان يا أمير المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال : الدين والصناعة . قال : فكيف ؟ قال : الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا ، ويبعد ويحرم من لم يكن كذا . والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم . ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهداً مؤكداً بإيمان مغلظة أن لا يعطوا دواءً قتالاً ، ولا ما يؤذي . فلم أر أن أحالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنت نفسي على القتل ، فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته ، وكان يثيبني . فقال الخليفة : إنهما لشريعتان جليلتان ، وأمر بالخلع فخلعت عليه ، وحمل المال بين يديه ، وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالاً ، وأرفعهم جاهاً » .

لقد كان العرب مدركين لأصالة ما ابتكروه من علم ، كما أنهم مدركين لأصالة التراث العلمي القديم ، الذي أفادوا منه . ففي النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ، قال الرازي ، وكان فيزيائياً ، وكيميائياً ، وطبيباً لامعاً كتب ما ينوف على خمسين مؤلفاً ، قال : « إن التقدم العلمي ، لا يمكن تحقيقه ، إلا باتباع آثار الأقدمين ، لأن الخلف ، يفيد مما جناه السلف من علم ومعرفة ، ويضيف إليه من نتاج بحثه الشخصي » . وكان يعتقد أيضاً أن إدراك أهمية تراث علمي ، ينبغي ألا يقلل أبداً من أهمية علم معاصر .

في القرن التاسع للميلاد ، أخذ العلم العربي الخالص يظهر إلى الوجود ، في كل فروع المعرفة : في الفيزياء ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، والرياضيات ، والهندسة ، وعلم الحساب . وكانت لهذه الفروع سمات مشتركة ، ولدتها العوامل السياسية ، والاقتصادية ، كما ولدتها الثقافات المجاورة والمؤسسات العلمية . وإن التدقيق في بحث العلم العربي ، يستلزم دراسة تلك الفروع العلمية . ونحن هنا ، نكتفي ببحث فرع الطب ، منها :

## الطب العربي

في الطب العربي ، نجد أن النظرية تسير جنباً إلى جنب مع الاختبار العملي . ويعود الفضل في إرساء الأسس النظرية في الطب ، إلى اليونان . ولقد أفاد العرب من التراث الذي

خلفه أرسطو، ولكنهم أفادوا بشكل خاص من التراث الذي خلفه كل من أبقرات وجالينوس:

فمن أبقرات أخذ الطب العربي نظريته في الأخلاط الأربعة:

- ١ — النار، المولدة للحرارة، واليبوسة، ومقرها في الحويصل الصفراوي.
  - ٢ — الدم، ويأتي من الهواء، وهو مزيج من الحرارة والرطوبة، ومقره في الكبد.
  - ٣ — البلغم، ويأتي من الماء، الذي هو بارد ورطب، ومقره الرئتان.
  - ٤ — السوداء، وتأتي من التراب، أي من البارد واليابس، ومقرها الطحال.
- وترتبط الصحة، بالتوازن فيما بين هذه الأخلاط، والتوازن هذا يختلف باختلاف الأشخاص ويتحقق الشفاء، عقب تشخيص صحيح لاضطراب التوازن، وبعد مداواة تأخذ بعين الاعتبار: المريض، ومزاجه، وعاداته في مأكله، والأمراض التي سبق له أن أصيب بها.
- وإلى جانب هذه النظرية التي كانت سائدة، أخذ العرب علمهم من منابع أخرى: فاتصالحهم بالهند، ساعدهم على تطور معرفتهم في مجال تركيب الأدوية.

في القرن الرابع عشر للميلاد، كان لكلية الطب في باريس، أصغر مكتبة في العالم، إذ لم تكن تحتوي إلا على مؤلف واحد هو: «الحاوي في الطب»، للرازي. وكان هذا الأثر العلمي الضخم، يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥م. وبقي المرجع الطبي الأساسي في أوربة لمدة تزيد على الأربعمائة عام، بعد ذلك التاريخ، دون أن يزاحمه مزاحمه.

ولقد ذكر الرازي، في موسوعته الطبية هذه «الحاوي في الطب»، عند بحثه لكل مرض من الأمراض، ذكر آراء الإغريق، والفرس. والهنود والعرب، وفنّدها، وزاد عليها من ملاحظاته ومشاهداته الخاصة. ولا يتعلق الأمر هنا بالنظريات فحسب، فلقد كان الرازي رئيساً للأطباء في مستشفى بغداد. ولقد طور هو، كما فعل الآخرون من الأطباء العرب، طوروا، بدءاً من تراث طبي مركب، طهيم المبني على الممارسة والمشاهدة:

- فالوصف الدقيق جداً، للجدرى والحصبة، الذي وصفه الرازي، وكان أول من فرق بينهما.
- واكتشاف الدورة الدموية الصغرى، الذي حققه ابن النفيس، في نهاية القرن الثالث عشر.
- والتقدم المستمر في تشريح العين، وفي فيزيولوجيا البصر، (ومداواة أمراضه)...

- العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة العلمية في أوربة في القرون الوسطى

كل هذه المنجزات ، هي بلا ريب ، من نتاج التأمل ، والبحث المدقق ، المستند إلى المشاهدة ، والتجربة اللتين اتسم بهما الطب العربي .  
وابن سينا ، الذي قام بشرح وتفسير أعمال أرسطو ، كتب في القرن العاشر ، مؤلفه العظيم : « القانون في الطب » ، الذي بقي فيما بعد ، أحد أسس المعرفة الطبية ، في العالمين العربي والإسلامي ، وكذلك في العالم الغربي المسيحي .  
ومما لا ريب فيه ، أن اسبانيا كانت الطريق الرئيسية ، لعبور التأثير العربي إلى الغرب ، ولكنها لم تكن الطريق الوحيدة :

ففي مدينة ساليرنو ، قرب نابولي ، في إيطاليا ، رواية مفادها أن مدرسة ساليرنو الطبية ، أسسها أربعة أساتذة : يوناني ، ولايني ، وعربي ، ويهودي ؛ وكان كل واحد من هؤلاء يعلم تلامذته بلغته ، ومهما يكن أمر الشك في صحة هذه الرواية ، إلا أنها ، بلا ريب ، رواية لها دلالتها . فالجنوب الإيطالي ، يقع في ملتقى طرق العالم ، في قلب المتوسط ، ولقد تركت عدة حضارات بصماتها فيه . ولم يجد الباحثون ، في الدراسات الطبية الأولى ، الصادرة عن مدرسة ساليرنو ، دليلاً واضحاً على تأثير الطب العربي فيها ، كان ذلك في بادئ الأمر ، ولكن كل ذلك تغير فيما بعد عندما ظهر قسطنطين الإفريقي . الذي سبق لنا أن أتينا على ذكر قصته المثيرة .

يتبين لنا من مجمل ما جاء ذكره ، أن الغرب كان ، في القرون الوسطى ، بحاجة إلى أسس وقواعد فلسفية وعلمية ، وكان بحاجة أيضاً إلى تفسير لنظام الكون ، وإلى الفيزياء ، والفلك والطب ، والرياضيات . وكانت هذه الكنوز من المعارف ، بيد علماء العرب ، حملوها إلى الغرب ، شعلة أضاءت عالمه الذي كان يعيش في الظلام .



## الفصل الثاني عشر



النباتات الطبية تاريخها، قصصها، وأساطيرها



- الحضارات ، وتأهيل النباتات وزرعها .
- أسس الدساتير العلمية للأعشاب .
- عصر النهضة ، وتطور المعارف العلمية .
- مسيرة المداواة بالأعشاب .
- أول دستور للأدوية .
- المعارف الطبية في مصر القديمة ، وفي سومر وبابل وآشور .
- قصص وأساطير . شجرة البن العربي . نبات الجنس ، ونبات الماندرانجورا .
- الرهبان ، ومعارف العصور القديمة .
- المعارف القديمة في مصر ، وآسية الصغرى ، وفي فارس ، والهند ، والصين ، وأمريكا الاستوائية .

# النباتات الطبية

تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

## آيات على صفحات الطبيعة

إن للباري تعالى كتباً أنزلت بالوحي على الأنبياء والمرسلين ، سطرها الإنسان بالقلم ، وكتبها خطتها يده تعالى على صفحات الطبيعة . نشرت في السهول والجبال والوديان وفي أعماق البحار ، وكتبت آياتها على أزهار وأوراق وجذور النباتات ، وكشفت أسرارها في أجسام بني البشر وفي أجسام الحيوانات . وإن من يقرأ الطبيعة بروح التقوى ، كقراءته لكتب الله عز وجل ، يجد فيها ما يعزز في قلبه الإيمان بعظمة مبدع هذا الكون .

## الأرض تنبت الدواء

لقد شاءت حكمة الخالق وهو منزل الداء ، أن تنبت الأرض الغذاء ، وأن تنتج الدواء . ولقد عرف الإنسان المداواة بالنباتات ، منذ أقدم العصور ، ونمت معرفته هذه ، وترعرعت في أقدم الحضارات ، وانتشرت في العديد من أرجائها فتناقلت مختلف البلدان . وحين لجأ الإنسان إلى النباتات وخصائصها الشافية ، كان عمله ذاك ، يمثل الجهد الأول الذي بذله من أجل قراءة الطبيعة وفهمها ، والاستفادة منها ، وكذلك من أجل التحرر من الخوف من المرض . وكان هذا الخوف يشكل أحد أقدم أسباب القلق ، عند الإنسان الأول .

## المعارف الخالدة

وما هو جدير بالإعجاب ، هو أن كل الحضارات ، في كل القارات ، طورت تأهيل النباتات وزرعها ، للحصول على الغذاء ، ووطورت إلى جانب ذلك عملية البحث عن الخصائص العلاجية ، لتلك النباتات . وكان رائعاً أيضاً ، أن هذه المعارف اجتازت آلاف السنين ، وقضت تلك العصور ، متعمقة في البحث ومتوسعة في التحري دون أن تصاب بالهرم ، أو تلحق بها أسباب التداعي . فالاستفادة مثلاً ، من خصائص الأفيون ، المستحضر

من نبات الخشخاش، قبل أن يستحضر العلماء المورفين منه بحوالي ٤٠٠٠ عام، دليل على استمرارية وخلود هذه المعارف التي بقيت زمناً طويلاً، معارف تجريبية، ولكنها أصبحت بفضل تقدم العلوم، في القرون الأخيرة أشد ثباتاً، وأكثر دقة من ذي قبل.

### أسس الدساتير العلمية للأعشاب

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارف العلمية لطب الأعشاب تتكون وتجمع وتنسق، كانت المعارف الطبية «الشعبية»، المبنية على استعمال النباتات الشافية، تنمو وتزدهر. ولقد وضعت هذه الأخيرة الأسس الأولية للدساتير «العلمية» للأعشاب واستمرت في إغنائها. هذه المعارف الشعبية المرتكزة على تقاليد شفوية انتقلت من الآباء إلى الأبناء، كانت تطبق على مستويات مختلفة، أول هذه المستويات اللجوء إلى استخدام النباتات الطبية في المداواة، وآخرها فن «الشفاء» المختصين، الذين غالباً ما كانوا، ولا يزالون حتى يومنا هذا، يحيطون أعمالهم بالألغاز أو الأسرار، وأحياناً بشيء من ضروب السحر.

### عصر النهضة وتطور المعارف العلمية

وما أن أطل عصر النهضة في أوربة، حتى أخذ علماء الغرب، يفيدون من بعث الروح العلمية، التي بقيت في ركود قروناً عديدة، فضاعفوا من أسفارهم في سبيل البحث والتقصي، وبغية تطور هذه المعارف، والتمهيد لترتيب دقيق، لكل ما فيها من عناصر التجارب الماضية. ومنذ نهاية القرن الثالث عشر أتى تطور العلوم الحديثة، السريع، ليغني، وينوع، بشكل رائع، معرفتنا للنباتات، هذه المعرفة التي تركز اليوم على فروع من العلم مثل علم الإحاثة<sup>(١)</sup> وعلم الجغرافية، وعلم الخلايا، وعلم الوراثة، وعلم النسيج، وعلم الكيمياء الحيوية.

### مسيرة المداواة بالأعشاب

واليوم، وبالرغم من التقدم الرائع، في مجال المداواة، بالعقاقير الكيميائية نجد المداواة بالأعشاب الطبية، تتابع مسيرتها، وتطبق بكثرة في العديد من البلدان، كما أننا نجد، في

(١) علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة، كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية.

- النباتات الطبية، تاريخها، قصصها، وأساطيرها

بعض الأحيان، المداواة المفضلة، وذلك بعد أن كشف العلماء النقاب عن النتائج المفجعة أحياناً، والناجمة عن الإفراط في تعاطي العقاقير الكيميائية.

وإننا إذا ما أردنا إلقاء نظرة إجمالية على ما حققته المعارف الإنسانية من تقدم في مجال النباتات الطبية، استطعنا أن نميز أربعة عصور:

١ — عصر سومر وبابل وآشور.

٢ — عصر مصر القديمة.

٣ — العصر الإغريقي.

٤ — العصر الروماني.

ولقد تكدست أثناء هذه العصور، معارف تجريبية غفيرة حملها العرب إلى الأوربيين، ورثة تلك الحضارات البائدة.

## في سومر وبابل وآشور

شانيدار

قبل خمسين ألف عام، أي في العصر الحجري القديم، دُفن رجل من أرض شانيدار، في بلاد ما بين النهرين (العراق القديم)، دُفن في قبر، اكتشفه علماء الآثار منذ سنوات. وفي هذا القبر، وجد الرجل ممدداً فوق سرير من الأزهار، اقتطفت واختيرت بكل عناية.

## أول دستور للأدوية

وفي حضارة سومر، التي تعود جذورها إلى ما قبل عام ٤٥٠٠ ق.م، قام طبيب سومري في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، بتدوين أئمن وصفاته الطبية على لوح من الطين كتبها بالخط المسماري. وهذه الوثيقة، التي هي أقدم «كتاب موجز» في الطب عرفه الإنسان، بقيت مطمورة في خرائب مدينة «نفر» طوال أكثر من أربعة آلاف عام إلى أن أظهرتها إلى الوجود تنقيبات أمريكية وجاءت بها إلى متحف جامعة مدينة فلادلفيا. وكان معظم مفردات هذا الطبيب، الواردة في تلك الوثيقة، من عالم النبات مثل القناء الهندي «القاسيا»، والآس، والحلتيت «آسافيتيدا» والزعتر، ومن جملة أشجار مثل شجر الصفصاف، والكمثرى، والشوح، والتين، والنخيل، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الطبيب لم يعتمد على التعاويذ والرق السحرية، فلم يرد في هذه الوثيقة ذكر لأي إله، أو

شيطان ، في جميع نصوصها ، رغم أن استعمال الرقى والتعاويذ في علاج الأمراض كان شائعاً في بلاد سومر في الألف الثالث قبل الميلاد . إذ كان السومريون ، مثل البابليين في العهود المتأخرة عنهم ، يعززون الكثير من الأمراض إلى وجود الشياطين والأرواح الشريرة في جسم المريض ، هذه الوثيقة كنز طبي تاريخي عظيم كشفت عنه تلك الوثيقة ، وهو أول دستور للأدوية عرفه الإنسان .

### عرفوا المنومات

ومن المفيد أن نذكر أن السومريين عرفوا أيضاً المنومات ، فلقد اكتشف العالم « وولي » عام ١٩٢٩ ، في المدافن الملكية في مدينة « أور » ، قبراً يعود إلى حوالي خمسة آلاف سنة خلت ، وجدت فيه هياكل الأضاحي الذين دفنوا مع الملك أحياء ، للحاق به إلى الحياة الآخرة .

٦٦ هيكلاً من النساء وستة هياكل من المحاررين ، وكانت تغطي رؤوس تسعة من النسوة عمرات مرتبة ترتيباً جيداً ، تزينها حلي من ذهب ، وأكاليل من اللازورد والعقيق . هياكل ممددة ، في صفوف مرتبة ، دونما علامات لخوف أو زجر أو عنف . وكان تقدير الخبراء أن هؤلاء الأضاحي ، من حاشية ، واتباع ، وندماء ، اختاروا الموت مع ملكهم ومليكتهم ، طوعاً وأنهم شربوا شرباً منوماً شديداً التأثير ، أغلب الظن أنه كان شراب نبات الماندراغورا وناموا نومهم الأبدي .

### الإنسان استخدم النبات منذ فجر التاريخ

هذه الكشوف الهامة كانت لها دلالتها بالنسبة للعلماء والباحثين ، ذلك لأنها تشير بلاريب إلى أن الإنسان القديم استخدم النباتات من أزهار وأوراق وجذور ، منذ فجر التاريخ ؛ وأنه فعل ذلك بإدراك منه ، بغية الحفاظ على حياته ودرء شبح الموت عنه . كما أن هذه الكشوف تدعو إلى الاعتقاد بأن الإنسان القديم كان يستعين بالخواص السحرية والصفات الرمزية للنباتات ، في كل مرة كان الأمر فيها يتعلق ببقائه على قيد الحياة . وبما أنه لم يكن يعلم الأسباب الفيزيائية للخواص الشافية التي تتصف بها تلك النباتات ، فإن اعتقاده بالصفة الخارقة للطبيعة لتلك الخواص ، يبقى أمراً مرجحاً .

### المرأة في عالم النبات

وكما كان عالم الحيوان في العصور الأولى ، يستحوذ على اهتمام الرجل ، يصطاد

- النباتات الطبية ، تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

طريدته ، ليحصل على اللحم والعظم والجلد ، كذلك كان عالم النبات يستحوذ على اهتمام المرأة وانتباهها ، فمن النبات كانت تأخذ الجذور ، والثمار ، والأعشاب والأوراق النضرة لتكمل بها وجبات الغذاء . ومن حطب النبات كانت توقد النار التي تصطلي بها الأسرة ، وتطبخ عليها طعامها . ومن ألياف النبات ، كانت تصنع الحصر والحبال ، والسلال . ومن النبات أيضاً كانت تستخلص المواد ذوات الخصائص العجيبة ، التي تشفي الأمراض وتخفف الآلام .

وكما أن ملاحظة الإنسان الأول ، لبعض النباتات والحبوب الصالحة للأكل ، ومبادرته إلى زرعها قد أدت إلى نمو وتطور زراعة المواد الغذائية ، كذلك أدت ملاحظة « الشامان — رجل الطب » وملاحظة « المرأة الحكيمة » لطبيعة المرض من جهة ، وخواص الأعشاب الطبية من جهة أخرى ، إلى نمو وتطور الكثير من المعالجات ، التي انتقلت بعد تجربتها ، من جيل إلى جيل .

### المعارف الطبية في بابل وآشور

وإن المعارف الطبية ، التي نشأت في مصر القديمة ، انتشرت بصورة خاصة في بلاد ما بين النهرين ، ولقد تمكن الدكتور « ريجنالد كامبل تومبسون » المدير المساعد للمتحف البريطاني تمكن عام ١٩٢٤ ، من معرفة وتحديد هوية ٢٥٠ نباتاً ومعدناً ، وعناصر مختلفة أخرى ، استعملها أطباء بابل في وصفاتهم ، وأفادوا من خصائصها العلاجية . ونخص بالذكر منها نبات السيدة الحسنة ، « بلادونا » لمعالجة التشنجات والسعال والربو القصبي . ولقد ورد ذكر القنب الهندي في ألواح بلاد الرافدين ، وكان البابليون يعرفون خصائصه المسكنة للألم ، ويصفونه لمعالجة الأرق والروماتيزم . كما وجدت بين آلاف الألواح الفخارية المكتوبة بالخط المسماري ، والتي كانت تحتويها مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى وجدت وثائق تذكر ١٥٠ نباتاً طبيياً .

### في مصر القديمة

#### بردية إبيرز

#### أقدم مخطوطة مصرية تبحث في المداواة بالأعشاب

عندما عرف الإنسان الكتابة ، وظهرت إلى الوجود طبقة الكتاب والأدباء ، بدأت المعرفة العلمية للحشائش الطبية وخواصها الدوائية تثبت أقدامها . وفي هذا المضمار نجد أن

مصر القديمة، التي اكتسبت شهرة واسعة في مجال الطب والمداواة بالأعشاب تركت لنا أهم الوثائق، ومن أقدم المخطوطات المصرية التي تبحث في المداواة بالأعشاب بردية «إبيرز». ففي عام ١٨٧٣، عثر عالم الآثار المصرية الألماني، جورج إبيرز، على مدرج ضخم، من ورق البردي. وبعد أن فك رموز المقدمة، دهش لهذه الجملة التي جاءت في مقدمتها: «هنا يبدأ السفر المتعلق بصنع العقاقير المفيدة من أجل مداواة كل أجزاء الجسم البشري». وكان ذلك قبل ألفي عام من ظهور أطباء اليونان الأوائل الذين ورثوا عن المعارف الطبية المصرية والبابلية الشيء الكثير. ولقد تبين أن هذا المخطوط هو أول كتاب طبي مصري عرفه العلماء، وهو يتضمن جزءاً خاصاً بمعالجة الأمراض الباطنية وجدولاً مثيراً، يعدد الكثير من العقاقير. كما أن بردية إبيرز هذه والتي يعود تاريخها إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد<sup>(١)</sup>، تأتي أيضاً على ذكر مراجع في خارج أرض مصر. وكان التوافق الصريح بين ما ورد في المخطوطات الطبية وما جاء في مخطوطات الأعشاب في تلك الأزمنة القديمة، أمراً مدهشاً حقاً، وكان بعضها مشتركاً بين المجموعتين المصرية والآشورية، أي ورد ذكره في الألواح الآشورية كما ورد ذكره أيضاً في بردية «إبيرز».

واليوم يمكننا القول، إن الطب المصري كان موجوداً قبل ظهور أطباء اليونان الأوائل بألفي عام، وكان هذا الطب يقوم على أسس من المعارف والتجارب، غير المرتبطة بالمعتقدات الدينية. ولقد تبين أن وصفتين طببتين، من وصفات بردية إبيرز، تعودان إلى عهد السلالة الملكية السادسة؛ أي إلى ٢٤٠٠ عام قبل الميلاد.

### في قصر فرعون أطباء واختصاصيون

ونحن اليوم، نعلم أن قصر فرعون، في عصر الامبراطورية المصرية القديمة كان يضم هيئة من الأطباء، بينهم اختصاصيون بأمراض الأسنان، واختصاصيون بأمراض العيون. وبعد ذلك بحوالي ألفي عام، أي سنة ٤٥٠ قبل الميلاد، قال المؤرخ الشهير هيرودوت «أن كل طبيب في مصر، لا يداوي إلا مرضاً واحداً».

### وفي معبد أدفو: مدرسة طبية وبستان للنباتات الشافية

وفي الحقة ذاتها تقريباً، أنشأت في معبد أدفو مدرسة طبية، وبستان لزراعة النباتات الشافية. ومن جملة النباتات، التي كان قدماء المصريين يكثرون من استعمالها نذكر:

(١) تذكر مراجع أخرى أقدم عهداً تعود إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

- النباتات الطبية ، تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

La Cardamome	حب الهال	La Genièvre	العرعر
Le Cumin	الكمون	La Caloquinte	الخنظل
L'ail	الثوم	Le Grenadier	الجلنار
La Feuille de séné	ورقة السنامكي	La Graine de lin	بزر كتان
Le Lis	السوسن	Le Fenouil	الشمرة
Le Ricin	الخروع	L'érable	القيقب

وهناك نقش بارز بين آثار مصر القديمة ، يعود إلى عهد أخيتاتون يمثل نباتاً طبيّاً لعب دوراً رئيسياً في دستور أدوية القرون الوسطى وهو نبات الماندراغورا (اللفاح) . وكان قدماء المصريين ، يعرفون كذلك خصائص الخشخاش المسكنة للألم ، والذي كانوا يستعملونه في تركيب « الدواء الخاص بمعالجة الصراخ المديد ، غير الطبيعي » .

## بعض المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ

### نباتات شافية ، ونباتات مخدرة ، ونباتات سامة

\* كان البدائيون القدماء ، إلى جانب استعمالهم للأعشاب الطبية ، يلجؤون إلى صنوف المخدرات ، والمنومات والمسكنات المستخلصة منها . فلقد تمكنوا من الكشف المبكر للخصائص النافعة للسموم ، ولخصائصها المميّة أيضاً : عرفوا « الإيبىكاوانا » ، السم الأمازوني ، وذو الخاصّة المقيّة ؛ كما عرفوا « الكورار » سم السهام أيضاً ، الذي يميّت بشل العضلات ، والذي أصبح في عصرنا الحاضر ، واحداً من أهم العقاقير المساعدة في فن التخدير والجراحة . وعرفوا نبات الماندراغورا ، أو اللفاح ، (ويسمى أيضاً تفاح الجن) ، وهو مثل آخر لنبات اشتهرت خصائصه المختلفة ، عند أقوام عديدة ، تفصلها عن بعضها المسافات الشاسعة . له جذور رئيسية وتدية ، ذات فرعين يشبهان ساق الإنسان ، ويعطيان النبات هذا شكل شخص من خشب .

### قصص وأساطير

إن اكتشاف الإنسان للخواص النافعة أو الضارة التي تتصف بها النباتات ، له جذور قديمة وعميقة . وهو بلا ريب ثمرة سلسلة طويلة من التجارب والأخطاء والتحرّيات الأولى الخطرة لمصادر تلك النباتات .



في هذه التحريات يلعب الدور الهام أمران أساسيان .  
**الأول :** مراقبة الإنسان لآثار التهام الحيوان لتلك النباتات .  
**الثاني :** مراقبة تأثيرها على الإنسان نفسه .

### شجرة البن العربي

مثال ذلك شجرة البن العربي البرية ، فلقد قيل إن بعض رجال الدين في الشرق القديم ، لاحظوا تأثير تلك الشجرة المنبه والمنشط ، على الحيوانات العاشبة التي تقتات بها ، مما دعاهم إلى التفكير باستعمالها والاستفادة من تأثيرها ، كي ينعموا بالسهر الطويل وبحالة من اليقظة تساعدهم في ممارستهم لطقوسهم الدينية . وفي أمريكا الجنوبية ، يروي السكان رواية محلية ، مفادها أن خواص نبات الكينا المقوية للبدن ، والخافضة للحرارة ، اكتشفها صدفة رجل هندي ، عندما شرب من ماء تجمع تحت إحدى أشجار الكينا التي سقطت أوراقها منها ونقعت في ذلك الماء .

تقول رواية أخرى إن ملاحظة بعض الحيوانات التي تعاني من الحمى ، والتي حالها الحظ فقضمت من لحاء شجرة الكينا ، أن تلك الملاحظة ساعدت في اكتشاف المنافع الشافية لذلك النبات .

هذه الروايات عملت على ظهور هيكل مشترك للكثير من القصص الأسطورية التي تتعلق باكتشاف الخواص الطبية للنبات ، ذلك الاكتشاف الذي كثيراً ما كان يعزى إلى تدخل إلهي .

### نبات الجنسن

ففي الصين عزى اكتشاف نبات « الجنسن Panax Ginseng » إلى امرأة شابة عاقر هددها رجلها بالطلاق ؛ وفي إحدى الليالي ، بينما كانت غارقة في النوم ظهر لها في الحلم إله العمرين ، ونصحها بالذهاب إلى الحقل ونيش جذور نبات الجنسن من باطن الأرض ، وعلمها كيف تصنع من تلك الجذور نقيعاً ، ففعلت ما أملاه عليها الإله ثم شربت من النقيع فحملت ثم ولدت ابناً ذكراً .

وإن الحقبة المديدة ، التي أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية والتي يسميها المؤرخون القرون الوسطى لم تكن عصر تطور علمي سريع ، لأن مجالات العلم ، والسحر ، والشعوذة اختلط بعضها ببعض ، وأخذ الناس ينظرون إلى عدد من العقاقير ، كالجوسكيام الأسود والبلادونا ( السيدة الحسنة ) ، والماندراغورا ( اللقاح ) ، على أنها نباتات من منشأ شيطاني .

## نبات الماندراغورا — جان دارك الساحرة

وفي القرون الوسطى أيضاً ، كان الناس يعتقدون أن نبات الماندراغورا ، الذي يشبه شكل جذره شكل الإنسان ، يستمد قدرته من الله عز وجل ، كونه بعناية في ذات الأرض التي كون فيها جسد آدم ؛ من أجل ذلك اعتبر الإنسان هذا النبات سيد كل النباتات . ولقد عزت الأساطير الشعبية ، إلى هذا النبات ، خصائص حيوانية ، فقالت إنه يزق ويصيح ، إذا ما اقتلع من جذوره وقالت إن أي إنسان يسمع صياحه ، لا بد أن يصاب بالجنون ؛ وقالت إن له تأثير السحر . وكان الاعتقاد السائد ، أن هذا النبات مقول للشهوة الجنسية ويشفي من العقم .

وكان المصريون القدماء يعتقدون أن اللقاح هذا ، هبة خاصة ، وهبهم إياها رع « إله الشمس » . وهناك بين آثارهم ، نقش بارز ، من عهد أخناتون ، يمثل هذا النبات العجيب . وإذا مارجعنا إلى كتاب العهد القديم ( التوراة ) ، وقرأنا ما جاء فيه ، في سفر التكوين ( الأصحاح الثلاثون رقم ١٤ ) تبين لنا أن « راحيل » ، عندما طلبت إلى أختها « لية » أن تأتيها بنبات اللقاح هذا ، كانت تبغي من وراء ذلك معالجة عقمها ، والقدرة على الإنجاب ، وكانت « راحيل » على جانب من الحكمة إذ أرادت من استعماله أن يساعدها أثناء الوضع أيضاً ، بخصائصه المنومة والمخدرة الحقيقية .

وفي القرن التاسع استعمل « ديسكوريدس » هذا النبات ، كمخدر لإجراء العمليات الجراحية . وهذا النبات يذكرنا بمأساة الفتاة الفرنسية جان دارك ، التي اهتمتها محكمة إكليريكية بأنها ساحرة وبأنها عذبت الإنكليز باستخدامها القدرة الشيطانية والسحرية لجذر نبات الماندراغورا ، الذي كان مخبأ تحت درعها ، وحكموا عليها بالموت حرقاً .

## كليوباترة والماندراغورا

وفي روايته « أنطونيو ، وكليوباترة » ، أشاد شكسبير بالخصائص المنومة لهذا النبات عندما أنشد على لسان كليوباترة ، التي قالت : « اسقوني من شراب الماندراغورا ، علني أنام فأمضي بذلك هذا الزمن الطويل ، الذي غاب فيه حبيبي أنطونيو بعيداً عني » .

وواقع الحال ، أن لكل شعب من الشعوب ، في كل مكان وعبر كل زمان ، منوماته الخاصة كالأفيون ، والحشيش ( من القنب الهندي ) ، والكوكا ، وكثير غيرها ، كما أن هنالك نباتات طبية محلية نجدها في أصقاع مختلفة من العالم <sup>(١)</sup>

(١) ومن المفيد أن نذكر هنا قول أبقراط ، منذ ٤٥٠ عام « ليكن غذاؤك دواؤك » . وقوله أيضاً : « عالجوا كل مريض بنبات أرضه ، فهو أجلب لشفاؤه » .

## أهمية الجذور

ونلاحظ هنا الأهمية الخاصة التي كثيراً ما تعطى لجذور تلك النباتات، لأنها تعتبر المقر المختار والمفضل لخواص النباتات السحرية أو الشافية. وكان الأقدمون يرون أن الجذور تشارك العنصر الأرضي، وأنها تقع في السطح الفاصل بين العناصر، بين ما هو حي منها، وما هو ليس بحي، مما أكسب الجذور قدرات مميزة.

ولقد عزا البعض، الفضائل الشافية للنباتات إلى علاقات كونية، تخيلوها بين عناصر الكون الحية، وعناصره غير الحية.

وهكذا نجد أن التاريخ القديم للنباتات الشافية، مزيج من الاختبار والتخيل ومن المادة والفكر؛ وهو تاريخ علم لا يمكن فصله عن تاريخ علم النباتات بشكل عام؛ وأن علم النبات بقي زمناً طويلاً من اختصاص الشفاة (المداوين الشعبيين)، والأطباء والعطارين معاً. ومهما يكن من أمر، فمن الخطأ الظن بأن القرون الوسطى فقدت كلياً المعارف التي اكتسبتها خلال الآلاف الماضية من السنين.

## الرهبان والمعارف القديمة

احتفظ الرهبان، بفضل معرفتهم اللغتين اللاتينية والإغريقية، احتفظوا بمعارف العصور القديمة، وكانت أديرتهم تتفاخر ببساتينها الخاصة بالأعشاب الطبية، حيث كانت تنمو النباتات المستعملة في معالجة المرضى.

## في مصر وآسية الصغرى

وفي مصر، وفي آسية الصغرى، أنشأ الكتبة مجموعة معارف، في مجالي الطب، والداواة بالأعشاب، وكانت تلك المعارف متبادلة بين البلدان المتجاورة، انتشرت فيها، وانتقلت من حضارة إلى حضارة.

## في بلاد فارس

ففي القرن الأول من عصرنا الحالي ظهر في بلاد فارس سفر «الونداهشن» الزردشتي، وكان ما احتواه هذا السفر من بحث في الأعشاب مستوحى من الدراسات البابلية.

## في الهند

وكانت الهند القديمة تحتفظ بمعرفة واسعة وقديمة جداً في علم نباتات الشفاء، وكانت

- النباتات الطبية ، تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

مصادر الكتابات «الفيدية» شهيرة، وتعود إلى ما لا يقل عن ألفي سنة قبل الميلاد، وإن كتاب السوسروتا — سامهيتا، الذي يعدد ٧٠٠ نبات طبي تم تأليفه في عهد غوتاما البوذا، مؤسس المذهب البوذي؛ أي في مطلع القرن السادس قبل الميلاد.

### في الصين

وفي الصين، ظهرت في عام ٥٠٠ قبل الميلاد مخطوطة «بن تشاو» بسلسلتها الطويلة؛ وفي عام ٦٥٩ ميلادي صدر دستور الأدوية الصيني، وهو أول وثيقة من نوعها في العالم، أعلن عنها بمرسوم امبراطوري.

### في أمريكا الاستوائية

وفي العصر ما قبل الكولومبي، ظهرت في دول أمريكا الاستوائية دساتير للأدوية النباتية «علمية». وفي الحقائق الملكية للنباتات الطبية، التي اكتشفها الغزاة الاسبان في المكسيك، في عهد قبائل الأزتيك عام ١٥٧٠ ميلادية، قام الطبيب «فرانسيكو مارتينيز Francisco Martinez» باستخدام عدد من تلك النباتات الطبية في معالجة المرضى، وقام بدراسة خصائصها ومنافعها. وبعد الغزو الاسباني لفترة وجيزة، كتب عدد من الأمريكان الهنود الذين اعتنقوا النصرانية، كتبوا مخطوطات ومنها مخطوطة «مارتان دولاكروز Martin de la Cruz» التي تعدد وتصف حوالي ٢٠٠ نبتة طبية.



## الفصل الثالث عشر



ثورة في الهلال الخصيب  
تجارة التوابل والمستحضرات الطبية في بلاد الشام

- ثورة في الهلال الخصيب .
- أول حضارة في التاريخ .
- نشأة الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والشرائع والحرف المكتوب .
- ظهور مدرسة الفلاسفة وعلماء الطبيعة .
- دور العلماء السوريين .
- أبحاث ابن سينا وابن زهر وابن البيطار .
- مدرسة مونبيلييه ، وعلاقتها مع الشرق ومع الأندلس .
- تجارة التوابل والمستحضرات الطبية في بلاد الشام .
- النباتات التي أدخلها العرب إلى أوربة .
- اللغات الفرنسية والاسبانية والإيطالية اقتبست من العربية العديد من أسماء نباتاتها .

# ثورة في ليل الخصب تجارة التوابل والمستحضرات الطبية في بلاد الشام النباتات التي أدخلها العرب إلى أوروبا

## أول حضارة في التاريخ

منذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، بزغت على العالم شمس حضارة فريدة ومبدعة، هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة وشاملة وفذة، هي حضارة الشرق الأدنى. من هذه الحضارة، ومن شقيقتها حضارة مصر، استمدت أوربية وأمريكا ثقافتها على مدى القرون، عن طريق كريت، واليونان والرومان. يقول ديورانت إن الآريين، لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بابل ومصر، وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشأً، لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل والمتلاف لذخيرة من العلم والفن مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف من السنين، جاءت إلى مدائنهم مع مغامرات الحرب والتجارة. ولقد كان من الطبيعي أن يركز الغرب في نهضته على أسس الحضارة اليونانية، التي كانت أحد أجزاء المثلث الحضاري المتوسطي، الهلال الخصيب ومصر واليونان. وكان الجزء اليوناني يحتزن، بالتفاعل، بعض عناصر الحضارة القديمة، لا كلها.

## حضارة بدأت تستعيد حقوقها

ومن المفيد القول، إن هالة القدسية التي كلال بها الغرب اليونان وروما، بدأت تزول من العقول؛ وأخذت منطقة الشرق الأدنى، وقلبها النابض الهلال الخصيب، تستعيد حقوقها الحضارية على يد بعض قضاة الفكر الإنساني العادلين. يقول ديورانت أيضاً: «فإذا ما درسنا الشرق الأدنى، وعظمنا شأنه، فإننا إنما نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد».

## الهلال الخصيب دائرة التقاء قاري — حضاري

ولنعد إلى البداية فهلال الشرق الأدنى، الخصيب، يمسك قارات ثلاث يمد إليها



شرايين الحضارة ويفاعلها ؛ ومن حوله الحواجز المائية من المتوسط إلى البحر الأحمر إلى الخليج العربي ، يخرقها بإبداعه ، ويحوّلها إلى ممرات اتصال وتفاعل ، محققاً بذلك عالماً متوسطياً رائداً .

هذا الهلال الخصيب ، يشكل نقطة جذب ، ودائرة التقاء قاري هائل . وهو ممر إجباري ، وممرح للصدامات التاريخية ، تنجذب إليه ، مشدودة « بسحره الشرقي الخلاب » ، النزوحات البشرية المتعطشة إلى التحضر والعمران ، كما تنهال عليه القطعان البشرية ، كالجوارح ، بهدف التوسع والعدوان .

### نشأة الزراعة والتجارية والصناعة والشرائع والحرف المكتوب

على أرض هذا الهلال ، وعلى أرض مصر المجاورة له ، على هذا المسرح الحضاري الآهل بالسكان ، والغني بالثقافات المختلفة ، نشأت الزراعة ، والتجارة ، والحيل ، وعليه أيضاً نشأت الصناعات والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة ، والطب ، والهندسة ، والفلك ، وهندسة البناء ، وأقنية الري ، والتقويم ، والساعات ، وصدرت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية ، والكتابة واخترع الحبر والورق ، وكتبت الكتب ، وشيدت المدارس والمكتبات ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت ، وصنع الخزف المطلي المصقول ، والأثاث الجميل ؛ كما نشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج ، واستخدمت الحلي ، وأدهان التجميل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمر ، وولدت الآلهة ، والأساطير .

### حضارة استمد منها الغرب ثقافته

على هذا المسرح الحضاري عرفت هذه الأشياء كلها ومنه انتشرت ، وتوزعت على العالم القديم بأسره ، عبر السفن والحروب ، والحرف المكتوب . ومن هذه الأشياء كلها استمد الغرب ثقافته على مدى القرون .

وإنه بفضل موقعه الجغرافي الفريد ، في قلب العالم القديم ، وبفضل امتياز بيئته ، ومزايا مجتمعه الثقافية والعمرانية والعسكرية المتفوقة ، كان الهلال الخصيب ، يشكل المنصة الحضارية المشرفة على العالم العربي ، وعلى العالم القديم المعروف آنذاك .

### أحداث ملأت الدنيا

من ممالك سومر ، إلى دولة سرجون الأكادي ، إلى دولة حمورابي ، إلى دولة الآشوريين ،

## • ثورة في الهلال الخصيب

إلى الامبراطورية الفينيقية (الكنعانية)، إلى الدولة البابلية الجديدة، إلى الدولة الأموية، فالدولة العباسية، نرى الأحداث تملأ الدنيا.

وإن من يتأمل المراحل المصيرية المستمرة، في أرض الهلال الخصيب، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ليعجب كيف تمكن هذا المجتمع الحضاري من أن يستهلك كل الأحداث الجائحة والمدمرة، التي تالتت على أرضه ويبقى حياً وخلاقاً، ومتجدداً. يغذي العالم بأعظم ما في تراثه من قيم وفضائل ومفاهيم إنسانية راقية ورفيعة.

## تحولات تاريخية في حياة الإنسان

إذن في هذا الهلال الخصيب، وفي البلدان المجاورة له تفجرت ثورة عظيمة حين طرأت على حياة الإنسان تحولات تاريخية تقنية واقتصادية واجتماعية، في منطقة الشرق الأدنى؛ وكانت أوربة القديمة وخاصة منها أوربة الشرق متوسطة، أول من أفاد من نتائج تلك الثورة بسبب قربها من آسية الصغرى.

## ظهور مدرسة الفلاسفة وعلماء الطبيعة

وفي القسم الايوني من البحر الأبيض المتوسط لعب تبادل المعرفة المرتكزة على قاعدة من الخبرة الشعبية بالنباتات الشافية، لعب دوراً بالغ الأهمية. وفي غضون الألف الأول قبل الميلاد، خلقت التحولات الاقتصادية والاجتماعية وماتبها من تقدم تقني، خلقت حركة فكرية قوية ظهرت بعدها مدرسة الفلاسفة وعلماء الطبيعة الايونيين، الذين أدت تساؤلاتهم العقلانية عن الطبيعة وغاياتها وظواهرها إلى إرساء أسس «التاريخ الطبيعي» الذي ظهر فيما بعد.

## أبحاث أرسطو

فأرسطو، ذو الفكر الكوني، بحث في التاريخ الطبيعي كما بحث في علم النبات. وفي سنيد، وكوس، وفي المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطاليا، نشأت مدارس طبية، وظهرت نظرية الـ «إيزونوميا L'Isonomia» التي تقول بأن الصحة الجيدة ترجع إلى التوازن بين الحار والبارد؛ وصنفوا الأدوية والأغذية فيما بعد إلى حارة وباردة؛ وبذلك بدأت تتكون مجموعة المعارف الطبية التي نسبت إلى «أبقراط» مدينة كوس (٤٦٠ — ٣٧٠ ق.م). وفي هذه المجموعة ورد ذكر ٢٣٠ نباتاً من نباتات الشفاء؛ وورد فيها، لكل داء من الأدواء، وصف لدواء نباتي خاص به. ولقد هيمنت هذه المجموعة زمناً طويلاً على الطب الأوربي.

### ديوكليس ، وكراتيوس وديسكوريدس

وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام الطبيب الأثيني «ديوكليس دوكاريستوس» ، بتصنيف مصادر الحشائش الإغريقية . وبعد ذلك بقرنين ، جاء إغريقي آخر يدعى «كراتيوس» ليكمل تصنيف «ديوكليس» . ولقد أفاد من هذا التصنيف مؤلفان من علماء القرن الأول ميلادي وهما «بلين لانسيان» صاحب كتاب «التاريخ الطبيعى» ، والطبيب الإغريقي ديسكوريدس مؤلف كتاب المادة الطبية : «Materia Medica» . وفي هذا الكتاب عدد ديسكوريدس أكثر من ٥٠٠ عقار ، من منشأ نباتي أو معدني أو حيواني .

### جالينوس

وفي القرن الثاني ميلادي ، أتى طبيب إغريقي آخر ، يدعى جالينوس ، الذي درس الطب في مدرسة معبد إيسكولاب في بيرغام ، فدون مجموعة تضم كل هذه المعارف العلمية في فن الشفاء ، ذكر فيها أكثر من ٤٥٠ نوعاً من النباتات الطبية ؛ وكان يؤكد على ضرورة أن يكون كل طبيب مزوداً بمعرفة قوية عن النباتات والأعشاب . ولقد استمرت تعاليمه الطبية ، شأنها في ذلك شأن تعاليم أبقرط ، استمرت مهيمنة زمناً طويلاً ، واقترن اسمه بما يسمى حتى اليوم ، بعلم الصيدلة الغالينية ، التي بموجبها ، تقوم المواد الحالة ، كالكحول والماء والخل ، بتكثيف الجواهر المؤثرة للعقار ، تلك الجواهر التي تستعمل في تحضير ، المراهم ، واللبخات ، وغير ذلك من الأشكال الغالينية .

### في روما

وكان لإسهام روما في تطوير المعارف الطبية ، ضعيفاً ، وذلك لأنها كانت تعتمد على المعارف العلاجية الآتية من الخارج ولا سيما ، الإغريقية والمصرية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الكنيسة عائقاً بين الباحثين ، وبين الدراسات المستندة إلى العقل والتجربة . وهكذا بقيت أوربة طويلاً غارقة في التكرار الممل لآراء ، بعضها صحيح وبعضها الآخر غير صحيح ، وردت في مؤلفات أساتذة الطب والمداواة بالأعشاب الأقدمين .

### في الشرق الأدنى

أما الشرق الأدنى ، فكانت تسود فيه روح الاستقلال من جهة ، وسعي التجار

- ثورة في الهلال الخصيب

السوريين سعيًا حثيثاً إلى المعرفة من جهة ثانية، مما ساعد، في القرنين الرابع والخامس للميلاد، على بعث الاهتمام بالنهج العلمي الإغريقي. وامتدت الحركة العلمية هذه إلى بلاد فارس.

### دور العلماء السوريين — ابن سينا

وبفضل العلماء السوريين، تم في مدرسة «جنديسابور» تبادل وتفاعل الآراء والأفكار العلاجية الإغريقية والفارسية والهندية، وقام الخلفاء العباسيون باستدعاء العلماء النساطرة إلى بغداد؛ وهكذا استطاع الطب العربي أن ينهل المعرفة الطبية والمعرفة العلاجية من منابع مختلفة، وأن يغني تلك المعارف بمكتشفاته الخاصة به. وفي القرن العاشر للميلاد ذكر ابن سينا ٦٥٠ نباتاً طبياً، وفي هذا زيادة ملحوظة إذا ما قورن بمجموعتي «ديسكوريدس»، و«جالينوس».

### يوناني، وعربي، ويهودي، وساليري

كانت تجارة الأعشاب الطبية تمارس في الغالب من الأحيان، في الأديرة المجهزة بيساتين خاصة بتلك الأعشاب وبمكتبات غنية بوثائقها الطبية القديمة، التي كانت تنسخ مرات ومرات من قبل رهبان مختصين. وكان دير «مونت كاسان» الواقع بين روما وناپولي، أحد أديرة القرون الوسطى الكبيرة والغنية بالوثائق الطبية ووثائق المداواة بالأعشاب. وأهمية هذا الدير هي أنه كان على علاقات وثيقة مع المدرسة الطبية التي أنشأت في مدينة «ساليرن» في القرن التاسع الميلادي. وكانت تلك العلاقات استثناءً رائعاً، في زمن كانت العلوم الطبية في أوربة تعاني من الركود. وهنالك أسطورة (رواية) تقول إن مدرسة «ساليرن» الطبية، تضافرت من أجل إنشائها جهود أطباء أربعة: يوناني، وعربي، ويهودي، وساليري. ولقد بقيت تلك المدرسة طيلة ثلاثة قرون، مركزاً هاماً لتطور الطب وتقدمه.

### الكنيسة: المرض عقاب من الله — أبحاث ابن سينا

وفي القرون الوسطى كان الاعتقاد الذي فرضته الكنيسة، بأن المرض عقاب من الله، عائقاً كبيراً أمام تقدم المعرفة الطبية. ومع كل هذا كان هنالك تجديد في بعض الأرجاء، ولا سيما في مدينة ساليرن؛ وعلماء مدرسة ساليرن هذه، هم الذين أفادوا من

أبحاث علماء العرب أمثال ابن سينا، وابن زهر، وابن البيطار، وعرفوا الغرب بمؤلفاتهم، وبالعديد من مؤلفات أطباء اليونان. وكانوا يكتبون أبحاثاً في الطب رصينة ومبينة على العقل والتجربة، دونت بعناية وبلغة سهلة؛ مثال ذلك كتاب «سيركا أنستاتس»، الذي ظهر عام ١٦٥٠م، ويذكر ٢٢٩ علاجاً نباتياً، بينها علاجات مستجدة، أخذت عن الطب العربي، ذلك الطب الذي دخل اسبانيا مع الفتح العربي وازدهر فيها. وفي القرن الثالث عشر أدخل ابن البيطار الطبيب العربي (المالقي) ٢٠٠ نبات على لائحة «العقاقير الطبية».

### مدرسة مونبيلييه وعلاقتها مع الشرق والأندلس

وفي مراحل لاحقة بدأت المعارف الطبية المستقاة من الكتب، ترسخ أقدامها، وأخذ تيار الملاحظة، والاختبار، والإبداع، الذي شقت له الطريق مدرسة ساليرن الطبية، أخذ يشتد ويقوى. ومنذ القرن الحادي عشر، سارت مدرسة مونبيلييه الطبية على هذا النهج، فاكتمت بذلك شهرة واسعة. وإنه بفضل العلاقات التجارية التي كانت مدينة مونبيلييه تقيمها مع الشرق من جهة ومع الأندلس العربية من جهة أخرى، أفادت من علم الكيمياء العربي الذي كان وراء التطور والتقدم الرائعين في العلوم الطبية.

ثم ظهرت في أوربة صورة العالم السويسري المُثيرة «باراسيلز Paracels» (١٤٩٣ — ١٥٤١)، الذي استخدم على نطاق واسع عملية التقطير للدخول إلى روح وخالصة الأدوية النباتية.

### نباتات تحمل دلائلها

وفي مطلع عصر النهضة انتشرت نظرية الأعشاب ذوات «الإمضاءات» أو ذوات «الدلائل» تقول إن النباتات الشافية تحمل بإرادة من الله عزَّ وجل، إشارات، وعلامات ترشد الإنسان إلى فضائلها ومنافعها العلاجية، فاجوز مثلاً الذي يذكرنا شكله وتلافيفه بشكل وتلافيف دماغ الإنسان، ينفع في معالجة الاضطرابات العقلية، والنباتات ذوات الزئبر أو تلك التي لجذعها أو جذورها شكل الشعر، تفيد في مداواة سقوط الأشعار.

### اكتشاف الطباعة أسهم في انتشار علم النباتات الطبية

وفي القرن الخامس عشر، ساعد اكتشاف الطباعة على الانتشار المتزايد لعلم الأعشاب الطبية، كما ساعد اكتشاف العالم الجديد على انتشار عقاقير نباتية جديدة،

كالكيثا وعرق الذهب والـ Gaiaac ، وغيرها . وهكذا تضافرت الاكتشافات ، والتحريات والاتصالات البشرية ، وعملت على زيادة مخزون المواد الأولية ، ذات المنشأ النباتي ، زيادة كبيرة . وأخذت تظهر فيما بعد ، قواعد علمية متخصصة ، لدفع عملية دراسة الطبيعة ، من حيث أوجهها المختلفة وغاياتها ، وظواهرها .

## تجارة التوابل والاستحضرات الطبية

### في بلاد الشام

#### الإغريق والرومان والفرس ، وتوابل الشرق وعطوره

لتجارة التوابل والمنتجات الطبية ، في بلاد الشام ، تاريخ قديم فمنذ أن أدت فتوحات الاسكندر الكبير ، إلى اتصال شعوب الغرب بأقاصي بلاد الشرق ، أصبحت المنتجات الآتية من تلك البلدان البعيدة ، من مستلزمات الحياة عند الإغريق والرومان ، إذ كان هؤلاء يضيفون التوابل إلى أطعمتهم ، ليحسنوا من مذاقها ، كما أنهم كانوا يتعطرون ، ويبالغون في استعمال العطور ، لذلك كان استيراد التوابل والعطور ، يمثل واحداً من أكبر اهتمامات التجار في ذلك الزمان .

ونحن نعلم ، أن الفرس ، في عهد بني ساسان ، كانوا أكثر الشعوب شغفاً بمنتجات الشرق . كما أن جيش بيزنطة ، الذي كان يقوده هرقل ، عندما دحر الفرس الساسانيين ، واستولى على أحد قصورهم ، ( قصر الدايتاجرد ) عام ٦٢٧ ، وجد في هذا القصر كميات كبيرة من الحرير ، والتوابل ، ومنها ، الفلفل ، والجنزبيل والصبرة والعنبر ، وخشب الـ Agalliche ... إلخ . مستوردة من الهند ، وكذلك العرب عندما استولوا على « المدائن » ( Ctésiphon ) ، عاصمة ملوك بني ساسان ، غنموا المسك ، والعنبر ، والكافور ، وخشب الصندل .

#### الطرق البحرية والنهرية والبرية — مدينة الرقة وتجارة الحرير

وكانت هذه البضائع تصل إلى مرافئ البحر الأبيض المتوسط ، وإلى مرافئ البحر الأسود عبر طرق اتبعت منذ القدم ، أما عن طريق البحر الأحمر ، والخليج العربي ، أو عن طريق آسية الوسطى ، وإن الطريق البحرية المؤدية إلى الخليج العربي ، تهمننا بشكل خاص ،

لأنها في القرون الوسطى، وحتى القرن التاسع عشر، كانت تساعد على تدفق المنتجات الأجنبية على سورية، القديمة.

فمن البصرة وبغداد، كانت هذه الطريق تسير صاعدة في مجرى الفرات الصالح للملاحة، تحفها على طول الشاطئ طريق ثانية للقوافل، وعلى هذه الطريق يذكر الجغرافيون العرب محطتين هامتين الرقة وبالس (مسكنة). أولى هاتين المدينتين (والتي سماها الرومان كاللينيكوم)، كانت أحد المراكز الحدودية التي يؤمها الرومان لشراء الحرير من الفرس؛ ولقد عرفت، في عهد العباسيين، عصراً من الازدهار، بفضل العلاقات التي كانت تقيمها مع دمشق والموصل وديار بكر.

### مدينة بالس — حلب وأنطاكية

وعلى مسيرة يومين من الرقة، تقع (بالس) والتي سماها أحد الجغرافيين، «مرفأ السوريين» بدليل أن السوريين، كانوا في القرن العاشر، ينطلقون بتجارهم من هذا المركز. وعلى مسيرة يومين إلى الغرب من (بالس)، تقع مدينة حلب. المركز التجاري الكبير، للشمال السوري، وبوابة أنطاكية، وإليها يتجه التجار. وقبل الحملات الصليبية، كانت التجارة بين حلب وأنطاكية، نشطة ومزدهرة، كما يؤكد كمال الدين، مؤرخ حلب، الذي يذكر نصوص اتفاق تجاري تم بين البيزنطيين، أسياد أنطاكية آنذاك، وبين أمير حلب، اتفاق يضمن أمن وسلامة القوافل التي بين المدينتين. ومن جملة الأصناف الوارد ذكرها في ذلك الاتفاق، نجد التوابل.

### تجار البندقية وبيزا وجنوى وتجارة التوابل والحرير والبروكار

وبعد تأسيس دويلات الصليبيين، وبدءاً من القرن الثالث عشر، أخذ تجار البندقية وبيزا، وجنوى، يفدون إلى الشرق، للإتجار بالأقمشة الحريرية، والتوابل، وأقمشة البروكار الذهبية.

وكان البيزنطيون المتمركزون آنذاك... في أنطاكية حوالي العام ١٢٠٠ يقيمون تجارتهم داخل البلاد، وكانوا يصلون بها حتى حلب. وفي الحقبة ذاتها، كان البندقيون، يرمون اتفاقيات تجارية مختلفة، مع أمير حلب. وفي عام ١٢٠٨، بنى غياث الدين الظاهر ابن صلاح الدين، بنى للبندقيين، في حلب، فندقاً «Fondaco»، وحماماً، وكنيسة؛ ومنحهم امتيازات جمركية هامة.

## • ثورة في الهلال الخصيب

وفي العهد العثماني، احتفظت حلب بمكانة تجارية مرموقة؛ وإننا نملك وصفاً، ذكره في القرن الثامن عشر، الرحالة « راسل Russel » للدور الهام، الذي شهده بنفسه، والذي تلعبه في حلب المتاجرة بالمنتجات الواردة من الهند. يقول راسل: « التجار كثر في حلب. بعضهم سافر، وهو في سن الشباب، حتى وصل بغداد، أو البصرة، وأحياناً الهند. وفي سن متقدمة، كانوا يرافقون من وقت لآخر، القوافل التي تحمل بضائعها إلى العاصمة استنبول. ويقول رحالة آخر، هو « فولني Volney »: « من حلب، تنطلق القوافل إلى بغداد، والبصرة، وإلى بلاد فارس، وهي على اتصال أيضاً بمصر، عن طريق دمشق، وبأوربة، عن طريق اسكندرون واللاذقية ».

ومن جملة المنتجات الطبيعية هذه، والتي كانوا قديماً، يطلقون عليها اسماً عاماً هو « التوابل »، يحسن بنا، أن نذكر:

الصبرة	Aloès	الجنزبيل	Gingembre	الشبه	Alun
العنبر	L'ambre	البلسم	Le Baume	الكافور	Camphre
خشب الصندل	Le bois de santal	القرفة	Cannelle	الهيل	Cardamome
القرنفل	Clous de Girofle	النيلة	L'indigo	البخور	Le benjoin
اللبان	Oliban	المسك	Musc	الفلفل	Poivre
الخولنجان	Galanga				

## بلاد الشام لم تزل سوقاً هامة للتوابل والأعشاب الطبية

وإذا كانت التبدلات الجغرافية والسياسية التي حدثت في القرن العشرين قد عزلت مدن بلاد الشام، عن طريق التموين التقليدية تلك، التي كانت تؤمن التوابل، والأعشاب الطبية، عبر الخليج العربي، إلا أنها لم تزل تعتبر، السوق الهامة، لهذا النوع من المنتجات، التي يستعملها البعض في مجال الطهي، ويستعملها البعض الآخر، في مجال الطب التقليدي.

## النباتات التي أدخلها العرب إلى أوربة

عندما عظمتم الامبراطورية العربية، واتسعت رقعتها، فامتدت من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، أمكن للعرب أن يلعبوا دوراً هاماً في نقل عناصر الحضارة المادية والثقافية إلى



أوربة، المجاورة لأحد أطراف تلك الامبراطورية. ولقد أضاف العرب إلى عناصر تلك الحضارة، المستقلة من معارف يونانية وهندية وفارسية، أضافوا عناصر عربية صرفة ابتدعها علماءهم، فأغنوا بها حضارة الغرب.

وعلى الصعيد المادي، هنالك جانب حضاري هام، قلما عرفه الناس، يتصل بعملية إدخال العرب للنباتات الغذائية إلى أوربة، فلقد قاموا، في بعض بلدان أوربة، بعملية «أقلمة» لنباتات جديدة، لم يكن الأوروبيون يعرفونها من قبل، مثل نبات الأرز؛ كما أنهم أعادوا إدخال نباتات أخرى، سبق لقدماء الأوروبيين أن عرفوها، ولكن زراعتها أهملت، فتخلفت، ثم تلاشت كلياً، وذلك عقب انهيار الامبراطورية الرومانية.

ويذكر المؤرخون أن النباتات التي ظهرت في أوربة، في أعقاب الفتح العربي لها، والنباتات الأخرى التي عادت إلى الظهور، أدخل العرب بعضها إلى جزيرة صقلية، مثل الفستق الحلبي، والبرتقال، والليمون، والتمر، والتوت، والسماق، وقصب السكر، والبردي والقطن، وأدخلوا البعض الآخر إلى اسبانيا، مثل الأرز، والحرشوف، وقصب السكر والخروب البري، والمشمش، والموز، والقطن، والتمر، والزعفران.

- ١ — شجرة الفستق Le Pistachier : أدخلها العرب إلى أوربة عن طريق جزيرة صقلية.
- ٢ — البرتقال الحلو L'Orange douce : ربما كان الرومان قد عرفوه؟ ولقد تمت أقلمته في شبه جزيرة إيبيريا من قبل العرب، في القرن الرابع عشر.
- ٣ — البرتقال المر L'Orange amère : البرتقال المر، أو النارج، تمت أقلمته في جزيرة صقلية، في فترة الحكم العربي. ولقد تم ذلك، على وجه التحديد، عام ١٠٠٢م.
- ٤ — شجرة الليمون Le Citronnier : نقلها العرب إلى صقلية، وأحد أسمائها Limon ومنه لفظة «الليمونادا» مشتق من الكلمة العربية ليمون.
- ٥ — شجرة النخيل، التمري Le Palmier-dattier : إن وجود شجرة النخيل التمري في اسبانيا وجزيرتي صقلية وساردينيا يعود الفضل فيه إلى العرب.
- ٦ — شجرة التوت Le Murier : إن زراعة التوت ترتبط بصناعة الحرير. ولقد نقل العرب هذه الشجرة إلى جزيرة صقلية.
- ٧ — شجرة السماق Le Sumac إن كلمة Sumac الأجنبية أخذت من الكلمة العربية، السماق؛ وشجرة السماق غنية بمادة العفص؛ ويستعمل مسحوق أوراقها وأزهارها المجففة، في الدباغة والصباغة؛ كما يستخرج منها أيضاً الرنيق، وصمغ اللك.

• ثورة في الهلال الخصيب

- ٨ — قصب السكر La Canne à sucre : أدخله العرب إلى جزيرة صقلية وإلى اسبانيا ثم تراجعت زراعته بعد انتهاء الحكم العربي .
- ٩ — البردي Le Papyrus : ينمو نبات البردي في جزيرة صقلية ، وقد يكون العرب هم الذين أدخلوا زراعته إلى تلك الجزيرة .
- ١٠ — نبات الخُرشوف L'Artichaut : العرب هم الذين أدخلوا زراعته إلى اسبانيا .
- ١١ — شجرة الخُروب (أو الخُروب) البري Le Caroubier .  
تُزرع شجرة الخروب في المشرق ، وفي أرض السينينايك Cyrénaique ، وهو الاسم القديم للشمال الشرقي من أرض ليبيا .
- ١٢ — شجرة المِشمِش L'Abricotier : وكلمة Abricot ، اشتقها الفرنجة من الكلمة العربية البرقوق Al Barquq ، ولقد أدخل العرب شجر المشمش إلى حوض المتوسط في مطلع هذا القرن .
- ١٣ — شجرة الموز Le Bananier : والاسم العلمي الفرنسي Musa ، مشتق من العربية . وأغلب الظن ، أن العرب هم الذين أدخلوه إلى اسبانيا .
- ١٤ — الزعفران Le Safran : عرفه الرومان ، واسمه العلمي « سافرانوم Safranum » مشتق من الكلمة الفارسية : زعفر . يزرع من أجل أزهاره ، ومنها يستخرج صبغ أصفر ، ويصلح الزعفران لتبولة بعض الأطعمة ، ويعتقد أن العرب هم الذين أدخلوه إلى اسبانيا .
- ١٥ — الأرز ، الأرز ، الرُز Le Riz : ربما كان الأرز ، النبات الأكثر أهمية من بين النباتات التي أقلمها العرب في أوربة . ولقد كان العالم القديم يعرف الأرز ، بفضل علاقاته التجارية مع الشرق . ولقد وصف ديودور ملك صقلية ، المعاصر لأوغسطوس امبراطور الرومان ، وصف الأرز وصفاً نقله عن القادة الذين رافقوا حملة الاسكندر الكبير إلى الشرق . وفي عهد الامبراطورية الرومانية كان الأرز يستورد من حوض المتوسط ، ولا يزرع . وإنه لمن المرجح أن انتشاره في حوض المتوسط بدأ من دلتا النيل ، التي أدخل العرب إليها زراعته ، ومن هناك نقلوها إلى اسبانيا . وإن الاسم الاسباني Arroz يأتي من العربية . وكلمة الأرز مشتقة أصلاً من اللغة السنسكريتية . وأما الإيطاليون ، فلقد عرفوا زراعة الأرز في القرن الخامس عشر ، حيث زرع في حقول قرب مدينة بيزا في عام ١٤٦٨ ، ويبدو أن زراعته هذه انتشرت في شبه الجزيرة ، آتية من اسبانيا لا من صقلية .

١٦ — شجرة القطن Le Cotonier : إن كلمة Coton : الفرنسية ، مشتقة من الكلمة العربية قطن . والقطن واحد من النباتات التي كان للعرب الدور الهام في انتشارها في أوربة . ولا يعلم بعد ، كم هي أنواع شجيرة القطن ، التي كانت تنمو نمواً عفويًا . وهناك أنواع عدة تزرع ومنها نوع يسمى القطن العربي ، واسمه العلمي *Gossypium Herbaceum* أو قطن الشرق ، وينمو في غربي آسية ، وفي حوض المتوسط ، حيث نشر العرب زراعته فيه . والحقيقة أن زراعة القطن واستعماله ، يعودان إلى أزمان بعيدة جداً . ولقد انتشرا في أماكن مختلفة من العالم ، مستقل بعضهما عن البعض الآخر . مثال ذلك ما اكتشفه الأوربيون ، عندما عبر الأوربيون الأطلسي ، اكتشفوا أن القطن كان يزرع في أمريكا الوسطى ، وفي أمريكا الجنوبية . وفي العالم القديم ، يبدو أن زراعة القطن تمت ، أول ماتمت ، في الهند ، قبل غيرها من البلدان . ولقد أدخل العرب زراعة القطن إلى جزيرة صقلية في القرن التاسع .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن العرب في الجاهلية ، عرفوا القطن ، وكانوا يسمونه الطوط ، زرعوه ولبسوه . فلقد جاء في شعر أمية بن أبي الصلت العنزي ، الثقفي ، الأيادي ، وهو شاعر نصراني ، أدرك الإسلام ؛ جاء في شعر له من قصيدة ، ضاع مطلعها ، وعدد من أبياتها ، فلم يبق منها إلا أبيات متفرقات ، تبرز فكرة الشاعر في الأرض ... قال ، والضمير في « فيها » من الشطر الأول للأرض :

والطوط نزرعه فيها ، فلبسه	والصوف نجتزه ما أدفأ الوبر
هي القرار فما نبغي لها بدلا	ما أرحم الأرض ، إلا أننا كُفِرُ
منها خلقنا ، وكانت أمنا ، خلقت	ونحن أبناؤها ، أو أننا شُكِرُ

١٧ — الحرير ( خيط دودة القز ) La Soie : ويرتبط إنتاجه بانتشار زراعة شجرة التوت . أتى به البيزنطيون من الصين . أما العرب ، فلقد أدخلوا صناعة الحرير إلى اسبانيا في القرن الحادي عشر ، وأما الملك روجيه ، ملك صقلية ، فهو الذي أتى بتلك الصناعة ، من اليونان إلى جزيرته عام ١١٤٨ . ومن صقلية انتقلت صناعة الحرير إلى مدينة البندقية ، التي سيطرت بها فيما بعد على الأسواق الأوربية .

ومن المفيد أخيراً ، القول إن اللغات الثلاثة : الفرنسية والاسبانية والإيطالية اقتبست من اللغة العربية العديد من أسماء النباتات التي أدخلها العرب إلى أوربة ونذكر منها على سبيل المثال :

- ثورة في الهلال الخصيب

- ١ — الزعفران ، واسمه :  
بالفرنسية Sfran ، وبالاسبانية Azafran ، وبالإيطالية Zafferano .
- ٢ — المشمش ، واسمه :  
بالفرنسية Abricot ، وبالاسبانية Albaricoque ، وبالإيطالية Albicocca .
- ٣ — الخروب ، واسمه :  
بالفرنسية Caroube ، وبالاسبانية Algarroba ، وبالإيطالية Carrubo .
- ٤ — الليمون واسمه :  
بالفرنسية Limon (Citron) ، وبالاسبانية Limon ، وبالإيطالية Limone .
- ٥ — القطن ، واسمه :  
بالفرنسية Coton ، وبالاسبانية Algodon ، وبالإيطالية Cotone .
- ٦ — الخرشوف ، واسمه :  
بالفرنسية Artichaut ، وبالاسبانية Alcachofa ، وبالإيطالية Carcifo .



## الفصل الرابع عشر



علم النبات العربي وعلمائه

- ازدهار العلوم والآداب في عهد النهضة العربية .
- غزوات المغول ، وانتهاء الخلافة العباسية .
- ازدهار الحركتين العلمية والأدبية في الأندلس .
- جعفر المتوكل ، واصطفى بن باسيل .
- الخليفة الناصر ، والراهب نيقولا .
- الغافقي .
- الإدريسي .
- الصوري .
- ابن الرومية .
- ابن البيطار .
- تعريف القلقشندي للصيدلية الملحق باليماستان .
- العرب رسموا صوراً لصيدلياتهم ، في عواصم حضارتهم .

# علم النبات العربي وعلماءه

لقد برع العرب في دراسة النبات ، وفي التأليف فيه ، وأخذوا هذا العلم ، في عهد النهضة العباسية ، من كتب الهند ، ومن مؤلفات الطبيب اليوناني ديسكوريدس<sup>(١)</sup> . وفي عهد النهضة تلك ازدهرت وتألقت العلوم والآداب والفنون ، وعاشت بغداد عصرها الذهبي . ثم جاء خطر المغول منذ أوائل القرن السابع للهجرة ، ليحرق بالخلافة العباسية ويهددها . فلقد غزا المغول أرض فارس بقيادة جنكيزخان ، واستولوا على بخارى وسمرقند وبلخ ، حوالي عام (٦١٦ - ٦١٧ هـ / ١٢١٩ - ١٢٢٠ م) ؛ ثم أخذت نواياهم تتجه نحو غزو العراق ، الذي اجتاحتته جيوشهم ، بعد معارك مختلفة ، مرت بين كر وفر ، إلى أن بلغوا تخوم بغداد ، عام (٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) ، ليحاصروها ويضربوها بالمناجيق . فكان أن سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وعاشت العراق آنئذٍ أحلك أيامها ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء الخلافة العباسية .

في تلك الحقبة من التاريخ العربي ، أخذت حالة العلم ، والعلماء ، هي أيضاً تعيش أحلك أوقاتها ؛ وأخذت شعلة الحضارة العربية والإسلامية تعصف بها رياح الحروب والانقسامات ، إلى أن خبت مع استيلاء المغول على بغداد . أما في الأندلس فإن الحركتين العلمية والأدبية ، كانتا في أوج الازدهار والتقدم ، منذ بدء الحكم العربي ، الإسلامي فيها ، وخاصة في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الأموي . ولكن هاتين الحركتين ، سرعان ما أصابهما الضعف ، مع تقب حكام الدول على الأندلس ، إلى أن سقطت في أيدي الفرنجة عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م . قلنا إن العرب أخذوا علم النبات ، في عهد النهضة العباسية من كتب الهند ، ومن

(١) ديسكوريدس : طبيب يوناني ، ولد في عين زربة في آسية الصغرى ، في القرن الأول بعد الميلاد .



مؤلفات الطبيب اليوناني ديسكوريدس. فمن قصور العباسيين في بغداد، سيرت الرسل مرتين، إلى مدينة جنديسابور، وذلك لاستقدام جورجوس بن جبرائيل، رئيس أطباء مدرسة الطب الشهيرة هناك والمعروفة بالمدرسة الساسانية، ليعالج الخليفة أبي جعفر المنصور، وليحل هو، ومن بعده ابنه بختيشوع، في قصور الخلفاء في بغداد مدينة السلام. ومع آل بختيشوع انتقل التراث الإغريقي، الذي حفظ في مدينة جنديسابور، كما جاء معهم الطبيب الهندي «منكة»، ومواطنه «صالح بن بهلة» الذي أنقذ ابن عم الخليفة هارون الرشيد من براثن الموت. وبواسطة «ابن بهلة» دخلت كتب الطب الهندي إلى قصور الخلفاء.

وكان أعظم اسمين في الطب الهندي هما «سوسروتا» في القرن الخامس قبل الميلاد، و«شاراكا» في القرن الثاني ميلادي، وكانت كتب الهند، وأهمها موسوعتا «سوسروتا» و«شاراكا»، مصدر العرب الأول في العقاقير، ولقد امتاز قدماء الهنود، بمعرفة الحشائش وبرعوا في استخراج خواصها، واشتهروا بمعرفة آثارها في الأبدان.

ولقد ترجم العرب، وكذلك فعل الفرس، إلى لغتيهما، في القرن الثامن للميلاد، موسوعتي «سوسروتا» و«شاراكا» الهنديتين، بعد أن مضى عليهما ألف عام. واعترف الخليفة هارون الرشيد، بالتفوق العلمي، والطبي للهنود؛ واستدعى أطباءهم لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب في بغداد. ويقول اللورد «آمهل» أن أوربة، الوسيطة والحديثة، مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر، وللهند عن طريق العرب.

ولقد كان اهتمام العرب بكتاب ديسكوريدس في الحشائش والأدوية المفردة، أكبر منه بأي كتاب، من كتب النبات اليونانية. عكفوا على دراسته وتمحيصه، فصدرت له عدة ترجمات أشهرها اثنتان: الأولى في بغداد، والثانية في قرطبة.

### جعفر المتوكل

يقول ابن جلجل، في كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسكوريدس»: أن كتاب ديسكوريدس ترجم بمدينة السلام، في الدولة العباسية، في أيام جعفر المتوكل. قام بترجمته من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، اصطف بن باسيل الترجمان، وتصفح الترجمة حنين بن اسحق المترجم، فصححها وأجازها. فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية ما كان له اسم في اللسان العربي، فسره بالعربية، وما لم يعلم له اسماً في اللسان العربي، تركه في الكتاب على اسمه اليوناني.

### الخليفة الناصر

كما أن ابن جلدجل يقول إن كتاب ديسكوريدس ورد من بغداد إلى الأندلس، وهو على ترجمة اصطفن، فانتفع الناس بالمعروف منه، حتى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، صاحب الأندلس، الذي كاتبه أرمانوس امبراطور بيزنطة، ملك قسطنطينية في سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٩م، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم. وكان في جملة هداياه كتاب ديسكوريدس، مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب.

### الراهب نيقولا

وسأل الخليفة الناصر الملك أرمانوس، أن يبعث إليه برجل يتكلم الإغريقية واللاتينية. فبعث أرمانوس، إلى الخليفة براهب كان يسمى نيقولا، الذي وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠ / ٩٥١. وكان في ذلك الوقت، بقرطبة، من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء العقاقير الواردة في الكتاب أو تعيين تركيبها: جسراي بن بشروط الإسرائيلي، وكان أبجثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب من الخليفة الناصر، ومحمد المعروف بالشجار، والبسباسي، وأبو عثمان الجزار، ومحمد بن سعيد الطبيب، وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم، وأبو عبد الله الصقلي، الذي كان يتكلم اليونانية ويعرف تركيب الأدوية.

### ابن جلدجل

ولقد أضاف العرب على الكتاب المترجم، مافات ديسكوريدس أن يذكره. ومن هؤلاء الطبيب الأندلسي ابن جلدجل أبو داود سليمان بن حسان، وكان طبيباً فاضلاً خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب. ألف في سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م. بمدينة قرطبة، في دولة هشام بن الحكم، المؤيد بالله، ألف كتاب «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسكوريدس». ومقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسكوريدس في كتابه، مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به.

### الغافقي

وفي القرن السادس للهجرة، اشتهر أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي، وكان إماماً فاضلاً، وحكيماً عالماً. وكان يعد من الأكابر في الأندلس. وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها. وكتابه في الأدوية المفردة لا

نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه؛ استقصى فيه ما ذكره ديسكوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى؛ ثم ذكر بعد قولهما ما تجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة، فجاء كتابه جامعاً لما قاله الأفاضل في الأدوية المفردة، ودستوراً يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها. ولقد درس الغافقي النباتات الاسبانية والنباتات الإفريقية، ووصفها، ووضع أسماءها بالعربية واللاتينية والبربرية. ووصف في كتابه «الأدوية المفردة» النباتات بأدق وصف، مع ذكر أسمائها باللغات الثلاث. وله أيضاً «كتاب الأعشاب» وهو يحتوي على ٣٨٠ رسماً ملوناً لنباتات وعقاقير متقنة الرسم.

### الإدريسي

واشتهر من علماء القرن السادس الهجري، الشريف الإدريسي، أعظم جغرافي الإسلام، ومن علماء النبات والصيدلة المشهورين. صنف كتباً عدة في النباتات والصيدلة، أكثرها في بلاط البرمو. وهو من الذين اشتركوا بنقل العلوم العربية إلى أوربة بحكم إقامته في صقلية. وله كتاب «الصيدلة»، بدأه بمقدمة عامة في النباتات، تتسم بروح البحث العلمي. ويبدو من خلال كتابه هذا أنه كان كثير الاعتماد على القدماء من الناحية الطبية، إلا أنه كان من ناحية علم النبات، مستقلاً في الرأي كثير الاعتداد بالنفس. وتتم أوصافه للنباتات عن أن معارفه في علم النبات معارف شخصية، خاصة وغزيرة. فقد كان عالماً بقوى الأدوية المفردة ومناخها ومنابتها وأعيانها. وله من الكتب أيضاً كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الجامع لصفات أشات النبات»، ولقد ذكر الأسماء المطابقة للنباتات بلغات مختلفة، بالعربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرية والهندية والكردية والتركية والقشتالية والبربرية والقبطية.

### الصوري

ومن علماء القرن السابع للهجرة، أبو منصور، رشيد الدين ابن الصوري. ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بمدينة صور، في لبنان الجنوبي. نشأ في صور، ثم انتقل عنها، واشتغل بصناعة الطب، وتميز فيها، وأقام في القدس سنتين، وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيها. ولقد اطلع على كثير من خواص الأدوية المفردة، حتى تميز على كثير من أربابها. وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب، في سنة اثنتي عشرة وستائة، لما كان الملك العادل متوجهاً إلى الديار المصرية واستصحبه معه من القدس. ثم

خدم بعده لولده الملك المعظم، وخدم بعده الملك الناصر، ابن الملك المعظم، وبقي معه إلى أن توجه الملك إلى الكرك، وتوجه هو إلى دمشق فأقام فيها. وكان له فيها مجلس يتردد إليه المشتغلون بالصناعة الطبية. ولقد توفي في دمشق، في سنة تسع وثلاثين وستائة.

وكان رشيد الدين ابن الصوري، قد التقى بابن أبي أصيبعة « مؤلف كتاب طبقات الأطباء ». في دمشق، فأهداه تأليفاً له، يحتوي على فوائد ووصايا طبية، فكتب ابن أبي أصيبعة رسالة إليه، يقول:

لعلم رشيد الدين في كل مشهد      منارٌ علا يأتهم كل مهتدي  
أتنتي وصاياهم الحسان التي حوت      بنثر كلام كل فضل منضد  
وجدت بها ما أرتجيهِ وإنني      بها أبداً فيما أحاول مقتدي

ولرشيد الدين الصوري من الكتب كتاب « الأدوية المفردة »، بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه، واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة؛ وذكر أيضاً أدوية اضطلع على معرفتها ومنافعها، لم يذكرها المتقدمون. وكان عند خروجه لدراسة النباتات، في منابها، يستصحب مصوراً، ومعه الأصباغ على اختلافها وتنوعها. فكان يتوجه إلى المواضع التي بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات، يشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه، وأصوله؛ ويصور بحسبها ويحتمد في محاكاتها. ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره؛ ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك؛ ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه وييسه، فيصوره. فيكون النبات الواحد، ظاهراً للناظر إليه في الكتاب، وهو على أنحاء مختلفة لا تمكن رؤيتها في الأرض، متجمعة، في وقت واحد؛ فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين. ولابن الصوري، كتاب « الرد على كتاب التاج للغاوي، في الأدوية المفردة ». وله تعليقات وفوائد ووصايا طبية، كتب بها إلى ابن أبي أصيبعة.

### ابن الرومية

وأبو العباس النبائي، واحد من أولئك العلماء، الذين أدى ازدهار علم النبات والأعشاب في الأندلس، إلى ظهورهم، وتكنيه بعض المصادر التاريخية بـ « ابن الرومية » وهي كنية « كان يكرهها ويقلق لها » كما ذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي.

وُلد أبو العباس النبائي في إشبيلية سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م. وكان واحداً من أعظم علماء الأعشاب في الأندلس؛ بذل جهداً علمياً مكثه من أن يؤلف خمسة كتب في الحشائش والنباتات. كان عالماً طليعة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. كان يعشق المعرفة ويتحرى أسبابها، ويجري وراءها؛ ولذلك لم يلتزم البقاء في مدينته إشبيلية بل قام بطوف في أرجاء الأندلس، من سهل وجبل وبادية وساحل. وقد أتى لسان الدين الخطيب، على ذكره في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، قال إنه دخل غرناطة «غير ما مرة لسماع الحديث، وتحقيق النبات، وفنش عن عيون النبات بجبالها». وقال في حقه أيضاً: «إنه كان نسيج وحده... وعجبية نوع الإنسان في عصره وما قبله وما بعده، في معرفة النباتات على اختلاف أطوار منابتها حساً ومشاهدة وتحقيقاً».

ولم تكن مطامح أبي العباس العلمية، لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس، بل استنهضت همته للقيام برحلة هي أطول ما أنجزه نبائي عشاب في تاريخ حضارتنا. وإذا كان تلميذه الأندلسي، ضياء الدين بن البيطار المالقي، قد سافر إلى بلاد الأعارقة، وأقصى بلاد الروم، فإن الرحلة العظمى التي حققها أبو العباس كانت أطول مسافة، ولا تقل عنها خطراً.

لقد غادر أبو العباس إشبيلية سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م مجتازاً البحر، إلى العدو المغربية. ومن هناك أخذ يتنقل بين مدن شمال إفريقيا وسواحلها وسهولها وفيافها، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية، مستمعاً إلى ما يخبرونه به من معلومات عندهم التي يعهدونها في مناطقهم ويتفعون بها في غذاء أو دواء، حتى نزل الاسكندرية فالقاهرة، وسار على ضفاف النيل... وهو في ذلك كله يبحث عن النباتات والأعشاب ويتحقق من منافعها.

وبعد مصر، زار أبو العباس الديار المقدسة، ثم توجه إلى الشام والعراق، وأمعن في رحلته حتى إقليم خراسان<sup>(١)</sup> ومضى فيه حتى مدينة «مرو»<sup>(٢)</sup>، التي كانت آنذاك، حاضرة غنية بعلمائها وفقهائها، وكانت مكتباتها تزخر بالكتب والمخطوطات. ولقد مر أبو العباس بمدينة «حران»<sup>(٣)</sup> في رحلته العلمية هذه التي استغرقت عامين،

(١) إقليم خراسان، يقع اليوم في أرض أفغانستان.

(٢) مدينة مرو، تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفيتية.

(٣) مدينة حران، تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم.

وبعض العام، وتمخضت عن تأليفه كتابه الفريد « الرحلة النباتية » الذي فاق فيه نظراءه من العشابين في حرصه على تحليل النباتات؛ أي وصفها وصفاً علمياً، وفي دقته في هذا الوصف .  
وفي الدراسة القيمة التي قام بها الباحث الأستاذ فاضل السباعي ، ونشرتها مجلة التراث العربي ( العدد ٣٠ كانون الثاني — يناير ١٩٨٨ ) ، تلك الدراسة التي استقيننا منها معلوماتنا هذه عن أبي العباس النبائي ، يقول الأستاذ السباعي :

« ولدى رجوعي إلى موسوعة العشاب الأندلسي ابن البيطار ، معاصر أبي العباس وتلميذه ، وقفت فيها على نماذج وافية من علم أبي العباس ، استمدها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » . وما لاحظته في المفردات المئة والاثنتين ، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات من أبي العباس ، أن ما يرد في المفردة الواحدة من المعلومات كان نصيب أبي العباس فيها غالباً هو الأوفى ؛ وأحياناً لم يكن يرد في المفردة إلا ما قاله نباتينا الطلعة وحده ، وهذه أحصيتها فكانت ٣٨ مفردة .

ويتابع الأستاذ السباعي قائلاً « ولكن ما يسترعي الانتباه ويستحق مزيداً من الإعجاب ، هو أن ٦٦ مفردة ، من الـ ١٠٢ قد انفرد عالمنا الإشبيلي بتحليلتها ، فلم يشاركه في ذلك أحد ، وذلك يؤكد تفوقه العلمي على أقرانه من العلماء في المضمار الواحد » .

### ابن البيطار

ونبغ في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نبغ الحكيم العالم ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد النبائي المالقي — نسبة إلى مدينة مالقة في الأندلس ، ويعرف بابن البيطار . ولد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، ويقول بعض المستشرقين أنه ولد سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٧م ، في مدينة مالقة . وتلقى تعليمه في مدينة إشبيلية عام ٦١٧هـ / ١٢١٩م ، على أيدي علمائها : أبي العباس النبائي ، وعبد الله بن صالح ، وغيرهما . وأما وفاته فكانت في مدينة دمشق في شهر شعبان من عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م .

وبعد أن تلقى هذا العالم ، علومه في الأندلس ، اتجه نحو الشرق ماراً ببلدان المغرب العربي ، ليجتمع هناك بالباحثين في علم النبات والمشتغلين به . ومن المغرب ، تابع طريقه فزار آسية الصغرى ماراً بمدينة أنطاكية ، ليصل منها إلى سورية ، ولينتقل بعدها إلى مصر ومن مصر قام برحلات إلى الحجاز ، فغزة ، فالقدس ، في بيروت . وقد سافر إلى بلاد الأغارقة كما يذكر ابن أبي أصيبعة ، وإلى أقصى بلاد الروم ، والتقى بجماعة يعانون فن معرفة النبات ، فأخذ عنهم معرفة نبات كثير .

وأما في مصر فقد اتصل ابن البيطار بالملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، الذي كان يحكم مصر ودمشق. واعتمد الملك الأيوبي على هذا العالم في الأدوية المفردة والحشائش، وجعله رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات في الديار المصرية. ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل بدمشق. وبعد ذلك توجه ابن البيطار إلى القاهرة، ليبقى في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، بن الملك الكامل، وكان حظياً عنده متقدماً في أيامه، فذاع صيته واشتهر شهرة عظيمة.

تقول المستشرق الألمانية زيجريد هونكة، في كتابها: «شمس العرب تشرق على الغرب»: «كان ابن البيطار أعظم عباقرة العرب في علم النبات. ضم في كتابه «الجامع في الأدوية المفردة» شرحاً لألف وأربعمائة نبتة طبية، مع ذكر أسمائها، وطرق استعمالها، وما قد ينوب عنها... ولم يكتف ابن البيطار بتمحيص ودراسة مائة وخمسين مؤلفاً من أبحاث من سبقه من العلماء، الذين اعتمد عليهم في بحوثه، بل انطلق من مدينته الأم، مالقة، بإسبانيا، إلى مراكش وشمالي إفريقيا، ومصر وسورية وآسية الصغرى، بحثاً عن النباتات الطبية، يراها بنفسه، ويتيقن منها فيذكرها في كتابه.

ويقول ابن أبي أصيبعة، صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وتلميذ ابن البيطار، يقول: «كان ابن البيطار أواحد زمانه، وعلامة وقته، في معرفة النبات وتحقيقه واختياره، ومواضع نبتة، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها. سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعابنه في مواضعه. واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وعابن منابته، وتحقق ماهيته؛ وأتقن دراية كتاب ديسكوريدس إتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه، وذلك أنني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسكوريدس وجالينوس فيه، ما يتعجب منه.

وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. ورأيت من حسن عشرته، وكمال مروءته، وطيب أعراقه، وجودة أخلاقه، وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه. ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النباتات في مواضعه، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسكوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه، ودرايته وفهمه، شيئاً كثيراً جداً، وكان أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسكوريدس، وجالينوس والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسكوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صحح في بلاد الروم، ثم يذكر جملة

ما قاله ديسكوريدس من نعته وصفته وأفعاله ، ويذكر أيضاً جملاً من أقوال المتأخرين فيه ، ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته . فكنت أراجع تلك الكتب معه ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها . وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواءً إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسكوريدس وجالينوس ، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة .

ويقول ابن أبي أصيبعة الذي كان كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » أعظم الكتب وأوفاهها في تراجم الأطباء ، من عرب وأعاجم ، يقول في كتاب ابن البيطار « الجامع في الأدوية المفردة » : « لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه » وقال إن ابن البيطار صنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، حين كان مقيماً في مصر .

لقد أسهم ابن البيطار ، في مجالي النبات والصيدلة ، إسهاماً عظيماً ، وذلك باكتشافاته العلمية الهامة سواء عن طريق العثور على نباتات جديدة أثناء تجواله ورحلاته ، ذاكراً خواصها ، وفوائدها الطبية ، أم بالشروح والملاحظات التي دونها ، فيما يتعلق بتخزين النباتات وحفظها ، وتأثير ذلك على المواد الفعالة والمكونات الغذائية الموجودة فيها .

ولقد كانت حصيلة ما ترك ابن البيطار من كتب ومؤلفات دليلاً واضحاً وبرهاناً جلياً على تفوق هذا العالم ونبوغه في مجالات النبات والطب والصيدلة ، مما جعله يرقى إلى مصاف كبار علماء العرب والمسلمين الذين أغنوا المكتبتين العربية والإسلامية ببحوثهم ودراساتهم القيمة .

وخلاصة القول : إن علم النبات والأعشاب عند العرب ازدهر منذ القرن الرابع الهجري ، وشاع التداعي بالحشائش والأعشاب في الأندلس ، على أيدي علماء أندلسيين أمثال ابن جلجل ، والغافقي ، والشريف الإدريسي ، وأبي العباس النبائي ( ابن الرومية ) ، وضياء الدين ابن البيطار ، الذين شملت علومهم واختصاصاتهم ، مجالات النبات والطب والصيدلة ، فكانوا رواداً ، برعوا في معرفة الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ، وافتتخوا الصيدليات العامة في زمن المنصور ؛ كما ألحقوا صيدليات خاصة بالبيمارستانات . وكان للصيدلية رئيس يسمى شيخ صيدلاني البيمارستان . وجعلوا على الصيدلة رئيساً يسمى رئيس العشابين ، ووضعوا كتباً خاصة بتركيب الأدوية أطلقوا عليها اسم الأقربازين .

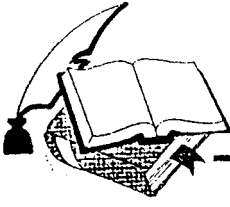
ولقد عرف أبو العباس القلقشندي ( المتوفي سنة ٨١٢ هـ ) ، عرف الصيدلية الملحقة بالبيمارستان على الوجه التالي : « هي الخزانة المعبر عنها في زماننا بالشرابخانة ، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة ، والمربيات الفاخرة ، وأصناف الأدوية ، والعطور الفاخرة ، التي



لا توجد إلا فيها؛ وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينية من الزبادي والبراني، ما لا يقدر عليه سوى الملوك».

ولقد رسم العرب صوراً لصيدلياتهم الخاصة في عواصم حضارتهم، وقد ارتدى الصيدلي ثياباً بيضاء ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء، ومن ورائه الرفوف المملئة بالأدوية والقوارير. وفي إحدى الصور، يرى الصيدلي وهو يشتري بعض الحشائش من أحد العشابين المتجولين الذين كانوا يعرفون مزاي تلك الحشائش الطبية، فيجمعونها أو يستوردونها من الصين والهند وإفريقيا الشرقية، مع ما يستوردونه من صموغ وتوابل وقرنفل، ومسك وكافور، وصندل وعنبر.

وإن الأمل المعقود اليوم على باحثينا، وعلمائنا، في أن يولوا هذه الثروة من العلم والمعرفة، التي خلفها لهم الأجداد، كل اهتمامهم وأن يتفرغوا لدراستها، وشرحها، ونشرها بين أبناء الجيل الحاضر.



## المراجع

### المراجع العربية

- ١ — آبادي، الدكتور نجم،  
« دائرة المعارف » بإدارة فؤاد أفرام البستاني، بيروت، ١٩٦٠.
- ٢ — ابن أبي أصيبعة،  
« عيون الأنباء في طبقات الأطباء »، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥.
- ٣ — ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي،  
« المقدمة »، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨٦.
- ٤ — ابن زهر، أبو مروان عبد الملك بن زهر،  
« كتاب التيسير في المداواة والتدبير »، من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تحقيق المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق،  
تقديم الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام للمنظمة، دار الفكر، دمشق ١٩٨٣.
- ٥ — ابن سينا، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن علي،  
« القانون في الطب »، عن طبعة بولاق، دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ).
- ٦ — ابن سينا،  
« من مؤلفات ابن سينا الطبية »، من منشورات معهد التراث العلمي العربي،  
بجامعة حلب، ومعهد المخطوطات العربية، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون،  
دراسة وتحقيق الدكتور محمد زهير البابا، أستاذ العقاقير وتاريخ الصيدلة في جامعة دمشق.
- ٧ — ابن منقذ، أسامة بن منقذ الكتاني،  
« كتاب الاعتبار »، حرره: الدكتور فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠.

- ٨ — أمين ، أحمد ،  
« ضحى الإسلام » ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٩ — باقر ، طه ،  
« مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » ، بغداد ١٩٥٦ .
- ١٠ — براستد ، الدكتور جيمس هنري ،  
« العصور القديمة » ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١١ — البستاني ، سليمان ،  
« إلباذة هوميروس » ، معربة نظما ، دار المعرفة ، بيروت ( بدون تاريخ ) .
- ١٢ — البستاني ، فؤاد أفرام ،  
« دائرة المعارف » ، بإدارته ، بيروت ١٩٦٠ .
- ١٣ — بوست ، الدكتور جورج ،  
« نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها » ، برخصة مجلس معارف ولاية سورية الجلييلة ، بيروت ١٨٨٤ .
- ١٤ — معهد التراث العربي ،  
« أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب » ، جامعة حلب ١٩٧٧ .
- ١٥ — صليبا ، الدكتور جميل ،  
« دائرة المعارف » بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ١٦ — قنواي ، الدكتور شحاته ،  
« مجلة التراث العربي » ، الذكرى الألفية لابن سينا ، العددان ٦/٥ تشرين الثاني ، ١٩٨١ .
- ١٧ — مذكور ، الدكتور ابراهيم ،  
رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .  
« مجلة التراث العربي » ، الذكرى الألفية لابن سينا ، العددان ٦/٥ تشرين الثاني ، ١٩٨١ .
- ١٨ — معهد التراث العربي ،  
« أبحاث المؤتمر السنوي الخامس لتاريخ العلوم عند العرب » ، جامعة حلب ١٩٨٣ .

- ١٩ — جيار ، الدكتور جول ، والدكتور لويس ريتز ،  
« الطب والتحنيط في عهد الفراعنة » ، تعريب أنطون زكري ، أمين مكتبة المتحف  
المصري ، طبع في عهد الملك فؤاد الأول ، ( بدون تاريخ ) .
- ٢٠ — حافظ ، الدكتورة شادية توفيق ،  
« السريان وتاريخ الطب » ، نهضة مصر ، للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ .
- ٢١ — الدكتور يوسف حتوت ، الدكتور أنور الخطيب ، الدكتور برهان العابد ،  
الدكتور جوزيف كلاس ،  
ندوة حول « الأعشاب الطبية في بلاد الشام » ، مكتبة الأسد ، قاعة المحاضرات ،  
دمشق ، حزيران ١٩٩١ .
- ٢٢ — الخطيب ، حنيفة ،  
« الطب عند العرب » ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٦ .
- ٢٣ — خير الله ، أمين أسعد ،  
« الطب العربي » ، مطبعة الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٦ .
- ٢٤ — ديورانت ، ول ،  
« قصة الحضارة » ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢٥ — الروي ، الدكتور أبو شادي ،  
« محاضرات في تاريخ الطب العربي » ، دار المريح للنشر ، الرياض ، ١٩٨٨ .
- ٢٦ — الزركلي ، خير الدين ،  
« الأعلام » ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠ .
- ٢٧ — السباعي ، فاضل ،  
« أبو العباس النبائي » ، ( ابن الرومية ) ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، كانون الثاني  
١٩٨٨ .
- ٢٨ — سعد ، الدكتور شكري ابراهيم ،  
« النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي » ، مجلة العربي ، الكويت ، تموز ١٩٨٨ .

٢٩ — الشطي ، الدكتور أحمد شوكت ،

« العرب والطب » ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٠ .

٣٠ — شيخو ، لويس ،

« علماء النصرانية في الإسلام » ، المعهد البابوي الشرقي ، روما — إيطاليا ، المكتبة البوليسية ، جونييه — لبنان ١٩٨٣ .

٣١ — الطويل ، الدكتور توفيق ،

« في تراثنا العربي الإسلامي » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، آذار ١٩٨٥ .

٣٢ — العابد ، الدكتور برهان ،

« مختارات من تاريخ الطب » ، مطبعة الاتحاد ، دمشق ١٩٩٠ .

٣٣ — عبد الحلیم ، الدكتورة نبيلة ،

« معالم العصر التاريخي في العراق القديم » ، دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٨٣ .

٣٤ — كريم ، صمويل ،

« من ألواح سومر » ، ترجمة الأستاذ طه باقر ، وتقديم الدكتور أحمد فخري ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، مكتبة المثني ببغداد ، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٥٦ .

٣٥ — كلاس ، الدكتور جوزيف ،

« النباتات الطبية ، تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها » ، مجلة التراث العربي ، ( تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ) ، دمشق ، تموز ١٩٩٣ .

٣٦ — كلاس ، الدكتور جوزيف ،

« علم النبات العربي وعلماءه » ، محاضرة أُلقيت في حلقة العمل الأولى حول : « تصنيع وإنتاج الأدوية النباتية والعشبية في سورية » ، رعاية وزارة الصحة ، ومنظمة الصحة العالمية ، عقدت في برج الفردوس — دمشق ، ٢٣ — ٢٤ أيلول ١٩٩٢ ، وأصدرت وزارة الصحة السورية كتاباً يتضمن أعمال الحلقة .

٣٧ — كمال ، الدكتور حسن ،

« الطب المصري القديم » ، مكتبة متولي ، القاهرة ، ١٩٩١ .

- ٣٨ — كون، كارلتون،  
« قصة الإنسان »، نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، المكتبة  
الأهلية، بغداد ١٩٦٥ .
- ٣٩ — مريدن، الدكتور عزة،  
« دراسات وتأملات في العلم والطب والحياة »، منشورات اتحاد الكتاب العرب،  
دمشق ١٩٨٣ .
- ٤٠ — المعلوف، عيسى اسكندر،  
« تاريخ الطب » عند الأمم القديمة والحديثة، مجلة المعهد الطبي العربي : « الأعداد  
العشرة الأولى »، مطبعة الإصلاح، دمشق ١٩٢٤ .
- ٤١ — مورتكارت، الدكتور أنطون،  
« تموز، عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم »، تعريب وتحقيق الأستاذ توفيق  
سليمان، دمشق ١٩٨٢ .
- ٤٢ — الكتاب المقدس،  
« العهد القديم منه »، المطبعة الأمريكية، بيروت ١٩٢٩ عن طبعة ١٨٩٩ .
- ٤٣ — الميداني، محمد أمين،  
« ابن البيطار »، مجلة التراث العربي، دمشق، تشرين الأول وكانون الثاني،  
١٩٨٦ — ١٩٨٧ .
- ٤٤ — هونكة، الدكتورة زيفريد، (المستشفقة الألمانية)،  
« شمس العرب تشرق على الغرب »، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر،  
بيروت ١٩٦٩ .
- ٤٥ — اليافي، عبد الكريم،  
« مجلة التراث العربي »، الذكرى الألفية لابن سينا، العددان ٦/٥ تشرين الثاني  
١٩٨١ .

## المراجع الأجنبية

1. Barrua, Jacques,  
«Les plantes de la guérison», Histoire, NO.74, Paris 1984.
2. Barandenburg, Dietrich,  
«Islamic Miniature Painting in Medical Manuscripts», Edition. Roches.  
Basle, Switzerland.
3. Calder, Ritchie,  
«Medicine and Man», The New American Library, New York 1958.
4. Dr. Chehade, Abdul-Karim,  
Ibn An-Nafis, Institut francais de Damas, Damas 1955.
5. Emboden , W.A.,  
«Bizarre Plants, Magical, Monstrous, Mythical», London, Studio Vista,  
1974.
6. Gabrieli, Francesco,  
«Histoire et Civilisation de l'Islam en Europe», Imprime a Verone,  
(Italie) en 1983, Edition Francaise: Bordas, Paris 1983.
7. Haddad, Sami I.,  
«Histoire of Arab Medicine», Beirut 1975.
8. Leclerc, Lucien.  
«Histoire de la Medecine Arabe», Leroux, Paris 1876.
9. Le roi, A., Gourhan,  
«The flowers found with Shanidar IV, Neanderthal Burial in Iraq»,  
Science, 190, P.562-564, 1975.
10. Lichten Thaeler Charles,  
«Histoire de la Medecine». Fayard, Paris, 1978.
11. Meschig, R. et Schadewaldt,  
«Trepanation en Afrique Orientale», Hexagone, Roche, 9, NO. 3, 1981.
12. Micheau, Françoise,  
«L'age d'or de la Medecine Arabe», Histoire, Paris, 1985.

13. Morton, A.G.,  
«History of Botanical Science», London and New York, Academic Press, 1981.
14. «L'Heritage de la Culture Arabe»,  
Etude publiee par Parke Davis.
15. «Secrets et Vertu de Plantes Medicinales»,  
Publie par Selection du Reader's Digest, Canada, Montreal, 1985.
16. Rhodes, Philip,  
«An Outline History of Medicine», Butterworths, London-Bostonm 1985.
17. Sangustin Flored,  
«Note sur un Recueil Ancien de Recettes Medicinales», Institut Francais de Damas, Bulletin d'Etudes Orientales, Tome XXXVI, 1984.
18. Sarton, G.,  
«Introduction of the History of Science», Baltimore, 1947.
19. Serres, Michel.  
«Elements d'Histoire des Sciences», Bordas, Paris, 1983.
20. Vintejou, M.  
«Le Miracle arabe», Paris, Charlot, 1950.







## الفهرس

- ٧ ..... الإهداء •  
٩ ..... تقديم •  
٢١ ..... المقدمة •

□ الفصل الأول :

٢٥ ..... قصة الطب في عصور ما قبل التاريخ

□ الفصل الثاني :

٥٥ ..... الطب السومري

□ الفصل الثالث :

الطب البابلي والطب الآشوري

□ الفصل الرابع :

١٠١ ..... الطب الهندي

□ الفصل الخامس :

١١٥ ..... الطب الفارسي

□ الفصل السادس :

١٢٧ ..... الطب الصيني

□ الفصل السابع :

١٤٥ ..... الطب الفرعوني أو الطب عند قدماء المصريين

□ الفصل الثامن :

١٧٩ ..... الطب الإغريقي

□ الفصل التاسع :

٢٠٧ ..... ١ — الطب الروماني

٢٣١ ..... ٢ — المرض والشياطين والقوى الخارقة للطبيعة

٢٤٣ ..... ٣ — الطب الأوربي في العصور الوسطى (عصور الظلام)



□ الفصل العاشر :

الأطباء العرب الذين اشتهروا في أوربة في القرون الوسطى... ٢٥٣

□ الفصل الحادي عشر :

العلم والطب العربيان ، ودور العرب في إحياء الحركة

العلمية في أوربة في القرون الوسطى ..... ٢٩٩

□ الفصل الثاني عشر :

النباتات الطبية ، تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها ..... ٣٢١

□ الفصل الثالث عشر :

ثورة في الهلال الخصيب ..... ٣٣٥

□ الفصل الرابع عشر :

علم النبات العربي وعلماءه ..... ٣٥١

• المراجع العربية ..... ٣٦٣

• المراجع الأجنبية ..... ٣٦٨